جيمس فريزر

الفولكلور
فى العهد القديم (التوراة)

الجُزء الأول

ترجمة

دكتورة نبيلة إبرَاهيم

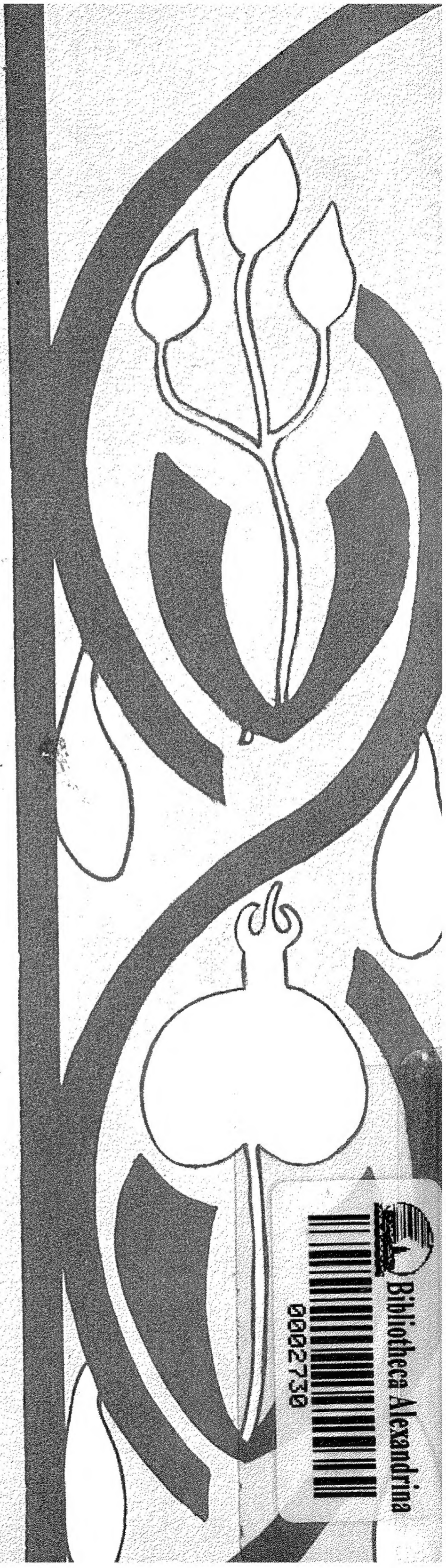

Bibliotheca Alexandrina
0002730

دار المعارف

جيمس فريزر

الفولكلور
في العهد القديم (التوراة)

الجـــزء الأول

ترجمة: د. نبيلة إبراهيم

الطبعة الثانية

دار المعارف

تصميم الغلاف : سوسن احمد

الناشر : دار المعارف ــ ١١١٩ كورنيش النيل ــ القاهرة ــ ج.م.ع

مقدمـــة

يقول فريزر فى مقدمة الطبعة المختصرة لكتاب « الفولكلور فى العهد القـــديم » التى قمنا بترجمتها : « وقد حاولت فى هذا الكتـــاب أن أسير على هدى الدراسات الفولكلورية متعقبـــا بعض معتقـــدات الاسرائيليين القدماء وأنماط سلوكهم الفكرية والعلمية فى المراحـــل الأكثر قدما وفجاجة ، تلك التى تشـــبه ما نجـــده لدى القبائل البدائيـــة التى تعيش حتى اليوم من معتقدات وعادات • واذا كنت قد حققت أى قدر من النجـــاح فى هذه المحاولة ، فانه ســـيكون من الممكن النظـــر الى تاريخ بنى اسرائيـــل فى ضوء أكثر صدقا وان يكن أقل رومانســـية ، بوصـــفهم شعبا لا يميزه الوحى الالهى عن غيره من الشـــعوب الأخرى ذلك التمييز العجيب ، بل شـــعبا تطور كبقية الشعوب من مرحلة بدائية يســـودها الجهل والهجمية ، وذلك عن طريق عملية انتخـــاب طبيعى بطىء » • كما يقول فى خاتمة هذه المقدمة : « ولقد دفعنى الهـــدف من دراستى هذه الى أن أنعـــم فى النظر بصـــفة أساسية فى الجـــانب الأدنى من حياة العبريين القـــدماء كما تتمثـــل فى العهد القديم ، وأن أتتبع آثار الهمجية والخرافة ، تلك الآثار التى تنتشر على صفحاته »••

ولقد نجح فريزر الى حـــد كبير فى تحقيق مأربه ، فكان يضـــع يده على طقوس وعادات قديمة ترد بين ثنايا العهد القديم ، من الممـــكن أن يمر بها القارىء مر الكرام • دون أن يفكر فى مغزاها أو أصلها • ومثال ذلك ما ورد فى سفر التكوين(١)بصدد مقتل هابيل بيدأخيه قابيل: « فقال قابين للـــرب ذنبى أعظم من أن يحتمل ، انك قد طردتنى اليوم عن وجـــه الأرض ومن وجهـــك أختفى وأكون تائها وهاربا فى الأرض ،

---

(١) سفر التكوين ٤ : ١٥ ، ١٦ .

فيكون كل من وجدنى يقتلنى • فقال له الرب ؛ لذلك كل من قتـــل قايين فسبعة أضـــعاف ينتقم منه • وجعـــل الرب لقايين علامة لكى لا يقتله كل من وجده » • وهنا يقف فريزر عند عبـــارة « وجعل الرب لقايين علامة لكى لا يقتله كل من وجده » ويتســـاءل عن كنه هذه العلامة وعن سبب تعليم المـــرب لقابيل بها ، مســـتخدما فى ذلك المنهج المقـــارن الذى تمكن بواســـطته من استجلاء مغزى هذا الفعل ، أعنى مقارنته بعادات مماثلة كانت أو لا تزال تعيش بين الشـــعوب البدائيـــة التى تعيش مرحلة متخلفة من التطـــور الحضارى • ومثال ذلك أيضـــا ما ورد فى قصـــة آدم فى ســـفر التكوين [1] : « وقال الرب الاله هوذا الانسان قد صـــار كواحد منا عارفا الخير والشر • والآن لعله يمد يده ويأخـــذ من شـــجرة الحياة أيضا ويأكل ويحيا الى الأبد • فأخرجه الرب الاله من جنة عدن ليعمـــل الأرض التى أخذ منها • فطرد الانسان وأقام شرقى جنة عدن الكروبيم ولهيب سيف متقلب لحراســـة طـــريق شجرة الحياة » • وهنا يتســـاءل المؤلف عمـــا اذا كان الرب الرحيم الـــذى أسكن آدم وحواء وأنعم عليهما من كل الخيرات ، كان يخشى حقـــا أن يأكل الأبوان الأولان من ثمار شـــجرة الخلد فيصبحا خالدين مثله • وقد دفعه هذا التســـاؤل لأن يتعرض لفكرة الخلود عند الشعوب البدائية وعلاقتها بالحية التى أوقعت آدم وحـــواء فى الخطيئة كما هو مذكـــور فى التوراة • وقد استخلص الكاتب من ذلك كيف أن كاتب الســـفر قد خلط بين قصـــة الخلق الأصلية وبين المعتقدات والتصورات البدائية ، وكان نتيجة هذا الخلط أن نسبت قصة التكوين فى التوراة الى الرب صفات لا تليق بوحدانيته وألوهيته ••

وبهذا استطاع فريزر من خلال القراءة المتفحصة للتوراة ، ومن خلال تخصصه العميق فى علم الأنثروبولوجيا ؛ أن يحصى ما فى التوراة

---

(١) سفر التكوين ٣ : ٢٢ الى ٢٤ .

من تقـــاليد وعادات وتصورات بدائية ، وأن يقـــوم بتحليلها وفحصها واستبيان كنهها عن طريق المنهج الأنثروبولوجى المقارن •

وربما حق لنـــا أن نتســـاءل بعـــد ذلك عن سبب احتفاظ الدين اليهودي بهذه الكثرة اللافتة من المعتقدات والطقوس القديمة • فالواقع أن الدين اليهودى هو أول الأديان الســـماوية • واذا كان الدين المسيحى قد جـــاء من بعده ثم الدين الاســـلامى ، ممن المفـــروض أن الدين الجـــديد لا يأتى لتغيير جـــوهر دين ســـماوى سبقه ، اللهم الا اذا كان الناس أنفســـهم قد غيروا هذا الجوهر ، وانما يأتى الدين الجـــديد لتأكيد الدين الذى سبقه من ناحية ، ولسن تشريعات جـــديدة أو توضيح وتفصـــيل بعض ما أوجزه الدين الســـابق من ناحية أخرى • ومعنى هذا أن الدين الســـماوى برىء مما تضمنته التـــوراة من معتقـــدلت وتصورات بدائية ، وأن هذه المعتقدات والتصورات أقحمت على التوراة اقحـــاما •• —

واذا كان فريزر قد اســـتطاع أن يبرز ما فى التوراة من بقـــليا معتقدلت وديلنات قديمة ، ففى وسعنا الآن أن نشير الى مدى تأثـــير هذه المعتقدات والديانات على الدين المســـماوى وفقا لمفهومه الواسع ، أو بتعبير آخر فاننا نشير الى مدى ما ألحقته هذه المعتقدلت والديانات بالدين السماوى من تشويه ••

ان الأديان الســـماوية تهدف أولا وقبل كل شىء الى القضـــاء على عبادة الأوثان بشتى مظاهرها ، كما أنهـــا تهدف الى السمو بمرتبة الأنبيـــاء وتقدير صـــفاتهم التى تســـمو فى مجملها فوق صفات البشر العاديين بوصفهم قادة لهم ونماذج بشرية يحتذى بهـــا • وهى تهدف كذلك الى تنزيه الخـــالق سبحانه عن كل الصفات الانســـانية • فاذا نظرنا الى التوراة فى ضوء ما أوضحه فريزر ، فاننا نجد أن الدين اليهودى

على هذا النحـــو تكتنفه بعض مظـــاهر عبـــادة الأوثان ، فقد قدس أنبياؤهم بعض الأشجار وبصفة خاصـــة شـــجرة البلوط كما أشـــار المؤلف الى ذلك ، وكمـــا استشهدنا على ذلك بكثير من نصـــوص التوراة فى المكان المناسب من الترجمـــة • وكان يعقـــوب قد رأى فى رؤيـــاه حجرا انتصب فوقه ســـلم أخذت الملائكة تصعد وتهبط عليه ، فلمـــا استيقظ نصب الحجـــر وصب فوقه الزيت وعـــده مقدســـا ، ومنذئذ أصبح الحجر مقدســـا لدى العبريين القدماء • ولم يثق ابراهيم بعهد الرب فى أن أرض الميعـــاد ستكون له ولقومه من بعـــده ، الا بعد أن أدى الطقوس القديمة التى كان النـــاس يتبعونها عندما يتعـــــاهد طرفان عـــلى أمر من الأمـــور ، فتذبح ذبيحة وتشـــطر ثم يمر بين شطريها الطرفان المتعاهدان • « وقال له أنا الرب الذى أخرجك من أور الكلدانيين ليعطيك هذه الأرض لترثها • فقال أيهـــا السيد الرب بمـــاذا أعلم أنى أرثهـــا • فقال له خـــذ عجلة ثلاثية وعنزة ثلاثية وكبشـــا ثلاثيا ويمامة وحمامة • فأخذ هذه كلها وشقها من الوســـط وجعـــل شـــق كل واحد مقـــابل صاحبه وأما الطير فلم يشقه • فنزلت الجوارح على الجثث وكان أبرام يزجرها ، ولما صارت الشمس الى المغيب وقع على أبرام سبات واذا رعبة مظلمة عظيمة واقعة عليه • فقال لأبرام اعلم يقينا أن نسلك سيكون غريبا فى أرض ليست لهم ويستبعدون لهم فيذلونهم أربعمائة سنة ، ثم الأمة التى يستعبدون لها أنا أدينهـــا ••• ثم غابت الشمس فصارت العتمة ، واذا تنور دخـــان ومصـــباح نار يجـــوز بين القطع • فى ذلك اليوم قطع الرب مع أبرام ميثاقا قائلا ، لنســـلك أعطى هـــذه الأرض بين نهـــر مصر الى النهـــر الكبير نهر الفرات » [1] • ولعلنا نلاحظ فى هذه الأمثلة وغيرها أن اليهودى كان يســـعى دائما لأن يكون بينه وبين الرب وســـاطة حسية تعد من وجهة نظره مقدســـة قداســـة الرب ، فالبلوطـــة مقدسة والحجر مقدس

---

(١) سفر التكوين ١٥ : من ٧ الى ١٨ .

والذبيحة المشطورة التى يمر الرب بين شطريها فى شكل دخان مقدسة كذلك • وعلى هذا النحـــو تتمثـــل قوة شمشون فيما يســـــتمده من آلاله من قوة ، بل كانت قوته مستكنة فى خصلات شعره التى لم تقص قط منذ نعومة أظفاره • فلمـــا قصت خصـــلات شعره ، فقـــد شمشون قوته وخارت قواه ولم يعد بعد شمشون الجبار •

فاذا انتقلنا الى تصوير التوراة للأنبياء فاننا نقرأ عجبا • ويكفى أن تكون شخصية يعقوب على هذا النحو الذى صـــورته التوراة من الخـــداع والغش والحيلة والمكر حتى يمكننا أن نضـــع أيدينـــا على الصفات المستحبة عند الرجل اليهودى • فيعقوب فى التوراة رجل مادى ذكى لبق • وقد استطاع بهذه الصـــفات أن يخفى ما به من صـــفات لا انسانية مثـــل الخداع والغش والمكر • ولم تكتف التوراة بتصوير يعقوب على هذا النحو الكريه عندما خدع أخاه عيسو ، بل عادت فأكدت له هذه الصفات فى معاملته لخاله لابان • فقد كان يعقـــوب ينوى أن يسلب الجزء الأكبر من قطيع خـــاله لابان وأن يرحـــل به سرا مـــع بناته اللاتى كان قد تزوج بهن وخـــدم خاله مقـــابل ذلك عدة سنين نمى له فيهـــا قطعانه وأغنامه • ولننظر الآن الى الحيلة التى عمـــد اليها يعقوب فى سبيل اتمام هذا الغرض كما تصورها التوراة• فقد اتفق يعقوب مـــع خاله أن يأخذ لنفسه كل الغنم المخطط والمرقط ويأخذ خاله الغنم الأســـود • ووافق الخـــال على ذلك ، لأن الغنم المخطط والمرقط لم يكن كثيرا • « ثم أخذ يعقوب لنفســـه قضبانا خضرا من لبنى ولوز ودلب ، وقشر فيها خطوطا بيضاء كاشطا عن البياض الـــذى على القضبان ، وأوقف القضبان التى قشرها فى الأجران فى مســـاقى الماء حيث كانت الغنم تجىء لتشرب •• فتوحمت الغنم عند القضبان وولدت الغنم مخططات ورقطا وبلقا وأفرز يعقوب الخرفان•• وجعل له قطعانا وحـــده ولم يجعلها مع غنم لابان • وحـــدث كلما توحمت الغنم القوية أن وضع يعقوب القضبان أمام عيون الغنم فى الأجران لتتوحم بين القضبان •• وحين استضعفت الغنم لم يضعها • فصارت الضـــعيفة للابان والقوية ليعقوب • فاتسع الرجل كثيرا جدا وكان له غنم كثير

وجوار وعبيد وجمال وحمير » • ثم جاء الى زوجتيه وقال لهما : « قد سلب الله مواشى أبيكما وأعطانى » • وبهذا « خدع يعقوب قلب لابان الآرامى اذ لم يخبره بأنه هارب » [1] ••

ولم يكن صموئيل أقل حيلة ومكرا من يعقوب • فعندما ثار الشعب اليهودي ضد الحكم الكهنوتى ونادى بأن يحكمهم ملك دنيوى ، عين صموئيل الماك شاءول ملكا على بنى اسرائيل بتفويض من الرب كما تذكر التوراة • وقد وقع اختيار صموئيل على شاءول بصفة خاصة لأنه كان يود أن يكون الملك الجديد خاضعا لسطوته • وعلى الرغم مما كان يتمتع به شاءول من هيبة وجلال أكسباه حب الشعب اياه ، فانه كان فى الوقت نفسه يتميز بجانب ضعيف فى شخصيته أدراكه صموئيل كل الادراك قبل أن يقع اختياره عليه • ولكن عندما بدأ صموئيل يشعر بأن شاءول قد أخـذ يستقل عنه ، وأن الشعب أخـذ يتجمع من حـوله ، أسرع وبحث عن مناوىء له متمثلا فى داود • واستطاع داود أن يجمع من حوله زمرة من بنى اسرائيل ، وبذلك دب الخلاف بينه وبين شاءول • ولم يكن فى استطاعة شاءول فى هذه الحالة وهو الانسان المرهف الحس، أن يقود الجيش ضد الفلسطينيين • لما كان صموئيل قد مات فى ذلك الوقت ، فقد فزع شاءول الى قبره لعله يعينه فى مأزقه • واستطاعت ساحرة عين دور أن تستحضر له روح صـموئيل • فصرخ به شـبح صموئيل قائلا : « لماذا أقلقتنى باصعادك اياى • فقال شـاءول ، قد ضاق بى الأمر جـدا ، الفلسطينيون يحاربوننى والرب فارقنى ولم يعد يجيبنى لا بالأنبياء ولا بالأحلام ، فدعوتك لكى تعلمنى ماذا أصنع • فقال صموئيل ، ولماذا تسألنى والرب قد فارقك وصار عدوك ، وقد فعل الرب لنفسه كما تكلم عن يدي • وقد شق الرب المملكة من يدك وأعطاها لقريبك داود لأنك لم تسمع لصوت الرب » [2] •

---

(١) سفر التكوين ٣٠ : من ٢٧ الى ٤٣ .
(٢) سفر صموئيل الأول ٢٨ : ١٥ الى ١٨ .

والواقع أن من يقرأ سفر صموئيل لا يرى أن شـــاءول قد ارتكب اثما فى حق الرب أو فى حق صموئيل • فقـــد كان صموئيل قـــد أمره بمحاربة شعب العماليق وقال له : « ولا تشف عنهم بل اقتلهم رجـــلا وامرأة ، طفلا ورضيعا » • فامتثل شـــاءول لأوامره وقبض على أجاج ملك العماليق وأحضره الى صموئيل حيا • ولـــكن الشـــعب اليهودى استحل لنفسه ذبح بعض الغنائم مثل خيـــار الغنم والبقر • فلما تهدده صموئيل قائلا : « لماذا لم تســـمع لصـــوت الرب بل ثرت على الغنيمة وعملت الشر فى عينى الرب » تحـــداه شـــاءول قائلا : « انى قد سمعت لصوت الرب وذهبت فى الطريق الذى أرسلنى فيها الرب وأتيت بأجاج ملك عماليق •• فأخذ الشعب من الغنيمة غنما وبقرا أوائل الحرام لأجل الذبح للرب الهك » • واذا كان صموئيل قـــد عين شـــاءول ملكا عـــلى الشعب اليهودى بتفويض من الرب كما يتضح من قوله : « اياى أرسل الرب لمسحك ملكا على شعبه اسرائيل » ، فانه عاد وعبر عن حقده عليه فى خاتمة تجربته معه فقال : « والرب ندم لأنه ملك شـــاءول عـــلى اسرائيل » [1] ••

فاذا انتقلنا بعد ذلك الى طريقة تشخيص التوراة للرب ، فاننـــا نجد فى هذا التشخيص أثر المعتقدات والتصورات القديمة من ناحية ، كما نلاحظ من ناحية أخرى عدم مقدرة اليهودى على الســـمو بالخالق وتنزيهه عن الصفات البشرية • فقد ظهر الرب ليعقوب فى صورة انسان أمسك يعقوب بتلابيبه حتى لا ينفلت منه الا بعد أن يبـــاركه ويبـــارك قومه ، وكأنه لم يكن ليحصل على بركة الرب الا على هذا النحو « • فبقى يعقوب وحده وصارعه انسان حتى طلوع الفجر • ولما رأى أنه لا يقدر عليه ضرب حق فخذه ، فانخلع فخذ يعقوب فى مصارعته معه وقال أطلقنى لأنه قد طلع الفجر • فقال له لا أطلقك ان لم تباركنى • فقال له

---

(١) انظر سفر صموئيل الاول الاصحاح الخامس عشر والسادس عشر •

ما اسمك ؟ فقال يعقوب • فقال لا يدعى اسمك فيما بعـــد يعقوب بل اسرائيل لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت • وسأل يعقوب وقال أخبرنى باسمك فقال لماذا تسأل عن اسمى ، وباركه هناك » (١) ••

واذا كان الرب قد صور فى التوراة على هيئة انسانية ، فلا عجب أنهـــا خلعت عليه صـــفات انسانية ، بل صفات غير محببة الى النفس البشرية • فقد طرد الرب آدم وحواء وفقا لقصـــة التـــوراة ، لا لمجرد مخالفتهما للمحظور الذى حذرهما منه الرب ، ولكن لأنهما سلباه صفة كان يود أن يستبقيها لنفسه دون البشر وهى معرفة الخير والشر • ومن ثم فقد أسرع الرب فى طردهما من الجنة قبل أن يتمكنا من أن يسلباه صفات الهية أخرى وبصـــفة خاصة صفة الخلود ، وذلك اذا ما تهورا وأكلا من الشجرة الثانية المحرمة وهى شجرة الحياة • « وقال الرب الاله هوذا الانسان قد صار كواحد منا عارفا الخير والشر • والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضا ويأكل ويحيا الى الأبد • فأخرجه الرب الاله من جنـــة عدن ليعمل الأرض التى أخـــذ منها » • بل أن الرب ظل يخشى من أن يسطو الانسان على شجرة الخلد خلسة ولذلك فقد جعل « لهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة » (٢) ••

وربمـــا كان هـــذا المجـــال مناســـبا لأن نقارن ما رواه القرآن بما روته التـــوراة فيمـــا يختص بالقصص الدينى الذى تعرض فريزر لبحثه فى هـــذا الكتاب ، حتى نلقى بذلك مزيدا من الضـــوء على مدى ما اعترض القصص الدينى فى التوراة من تحرير وتغيير ••

قال تعالى فى سورة البقرة : « وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجتك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هـــذه الشجرة فتـــكونا من الظالمين • فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا

---

(١) سفر التكوين ٣٢ : من ٢٤ الى ٢٩ .
(٢) سفر التكوين ٣ : من ٢٢ الى ٢٤ .

بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع الى حين • » كما قال تعالى فى سورة طه : « فوسوس اليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى • فأكلا منها فبـــدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى • » فهذه الآيات تقدم الخطوط الأساسية لقصة آدم وحواء منذ أن خلقا فى الجنـــة الى أن أخرجا منها • فبعد أن خلق الله آدم وحواء أمرهما ألا يأكلا من شجرة ما فى الجنة ، فلما عصيا أمره أخرهما الله من الجنـــة وجعلهما يهبطان الى الأرض ليعيشا فيها هما ونسلهما من بعد حياة غير خالدة • فالمسألة هنا تتعلق بتحريم وعصيان لهذا التحريم ، أو هى بتعبير آخر اختيـــار لطبيعة الجنس البشرى ، تلك الطبيعة التى لازمت الانسان منـــذ بدء الخليقة حتى اليوم ، وهى التى تتمثل فى ضعفه أمام قوة الاغراء المادى • واذا كان هذا هو هدف القصـــة ، فاننا نجـــد أن القرآن قد نحا الى التجريد الذى هو من أخص خصـــائص القرآن الـــكريم • ومن ثم فان القصة لم تصـــور لنا كيف استطاع الشـــيطان أن يقتحم عالم آدم فى الجنـــة ، كما أنها لم تصـــف الشـــجرة التى حرمت عليه • واذا كانت الشجرة قد وصفت بأنها شجرة الخلد على لسان الشيطان ، فانما كان هذا على سبيل اغراء الشيطان لآدم بالأكل منها •

ولما كانت قصة آدم فى القرآن قد عرضـــت على هـــذه الصـــورة التجريدية ، فقد كان من الطبيعى أن يخوض المفسرون فى تفصـــيلاتها ، وأن يتركوا العنان لخيالهم لكى يصوروا كيف خلق الله آدم، بل الطريقة التى أحضر بها الطين من الأرض ، وطبيعة الشجرة التى نهى الله آدم عن أكل ثمرها [1] ••

ومن المفسرين من يقف موقف الحذر ازاء هذه التفصـــيلات حيث ان القرآن لم يتعرض لها فى شىء • ومن ذلك ما ذكره الطبرى معلقا على

---

(١) انظر تفسير الطبرى جـ ١ من ص ١٥٣ الى ١٨١ (ط • دار المعارف) •

آراء المفسرين الذين خاضوا فى وصف الشجره المحـرمة ، فقـال : « ولا علم عندنا بأى شجرة كانت على التعيين لأن الله لم يضع لعباده دليلا على ذلك فى القرآن أو فى السنه الصحيحة • فأنى يأتى ذلك من أتى ، وقد قيل كانت شجرة البر ، وقيل كانت شجرة العنب ، وقيـل كانت شجرة التين وجائز أن تكون واحدة منها » (١) ••

ومن المعروف أن تفسير القرآن قـد تعـرض لتـأثير ما سـمى بالاسرائيليات • واذا كانت قصة الخلق فى التوراة لقد ذكرت غواية الحية لحواء ، فان هذا التصوير لم يكن بعيدا عن أذهان المسلمين الذين حاولوا أن يوفقوا بينه وبين ما ذكره القرآن الكريم من غواية الشيطان لآدم وحواء معا • ومن ثم فقد صور الخيال الشعبى الشيطان وقد دخل فى جوف حية حتى يصل الى الجنة التى كان قد طرد منها من قبـل • واذا كانت التـوراة قد لعنت الحية على لسان الرب عندما قال لهـا « ملعونة أنت من جميع البهائم ومن جميع وحوش البرية ، على بطنك تسعين وترابا تأكلين كل أيام حياتك » (٢) • فان هذه الصـورة قد انتقلت بدورها الى التفسير ، فصورت الحية قبل أن تحل بها اللعنـة بأنها كانت لها قوائم كقوائم الجمل • فلما حلت بها اللعنة ، فقـدت قوائمها وأصبحت تزحف على بطنها •

فاذا انتقلنا بعـد ذلك الى قصـة التوراة ، فاننا نفاجأ أول الأمر بأن القصة تنحو الى تشخيص الرب على نحو انسانى • فهو يتمشى فى الجنة فى المساء الرطب ، وهو ينادى آدم الذى اختبأ وراء الشـجر ، ولم يكن يعرف آنذاك أنه قد أكل من الشجرة المحرمة • ثم انه صنع لآدم وحواء ثيابا من الجلد وألبسهما اياها بدلا من ورق الشجر الشحيح الذى غطيا به عورتهما • وعلى هذا النحو تتعرض القصة لذكر تفاصيل عن الشجرتين المحرمتين ، فتذكر أن احدى الشجرتين كانت شـجرة

---

(١) تفسير الطبرى ج ١ ص ١٧٩ .
(٢) سفر التكوين ٣ : ١٤ .

معرفة الخير والشر وأن الشجرة الأخرى كانت شجرة الحيـــاة • فلما أكل آدم وحواء من شجرة معرفة الخير والشر وأصبحا ندا للاله فى المعرفة ، خشى أن يأكلا من شجرة الحياة فطردهما من الجنة ••

وبهذا تختلف قصة آدم وحواء فى كل من القرآن والتوراة اختلافا جوهريا •• ففضلا على اختلافهما فى طريقة العرض ، فانهما تختلفان فى المغزى والهدف • فاذا كان آدم قد أخرج من الجنة فى قصـــة القرآن ، فلأن سكناه فى الأرض كانت مقدرة له من قبـــل بدليـــل قوله تعـــالى للملائكة قبل خلقه آدم: « واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك • قال انى أعلم مالا تعلمون » • فاذا كان عصـــيان آدم الله مقدرا له من قبل ، فان هدف القصة يتضح بعد ذلك وهو تأكيد التوازع الانسانية ، وابراز جوانب لضعف فيها التى جعلتها موضوعا لاغراء الشيطان على الدوام • أما قصة التوراة ، فقد أخرج الله آدم من الجنة غيظا منه وحنقا عليه ، لأنه أصبح نده فى المعرفة • وقد تصور أن البلاء سيكون أكبر من ذلك لو أنه أكل من شجرة الخلد ••

فاذا انتقلنا الى قصة قابيل وهابيل فى كل من التوراة والقرآن ، فاننا نجد أن قصة التوراة قد أضافت تلك الاضافة التى حيرت مؤلف هـــذا الكتاب فأخذ يتســـاءل عن مغزاها الى أن ردها الى المعتقـــدات والعادات البدائية • فقد تضرع قابيل الى الرب بعد أن قتل أخاه وقال له : « انك قد طردتنى اليوم عن وجه الارض ومن وجهى أختفى وأكون تائها وهاربا فى الأرض ، فيكون كل من وجدنى يقتلنى » • ويبـــدو أن الرب قد حنا عليه رغم فعلته الشائنة فقال له : « لذلك كل من قتـــل قاينى فسبعة أضعاف ينتقم منه ، وجعل الرب لقاينى علامة لكى لا يقتله كل من وجده » [1] • وهنا نجد أنه على الرغم من أن قابيل قد قتـــل

---

(١) سفر التكوين ٤ : ١٣ الى ١٦ •

أخاه فقد أعلن الرب وفقا لنص التوراة ، أن من قتل قايين منه بسبعة أضعاف جريمته ...

أما قصة قابيل وهابيل فى القرآن فترد على النحو التالى : « واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق اذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر • قال لأقتلنك قال انما يتقبل الله من المتقين • لئن بسطت الى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى اليك لأقتلك انى أخاف الله رب العالمين• انى أريد أن تبوأ باثمى واثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين • فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين • فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوءة أخيه قال يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوءة أخى فأصبح من النادمين » [1] • وهنا يؤكد الله سبحانه وتعالى تأصل الشر فى الجنس البشرى ، حيث ان قابيل القاتل سوف يترك من ورائه سلالته التى تنزع مثله الى الشر ، كما أنه أكد نهاية بنى الانسان عندما يموتون ويوارون فى التراب ..

والفرق جلى بين صورة يعقوب فى القرآن وصورته فى التوراة • فأين صورة الشيخ الجليل الذى أخذ يبكى على ابنه يوسف حتى ابيضت عيناه ، والذى كان يعلم بمكر بنيه ورد عليهم فى وقار قائلا : « فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون » [2] ، من تلك الصورة الماكرة الخادعة التى رسمتها التوراة للنبى الجليل ! ..

ويحق لنا أن نتساءل بعد ذلك عن سبب تصوير التوراة للاله والأنبياء على هذا النحو ،ثم عن سبب ارتباط دينهم بكثير من المعتقدات الوثنية • فهل يرجع سبب هذا الى أن التوراة قد كتبها مؤلفون حوروا ما شاء لهم التحوير فى روايات دينهم ، وعبروا عن معتقدات اليهود

---

(١) سورة المائدة من آية ٢٦ الى ٣٠ .
(٢) سورة يوسف من الآية ١٨ .

وتصوراتهم بصفة عامة ؟ ولكن لماذا ظل اليهود مرتبطين بهذه المعتقدات البدائية على الرغم من نزول الدين السماوى على موسى ؟ ربما استطعنا أن نجيب عن هذه التســاؤلات المختلفة اذا استطعنا أن نغوص بعض الشىء فى فلسفة الأديان ..

وأول شىء ينبغى علينا أن نقرره بهذا الصدد ، هو أن العقيــدة ضرورة روحانية تنبثق من ذات الانســان فى كل زمان ومكان ، سواء كانت العقيــدة فى شكلها الأولى الساذج أو كانت فى صورتها المتطورة الراقية • وأساس العقيدة هو احساس الانسان بالارتباط بقوة أكبر منه لا يريد أن يتحرك الا من خلالها•فالانسان البدائى لم ير اذن فى الرعد والبرق والمطر والنور والظلمة آلهة لمجرد أنه كان يخاف من الرعد أو يرغب فى المطر الى غير ذلك ، وانما رأى فى هذه الظواهر آلهة تعبيرا عن احتياجه النفسى الى الارتباط بقوة علوية يتحرك ويرغب من خلالها • فالاله والانسان منذ قديم الزمن ليسا قوتين تقف كل منهما فى مقابل الأخرى ، بل هما بالأحرى متداخلتان • ذلك أن الانســان يجد نفسه مرتبطا بالاله وواقعا فى أسره ، وداخلا ضمن ملكوته • ولا عجب بعد ذلك أن نجــد العقيدة تحتضن العناصر الآتية : الحب والادراك والمقدرة على تشخيص طبيعة الاله ،والارادة والتأثير • فبدون الحب تكون العقيدة عمياء ، وبدون الادراك تكون العقيدة باهتة ، وبدون المقدرة على تمثيل الخالق تكون العقيدة غير حقيقية وبدون الارادة والتأثير تكون العقيدة غير مثمرة [1] • ولا تخلو أكثر الاشكال الدينية سذاجة من ادراك للقوة فوق الطبيعية ومن الاحساس بالحب ازاءها ، ومن المقــدرة عــلى تشخيصها ، وأخيرا من العادات والطقوس التى تعبر عن ارادة الانسان والسعى الى التأثير فى هذه القوة الالهية ..

فاذا أصبح تصور القوى الالهية حيــا فى نفس الانسان ، أصــبح للظواهر الطبيعية والأحلام والموت الى غير ذلك مغزى دينى ، واكتسبت

---

(1) Othamar Spann : Religious Philosophie, p. 12 (Wien 1947).

مخاوفه ورغباته صفة روحانية • ويمكننا أن نتمثل موقف الانسان من القوى العليا وطريقة وصوله اليها اذا تصورنا شكلا مخروطيا تقع فى قمته القوة العليا وفى أسفله يقف الانسان ، وبين القوة العليا والانسان يقف الوسيط الذى يتمثل فى الطبيعة بشتى مظاهرها • وهناك وسيلتان يصل بهما الانسان الى القوى العليا ، طريق مباشر دون وساطة وهو ما يسميه الفلاسفة طريق الأحوال الصوفية ، وطريق آخر غير مباشر يصطدم فيه الانسان بالوسيط الذى ربما كان عائقا فى سبيل وصول الانسان للالتحاق بالقوى العليا ، ويسمى طريق الأحوال السحرية • وكلاالطريقين يخوضهما الانسان نتيجة وعيه بذاته• فالوعى بالذاتكما قال هيجل يعنى الوعى بذاتية الذات وموضوعيتها • فعندما تسعى الذات الى تشخيص الذات العليا ، فان هذا التشخيص يمثل الجانب الموضوعى من هذا الادراك (١) • والوعى بالذات يقود الى الأجواء غير المادية ، أى أنه يمثل تلك الحالةالتى ينغمس فيها الانسان فى الوجود الكلى• ولعل هذا يفسر لنا حرص الشعوب جميعا على رواية قصة الخلق ، وذلك أن قصة الخلق تعد تشخيصا لحاجة الانسان الى ارتباطه بالقوى العليا ، فهو اذن مرتبط بها منذ الأزل ، بمعنى أنها هى التى خلقته وهى التى حددت مصيره • أى أن الانسان والطبيعه معا يعدان فيضا من الله • على أن ادراك الانسان للقوى العليا لا ينبع من حاجته الى ارتباطه بالكل الكامل فحسب ، وانما ينبع كذلك من احساسه بعدم كمال ذاته وعدم كمال عالمه • فعن طريق مقارنة وجود الله العلى الكامل من خلال التجربة الصوفية ، بوجود الانسان المادى ، يتبع بالضرورة استبعاد كل ما يشعر به الانسان من نقص فى ذاته أو فى عالمه عن الخالق • ولهذا السبب فان الحالة الروحية تنبثق من نزوع الانسان الى التخلص من غربته عن عالم الخالق ، والى السعى نحو التمثل به ، وهو الأمر الذى يقوده الى تشكيل حياته بتقاليد محددة وبسلوك ذى طابع روحانى ، أى أن الانسان

---

(١) Op. cit., p. 38.

يخوض تجربة داخلية تسمو به فوق المدركات الحســية أى فوق النطاق المادى المحــدود ..

على أن الانسان يخوض هذه التجربة بوصفها كلا اذا بدأ من أعلى الى أسفل ، وذلك نتيجة احساسه الفطرى بارتباطه بالقــوى العليا .. ويؤيد هذا قصــة ابراهيم عليه السلام عندما سعى من خــلال التجربة التأملية الى البحث عن الاله فى العالم الارضى ، بل فى العالم السماوى البعيد . فاصطدم بالكوكب أول الأمر فقال : « هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم انى برىء مما تشركون . انى وجهت وجهى للذى فطــر الســماوات والأرض حنيفــا وما أنا من المشركين » [1] . فابراهيم عليه السلام كان يخوض تجربة صوفية بدأها من العالم العلوى وظل يبحث عن تشخيص للخالق حتى أقر بأنه أكبر من كل القوى الطبيعية المتدفقة منه ..

أما اذا بدأ الانسان تجربته الروحية من أســفل الى أعلى ، فانه يسير فى الطريق غير المباشر الذى يصطدم فيه بالظواهر الطبيعية المتعددة التى يخلع عليها صفات ســحرية . وهو يظل يعيش فى هــذا العالم السحرى الذى يحول بينه وبين خوض التجربة التأملية التى يتصــل الانسان عن طريقها بالله اتصالا مباشرا . وفى هذا العالم السحرى تلعب الأرواح الخيرة والشريرة التى تعد فى الحقيقة تشخيصا لمخاوف الانسان ورغباته ــ نتيجة احساسه بارتباطه بقوى فوق الطبيعية ــ دورا كبيرا فى حياة مثل هذا الانسان . ولهذا فانه يخشى الاساءة الى ظواهر الطبيعة لأنها فى الوقت نفسه تعد اساءة القوى العليا . وهو يتجنب هذه الاساءة لأنه يخشى عقاب القوى الخفية المتربصة به ..

---

(١) سورة الانعام من آية ٧٦ الى ٧٩ .

فاذا حاولنا أن نتبين فى ضوء هذا الكلام ملامح الدين اليهودى كما يعرض فى التوراة ، فاننا نرى أن اليهودى لم يستطع أن يتصل بالله اتصالا مباشرا عن طريق التأمل أو الرؤيا أو النور الباطنى • وانما وقف فى منتصف الطريق حيث الوسيط أو الوسائط التى يمكن أن تربطه العادات والتصورات القديمة التى استطاع فريزر أن يكشف عن الكثير بالقوى الالهية • وهذا يفسر سبب تعلقه بطقوس السحر وبكثير من مثها • حقا ان كل شعب من شعوب العالم أيا كان نوع دينه السماوى ، أحتفظ أو مازال يحتفظ ببعض المعتقدات القديمة التى ربما استطاع أن يكيفها ويغير صورتها بحيث يمكن أن تتلاءم مع دينه الجديد ، ولكن الدين السماوى فى حد ذاته اجتهد فى أن يخلص العقيدة الجديدة من الشوائب القديمة ومن التصورات الوثنية ومن تلك الوسائط المادية التى يمكن أن تكون عائقا بينه وبين الصعود فى مراتب من النور الباطنى الذى يصل به الى وجود الله وطبيعته ••

ولم يستطع اليهود ــ كما هو معروف عن تعلقهم الشديد بالمادة ــ أن ينسلخوا من هذه المادية وأن يسموا بدينهم ، أو على الأقل يحتفظوا بأصوله الروحية السامية • ومن ثم فقد ظلوا متعلقين بكل الوسائل المادية التى حجبتهم عن الرؤية الالهية الخالصة • ولا عجب بعد ذلك أن يلجأ شاءول لى ساحرة عين دور لكى تكشف له عن مصير شعبه فى الحرب بدلا من أن يفزع إلى الله ليعينه فيها • ولا عجب ألا يثق ابراهيم من عهد الرب الا بعد أن أدى الطقوس الوثنية القديمة التى كانت تتبع عند عقد عهد من العهود بين طرفين • ولا عجب أن شخص اليهودى الرب على هيئة انسان أمسك يعقوب بتلابيبه حتى يباركه • ولا عجب أن ترسبت فى دينه كثير من المظاهر البدائية على نحو ما أوضحه المؤلف فى كتابهم المقدس ••

* * *

وبعد تلك الجولة فى عالم الأديان التى حاولنا من خلالها أن نتبين طبيعة الدين اليهودى ، نحاول الآن أن نلقى بعض الضوء على منهج فريزر فى هذا الكتاب ، وبوصفه باحثا أنثروبولوجيا بصفة عامة ••

لقد كان العالمان الأنثروبولوجيان : مالينوفسكى وفريزر متعاصرين • ومع أن كلا منهما كان له منهجه الخاص به فى البحث الانثروبولوجى الاجتماعى ، الا أن كلا منهما يعد عملاقا فى مبدانه ، فكلاهما كان يبحث وهو على وعى تام بما تتصف به الطبيعة البشرية من تعقيد ، وكلاهما كان يكتب بأسلوب حاذق موضوعى ، وان لم يصل أسلوب مالينوفسكى الى ما وصل اليه أسلوب فريزر من لباقة ودقة • وكلاهما أغرم بوصف المظهر الشعائرى للحياة • وقد كانت عملية تحليل المعتقدات بالنسبة لكليهما رحلة استكشاف للروح الانسانى • وكلاهما كان يبحث دائما عن القرائن للحقائق المدركة كما أن كليهما كان يتحرك من الحقائق الى النظرية ومن النظرية الى الحقائق ، وان كان فريزر أكثر استقصاء للظواهر فى أبحاثه من مالينوفسكى ••

ومع كل وجوه التشابه هذه بين الباحثين ، فان مالينوفسكى قدم للبحث مادة أكثر غنى ووفرة فى كتاباته الاثنوجرافية (الانثروبولوجيا الوصفية) • وهو فضلا على هذا وضع نموذجا للعمل الميدانى ولتوثيق نظريته التى تتلخص فى تحقيق المنهج الوظيفى على أكمل وجه ، بحيث يحتذى به فى العصر الحديث • ولقد أشاد فريزر بمنهجه هذا فقال : « ان من أهم ما ميز منهج مالينوفسكى أنه كان يضع نصب عينيه الطبيعة الانسانية المعقدة بوصفها كلا • فلقد كان ينظر الى الانسان فى المحيط الذى يحيط به لا فى المسطح المكانى الذى يعيش فيه ، ذلك أنه كان يتذكر على الدوام أن الانسان مخلوق تتحكم فيه العاطفة بقدر ما يتحكم فيه العقل • ومن ثم فقد كان كل همه أن يستكشف الجانب العاطفى بقدر ما يستكشف الأساس العقلى لسلوكه »[1] • فهل كان هذا الأساس المنهجى والنظرى ينقص فريزر فى أبحاثه ومن فقد أقر بأهميته ؟ ان ما كان ينقص منهج فريزر بحق هو توسيع ثم نطاق العمل الميدانى واستكشاف الروح الانسانى من جانبيه العقلانى والعاطفى وذلك

---

(١) Man and Culture : Edited by Raymond Firth, p. 71, London, 1960.

عن طريق الربط التام بين جميع ممارسات الانسان وسلوكه • أى أنه كان ينقصه ما وصف به مالينوفسكى من أنه ينظر الى الانسان فى المحيط الذى يحيط به وليس فى المسطح الذى يعيش فيه • فكثيرا ما اعتمد فريزر فى دراساته على ما دونه المبشرون عن القبائل البدائية ، وكثيرا ما اعتمد فى أبحاثه على دراسات الباحثين بدلا من اعتماده على الاتصال المباشر بالناس عن طريق العمل الميدانى • ذلك أن منهجه كان يعتمد على جمع الحقائق جمعا مستقصيا وبشتى الطرق بقصد اثبات نظريته فى ظاهرة من الظواهر الانسانيه • ولهذا فقد أخفق فريزر فى أن يجد تفسيرا لبعض الظواهر الاعتقادية • ومثال هذا أنه قد تحدث بصدد بحثه عن تقديس بعض الأشجار ، عن عادة تعليق الخرق الملونة عليها • ومع استقصائه البالغ فى البحث بقصد تأكيد هذه الظاهرة ، الا أنه لم يقدم أى تفسير لمغزى تعليق الخرق على الأشجار بقصد التوسل الى روح الشجرة • وسبب هذا أنه لم يكن يهتم باستكناه مغزى الفعل بقدر ما كان يهتم بسرده ••

ومع كل هذا فلقد قدم فرزر للقارىء المتخصص مادة وافرة لا غنى عنها فى دراسة الحياة الانسانية • ولقد استطاع أن يثبت عن طريق دراساته المقارنة تلك التقاليد والمعتقدات التى تخلفت مع الانسان عبر التاريخ والتى ترجع فى أصولها الى الحياة البدائية الأولى • وبهذا استطاع أن يستكشف ما تخلف فى التوراة من معتقدات وعادات قديمة كانت لها أبلغ الأثر فيما اتسم به الدين اليهودى من جوانب ضعف ، فضلا على أنها كشفت عن شخصية اليهودى الذى استغل الدين كل الاستغلال فى سبيل تحقيق أطماعه المادية ••

واذا كان فريزر قد تناول كل الموضوعات التى طرقها تناول العالم المدقق الذى ينقب فى موضوعية تامة عن خبايا الأمور بقصد استكشاف كنهها ، فاننا نرى أنه قد استخدم هذا المنهج فى غير ضرورة فى قصة موسى عليه السلام • فقد حاول فى هذا الفصل

أن يعزل القصـــة عن الحقـــائق التاريخيـــة ، وأن يقرن بينهـــا وبين ما يماثلها من قصص شعبى مروى • وقد اقتضت منا الأمانة العلميـــة أن نترجم هذا الفصل كما هو على مسئولية المؤلف ••

هذا وقد تطلبت منا الترجمة الكاملة التى تقـــع فى مجلدين ، كل مجلد على حدة ، أن نذيلهـــا بهوامش لتوضيح بعض الأمور التى لم يوضحها المؤلف فى كتابه هذا • كما أننا أشرنا الى مصدر آيات التوراة التى أغفل عمدا ذكر مكانها فى التوراة على ســـبيل الاختصـــار كمـــا ذكر فى مقدمته • وكذلك استشهدنا فى بعض الأحيان بآيات لم يشر اليها المؤلف وذلك بقصـــد القاء مزيد من الضـــوء على ما تعرض له المؤلف فى دراسته من عادات وطقوس عند العبريين القـــدماء •

حـــول المؤلف والـــكتاب

اذا كان فريزر يمثـــل حقبة فى الدراســـات الأنثروبولوجية انقضت بموته عام ١٩٤١ [1] ، فان هـــذا يعنى أنه يمثل مدرســـة فى الميدان الأنثروبولوجى تسير وفقا لمنهج محدد وتهدف الى تحقيق هدف بعينه • ولذا يتحتم علينا ، قبل أن نعرض لكتابه « الفولكلور فى العهد القديم » أن تبين معـــالم هذه المدرســـة ومنهجها وهدفهـــا ، لنرى ما اذا كان فريزر قد استطاع بمؤلفه هذا أن يؤكد منهجه وهدفه • ولكننا قبل أن نفعـــل هذا ، يحق لنا أن نقـــدم القارىء صورة تقريبية لشخصية هذا العالم الانسانى الكبير ، ولعلاقاته بعلماء عصره بخاصـــة هؤلاء الذين كانوا يعملون فى ميدانه •

لقد كان فريزر يمثـــل أكثر من أى باحث من الباحثين المعـــاصرين له ، الاتجـــاه الانسانى الذى كان يستلهم الدراســـات المقـــارنة فى ســـبيل فهم التراث الاغريقى واللاتينى والشرقى القـــديم • وربما ظل اســـمه خاتمة العلمـــاء الانســـانيين الكلاسيكيين الكبار • ولقـــد كان واسع العـــلم متعدد الاتجـــاهات ، فقد درس علم الطبيعة وعـــلم الأحياء ، وبعض فروع أخـــرى من العـــلوم الطبيعية • وكان يقـــرأ هومير باللغة الاغريقية وأوفيد وفرجيل باللاتينية ، والكتاب المقـــدس بالآرامية • وفضلا عن ذلك فان أعمـــاله الكبيرة المتعددة لم تمنعـــه من كتابة المقالات والشعر [2] •

أما عن علاقة فريزر بعلماء عصره ، فاننا ندع العالم الأنثروبولوجى المرموق مالينوفسكى ، يتحـــدث عن ذلك حيث أنه كان على علاقة وثيقة

---

(1) Manlinoski : A Scientific Theory of Culture : 1944 P. 179.
(2) Ibid : P. 179.

به زمنا طويلا ، وحيث أنه تعرض لنقد أعمـــاله ونظرياته نقـــد العالم الحصيف المنصف ، فذكر ما له وما عليه • يقول مالينوفسكى :

« لقد عرفت فريزر طيلة الواحـــد والثلاثين عاما الأخـــيرة من عمره • وفى خلال هذه السنوات المطـــوال استطعت أن أتتبـــع كثيرا من علاقاته الشخصية مع جماعة الأنثروبولوجيين ، كما حاولت أن أتفهم منهجه فى تنـــاول المشـــكلات والحقـــائق ، وأن أدرس تطـــور أفكاره ونظرياته ، فانتهيت الى أن فريزر كان مصدر الهـــام كثير من المفكرين والكتاب المحـــدثين فى الأنثروبولوجيا والعـــلوم الاجتماعية والانسانية • ومع كل هذا فقد كان فريزر يعانى مشقة كبيرة فى مناقشـــة موضـــوع من الموضـــوعات أو رأى من الآراء مع باحث من الباحثين ، اذ قلمـــا نجح الانسان لـــكبير فى أن يدير مناقشة على طريقة المدرس الذى يعطى ويأخذ • وكان من الضرورى لمحدثه أن يتريث معه حتى توانيـــه لحظة الالهـــام ، فيرتجل بضعة فقرات جميلة شبيهة بتلك التى نجدها فى كتاباته • وعلى الرغم من هذا العيب ، فقـــد عرف عن فريزر اهتمامه البالغ بالحقـــائق الجديدة لتى تســـفر عنها استكشافات الباحثين فى العمـــل الميدانى ، كما عرف عنه مقدرته فى حث الباحثين الميدانيين عن طريق المراســـلة • ولقد كان لخطاباته التى أرســـلها الى فى أثنـــاء رحلاتى فى غينيا الجديدة وميلانيزيا أكبر عون لى فى أبحاثى ســـواء عن طريق اقتراحاته أو استفساراته أو تعليقاته .

ومن الطبيعى أن يكون فريزر بنـــاء على افتقاره لروح الجـــدل والمناقشـــة ، محاضرا غير ناجح ، بل انه كان محاضرا غـــير مكترث ، وكان يفضـــل أن يقرأ محاضراته عن أن يتلوها ارتجالا ويناقشـــها مع طلابه • ومعنى هذا أن فريزر لم يـــكن معلمـــا بالمعنى الضيق لهـــذه الكلمة ، اذ لم يكن فى وســـعه أن يطور جـــدله ويدافع عن نظـــرياته عن طريق النقـــاش • ومع ذلك فلا يستطيع أحد أن ينكر أنه كان معلما بالمعنى الواســـع لهذه الكلمة ورائدا من كبار رواد العـــالم فى مجال البحث الأنثروبولوجى ، فقد كان فرويد يعتمـــد عليه فى أبحـــاثه عنـــد

تطبيقه لنظرياته فى علم النفس التحليلى فى المجـــال الأنثروبولوجى • وكان له تأثيره الكبير على دور كليم ومدرسته التى كان من أعلامها فان جينيب وليفى بريل ، وهربرت ، وبوجليه • كما أرسى البـــاحثون الألمان من أمثال فونت ، وتور نفالد ، وبرويس وغـــيرهم ، دعائم علمهم على أســـاس نظريات فريزر وعلمـــه الواســـع فى الدراسات الأنثربولوجية• وســـواء اتفق البـــاحثون الانجليز من أمثـــال ويسترمارك وكرولى وجيلبرت مورى ، وجين هاربســـون ، وسيدنى هارتلاند واندرو لانج ، معه فى نظرياته وآرائه أم لـــم يتفقوا معـــه ، فانهم بدون شـــك قد استمدوا توجيهاتهم ومفاتيحهم فى البحث منه • بل انه ترك أثرا بعيد المدى فى جماعة من المفكرين الرواد فى مجال لتاريخ والفلســـفة وعلم النفس والأخلاق من أمثال أناتول فرانس وبرجسون وأرنولد توينبى ، وشبنجلر • ويتضح هذا عندما كان هؤلاء يتعرضـــون للموضـــوعات الأنثروبولوجية الأساسية مثل « التابو » والطوطمية والسحر والزواج وأشكال الديانة البدائية وتطور النظم السياسية [1] •

وقد وهب فريزر ميزتين كبيرتين احداهمـــا مقدرة الفنان عـــلى خلق عالم خيـــالى خاص به ، وثانيتها حصافة المعـــالم الصـــادق فى التمييز بين ما هو وثيق الصلة بالموضـــوع الرئيسى وما هو ثانوى • وقد تولد عن الخصلة الأولى أسلوبه الساحرى ومقدرته على صـــياغة الشـــواهد الاثنوجرافية الجامدة فى شـــكل قصصى دراسى ، كما يبدو هذا تماما فى كتابه « الفولكلور فى العهد القديم » ، كما تولد عنها مقدرته على خـــلق الرؤى من البـــلاد البعيدة والحضارات الغريبة • أما الميزة العلمية الثانية ، فقد تولد عنها حسه التجريبى الذى قادة الى التجوال بين عالم المادة الاثنوجرافية لكى يستخلص منهـــا الشواهد التى كثيرا ما كانت تؤدى الى بطلان نظرياته نفسها ، وان كانت تقدم لنا فى المكان

---

(1) Malinowiski : op. cit. pp. 182-184.

المناسب لها حقائق عن السحر والدين وعن الطوطمية ونظم الزواج ، وكل ذلك داخل الاطار الواقعى ، بما جعلها تنبض برغبات الناس ومعتقداتهم واهتماماتهم • وبهذا استطاع فريزر أن ينظم المعرفة الجافة المتراكمة فى شكل هندسى رائع من الشواهد ، محتضنا الكثير من الأفكار التى صاغها الباحثون من بعده فى شكل نظريات وقد كان من أهم ثمار هذا الجهد العلمى الرائع ، كتاب « الغصن الذهبى » الذى يحكى قصة الفكر والروح الانسانى الموغل فى القدم ، وكتاب « الطموطمية والزواج من الأباعد »وهو الكتاب التعليمى ثم كتاب « الفولكلور فى العهد القديم » الذى يعد أشبه بأسطورة أنثروبولوجية رائعة •

وبقدر ما كان فريزر يعيش فى عالم الخيال ، كان يعيش فى عالم الواقع الموضوعى • وقد استطاع أن يشكل نظرياته فى شكل طيع من الشواهد التى جمعها من جميع أنحاء العالم • وهذا يفسر لنا سر اهتمامه بحقائق العمل الميدانى وعدم اكتراثه بالنظريات الا فيما ندر • ذلك أنه كان يرغب دائما فى أن يضيف شيئا الى عالمه الحى ، عالم الوجود الانسانى الدرامى • وفيما عدا هذا كان يكره تشريح هذا العالم عن طريق النقد النظرى • وعندما غضب من اندرولانج لنقده الساخر من كتابه « الغصن الذهبى » لم يكن غضبه منه لتجريحه الشخصى فيما يقوله الباحثون ، بقدر ما كان بسبب تجريحه عالم أوريرس وفيربيوس وبالدور [1] •

مكانة فريزر فى مجال الدراسات الأنثروبولوجية :

كان فريزر على رأس المدرسة التطورية التى ركزت اهتمامها على دراسة الجانب البدائى فى الجنس البشرى • وقد كان فريزر يبحث عن هذا الجانب البدائى فى التقاليد والعادات والممارسات

---

(1) Malinowiski : op. cit p. 185.

بصفة عامة كما كان يبحث عنه عند البدائيين ، بل ولدى الجنس البشرى فى كافة مستويات رقيه الحضارى • أما الوسيلة التى كان يستعين بها فى هـذه الدراسة الواسعة فهى المنهج المقارن الذى يعتمـد على جمع المـادة من جميع أنحاء العالم ثم المقارنة بينها • وقد تطلب منه ارتباط المنهج المقـارن بفـكرة التطـورة فى سبيل فهم الانسان بعض الفروض العـامة التى تتلخص فى أن الناس يتشابهون أسـاسا فى الجوهر ، لأن الشعوب جميعا قد بدأت من مرحلة بدائيـة ، ومـرت تدريجيا بمراحـل مختلفة من التطور • ومن الممكن استكشاف المقياس العام لسلوكهم وأفكارهم عن طريق الاستقراء الذى يعتمد على النظره الشـاملة للمادة المجموعة • وعند ذاك يواجه الباحث ما يسمى بالبقايا المتخلفة ، وهى تلك البقايا المتبقية من المعتقدات والعادات التى عاشت مع الانسـان فى عصوره البدائية . ثم ترسبت أو ترسب بعضها معه فى أطوار رقيه • وتعد عملية احصـاء تلك البقايا المتخلفة من المعتقدات والعادات مفتاحا لفهم الاستمرار فى حدود التغير ، كما أنهـا تمثل من ناحية أخرى الحلقة التى تصـل بين المراحـل التطورية المختلفة • فاذا غاص الباحث حتى أدنى المسـتويات الحضارية ، فانه يصـل الى المسـتوى الهمجى الأدنى للأجناس البشرية ، أى أنه يصـل الى أصل الطقوس الانسـانية والعادات والأفكار • فالحضـارة معقـدة كل التعقيد فى حين أن الهمجية بسـيطة نسبيا • كما أنها تعد بدون شـك البؤرة التى نشـأت عنها كل الحضـارات عن طريق عملية التطـور البطىء • ولهذا ينحتم على من يسـعى الى فهم نتـاج الحضـارات المعقد أن يبدأ من العناصر البسيطة ، أى أن يبدأ بفهم حياة البدائيين وسـلوكهم •

على أنه على الرغم من اهتمام فريزر البالغ بنظرية تطور الجنس البشرى عن الأصـول البدائية ، وعلى الرغم من محاولاته العلمية فى ابراز تلك الأصـول عند الأجناس البشرية ، فانه لم يطـور قط أية نظـرية كاملة لأسس هذا التطور • فنحن لا نجـد فى أعماله أى تحديد

دقيق لتلك المفهومات التى رددها وهى : أصـــول الجنس البشرى ، مراحل التطور ، البقايا المتخلفة • بل اننا لا نجد عنده أية محـــاولة تهىء له مجـــرد تصور عمليـــة تطور الجنس البشرى أو تتيح لنا فرصة ادراك القوى الدافعة فى سبيل هذا التطور .

وقد أدرك فريزر كما أدرك غيره أن أســـاس المعتقدات والعادات والتصـــورات ينبـــع من أنشـــطة الانســـان الروحيـــة والعقلية وهى والسحر والدين والعلم • وليست هذه الجوانب ، من وجهة نظر فريزر ، متداخلة فى حياة الانســـان فى كل زمان ومكان بحيث يؤدى كل منهـــا دورا حيويا فى حياته العملية والروحية ، ولكنها تعيش منفصـــلة مـــع النـــاس ، بحيث يؤدى كل منهـــا دورا مهمـــا فى مراحـــل الحضارة المختلفه ، فالســـحر يسيطر على حياة الانســـان البدائى الهمجى كما كان يحلو لفريزر أن يسميه ، ذلك لانه يعـــد الوســـيلة الوحيـــدة التى يحـــاول الانسان البـــدائى عن طريقها اخضـــاع ظـــواهر الطبيعة لسيطرته • فلما أصبح الانســـان بعـــد ذلك أكثر ذكاء ، أصبح أكثر وعيا بقدرته وخضوعه فى الوقت نفسه للقوى العلوية التعسفية • ومن ثم فقد أخذ يسترضى تلك القوى عن طريق تأدية الشـــعائر والطقوس . وفى النهـــاية يصل الانسان الى مرحلة العلم ، وهى المرحلة التى يعيشها الانســـان المتحضر اليوم • وهنـــا يبدى فريزر تشـــاؤمه ازاء مصير الانسان ، ذلك أن العلم يعمل فى هدوء وبلا هوادة على تحطيم عالمنـــا الذى يسبح فيه كوكبنا كذرة أو هباءة [1] .

ويرتكز السحر من وجهة نظر فريزر على أساسين : الأساس الأول هو ان الشبيه ينتج الشبيه ، والأساس الثانى هو ان الأشـــياء التى كانت ذات مرة متصلة ببعضها البعض ، يستمر تأثيرها فى بعضها الآخـــر ، وان انقطعت الصلة الظاهرة بينهما • فهذان الأساسان يمثلان من وجهة نظر فريزر قوانين النظرة الســـحريه عند الانسان البدائى • وعـــلى

---

(1) Kardiner Brible : They Studied Man p. 89.

الرغم من ان الانســـان البدائى لم يعبر عن هذه القوانين بالكلمات ، بل انه لم يدركها ادراكا مجـــردا ، الا أنه كان يعتقد بكل بســـاطة ان طقوسه الســـحرية تنظم له أحـــوال الطبيعة تنظيما مســـتقلا عن ارادته • وكلا الاساســـين يندرجان تحت ما يســـميه فريزر بســـحر المشـــاركة ، لأن كليهما يفترض أن الأشياء تؤثر فى بعضها البعض وهى متباعدة عن طريق العلاقة السرية التى تصـــل بينهما بطريق ما •

ويمكننا ان نستدل بمثالين من كتاب الغولكلور فى العهد القـــديم يوضحان هذين الأساسين لمفهوم السحر عند البدائيين من وجهـــة نظر فريزر ، أما المثال الأول الذى يوضح نظرية : « الشبيه ينتج الشبيه » ، فهو يقع ضمن الأمثلة العديدة التى ساقها فريزر فى الفصـــل الأول من الباب الثانى ، وهو الفصل الذى يقع تحت عنوان « عهد ابراهيم » • وقد حاول فريزر فى هـــذا الفصـــل أن يستدل على أن الشعائر التى أداها ابراهيم لعقد عهد بينه وبين الرب ، شبيهة كل الشبه بالشـــعائر التى تؤديها الشعوب البدائية بقصد عقـــد بين طرفين ، فهم يذبحـــون ذبيحة ويشطرونها شطرين يمر بينهما الطرفان المتعاهدان فى الوقت الذى يتلو أحـــد الأفراد دعوات شريرة على من يحنث باليمين أو ينقض العهد ، وذلك بأن يكون مصيره كمصير الذبيحة المشطورة • فالبدائى بذلك يعتقد كل الاعتقاد أن شـــطر الذبيحة على هذا النحو ينتج عنه جـــزاء مشابه يحل بمن ينقض العهد أو يحنث باليمين •

وأما الأساس الثانى وهو اســـتمرار تأثير الأشـــياء فى بعضها البعض رغم بعد الشقة بينهما ، فيتضح من خلال الأمثلة العديدة التى أتى بها فريزر فى فصـــل شمشون ودليلة وغيره من الفصـــول • ومثال ذلك أن البدائى يعتقد أنه فى وسعه أن يعزل روحه عن جســـده ليحتفظ بها فى مكان آمن • فاذا حدث أن لحـــق ضرر بروحـــه ، فان هـــذا الضرر يصيبه فى الحـــال على الرغم من انفصـــال روحه عن جسده • ونحن نلاحظ أن كلا المثالين يجتمعان مرة أخـــرى تحت مفهـــوم ســـحر المشـــاركة • فمصير الذبيحة ينتقل الى الحانث باليمين عن طريق سحر

المشـــاركة ، وبهذه الطريقة نفسها ينتقل الضرر من الروح الذى أصيب بأذى الى صاحبه •

واذا كان السحر وسيلة لاخضـــاع الظواهر الطبيعية لسـيطرة الانســـان ، فان الدين ، من وجهـــة نظر فريزر ، ليس ســـوى عملية استرضاء القوى العليـــا التى تتحـــكم فى مصير الانســـان والظواهر الطبيعية معا • ولقد حاول الانسان البدائى فى مرحلة حضارية أرقى من المرحلة السحرية ، أن يحـــدد لنفسه تلك المفهومات الكلية مثل القـــوة والحيـــاة والروح والاخصـــاب ، ولكنه عندما حـــاول ذلك ، خلط فى التمييز بين الخصائص الانســـانية وخصائص الطبيعة ، كمـــا أنه شعر بعجزه وعجز أدواته السحرية عن تفسير تلك الظواهر • ومن ثم فقـــد افترض العقل البدائى وجود آلهة أو سحرة علويين يعيشـــون فى عالم غير مرئى ، ومن الممكن التوسل اليهم والتضرع لهم ، ليسدوا النقص فى قدرات القوة الســـحرية •

وأما المرحلة الحضـــارية الثالثة وهى مرحلة العـــلم ، فهى تلك المرحلة التى يعيشها الأوروبى اليوم بعد أن تجـــاوز مرحلتى السحر والدين • وفريزر فى هـــذا لا يخفى تعصبه للجنس الأوروبى الذى يرى أنه قد فاق بتطوره العلمى ســـائر الأجناس الأخرى •

واذا نحن أمعنا النظر فى تحديد فريزر لهذه المفهومات ، فاننـــا نجـــد أن مذهبه التطورى قد فرض عليه هذا التقسيم التعسفى بـــين السحر والدين والعلم ، كما سنشير الى ذلك بالتفصيل عندما نتعرض للنقد الذى وجه لفريزر ازاء هـــذا التقسيم • على أننا أشرنا آنفـــا الى أن فريزر لم يكن رجل نظريات ، ولم يكن يعد النظرية ، على حد تعبيره ، ســـوى مشجب يعلق عليه كل الحقائق التى يجمعها [1] • ولهذا فان فريزر يصبح رجلا عمليا بمجـــرد أن يفرغ من مناقشاته النظرية ،

---

(1) Kardiner, Brehle : They Studied Man : p. 91.

ويدخل فى مجال دراســة الشعوب • عند ذلك تتداخل عنده الظــواهر المختلفة للحضــارة الانسانية والاهتمامات البشرية ، كما أنه يصبح كاتبا ممتعا ومشوقا يستطيع بمقدرته على العرض والربط بين الظواهر المختلفة ، أن يتجــول مع القارىء عبر صحراء استراليا وبين أحراش الأمازون وفى برارى آسيا ، ووســط طبيعة أفريقيا المتنوعة ، كمــا يجعله يعايش الشــعوب المختلفة فى أفكارها ومعتقداتهــا وعاداتها ، وذلك عندما يلقى الضــوء على الشــواهد المتراكمة بنظــرة ثاقبة فى الدوافع الانسانية • بل ان فريزر كثيرا ما كان يقترب من منهج التحليل النفسى للدوافع الشعورية واللاشعورية للســلوك البشرى ، وذلك على رغم مقته لعلم النفس التحليلى مقتا جعله يعزف عن قراءة كا ما كتبه فرويد بهــذا الصدد • ويعد فريزر فى مقدرته على تفســير الدوافــع الانسانية من خلال الأفعــال والشعائر ، وفى تأكيده أن الفعــل أكثر ضمانا للبحث من الأقوال ــ يعد من أصحاب المدرســة السلوكية بالمعنى الاجتمــاعى لهــذه الكلمة • ذلك أنه ينزع عــلى الدوام الى توثيق التفســيرات النفسية بأشكال من لسلوك الانســانى ، وأنه كان ينظر الى الحقــائق الأنثروبولوجية بوصفها جزءا مكملا للحياة الانســانية بصفة عامة ، وذلك فى اطــار الحضــارة ، بل فى اطــار الطبيعة التى يعيش فيها الانســان •

وعلى الرغم من الجهــد العلمى المخلص الذى بذله فريزر فى دراساته التى ستظل تعيش بوصفها أعمالا رائدة ، مهما جد عليهــا من أبحاث فى مجال الدراســات الانثروبولوجية الاجتمــاعية ، وعلى الرغم من أنه فتح للباحثين من بعده آفاقا جديدة واسعة فى الابحاث الانسانية بصــفة عامة ، فإن فريزر لم يســلم من النقــد والتجريح من قبــل الباحثين فى ميدانه ، فمنهم من ظلمه حقه ، وأنكر ما فى أبحاثه من أصالة وما لها من أثر بعيد فى الدراســات الانثروبولوجية الحديثة ، ومنهم من أسرف على النقيض من ذلك فى تمجيده ، بحيث جعله البطــل الذى مهد عن طريق نظرياته الأصيلة ، طريق القيم العلمية الصائبة لمن بعده ، فى

الوقت الذى جعل هذا البعض مالينوفسكى نبيا مزيفا قاد الدراسات الأنثروبولوجية الى متاهات لا حدود لها [1] • وهناك نوع ثالث وعلى رأسهم مالينوفسكى الذى نقده نقد العالم الموضوعى الحصيف ، فذكر فضله على الدارسين من بعده ، كما سبق أن أشرنا الى ذلك ، فى الوقت الذى تعرض لنقد نظرياته بخاصة نظريته السابق ذكرها فى السحر والدين والعلم • ويهمنا أن نسوق للقارىء هذا النقد حيث أنه يلقى مزيدا من الضوء على نظرية فريزر هذه التى تعد محور كثير من أعماله ان لم تعد محورها جميعا •

لقد كان مالينوفسكى رائد المدرسة الوظيفية كما كان فريزر رائد المدرسة التطورية • وهذا الاختلاف الجوهرى فى اتجاه كل منهما فى مجال البحث ، دفع كثيرا من الباحثين لأن يقرنوا بين العالمين ، هذا فضلا عن أن هذا الاختلاف يشير بادىء بدء الى تباين وجهتى نظرهما فى تناول المشكلات الاجتماعية المتعددة • وفيما يختص بنظرية السحر والدين والعلم ، فقد عاب مالينوفسكى على فريزر أنه لم يفرق بين هذه الأمور من حيث الدور النفسى والاجتماعى الذى لعبه كل منها فى الحياة الاجتماعية ، بل انه فرق بينها من حيث أنها تعد مراحل متعاقبة للسلوك البشرى وتفكيره • ولو أن فريزر فرق بين هذه الأمور الحيوية فى حياة الانسان لأدرك أنها تعيش معا بنسب متفاوتة فى كل زمان ومكان، وأن كلا منها لعب دورا أساسيا فى حياة الانسان البدائى بحيث أنها جميعا شكلت حياته على نحو ما • فالانسان فى كل الظروف يمتلك معرفة من نوع ما ترتكز على أساس تجريبى وهو يستخدمها منطقيا • فأبسط وسائله التكنولوجية وطريقة اشعاله النار وتكييفه لوسائل معيشته تتطلب منه معرفة من نوع ما عن المادة وطريقة تشكيلها واستعمالها • أى أن المعرفة ، بل المعرفة العلمية بحق هى رائد الانسان على الدوام فى علاقته بالمحيط الذى يعيش فيه • ولا يمكن أن

---

(1) Current Anthropology : 1966, p. 560.

توجـــد حضارة من الحضارات أيا كان مستواها ، بدون هذه المعرفة • ويترتب على هذا أن الشخص الذى لديه الخبرة العلمية والمقدرة على السيطرة على الوسائل الفنية ، تكون له مكانة بارزة فى قومه •

والسحر بمعنى استخدام التعاويذ والطقوس فى سبيل الوصول الى نتيجة ذات تأثير فعال فى حياة الناس ، بعد عاملا مساعدا للعلم والخبرة التجريبية • فعندما تخون المعرفة العلمية الانسان البدائى ، فانه يتعامل مع الطقس والمرض على سبيل المثال تعاملا سحريا • فالدافع النفسى وراء ممارسة السحر اذن هو مقاومة المصير العثر وجلب المصير الخير • وكما أن المعرفة الشعبية لأحوال الجو والظواهر الطبيعية بصـــفة عامة تعد من مستلزمات الزعيم ، فان خبرته فى عالم السحر تعد لازمة أخرى له • وهو يصبح زعيما فى هذه الحالة لا لأنه قادر على استخدام الوسائل السحرية فحسب ، بل لأنه يقـــدم للجماعة ضمانا للخير ووسائل لتجنب الشر ، وهكذا يرى مالينوفسكى أننا اذا شئنا أن نعـــدل مفهوم السحر عما اصطلح عليه فريزر ، فاننا نقول : ان الدافع النفسى للسحر ليس هو ترابط الأفكار التى ينجم عنها أن الشبيه ينتج الشبيه ، وأن العلاقة التى تقوم بين الأشياء تستمر بينها على بعد الشقة بين بعضها البعض ، وانما يتلخص هذا الدافع فى سعى الانسان وراء نتائج طيبة تعود بالخير على الجميع [1] •

وعلى هذا النحو يختلف ما لينوفسكى عن فريزر فى مفهوم الدين • فليس الدين مجرد استرضاء الانســـان للقوى الالهية ، ولكنه احتجاج نفسى يرتبط بالقضايا الأساسية الوجود الانســـانى • فاذا كان السحر يختص بمشكلات تفصيلية نوعية محددة وحســـية ، فان الدين يختص بمشكلات كبرى مثل الموت والخلود • فهـــو ببنيته الدوجماتية نظـــام للاعتقاد الذى يحدد وضع الانسان بالنسة للوجود ، والانسان يحـــل مشكلاته الأبدية عن طريق الإيمان بالخلود وعن طريق مصالحته للآلهة •

---

(1) Malinowski : «A scientific Theory of Culture, pp. 198-199.

ومن هنا يختلف العلم والسحر والدين عن بعضها البعض من حيث التفكير الذهنى والتنظيم الاجتماعى والظيفة • فالعلم يختص بالمعرفة والخبرة الفنية ، والسحر حشـــد من الطقوس والأفعال والتعاويذ التى تجلب المصير الخير للجماعة ، وأما الدين فيختص بالصلاة والشعائر وتقـــديم التضحيات التى تربط الانسان بالقوى الآلهيه وتعينـــه على اســـتكناه مصـــيره •

وهكذا نرى أن كلا من مالينوفســـكى الوظيفى وفريزر التطورى يمثلان الضدين من حيث أن الأول يهتم بصلة هـــذه الجوانب الروحية والفكرية بعضها ببعض ، فى حين أن الثانى يهتم بنشأتها بعيدا عن بعضها البعض • كما أن مالينوفســـكى ام ير ، كما رأى فريزر ، أن الاهتمام بالسحر يمثل نقصا فى عقلية الانسان البدائى حيت أنه يعيش فى مرحلة حضارية محددة وحيث أن كلا من السحر والدين والعلم يؤدى وظيفة بدرجات متفاوتة مع الانسان فى جميع مستوياته الحضارية •

وهناك فرق آخر جوهرى بين الباحثين ، وهو أن فريزر كان يعـــد الطقوس بديلة للأسطورة والعكس صحيح ، فاذا ما عثر على أســـطورة استطاع أن يحدس عن طريقها بالطقوس البديلة لها • أما مالينوفسكى فقد كان يرتبط كل الارتباط بالشواهد المرئية • حقا ان الأسطورة تعد ميثاقا للسلوك الجماعى : فالعمليات الحضارية التى كرس جهـــده فى البحث عنها عن طريق العمل الميدانى الذى يرتكز على الفروض النظرية، تكون موضوعا لقوانين محددة • وهذه القوانين بدورها يهتدى اليهـــا الدارس عن طريق تحليله لوظيفة العناصر الأساسية من مجرد افتراضه لتطور المراحل الحضارية عن طريق تعقبه للمخلفات الأثرية والاعتقادية• فالباحث فى ميدان الأنثروبولوجيا الاجتماعية يتحتم عليه اذن أن يحلل العناصر الحضارية ويربط بين بعضها البعض ربطا وثيقا حتى يتمكن من الاهتداء الى الدور الذى تلعبه هذه العناصر فى حياة الشعوب وفى بنيتها الحضارية • ومن ثم فان مالينوفسكى قد رحب ببعض نظريات فرويد فى علم النفس التحليلى بوصفها وســـيلة لفهم العـــلاقة الوظيفية بين

الفولكلور والتنظيم الاجتماعى ، ومثال ذلك نظرية فرويد فى الكبت نتيجة الدوافع الاجتماعية • وقد وجد مالينوفسكى أن هـذه النظرية تيسر للباحث تفسير بعض الرغبات المحددة والعقد اللتين تشير اليهما المادة الفولكلورية ويؤكدها التنظيم الاجتماعى • أى أنها تهىء للباحث فرصة اقتفاء أثر النماذج الغريزية والميـول العاطفية داخل نسـيج البنيـة الاجتماعية • وفى الوقت نفسه رفض مالينوفسكى استخدام عقدة أوديب فى تفسير البنية الاجتماعية للاسرة ، حيث أن الأسرة من وجهة نظره تكوين وظيفى يرتكز أولا وقبل كل شىء على بنية المجتمع وحضارته [٩] • أما فريزر فلم يكن فى الحقيقة يسـتعين بنظريات الباحثين ودراستهم الا فى حدود امدادهم اياه بالمادة الأنثروبولوجية المدونة أو المروية •

وعلى الرغم من الاختلاف البين بين منهج كل من فريزر ومالينوفسكى فى أبحاثهما ، وعلى الرغم من تباين النتائج العلمية التى توصل اليها كل منهما ، فان الجهد الذى بذله فريزر فى دراساته مازال وسوف يظل يلعب دورا أساسيا فى الدراسات الأنثروبولوجية الحديثة•ولقد أقر مالينوفسكى بهذا الفضل أكثر من مرة ، فقال من بين ما قاله : « لم أكد اسـتمر فى قراءاتى فى عمل فريزر العظيم « الغصن الذهبى » حتى وجدت نفسى منغمسا فى هذا العمل الرائع وواقعا فى أسره • بل اننى فرضت عـلى نفسى منذئذ خدمة الدراسـات الأنثروبولوجية » [١] • كما قال عنه ك • س ماثور : « حقا ان عظمة فريزر لا تتمثـل فى نظرياته ، ولكنها تتمثل فى غنى مادته وطريقة تحكمه فيها عبر مساحات شاسعة من كوكبنا وعبر عصـور طويلة ، كما تتمثـل فى مقـدرته على تصـنيف مادته وتفسيرها » [٢] •

ويهمنا الآن أن نتبين من خلال عرضنا لكتاب « الفولكلور فى العهد

---

(1) They Studied Man. p. 172.

(2) Current Anrhropology, 1966, p. 567.

القديم » [1] ودراسة مادته ، كيف حقق فريزر من ناحية ، منهجه التطورى ، حيث أنه يصرح فى مقدمته بأن هذا هو هدفه من بحثه فيقول : « وقد حاولت فى هذا الكتاب أن أسير على هدى الدراسات الفولكلورية متعقبا بعض معتقدات الاسرائيليين القدماء وأنماط سلوكهم الفكرية والعلمية فى المراحل الأكثر قدما وبجاجة ، تلك التى تشبه ما نجده لدى القبائل البدائية التى تعيش حتى اليوم من عادات • واذا كنت قد حققت أى قدر من النجاح فى هذه المحاولة ، فانه سيكون من الممكن النظر فى تاريخ بنى اسرائيل فى ضوء أكثر صدقا ، وان يكن أقل رومانسية ، بوصفهم شعبا لا يميزه الوحى الالهى عن غيره من الشعوب الأخرى ذلك التمييز العجيب ، بل شعبا تطور كبقية الشعوب من مرحلة بدائية يسودها الجهل والهمجية ، وذلك عن طريق عملية انتخاب طبيعى بطيئة »•

ومن ناحية أخرى فاننا نود أن ندرس نظرية فريزر فى السحر والدين كما تتمثل فى هذه الدراسة •

الفولكلور فى العهد القديم :

ينقسم الكتاب بأجزائه الثلاثة الى أربعة أبواب كبيرة يندرج تحت كل منها عدة فصول « وهذه الأبواب هى على التوالى : عصور الحياة الأولى ، عصر الآباء والشيوخ ، عصر الملوك والقضاة ، القانون • ويتفق هذا القسم مع تطور تاريخ بنى اسرائيلى الذى يبدأ ، شأنهم أى شعب آخر ، بآدم عليه السلام • أى أن المؤلف يبدأ بأول قصة فى العهد القديم وهى قصة الخلق •

---

(١) صدر الكتاب فى ثلاثة مجلدات كبيرة عام ١٩١٩ . وفى عام ١٩٢٢ اصدر المؤلف طبعة مختصرة له تكاد تحتوى على كل ابواب وفصول النسخة الاصلية المطولة . وليس هذا الكتاب سوى عمل واحد من أعمال فريزر العديدة التى ربما استغرق مجرد ذكرها بضع صفحات من هذا البحث .

أولا : عصور الحياة الأولى :

١ ـ قصـــة الخلق :

ملخص هذه القصة أن الرب ، وفقا لرواية الاصحاح الأول فى سفر التكوين شرع فى خلق كل الكائنات وفى نهاية الأمر خلق الرجل والمرأة من الطين ، أو أنه وفقا لرواية الاصحاح الثانى من هذا السفر نفسه خلق الرجل ومن بعـــده سائر الكائنات وفى النهاية خلق المرأة من ضلع الرجل • ثم أسكن آدم وحواء فى جناته وكفل لهما فيها الحياة الرغدة ، وسمح لهما أن يأكلا الثمار فيما عدا ثمار شجرة المعرفة ، ثم جاءت الحية الى حواء وأسرت اليها بأن الرب انما حرم عليهما أن يأكلا من ثمار هذه الشجرة حتى لا يكونا عارفين بالخير والشر • وكان هذا الاغراء كفيلا بأن يجعل يد حواء تمتد الى ثمار الشجرة لتأكل منها وتقـــدم منهـــا لزوجها كذلك • ولم يكن الرب قد علم بما ارتكبه الأبوان الأولان من حماقة • وذات يوم عندما كان الرب يتمشى فى جناته وجـــد آدم وحواء مختبئين خجلا بعد أن انكشفت لهما عورتهما أثر أكلهما من الشـــجرة فنادى عليهما وأسرع فى طردهما من الجنة ، وذلك خوفا من أن يتهورا مرة أخرى ويأكلا من شجرة الحياة فيصبحا خالدين مثله •

وقد استلفت نظر فريزر فى هذه القصة مشكلات ثلاثة فتحت له باب المقارنة على مصراعيه بين هذه القصة وقصص الخلق التى رويت أو تزال تروى بين الشعوب البدائية • وهذه المشكلات هى : **أولا** : خلق الانسان الأول من الطين • **ثانيا** الدور الذى لعبته الحية فى صراع حواء **ثالثا** : حرمان الانسان من الخلود • أما عن العنصر الأول فتكاد تتفق حكايات جميع شعوب العالم على أن الانسان الأول قد شـــكل من طين : فمن ذلك ما حكى « عن سكان استراليا السود الذين يســـكنون ضـــواحى ملبورن أن « بندر ـــ جل » الخالق قطع ثلاث شرائح من لحاء الشجر بسكينة الكبيرة ثم وضع بعض الطين على احدى هذه الشرائح وأخـــذ

يسويه بسكينة حتى صار قوامه معتدلا ، ثم وضع كمية أخرى من الطين على شريحة أخرى وشكلها على هيئة انسان فصـــنع الأقدام أول الأمر ثم الأرجل فالجذع فالأذرع فالرأس • وهكذا صور انسانا من الطين على كلتا الشريحتين من لحاء الشجر وعندما شعر بالارتياح لعمله هذا أخذ يرقص حولهما مبتهجا • وبعد ذلك أحضر خيوطا لحائية من شجر الكافور وصنع منها شعرا لصـــقه فى رأسى رجليه المصنوعين من الطين • ثم نظر اليهما مرة أخرى تعبيرا عن سعادته وبعد ذلك استلقى فوقهما ونفخ أنفاسه بقوة فى فم كل منهما وفى أنه وسرته • وفى الحال تحركا وتكلما ونهضا مكتملى النمو » [1] •

وأما عن اقحام الحية نفسها فى حياة أول رجل وأمرأة خلقهما الرب ، فهو يرجع من وجهة نظر فريزر الى اعتقاد الانسان البدائى فى أن الحية كانت سببا فى حرمان الانسان الخلود بعد أن سلبت منه هذه المنحـــة الجليلة • وقد اعتقد الانسان البدائى فى هذا الاعتقاد لأنه رأى أن الحية تغير جلدها فى مواسم معينة ومن ثم فقد تصور أنها بذلك تجدد شبابها ولا تموت على الاطلاق • على أن الحية ليست هى الحيوان الماكر الوحيد الذى ربط بينه وبين الانسان البدائى وبين حرمانه الخلود ، فقد روت حكايات عديدة كيف أن القمر أرسل الأرنب أو الكلب أو السلحفاة لتبلغ الانسان أنه عندما يموت فسوف يحيـــا مرة أخرى تماما كما يحـــدث للقمر الذى يصبح محاقا ثم ما يلبث أن يولد هـــلالا مرة أخرى • ولكن هذه الحيوانات كانت دائمـــا تغير من فحـــوى الرســـالة وتبلغها خطأ للانسان • وبهذا كتب على الانسان الموت بسبب تبليغ هذه الحيوانات الرسالة الخاطئة اما عمدا أو غباء •

على أن حكاية التوراة لم تحك أن الانسان كان قد منح منحة الخلود ثم فقـــدها بسبب خداع الحية له • ولكن لمـــا كان ذكر شجرة الخلود

---

(1) Folklore in the Old Testament, p. 4.

(الطبعة المختصرة) .

يعـــد غريبا عن الموضوع بخاصة اذا وضعناها جنبا الى جنب مـــع شجرة المعرفة ، فقـــد افترض المؤلف أن حكاية التوراة تعد رواية محرفة لرواية أخرى أصلية حكت عن شجرتين فى الجنة حرمتا على الانسان وهما شجرة الفناء وشجرة الحياة • وقد افترض المؤلف كذلك أن الرب الذى كان رحيما كل الرحمة بالانسان فأسكنه جناته وأنعم عليه من كل خير ، أمر الانسان ألا يأكل من شجرة الفناء وأن يأكل من شجرة الحيـــاة ثم جاءت الحية الماكرة التى شاءت أن تحرم الانسان من الخلود ، وأضلت الانسان حتى أكل من شجرة الفناء وبذلك حرم الخلود وأصـــبح من الفانين •

ـــ فاذا صححت الرواية على هذا النحو ، ولا بدلها من ذلك حتى يكون هناك تناسق بين مغزى الشجرتين المعنيتين من ناحية ، وحتى لا تنسب الى الرب صفة الأنانية التى نسبتها اليه التوراة عندما صورته حريصا على الاستئثار بالمعرفة والخلود لنفسه [1] ـــ فان الحكاية تكون شبيهة كل الشبه بحكايات البدائيين التى روت عن خلق الانسان من الطين وعن اكتسابه الخلود ثم حرمانه هـــذه المنحة نتيجة خـــداع حيـــوان من الحيوانات الماكرة له •

٢ ـــ **علامة قابيل** : وبعد أن هبط آدم وحواء الى الأرض أنجبـــا قابيل وهابيل • « وكان هابيل راعيا الغنم وكان قايين عاملا فى الأرض • وحدث من بعد أيام أن قايين قدم من ثمار الأرض قربانا للرب ، وقدم قابيل من أبكار غنمه ومن ســـمانها • فنظر الرب الى هابيل وقربانه ، ولكن الى قايين وقربانه لم ينظر • فاغتاظ قايين جدا وسقط وجهـــه •

---

(١) « وقال الرب الاله هوذا الانسان قد صار كواحد منا عارفا بالخير والشر والان لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة ايضا ويأكل ويحيا الى الابد . فأخرجه الرب من جنة عدن يعمل الارض التى أخذ منها . فطرد الانسان وأقام شرقى جنة عدن الكروبيم ولهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة » . سفر التكوين ٣ : ٢٢ الى ٢٤ .

فقال الرب لقايين : لماذا اغتظت ولمـــاذا سقط وجهك • ان أحسنت أفلا رفع وان لم تحسن فعند الباب خطية رابضة واليك اشتياقها وأنت تسود عليها • وكلم قايين هابيل أخاه وحدث اذ كانا فى الحقل أن قايين قام على أخيه وقتله • فقال الرب لقايين : أين هابيل أخوك • فقـــال لا أعلم ، أحارس لأخى • فقال ماذا فعلت صوت دم أخيك صارخ الى من الأرض ، فالآن ملعون أنت من الأرض التى فتحت فاها لتقبل دم أخيك من يدك • متى عملت الأرض لاتعود تعطيك قوتها تائها وهاربا تكون فى الأرض • فقال قايين للرب : ذنبى أعظم من أن يحتمل ، أنك قد طردتنى اليوم من وجه الأرض ومن وجهك أختفى وأكون تائها وهاربا من الأرض ، فيكون كل من وجدنى يقتلنى • فقال له الرب لذلك كل من قتل قايين فسبعة أضعاف ينتقم منه • وجعل الرب لقايين عـــلامة لكى لا يقتله كل من وجـــده » (١) .

وعندما قرأ فريزر هذه القصة قراءة العالم الفاحص ، لاحظ مايلى : **أولا** : أنه على الرغم ، من أن قابيل قتل أخاه هابيل ، فان الرب حـــكم بأن من يقتل قابيل ينتقم منه سبعة أضعاف • **ثانيـــا** : أنه يبـــدو أن الأرض كانت تعج بالناس بحيث أن قابيل كان يخشى من يتعقبه ويأخذ منه بالثأر ، والواقع أن الأرض ، وفقا للروايات الدينية ، لم يكن يعمرها آنذاك سوى آدم وأبنائه • **ثالثا** : استلفت نظر المؤلف بصـــفة خاصة قول « الرب : صوت دم أخيك صارخ الى من الأرض • فالآن ملعـــون أنت من الأرض التى فتحت فاها لتقبل دم أخيك من يدك • متى عملت الأرض لاتعود تعطيك قوتها • » ومن ثم فقد تساءل المؤلف عن علاقة الأرض بفعـــل الآثم ، بحيث أنه لو عاد وأفلحها ، فانها لن تقـــدم له ثمارها اليانعة • **رابعـــا** : ان الرب جعل لقابيل علامة ما لكى لا يقتله كل من وجـــده • وأمام هذه المشكلات التى أثارتها الحكاية وقف المؤلف يحل رموزها بأسلوبه المتدفق واستقصائه البالغ فى تقصى التراث الشعبى

---

(١) سفر التكوين ٤ : من ٢ : ١٥ .

البدائى • وقد بدأ تساؤله عن كنه هذه العلامة التى علم بها الرب قايين وسبب تعليمه اياه بها ، لأنه رأى أن فهم مغزى هذه العـــلامة يعـــد مفتاحا لفهم سائر النقاط التى أثارها •

لقد كانت الشعوب البدائية وشعوب الحضارات تنفى القاتل وتحرم عليه أن يطأ أرض بلده الا بعد القيام باجراءات طقوس وشعائر محدده كما هو واضح فى قانون أتيكا ، وذلك خوفا من أن تصاب الأرض بالدنس أو على الأقل تصـــاب بالجـــدب • ويؤيد هـــذا قصـــة « أخاميـــون » الاغريقية • فقد ظل « ألخاميـــون » القاتل لأمه ، شريدا هائما عـــلى وجهه • وكان كلما وطئت قدمه أرضا لفظته هذه الأرض • حتى لجـــأ فى نهاية الأمر الى نبوءة دلفى يلتمس عندها العون • وأخبرته النبوءة أن الأرض الوحيدة التى لن تشقى بمأساته هى الأرض التى لم يكن البحر قد انحسر عنهما وقت ارتكابه جريمته • فاستمر ألخلميون فى تجواله حتى عثر على هـــذه الأرض • ولكنه ما كاد يطأها بقدمه حتى لفظته هـــذه الأرض كذلك • وهكذا ظل ألخاميون هائما على وجهه طوال حياته • وهنا يتساءل الكاتب عما اذا كانت العلامة التى علم بها قابيل اشارة الى اثمه حتى يتجنبه الناس خوفا من أن يصابوا بعدوى هذا الجرم ؟ ولكن اذا كان الأمر كذلك ، كما تشير الى ذلك معتقدات بعض الشعوب القديمة ، فان هـــذا يتناقض مع السبب الذى من أجله علم الرب قابيل ، اذ من الواضح من القصة التوراتية أن الرب علمه لكى لا يقتله كل من وجده • فاذا كان الأمر كذلك ، فلا بد من البحث عن مغزى آخر لهذه العلامة • وهنا يتجول بنا المؤلف مرة أخرى مع الشعوب البدائية لعلنا نهتـــدى الى تفسير آخر لهذه العادة • ولا بد أن يكون التفسير فى هـــذه الحالة فى صالح القاتل ، حيث أن الرب نفسه قد أصـــدر حـــكما فى صالح قابيل القاتل • وقد انتهى فريزر من خلال المقارنات ، الى أن هـــذه العلامة لا بد أنه كان يقصـــد بها ابداء قابيل فى مظهر متنكر لشـــبح العلامة لابد أنه كان يقصـــد بها ايذاء قابيل فى مظهر متنكر لشـــبح يقول فى خاتمة بحثه : « ويمكننا أن نفترض على نحو هذا (أى على

نحو ما تفعل بعض القبائل البدائية) أن قابيل قد هدأ روعه بعـد أن علمه الرب بعلامة معتقدا بذلك أن شبح أخيه الذى قتله لن يتعرف عليه ويضايقه • على أنه ليست لدينا وسيلة لأن نعرف بها على وجه التحديد شكل العلامة التى علم بها أول قاتل على وجه الأرض • ومن ثم لا يمكننا سوى أن نطرح فرضا عفويا حول هذا الموضوع • فاذا كان من حقنا أن نحكم على هذه العلامة • مستعينين بعادات البدائيين المشابهة لذلك فى الوقت الحاضر ، فان الرب يكون بذلك قد علم قابيل بعلامة حمراء أو بيضاء أو سوداء ، وربما مزج بين هذه الألوان ليكون منها لونا مناسبا فعلمه به ، وربما لون جسمه كله بلون أحمر كما يفعل « الفيجيانيون » على سبيل المثال وربما لونه بلون أبيض كما كما يفعل « النجونيون » أو بلون أسود كما يفعل الأرونتانيون ، وربما لون نصف جسمه باللون الأحمر ونصفه الآخر باللون الأبيض كما يفعل « المساى » والناندیون[1] •

ولم يشأ فريزر أن ينتهى من هذا الفصل قبل أن يبدى سخريته مما تضمنته التوراة من سخافات فقال . « ان تفسير علامة قابيل على هـذا النحو من شأنه أن يخلص القصة التورائية من السخف الواضح فيها ، فان تفسير العلامة بأن الرب قد علم قابيل بها لكى يحول بينه وبين أن يقتل على يد أى انسان آخر فيه اغفال لحقيقة أنه لم يكن هناك على وجه الأرض من يقتله ، حيث أن الأرض لم يكن يعمرها آنذاك سوى القاتل وولديه • أما اذا تبنينا التفسير الذى مؤداه أن العدو الذى كان يخشاه القاتل هو شبح انسان حى ، فاننا نتجنب بذلك التهاون الوقح الماثل فى اتهام الرب بزلة فى ذاكرته ، الأمر الذى لا يتلاءم مع صفات الرب العالم بكل شىء [2] ثم يقول مزهوا بمنهجه المقـارن : « ومن ثم يؤكد المنهج المقارن مرة أخرى أنه دفاع قوى فى حق الرب » [3] ••

٣ ــ الطوفان الكبير : وقد روت كل شعوب العالم على وجه التقريب

---

(١) الفولكلور فى العهد القديم ص ٤٥ .
(٢) نفس المرجع ص ٤٥ .
(٣) نفس المرجع ص ٤٥ .

قصصا عن الطوفان الكبير الذى أغرق الأرض ومن عليها فيما عدا رجلا واحـــدا • وربما كانت أقـــدم قصة من هذا النوع ، تلك القصة البابلية التى وردت ضمن ألواح ملحمة جلجامش الشهيرة • ومن المحتمل كل الاحتمال أن هذه القصة كانت مستقلة بادىء الأمر ، ثم أدمجت ضـــمن حوادث الملحمة وتعد هذه القصة وغيرها من القصص التى روت عن حوادث الفيضانات ، صدى لحوادث طبيعية غمرت فيها الأنهار الأرض أو حدث صدع فى صخور كانت تعـــد بمثابة خزان طبيعى ، فتدفقت المياه أثر ذلك كما حـــدث عندما تدفقت مياه البحر الأسود فى البحـــر الابيض محطمة السدود الصخرية التى كانت تفصلهما تماما عن بعضها البعض ، كما يؤكد علماء الجيولوجيا • وبناء على ذلك فربما انتقلت قصة طوفان نوح التى وردت فى الكتب السماوية والتى ربما حدثت فى بلاد بابل ، حيث أن الحوادث الطبيعية من هذا النوع كانت مألوفة فى هذه المنطقة ، الى بلاد أخرى فحكت عنها ثم أطلقت على البطل الذى خاض هذا الطوفان اسما محليا • على أن هذا لا ينفى أن هناك قصصا أخرى نشأت مستقلة فى أنحاء أخرى من بلاد العالم وأن هذه القصص قد تأثرت بقصة الطوفان التى رواها المبشرون بشكل أو بآخر ، ذلك أن هذه القصص تكاد تتفق جميعـــا مع القصـــة الدينية فى عناصرها الأساسية وهى حدوث طوفان كبير أغرق الأرض ومن عليها فيما عـــدا رجلا واحدا أو رجلا وزوجته • ثانيا : نجاة هذا الشخص فى فلك أو على رمث بعد أن جمع معه صنوفا شتى من الطيور والحيوانات ومن الحبوب حتى يتمكن من تعمير الأرض بعد أن ينتهى الطوفان • ثالثا : محاولة هذا الشخص استكشاف أحوال الأرض بعد انتهاء الطوفان عن طريق اطلاق طير حمل اليه قطعة من طين الأرض اليابسة أو فرعا من فروع الشـــجر •

وعلى الرغم من أن فصل الطوفان الكبير قد استغرق حيزا كبيرا من كتاب فريزر ، اذ أنه يقع فيما بين ص ١٠٤ و ص ٣٦٠ من الجزء الأول

من الكتاب الأصلى ، الا أن هذا الفصل لا يدخل ، ومن وجهة نظرنا ، ضمن أبحاث الكتاب الأساسية التى تتركز حول دراسة أشكال العبادات وطقوس السحر دراسة مقارنة بين العبرين القدماء والشعوب البدائية • حقا ان فريزر ملتزم فى هـذا الفصل كذلك بمنهجه المقارن ، الا أنه يقارن فيه بين قصص مختلفة رويت فيما يبدو ازاء حوادث طبيعيـة معينـة •

٤ — برج بابل : **من بين المسائل الشائكة التى تتصل بالبحث فى أصل** الجنس البشرى ، مسألة اللغة أو بالأخرى اللغات المختلفة التى تحدثت بها أجناس البشر منذ الأزل • فكيف تعددت هذه اللغات واختلفت كل الاختلاف بعد أن كان الجنس البشرى كلا واحدا يعيش فى بقعة واحدة من الأرض ؟ هذه المسألة جذبت بطبيعة الحال أنظار العبرين القـدماء وفسروها على النحو التالى :

كان الجنس البشرى بأسره يتحدث لغة واحدة فى بداية الحياة • ثم انتقل هؤلاء الناس بوصفهم بدوا ، على هيئة قافلة واحدة كبيرة من جهة الشرق حتى وصلوا الى سهول شـنعار الفسيحة : أو الى أرض بابل ، وهناك حطوا رحالهم وابتنوا مساكنهم من الطوب بعد أن ألصقوا بعضه بالبعض الآخر بملاط من الطين • على أنهم لم يكتفـوا ببنـاء مدينة ، وانما رأوا أن يشيدوا برجا عاليا يصل الى عنان السماء من نفس المواد التى بنوا بها مساكنهم • والسبب الذى دفعهم لبناء هذا البرج هو أن يكون البرج علامة لهم من ناحية ، وحتى لا يتفرق الناس على وجه الأرض من ناحية أخرى ، ذلك أنه اذا تجول أحدهم خارج المدينة وضل طريقه فى السهول المترامية ، فانه ينظر الى الوراء غربا ، فيرى من بعيد هذا البرج وهو يقف مظلما وقد انعكست عليه أضواء سـماء المساء البراقة • أو أنه ينظر شرقا فيبصر قمة البرج وقد انعكست عليه بقايا أشعة شمس الغروب • وعند ذاك يسلك طريقه مسترشدا بهـذا المعلم حتى يصل الى بيته • وقد كانت هذه الخطة سليمة لولا أنهم لم

يكونوا قد وضعوا فى حسابهم قوة الرب وغضبه عليهم • فبينما كانوا يشيدون البرج بقواهم وسواعدهم الفتية ، هبط الرب من السماء ليبصر المدينة والبرج الذى كان الناس يعلون به فى سرعة فائقة • فساءه هذا المنظر وقال لهم : « هاهم أولاء شعب واحد له لسان واحد ، وهذا ما شرعوا فى عمله ، ولن يمنعهم شىء من تحقيق غرضهم » [1] ويبـــدو أن الرب كان يخشى أنه عندما يكتمل بناء البرج ويصل الى عنان السماء يتسلقه الناس ويقضون مضجعه وهو الأمر الذى لم يفكر فيه الناس • ولذلك فقـــد عزم الرب على أن يقضى على هذه الخطة فى مهدها ، وقال لنفسه أو لمجمعه السماوى « لنهبـــط الى الأرض ونبلبل لغتهم حتى لا يفهم بعضهم بعضا » [2] وعند ذاك هبط الرب وبلبل لغتهم وفرقهم عـــلى وجه الأرض • ومن ثم فقد كف الناس عن بناء المدينة والبرج • وقد أطلق على هذا المكان اسم بابل ومعناه البلبلة لأن الرب قد بلبل فيـــه لغات الناس جميعا • وقد روت القبائل الافريقية وقبائل المكسيك وبورما بل والاغريق القـــدماء حـــكايات شبيهة بتلك الحكاية ، وكان الغرض من بناء البرج انما قتل الاله الذى كان يســـكن معهم فى الأرض ذات يوم ثم غضب من الناس وصعد الى ملكوته السماوى ، أو رؤية القمر على حقيقته • وقد كانت النتيجة واحدة فى كل هذه الحكايات وهى سقوط البرج وقتل الناس الذين حاولوا تسلقه وبلبلة ألسنة الناس جميعـــا وتفرقهم فى بقاع الأرض • والى هنا ينتهى المجلد الأول من الترجمة ، أما المجلد الثانى فيشتمل على الجزأين التاليين :

أولا : عصر الشـــيوخ والآباء :

١ ــ عهـــد ابراهيم : يبدأ هذا العصر بأبى الأنبياء ابراهيم عليه السلام • وتحكى التوراة ان ابراهيـــم خرج من أرض بابل الى أرض كنعان • وهنـــاك ظهـــر الرب وقال له أنا الرب الذى أخرجك من أور

---

(١) سفر التكوين ١١ : ٦ •
(٢) سفر التكوين ١١ : ٨ •

الكلدانيين ليعطيك هذه الأرض لترثها • فقال أيها السيد الرب بماذا أعلم انى أرثها • فقال له خذ عجلة ثلاثية وعنزة ثلاثية وكبشا ثلاثيا ويمامة وحمامة ، فأخذ هذه كلها وشقها من الوسط ، وجعل شق كل واحد مقابل صاحبه • وأما الطير فلم يشقه فنزلت الجوارح على الجثث وكان ابرام يزجرها • ولمـــا صارت الشمس الى المغيب وقع على ابرام سبات واذا رغبة مظلمة عظيمة واقعة عليه • فقال لابرام أعلم يقينا أن نسلك سيكون غريبا فى أرض ليست لهم ويستعبدون لهم فيذلونهم أربعمائة ســـنة • ثم الأمة التى يستعبدون لها أنا أدينها • وبعد ذلك يخرجون بأمـــلاك جزيلة ••• ثم غابت الشمس فصارت العتمة واذا تنور دخان ومصباح نار يجـــوز بين تلك القطـــع • فى ذلك اليـــوم قطـــع الرب مع أبرام ميثـــاقا » [1] •

فهذه القصة تحكى عن ميثاق عقد بين ابراهيم والرب ومن ثم فقد سمى فريزر هذا الفصـــل « عهـــد ابراهيم » • ومن الواضـــح أن العهد قد تم بين ابراهيم والرب بعد أن أدى ابراهيم طقوسا معينة بناء على أمر الرب ، وهى القيام بذبح تلك الطيور التى ذكرها الرب وشطرها ثم وضع شطرى كل حيوان فى مقابل بعضهما بعضا • وعندما مر الرب بين هذه القطع كان هذا تأكيدا للعهد الذى قطعه الرب مع ابراهيـــم على أن تكون الأرض التى رحل اليها له ولنسله من بعده •

ومن الطبيعى أن تستلفت هذه الشعيرة التى أداها ابراهيم فى سبيل اتمام هذا العهد بينه وبين الرب ، نظر العلامة فريزر الذى قضى عمره فى دراسة شعائر البدائيين وطقوسهم ، فراح يقارنها بشعائر البدائيين لاستخلاص مغزاها وهدفها • وقد انتهى فريزر ، بعد استقصاء بالغ لتلك الشعيرة ، الى أنها تفسر من خلال نظريتين . النظرية الأولى هى نظرية الجزاء والنظرية الثانية هى نظرية التطهير أو الوفاء • أما النظرية

---

(١) تكوين ١٥ : ٧ الى ١٨ •

الأولى فتدعمها تلك العادة التى كانت تتبع فى جزيرة نياس عند عقـد عهـد بين طرفين أو عندما كان يقسم الطرفان على أمر ما • وفى هذه الحالة يجز الطرفان رقبة خنزير رضيع بينما يدعو كل طرف على نفسه بأن يصاب بمثل هـذه القتلة اذا ما نقض العهـد أو حنث باليمين • وأما النظرية الثانية فيؤكدها ما يقوم به عرب موآب عندما ينتابهم القحط أو الوباء • عنـد ذاك يقف الشيخ وسط الخيمة ويهتف قائلا : « افتدوا أنفسكم أيها الناس ، افتدوا أنفسكم » عندئذ تأخـذ كل أسرة شـاة وتضحى بها ثم تشطرها شطرين تعلقهما أسفل الخيمة أو على عامودين أمام الخيمة • ثم يمر أعضاء الأسرة جميعا بين شطرى الضحية اعتقادا منهم أن شطرى الضحية لهما القـدرة السحرية على طرد شبح الوباء أو الكارثة • ومعنى هذا أن الناس ينظرون الى الكارثة أو الوباء بوصفه شخصا شريرا يشهر سيفه ويأتى على كل ما يقابله • فاذا اعترضت الضحية طريقه كالأسد الرابض نشب صراع مفزع بينهما ينتهى بقهر هـذا الكائن الشرير بينما تظل الضحية المنتظرة مسيطرة • فالتفسير التطهيرى أو الوقائى يتلاءم مع هذا المثال ، فى حين ينتفى عنه التفسير الجزائى • اذ ليس من المعقول أن يتسبب قتل الشاة فى موت النـاس الذين يمرون بين أجزائها • بل ان الناس يعتقدون ، على عكس هذا ، أن الضحية تحميهم من الشر الذى يتهدد حياتهم بشكل أو بآخر • وفى ضوء هذين التفسيرين حاول فريزر أن يفسر مغزى الشعيرة العبرية • وقد رأى أنه من الأوفق تفسيرها من خـلال النظرية الوقائية عن أن نفسرها من خلال النظرية الجزائية • ولكنه فى الوقت نفسـه أخـذ يتساءل عن صلة هذه الشعيرة بفكرة التطهير أو الوقاء • وفى هذا يتبنى فريزر وجهة نظر روبرتسـون سميث فيما سماه « بالسر المقـدس » لهـذه الشعيرة • ويفترض روبرتسون بناء على هذه النظرية أن الذين يمرون بين أجزاء الضحية أو يقفون فوقها ، يتحدون مع الحيوان ومع بعضهم بعضا فى رابطة الدم • أى أن هـذا العهد ليس سوى شـكل آخر لعادة تنتشر حتى اليوم على نطـاق واسع تعرف بعهد الدم •

والمتعاهدون ، وفقا لهذه العادة يمزجون قدرا من دمائهم بعضا ببعض ، وبذلك ينشأ فيما بينهم نوع من القرابة العصبية الوثيقة • على أن فريزر المدقق لم يتبين نظرية روبرتسون سميت بطريقة عمياء ، وانما رأى أن تفسير الشعيرة العبرية ينبغى أن يجمع بين نظريتى الجزاء والوقاية معا • فشطر الذبيحة الى شطرين يرمز الى مصير الحانث بالعهد ، كما أن مرور المتعاهدين بين شطرى الذبيحة يفسر من خلال النظرية الوقائية أو نظرية السر المقدس • فكلتا النظريتين ، من وجهة نظره ، تكمل احداهما الأخرى ، كما أنهما معا تقدمان تفسيرا متكاملا لهذه الشعيرة •

على أننا نرى أن الشعيرة العبرية لا يمكن أن تفسر الا من خلال نظرية السر المقدس على نحو ما شرحها روبرتسون سميث فيكون مغزها عندئذ هو عقد أواصر الرباط المقدس بين ابراهيم والرب أثر هذا الميثاق الذى عقده الرب معه • اذ ليس من المعقول أن تفسر الشعيرة أو بالأخرى يفسر جزء منها بالنظرية الجزائية التى يلقى الرب وفقا لها جزاء مشابها بمصير الضحية اذا ما حنث بالعهد الذى قطعه على ابراهيم •

٢ ــ ارث يعقوب أو نظام وراثه الأبن الأصغر :

ويستمر فريزر مع التوراه فى تعقب تاريخ بنى اسرائيل • ولكنه ترك اسحق جانبا ليفرغ لعرض حياة يعقوب الحافلة بالمغامرات التى لم تخل من معتقدات وطقوس بدائية ظلت عالقة بها •

وقد بدأ فريزر هذا الفصل بتصوير شخصية يعقوب كما تتمثل فى التوراه • ولا بد أن الكاتب اليهودى قد أبرز من خصال يعقوب ما هو محبب الى نفسه والى قومه • ذلك أن يعقوب فى التوراه يعد « مثالا للتاجر السامى اللين الحذق الوافر الحيلة الذى يحرص على الكسب وعلى أن يتمم صفقاته لا بالقوة بل بالحذق دون أن يتردد كثيرا

فى اختيار الوسائل التى يبز بها منافسيه ويتفوق عليهم » (٢٢) • ومن ثم فقد خلت شخصية يعقوب فى التوراة من كل من الوقار الذى اتسم به جـده ابراهيم • والورع التأملى الذى اتصف به اسحق • وقـد عكف فريزر على حادثتين فى حياة يعقوب لم يتردد فيهما فى استخـدام كل أساليب المـكر والخداع فى سبيل الحصـول على مكسب شخصى • مون حسن الحظ أن هاتين الحـادثتين الشائقتين اشتملتا على نماذج من الطقوس والمعتقدات البدائية التى عنى فريزر بابرازها من خـلال حكايات التوراة • أما الحادثة الأولى فهى حادثة خـداع يعقوب لأخيه الاكبر عيسى لكى يسلب منه حقه فى الارث وفى بركة أبيه ، وأما الحادثة الثانية فهى حادثة خداعه لخاله لابان بعـد أن تزوج من ابنتيه ، وقضي معها زمنا طويلا • وبين الحادثتين هناك حوادث أخرى لم يتركها المؤلف عابرا ، وانما حاول كذلك أن يستخلص ما فيها من معتقدات وعادات بدائيـة •

وقد عمد يعقوب الى الحيلة التالية التى تحكيها التوراة فى سبيل خداع أخيه لقـد جاء الى أبيه الكفيف اسحق مصطنعا ملمس أخيـه عيسو ، بأن ارتدى جلد نعجة ، ومصطنعا صوته ، وادعى لأبيه أنه عيسو وأنه جاءه ليخلع عليه البركة • فباركه أبوه ، وبذلك سلب حق أخيـه فى البركة • أما سائر حق عيسى فى الارث فقد اشتراه منه مقابل أكلة من الثريد عندما كان عيسو يعاني آلام الجوع • وهنا يتساءل فريزر عما اذا كان سلوك يعقوب على هـذا النحو حقا بدافع خداع أخيـه وأبيه ، أم أن عادة الابن الأصغر فى الارث كانت ما تزال تتبع فعلا فى هذا الوقت ثم تغيرت فيما بعد الى عادة حق الابن الأكبر فى الارث فى زمن كتابة سفر التكوين ، ومن ثم فقد فسر كاتب السفر خلع اسحق البركة على ابنه يعقوب على أنه من قبيل خداع يعقوب لأخيه وأبيه ؟

---

(٢٢) الفولكلور فى العهد القديم : ص ١٧٢ •

هذا هو موضوع هذا الفصل • ومن ثم فقـــد استطرد فريزر فى ذكر تفاصيل عادة حق ارث الابن الأصغر ، فساق الشواهد العـــديدة عليها • فقد كانت العادة المتبعة فى الأسر القديمة التى كانت تعيش فى ظـــل النظام الرعوى أو الزراعى المتنقل ، أن يهجر الأبن الأكبر أبويه بحثا عن حياة رعوية أو زراعية مستقلة ، كما كان اخوته يفعلون فعله عندما يكبرون بحيث لا يبقى فى بيت الوالدين سوى الأبن الأصغر الذى يكلف برعاية والديه وأخوته • ومن الطبيعى بعـــد ذلك أن يكون لهـــذا الأبن الأصغر حق ارث مســـكن والديه كذلك أدوات البيت والأرض الى غير ذلك • وممـــا ساعد على ممارسة هـــذه العـــادة كثرة الأراضى وقلة السكان • فلما استقرت الأسر فيما بعـــد ولم يعـــد هنـــاك مزيد من الأراضى الشاسعة ، انتقل هذا الحق الى الابن الأكبر • ولم تكن عادة حق ارث الابن الأصغر متبعة بين القبائل البدائية فحسب ، كما لاحظ ذلك فريزر ، وانما كانت نظاما منتشرا فى كثير من بقاع العـــالم ومنها انجلترا وفرنسا •

وحيث أن يعقوب كان من وجهة نظر فريزر ، صاحب الحق الشرعى فى ارث أبيه ، وهو الأمر الذى غفل عنه كاتب سفر التـــكوين ، حيث أن هـــذه العادة كانت قد تغيرت فى عصره ، فان ارتداء يعقوب جلـــد النعجة لم يكن بنـــاء على ذلك ، بدافع اصطناع ملمس أخيه لخـــداع أبيه ، ومن ثم فانه ينبغى أن يفسر هـــذا التصرف تفسيرا مقنعا آخر • وقد توصل فريزر ، من خلال المنهج المقارن الى أن هـــذه العادة كانت تتبع فى مناسبات حيوية متعددة منها الميلاد والتبنى والمرض والختان • فاذا كانت مناسبة من هـــذه المناسبات ، بقرت نعجه ، ووضـــع المريض أو الصبى أو الطفل أو المريض بداخلها • وقـــد تتبع هـــذه العادة بشكل آخر وهو لف الصبى أو الطفل أو المريض بشرائح من جلد النعجة بعد ذبحها وتفسير هـــذه العادة هو أن الشخص الذى يوضـــع فى بطن النعجة أو يرتدى جلدها يطابق بين شخصه والحيـــوان الضـــحية الذى

يكون بمثـابة الحاجز بينـه وبين ايذاء القـوى الشريرة المتربصـة به فى هـذه المناسبات بصفة خاصة ، ومن ثم فان القوى الشريرة توجه أذاها الى الحيوان بدلا من الشخص •

وأحيانا كانت هذه العادة تتبع فى مناسبة أخرى يطلق عليها الميلاد الجديد • وهذا الميلاد الجديد يكون فى حالة التبنى أو رفع شخص الى مرتبة أسمى من مرتبته الاجتماعية ، أو فى حالة ما اذا عاد شخص الى قومه بعد غيبة طويلة ، بحيث أنهم عدوه من الأموات • وفى هذه الحالة يوضـع الشخص فى تجويف نعجة ويصطنع صراخ الطفل وكأنه يولد من جـديد • وهكذا ينتهى فريزر من هـذا الفصـل بالنتيجة التالية فيقول : « فاذا عدنا من النقطة التى بدأنا منها فاننا نذكر على سـبيل الافتراض أن حـكاية الخديعة التى ارتكبها يعقوب مع أبيه أسـحق تتضمن بقايا احتفال شرعى هو احتفال الميلاد الجـديد من عنزة ، الذى كان الناس يرون ضرورة اتباعه أو يرغبون فى اتباعه عندما يفضل الأبن الأصغر فى الحقوق على حساب أخيـه الأكبر الذى مازال على قيـد الحيـاة ، تماما كما يتظاهر الرجل الهندى فى أيامنا هذه بأنه يولد من جـديد من بقرة ، وذلك اذا شاء أن يسمو الى مستوى اجتماعى أعلى من مستواه أو أن يعود الى قومه الذين خسرهم اما نتيجة حظه العثر أو بسبب سوء سلوكه • وربما بسط هـذا الاحتفال الغريب عند العبرين كما بسط عند الأكيكويو ، فأصبح يتمثل فى ذبح عنزة ووضـع قطـع من جلدها على الشـخص الذى يعتقـد بذلك أنه يولد من عنزة مرة أخرى • فاذا كان افتراضى هذا صحيحا ، فان كاتب قصـة يعقوب فى سفر التكوين يكون بذلك قد دون هـذه الشعيرة القـديمة ، وان كان قد أساء فهمها فى الوقت نفسه » (١) •

ثم رحل يعقوب الى حران موطن خاله لابان ، وذلك بناء على نصيحة أمه • أما السبب الذى يعزوه المصـدر اليهودى لذلك ، فهو خـوف

---

(١) الفولكلور فى العهد القديم ص ٢٢٣ •

الأم على ابنها يعقوب من غضب أخيه عيسو • وأما المصـــدر الكهنوتى فيفسر ذلك بان الأم لم تشأ لابنها أن يتزوج من بنات الكنعانيين الذين كان العبريون يعدونهم كفرة فارســـلته الى خاله ليتزوج من احـــدى بناته • ومهما يكن سبب رحيل يعقوب الى حران ، فانه اتخـذ طريقه الى هناك عبر الجبال والصخور والفيافى الشاسعة فلما جن عليه الليل وكان يسير فوق جبل ، استلقى على الأرض ووضـع رأسه على صخرة وراح فى نوم عميق • فرأى فى رؤياه سلما منتصبا يصـل بين السماء والأرض والملائكة صاعدة هابطة عليه • ثم سمع صـوت الرب يباركه ويعده بأن هـذه الأرض ستكون له ولأبنائه من بعـده • فلما استيقظ يعقوب مسح الحجر الذى اتخـذه وسادة له وأطلق على المـكان اسم « بيت ايل » أى بيت الرب • ومنذئذ أصبح هذا الحجر مقدسا لدى العبريين القـدماء • ويعلق فريزر على هـذه الحادثة بانها حـكاية لفقها العبريون القدماء ليبرروا بها حلمهم القـديم فى امتلاك هـذه الأرض ليصبح وطنا قوميـا لهم • ذلك أن هـذا المـكان بعينه كان الكنعانيون ، سكان البلاد الأصليون يعبدون آلهتهم عنده • ومهما يكن مصـدر هـذه الحكاية فانها تخفى بين سطورها بقايا عبارات ومعتقدات قديمة • وهنا يسوق فريزر القرائن التى تشير الى اعتقاد بعض الشعوب فى أن لجوءهم الى بعض الأمكنة المقـدسة ونومهم فى ساحتها ، يساعدهم على ظهور الآله لهم فى رؤياهم فيتسنى لهم عند ذاك أن يسألونها عما يعن لهم من أمور • أو يطلبون منهـا الشفاء من مرضـهم • كما كان الناس فى الزمن القـديم يتصورون أن أرواح الموتى تصعد من الأرض الى السماء عن طريق سلم • بل أن بعض الشعوب كان يضـع سلما صغيرا فى القبور لكى يسهلوا على الأرواح عملية الصعود الى مأواها • ولم تكن فـكرة عبادة الحجر الذى يسكنه الرب غريبة على الاسرائيليين القـدماء • فقد اتهم النبى أشعياء الاسرائيليين الذين كانوا يعبـدون الأشجار الملساء المتأكلة بفعل المياه وهى تلك الصخور التى كانت تقع فى الأخاديد الجـدباء ، ويصبون عليها الخمر ويقـدمون لها النبات ،

اتهمهم بالوثنية • وعلى كل فان الاسرائيليين لم ينفردوا بعبادة الأحجار ، بل شاركهم فى ذلك كثير من الشعوب من بينهم العرب الجاهليين •

٣ ــ **العهد على ركام الأحجار** : ثم تستمر التوراة فى سرد قصة يعقوب ، فتحكى عن زواجه من ابنتى خاله لابان ، لبئة وراحيل • وفى مقابل ذلك مكث يعقوب عند خاله فترة من الزمن يرعى له قطعان ماشيته • وبعد فترة من الزمن ، راجع يعقوب مكسبه المادى عند خاله فلم يجده شيئا • فقرر ن يسلب مواشيه ، وأن يهرب مع زوجتيه وأولاده تحت جنح الليل الى بلاده • واحتال بعد ذلك على زوجتيه لاقناعهما على الهرب فوافقتا • وقبل الرحيل عمدت راحيل الى سرقة آلهة بيت أبيها خوفا من أن تنتقم تلك الالهة لأبيها من فعلتهم ، ثم أخفت تلك الآلهة تحت محفة جملها وجلست فوقها دون أن تخبر يعقوب بذلك ، ثم رحلت القافلة تحت جنح الليل منتهزا يعقوب فرصة غياب خاله فى سفر من الأسفار • فلما عاد الخال واكتشف ما حدث ، جمع رجاله وأسرع فى أثر القافلة حتى لحق بها ، وعند ذاك انهال على يعقوب تأنيبا وتعنيفا لا لأنه سرق أمواله وبناته فحسب ولكن لأنه سرق آلهة بيته التى تحرسه • فانكر يعقوب تلك التهمة بشدة وسمح لخاله أن يفتش الركب ، ففعل لابان ذلك ولكنه لم يعثر للآلهة على أثر • وفى تلك اللحظة استرد يعقوب أنفاسه ، ووجدها فرصة لأن يكيل الكيل لخاله أضعافا فانهال عليه تعنيفا ، وأخبره أنه لم يأخذ منه الا ما يستحقه نتيجة خدمته له تلك السنين الطويلة • ولما لم يجد لابان جدوى من مناقشته طلب منه الصلح وقلبه مفعم بالأسى لما حدث • وعند ذاك وقف يعقوب ولابان على حجر جمع عليه ركام أحجار صغيرة وأقسما على ألا يحنث أحدهما بعهد الصلح الذى قطعاه على نفسيهما • وبعد ذلك عاد لابان خاسرا الى بلاده ، فى حين استأنف يعقوب رحلته فائزا بنصيب الأسد •

فهذا مثال يبرزه فريزر من بين نصوص والتوراة ليدل به على نظريته فى سحر المشاركة • فالوقوف على الحجر وتلاوة القسم عليه ، يكسب القسم صلابة الحجر وقوته • ومما يؤكد هذا ما تتبعه بعض الشعوب من جعل العروس تقف على حجر قبل أن تطأ بيت زوجها قائلا : « لتطىء بقدميك هذا الحجر ولتكن صلابتك من صلابته وتتغلبى على الأعداء وتطئيهم بقدميك » (١) •

٤ ــ **يعقوب عند مخاضة نهر اليبوق** : ثم استمر فى سيره مع الركب حتى وصل الى مخاضة نهر اليبوق ، وكان الليل قد أخذ يرخى سدوله عليهم • وعند ذاك أمر يعقوب القافلة أن تسبقه وبقى هو وحيدا عند شاطىء النهر • فلما ساد الكون السكون ولم يعد يسمع من بعيد سوى صوت ثغاء الغنم ، ظهر ليعقوب رجل أخذ يناضل معه يعقوب طوال الليل • ثم قال هذا الرجل ليعقوب : « أطلقنى لأنه قد طلع الفجر » • ولكن يعقوب تعلق بتلابيبه وقال له : لا أطلقك ان لم تباركنى » فلما سأل الرجل يعقوب عن اسمه وأخبره به أجابه قائلا : « لا يدعنى اسمك فيما بعد يعقوب ، بل اسرائيل لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت » • ولم يطلق يعقوب سراح هذا الشخص الا بعد أن باركه • ثم سمى هذا المكان الذى تقابل فيه مع هذا الشخص « فنيئيل » ، أى وجه الرب • وقد فسر هو هذا الاسم بقوله • « لأنى نظرت الله وجها لوجه ونجيت نفسى » (٢) •

ويعلق فريزر على هذه القصة قائلا : « والقصة على هذا النحو تبدو غامضة ، ومن المحتمل أن مؤلفى سفر التكوين قد أغفلوا بعض ملامحها الأساسية عندما اشتموا بها رائحة الوثنية • ولكننا اذا ربطنا هذه القصة من ناحية بالملامح الطبيعية للمكان الذى جرت فيه حوادثها ، واذا ربطناها من ناحية أخرى بالأساطير الشبيهة بها ،

---

(١) الفولكلور فى العهد القديم ص ٢٣٧ .
(٢) التكوين ٣٢ : من ٢٦ الى ٣٢ .

فإننا نفترض بادىء بدء أن هذا الغـــريم الغامض الذى تصـــارع معه يعقوب هو روح النهـــر أو شيطانه ، وأن صراع يعقوب معه كان من أجـــل انتزاع البركة منه » [1] ولعل هذا يفسر سبب تخلف يعقـــوب عن الســـير مع القافلة ، وبقاءه وحده فى الظـــلام عند مخاضة النهر • وربما حسب يعقوب أن إله النهر يفزع من وقع أقدام القافلة وأصوات خوضها المياه ، فيدفعه هذا لأن يختفى فى بحيرة عميقة أو بين الأشجار ، حتى اذا ما مر الركب وســـاد الهدوء النهـــر فيما عدا صـــوت التيار الرتيب الهامس ، دفعـــة الفضـــول لأن يخرج من مخبئه ليســـتطلع أحـــوال النهـــر ويعرف سبب هذا الهـــرج والمرج • وعند ذاك يكون يعقوب الماكر فى انتظاره فينقض عليه ويتشبث به حتى يحصـــل منـــه على لبركة التى يسعى اليهـــا •

وليس غريبا أن تفسر الحكاية على هـــذا النحو ، حيث أن الشعوب جميعا كانت أو ما تزال تعتقد فى أن للمياه روحـــا أو شيطانا أو الها ، وأنه لابد من استرضاء هذا الكائن قبل عبور المـــاء حتى يكون عبورهم ســـالما • ولقـــد حاول كاتب القصـــة أن يخفى هـــذا الأثر الوثيق بأن جعل هذا الكائن هو رب يعقوب • ولكن الحـــكاية رغم ذلك ما تزال تكشف فى وضـــوح عن هذا المعتقد البدائى القديم •

• ــ **قـــدح يوسف** : وفى ختام هـــذا الباب الذى يتصـــل بآباء بنى اسرائيل وشيوخهم ، يأتى فريزر على قصـــة يوسف • والقصـــة فى حد ذاتها لا تعنيه بطبيعة الحـــال ، الا بمقدار ما تتضمنه هى كذلك من معتقدات بدائية • فعندما تقابل يوسف مع اخوته فى مصر بعـــد غيبته الطـــويلة عنهم ، أمر يوسف أحد خدامه أن يخفى قدحه فى جوال أخيه بنيامين • وما كاد الأخوة يتخـــذون طريقهم آفلين الى بلادهم ، حتى أرســـل يوسف الخادم فى اثرهم يتهمهم بسرقة قدح يوسف •

---

(١) الفولكلور العهد القديم ص ٢٥٢ .

ثم فتش أجولتهم واستخرج القدح بطبيعة الحال من جوال بنيامين • فاغتاظهم جميعا وعاد بهم الى يوسف • وعنـــد ذلك قال لهم يوسف : « ما هذا الفعل الذى فعلتم ، ألم تعلموا أن رجلا مثلى يتفاءل » (١) • ولما كانت كلمة يتفاءل تعنى التكهن كما هو واضح فى الترجمة الانجليزية المعتمدة للتوراة ، فقد وقف فريزر عند هذا النص وقفة ليستخلص منه اعتقادا من الاعتقادات السـائدة ، وهو التنبؤ بالأمور الغيبية عـن طريق التأمل فى قدح ممتلىء ماء أو به رواسب من القهوة أو الشـاى ، وهذا الاعتقـاد سائد بين الناس حتى اليوم ، وقد أشـار فريزر الى عديد من الأمثلة التى تؤيد ذلك •

ثانيا : عصر القضاة والملوك :

١ ــ موسى فى اليم : **وينتهى عصر الشيوخ والآباء عند بنى اسرائيل** بموت يوسف • وقد وصفت مجموعة من السير التى تميزت بألوانهـا الحيـة وتصويرها الرائع ، رحـلة هؤلاء الشيوخ والآباء من شواطىء الفرات الى شـواطىء نهر النيل • وهنا يترك المؤرخ هذه الحقبـة من الزمن لفترة يسـدل فيها السـتار على الفصـل الأول من تاريخ بنى اسرائيل • وعندما ارتفع السـتار مرة أخرى على المشهد نفسه ، كانت قد ولت حقبة من الزمن تقدر بأربعمائة سنة نمت فى أثنائها أسرة الشيوخ وأصبحت أمة • من هنا يبدأ تاريخ هذه الأمة وعلى رأسـها يقف موسى بشخصيته القـوية ، ذلك المشرع والقـائد الكبير الذى قاد شعبه من مصر وسـار به عبر الصحراء المصرية وشرع لهم قوانينهم حتى توفى فى نهاية الأمر على مرأى من أرض الميعاد التى لم يقدر لها أن يطاها بقدمه •

وقد تشكك فريزر فيمـا اذا كانت قصـة طرح موسى فى المـاء بعد وضعه فى صندوق من القش ، وعثور ابنة فرعون على هذا الصندوق

---

(١) التكوين ٤٤ : ١٥ .

واحتضانها الطفل ورعايتهـــا له ، تعتمد على أصـــل تاريخى أم أنهـــا مجرد صورة أخرى لحكايات من هذا القبيل رويت عن مؤسس الممالك والدول بصفة خاصة ، من أمثال سرجون ملك بابل الذى عاش فى القرن الثالث ق • م ، وتراخـــان ملك جيلجيت التى تقـــع فى قلب جبـــال الهملايا الثلجية ، وغير ذلك من الشخصيات الأسطورية • وقد افترض فريزر ، مقتفيا بعض آراء البـــاحثين أن هـــذه القصـــة وشبيهاتهـــا تشتملان على بقايا اعتقاد قديم هو طـــرح الطفل فى الماء اثر ولادته لاثبات شرعية بنوة الطفـــل أو عدم شرعيته • فاذا طفا الطفـــل فانه يكون ابنا شرعيـــا والا فانه يكون ابن زنا •

٢ ــ شمشون ودليلة : ومن بين قضـــاة بنى اسرائيل المشهورين ، شمشون الجبار • وقصته مع دليلة معروفة بوصفها تراثا شعبيا روائيا • فقـــد كانت قوة شمشون تكمن فى خصلات شـــعره التى لم تحـــلق منـــذ نعومة أظفاره • ولما لم يكن يعلم بهذا السر ســـواه ، فقد بذل أعداؤه جهدا ضائعا فى ســـبيل القضـــاء عليه • ومن ثم فقـــد لجئوا الى حبيبته دليلة ورشـــوها بالمـــال حتى تكشف لهم عن مكمن قوته • واحتالت دليلة على شمشون حتى تتعـــرف منه عل هـــذا السر ، ولكن شمشون كان يخدعها فى كل مرة فيخبرها خطأ بمكمن قوته • وفى نهـــاية الأمر ضعف أمام قوة اغرائها والحاحهـــا وأفشى لها السر ، وأفشـــته هى بدورها الى أعدائه • وفى الحـــال قيد شمشون الجبـــار وقصت خصلات شعره فخارت قواه وانتقم منه أعداؤه شر انتقام •

فهذه القصة تكشف عن اعتقـــاد شـــعبى قديم مـــؤداه أن قوة الانســـان أو روحه تكمن فى جزء ما من جســـمه أو فى أى شىء مادى خارج جسمه • فاذا استطاع شخص ما أن يهتدى الى معرفة مكمن هذه القوة أو الروح ، وأن يصيبها بضرر ، فان الضرر سرعان ما ينتقـــل الى الشخص المعنى فيصـــاب بأذى قد يفضى به الى الموت • وليست قصـــة شمشون ودليلة كما تروى على هذا النحو ، ســـوى رواية من

الروايات المتعددة التى تحكى عن هذا الموضوع وتندرج تحت ما نسميه بالحكايات الخرافية • وقد قدم فريزر للقارىء نماذج وافرة من هذا النوع ليؤيد بها هذا الاعتقاد من ناحية ، ويربط بينها وبين قصة شمشون ودليلة من حيث الشكل والمضمون من ناحية أخرى •

٣ ــ **حزمة الحياة** : ثم صادف فريزر نصا آخر فى قصة داوود وأبيجال يشير الى اعتقاد آخر شديد الصلة بهذا الاعتقاد • فقد ظل داود يهيم مع رجاله على وجهه فى البرارى « هربا من تعقب شاءول له ، حتى وصل الى أرض يملكها مزارع غنى يدعى نابال • فطلب داود منه أن يزوده بزاد وغير ، ولكنه أبى فلما تهدده داود أسرعت زوجة نابال الجميلة وتدعى أبيجال وقدمت لداود ما طلبه • ثم قالت له من بين عبارات الاطراء به : « وقد قام رجل ليطاردك ويطلب نفسك • ولكن نفس سيدى لتكن محزومة فى حزمة الحياة مع الرب الهك • وأما نفس أعدائك فليرم بها كما من وسط كفة المقلاع » [1] ومغزى هذه العبارة هو أن أرواح الأحياء يمكن أن ترتبط فى حزمة ضمانا لسلامتها • وأما فى حالة أرواح الأعداء فان الحزمة تحل وتبعثر أرواحهم منها وتذروها الرياح • ويعلق فريزر على هذه بقوله : « ولا يمكن أن تعترى الشخص العبرى هذه الفكرة ، حتى وان كانت مجرد صيغة تعبيرية ، ما لم تكن هذه الفكرة ترتبط فى ذهنه بعقيدة تتصل بنظرتهم الى الروح » [2] ومن الممكن ، وفقا لهذه العقيدة ، أن تربط أرواح القبيلة التى يشار اليها بعصى أو بحجارة فى حزمة واحدة ، ثم تودع هذه الحزمة فى مكان آمن لا يصيبه سوء • وكلما ولد لهذه القبيلة طفل ، أضافوا عصاة أو حجرا لهذه الحزمة • ومما يؤيد هذا ، كما يقول فريزر ، حزم « شارونجا » وهى عبارة

---

(١) سفر صموئيل الأول ٢٠ : ٢٩ .
(٢) الفولكلور فى العهد القديم ص ٢٨٥ .

عن مجموعة من الأحجار المسطحة المسواه ومن العصى التى تحتفظ بها قبيلة أرونتا وبعض القبائل الأخرى التى تسكن استراليا الوسطى ، بعناية كبيرة وسرية تامة فى كهوف وشقوق الصخور • وكل حجر من هذه الأحجار السحرية وكذلك كل عصاة ترتبط ارتباطا وثيقا بروح فرد من أفراد العشيرة حيا كان أم ميتا •

ثم استطرد فريزر من الحديث عن اعتقاد الشعوب فى امكان بقاء الروح فى أى صورة ما بعيدا عن الجسد ، الى الحديث عن اعتقادها فى تحضير الأرواح • وقد حارب أنبياء بنى اسرائيل المتأخرين هؤلاء المشعوذين الذين كانوا يقومون بتحضير الأرواح أو حبسها بقصد ايذائها ، وأودعوهم السجون • وكان من بين هؤلاء الذين حاربوهم الملك شاءول • ومع ذلك فعندما اعترت شاءول غمة بسبب عجزه عن محاربة الفلسطينيين ، أسرع الى ساحرة عين دور التى كانت قد أفلتت من العقاب ، وطلب منها أن تحضر له روح صموئيل النبى الذى كان قد توفى غاضبا عليه • فلما استحضرت له الساحرة روح صموئيل بعد أن طمأنها شاءول على حياتها ، خاطب شبح النبى الملك شاءول قائلا : « لماذا أقلقتنى باصعادك اياى » • فقال شاءول : « قد ضاق بى الأمر جدا ، الفلسطينيون يحاربوننى والرب فارقنى ولم يعد يجيبنى لا بالأنبياء ولا بالأحلام ، فدعوتك لكى تعلمنى ماذا أصنع [1] » • ولكن روح النبى لم تطمئنه ، بل انها على العكس أصرت على غضب الرب عليه •

٤ ــ **جريمة عد السكان** : وقد كان العبريون القدماء يعتقدون فى أن القيام بتعداد السكان يجلب عليهم الشر • فقد ورد بين حكايات سفرى صموئيل والأخبار أن يهوة أو ربما الشيطان قد أوحى الى الملك داوود بفكرة مشئومة هى أن يقوم بتعداد قومه • ومهما يكن

---

(١) سفر صموئيل الأول ٢٨ من ١٣ ــ ١٥ .

مصدر هذا الوحى على وجه التأكيد ، لأن الكتاب الدينيين يختلفون حول هذا الموضوع ، فان نتيجة هذا العمل أو على الأقل عاقبته ، كانت حلول الكارثة ببنى اسرائيل . فقد تناقص عددهم اثر ذلك مباشرة نتيجة انتشار وباء الطاعون فيما بينهم • ونظر الناس الى هذه الطارئة بوصفها جزاء طبيعيا لجريمة عدهم • ويفسر هذا الاعتقاد بأن الأرواح الشريرة تظل متربصة بمن يملك عددا من الأغنام والماشية أو عددا من الأبناء ، فاذ علمت عددهم على وجه التحديد ، أصابتهم بأذى • ومن ثم فان من يضطر الى عد شىء يمتلكه ، فانه يراوغ فى العد على سبيل خداع الروح الشرير • وهذه الطريقة فى العد معروفة تماما لدينا حتى اليوم عندما يقول الناس فى العد : الله واحد • مالوش ثانى •• وهكذا •

عبادة شجر البلوط : وقد احتلت شجرة البلوط المكان الأول بين الأشجار المقدسة عند العبريين القدماء • وما تزال هذه الشجرة تنمو بوفرة فى فلسطين كما يقول المؤلف • وكثيرا ما يرد ذكر شجرة البلوط بصفة خاصة فى التوراة • ومثال ذلك ما ورد فى سفر التكوين ١٠ : ٦ : « واجتاز ابرام فى الأرض الى مكان شكيم الى بلوطة مورة وكان الكنعانيون حينئذ فى الأرض • » وكذلك ما ورد فى هذا السفر ١ : ١٨ « فنقل أبرام خيامه وأتى عند بلوطات ممرا التى فى حبون • بنى هناك مذبحا للرب • » وبالمثل ما ورد فى الاصحاح ١٨ : ٢٧ من هذا السفر : « وظهر له الرب عند بلوطات ممرا وهو جالس فى باب الخيمة وقت حر النهار فرفع عينيه ونظر واذا ثلاثة رجال واقفين لديه » •

ومازال الفلاحون فى فلسطين ، كما يقول فريزر ، ينظرون الى أشجار البلوط التى تنمو بوفرة ، فى جهات كثيرة فى فلسطين نظرة تقديس أساسه التصورات الخرافية ، اذ أنهم يعتقدون أنها مأوى الجن والأرواح • ومع مرور الزمن ربط الأهالى بين عبادة هذه

الأشجار وعبادة الأولياء ، فكانوا يقيمون قبر الولى عند بلوطة خضراء وهناك يذبحـــون الضحية اليه ، ويتوســـلون اليه أن يحقق لهم أمـــرا من الأمور • وهذا الربط بين الأشـــجار وضريح الولـــى يشـــير الى الاعتقاد فى أن روح الولى تســـكن الشجرة • وبهذا يكون هذا الاعتقاد امتدادا للاعتقاد البدائى القـــديم فى أن للشـــجرة روحا تؤدى لهـــا الطقوس المحددة فى مناسبات بعينها ٠

ومن عادة بعض الشعوب ان لم يـــكن من عادة شعوب العـــالم جمعاء ، أنه عندما تتعرض أسرة لوفاة فرد منهـــا تفرض على الأحياء قيود معينة تحدد من زوايا متعددة حرية الفـــرد التى يتمتع بهـــا فى حياته العـــادية • وكلما كانت صلة الأحياء بالميت أكثر قربا كانت القيود التى تفرض عليهم أكثر تعنتا • وعلى الرغم من أن أســـباب فرض هذه القيود لاتزال مجهولة فى الغالب لمن يضطر أن يخضـــع لها ، الا أن الشـــواهد العديدة تشـــير الى أن كثيرا من هذه القيود ، ان لم يكن جميعهـــا ، قد نشأ نتيجـــة الخوف من شبح الميت والرغبة فى الهروب من ترقياته غـــير المســـتحبة بصرف نظـــره عنهم اما عن طريق طرده أو اغرائه أو الى ارغامـــه على أن يذعن لمصيره ، ويكف عن مضـــايقة أهله وأصدقائه • وقد كان العبريون القدماء يراعون اتبـــاع كثير من القيود عند حدوث الوفاة كما يتضح هذا من نصـــوص التوراة • وقد استطاع فريزر أن يضيف الى قائمة القيود التى تفرض ســـلوكا معينا على المكلومين عند العبريين ، قيدا آخـــر لم يطـــرأ على ذهن الكتاب الدينيين كما يقول ، اذ لم يشيروا اليه فى كتاباتهم ، وان دلت عليـــه أصـــول الألفاظ وأكدته العـــادات المتشـــابهة التى تتبعها الشـــعوب البدائية • فكلمة الأرملة باللغة العبرية تعنى الخرســـاء أو الصـــامتة • وقد دعاه هذا التحليل اللغوى الى التساؤل عن سبب ارتباط كلمة الأرملة بالصمت • وقد أجاب عن هـــذا التســـاؤل من خلال فحص تلك العادة البدائية التى تفرض على أقرباء الميت بعض القيود ومن بينها الصمت •

ومن بين القبـــائل التى تراعى هـــذه العـــادة القبـــائل الأفريقيـــة وقبائل وسط استراليا وشمالها • فالأرملة فى هذه القبـــائل يفرض عليه الصمت لمدة طويلة أو قصيرة ، ولا يسمح لها بالكلام الا بعـــد تأدية الصمت : ومن بين القبائل التى تراعى هذه العـــادة القبـــائل الافريقية شـــعائر محددة • والسبب فى هذا فيما يرى فريزر ، هو الخوف من أن ينجذب شبح الزوج الخطير اليهـــا اذا ما ســـمع صوتها ، فيتعرض لايذائها ما لم تؤد بعض الشعار المحددة •

وبهذا ينتهى الجزء الثالث من الكتاب الذى استطاع فيه المؤلف أن يبرز من بين روايات عصر القضـــاة والملوك ، العـــديد من التقـــاليد المعتقـــدات العبرية التى ترتكز فى أصـــولها على تقاليـــد ومعتقـــدات بدائيـــة •

ثالثا : القـــانون : وبعـــد ذلك يفرغ المؤلف لبحث الجزء الرابع والأخير من الكتاب وعنوانه « القانون » • ويميز النقـــاد فى مجمـــوعة القوانين المعقدة التى تكون الجزء الأكبر من أســـفار موسى الخمســـة ثلاث مجموعات أو تكوينات قانونية على الأقل • وهـــذه المجموعـــات الثلاث تختلف عن بعضها البعض فى تاريخهـــا وطابعها ، وهى تشتمل وفقا لترتيبها التاريخى على كتـــاب العهد وقانون ســـفر التثنية وقانون الســـفر الكهنوتى • ويعرف أقدم قانون فى أسفار موسى الخمســـة بما يسمى بكتاب العهد وهو الذى يتضمن ســـفر الخروج من الاصحاح العشرين آية ٢٢ الى الاصحاح الثالث والعشرين آية ٣٣ ، وقد سمى هذا القـــانون بالتشريع الأول وهو يتصل كل الاتصـــال بسفر الخروج الاصحاح الرابع والثلاثون من آية ١١ الى آية ٢٧ ، وهو ما يســـمى فى بعض الأحيان بكتاب العهـــد الصغير • ويقول فريزر انه من الممكن الادعاء أن هذه القوانين حتى قبل تقنينها كانت تنتشر بوصفها نظمـــا عادية ، ذلك أن القوانين لا تفرض فرضـــا على المجتمع ، بل لابد أن تكون متلائمة مع عادات الناس ومعتقداتهم الى حد بعيد اذا قدر لها

أن تعيش • أما المجموعة الثانية من القوانين التى يميزها النقـــاد فى أسفار موسى الخمسة ، فهى تلك التى يشـــتمل عليها سفر التثنية ، وهو الســـفر الذى دعا الى الاصـــلاح الدينى عن طريق ازالـــة الأماكن المقدسة المحلية جميعها ، وتركيز عبادة يهوة الشعائرية فى معبد أورشليم وحده •

فاذا كانت القوانين ترتكز فى العـــادة على أصل قديم من التشريع الشعبى ، فان قارىء التوراة اذن لن يفاجأ اذا ما صـــادف بين نصوصه عادات وشـــعائر ترتكز على تشريعـــات وثنية قديمـــة • ومن ثم فان القارىء لن يفاجأ عندما يقرأ وصية من بين الوصايا العشر تنص على عـــدم طبخ الجدى فى لبن أمـــه ، وهى الوصية التى تقع فى ســـفر الخروج ٢٤ آية ا • وهنا تبرز مشـــكلة وهى أن الوصـــايا التى دونت فى هذا الاصحاح لا تتفق كلية مع النص الأكثر ذيوعا للوصايا العشر المدون فى الاصحاح العشرين من ســـفر الخروج وهى تلك الوصـــايا التى نقرؤها مرة أخرى فى الاصحاح الخامس من سفر التثنية • ففى الرواية الأولى تختفى القيم الأخلاقية كلية ، اذ أنهـــا تشـــير جميعـــا بدون استثناء الى أمور تتعلق بالشـــعائر المادية التى يطلبهـــا الرب من عباده • ومثال ذلك (تحفظ عيد الفطير سبعة أيام تأكل فطيرا كمـــا أمرتك ـــ لا تذبح على خمير دم ذبيحتى ، ولا تبت الى الغـــد ذبيحـــة عيد الفصح) • أما عن العلاقة بين الانســـان والرب ، وبين الانسان والانســـان ، فليس هناك شىء يذكر بهذا الصدد • وانما تختص بهذه العلاقات الانسانية الرواية الثانية للوصايا ، وهى التى تحض الانسان على البعـــد عما يغضب الرب والناس • وقد يدعو هذا الى افتراض قدم التشريع الأول عن الثانى ، ومع ذلك فمـــازال على القـــارىء أن يتســـاءل عن أهمية وصية تحريم طبخ الجـــدى بلبن أمـــه • وأغلب الظن أن هذا التحريم كان موجهـــا ضد بعض الشـــعائر الســـحرية أو الوثنيـــة التى رفضها المشرع وسعى فى القضاء عليها • وأســـاس هذه الشعيرة أنها تقوم على سحر المشـــاركة ، ذلك أن طبخ الجـــدى فى

اللبن يؤدى الى الاضرار بسائر القطيع الذى يتأثر بذلك عن طريق المشاركة • ولما كان اللحم المطهر فى اللبن من الأكلات المحببة عند العبريين « فقد نص المشرع على تجنب هذا الفعل حتى لا تضار الماشية » • وليس هذا التشريع غريبا عن تشريعات القبائل البدائية التى تمنع غلى لبن الأبقار اثر ولادتها العجول حتى لا تصاب الأبقار بضرر ،ذلك أن هناك مشاركة بين الحيوان واللبن الذى يحلب منه •

٢ — ومن بين القوانين التى تشير كذلك الى اعتقاد قديم ، ذلك التشريع الذى نص عليه فى كتاب العهد على النحو التالى : « اذا نطح ثور رجلا أو امرأة فمات ، يرجم الثور ولا يؤكل لحمه ، أما صاحب الثور فيكون بريئا • ولكن اذا كان ثورا نطاحا من قبل ، وقد أشهد على صاحبه ولم يضبطه فقتل رجلا أو امرأة ، فالثور يرجم وصاحبه أيضا يقتل » [1] •

٣ — وقد كان من عادة القبائل الهجمية تنفيذ قانون الأخذ بالثأر من الحيوان كما هو الحال مع الانسان بل ان هذا كان متبعا فى أوروبا فى العصور الوسطى بصور تدعو الى الضحك ، فقد كانت المحاكمات تنصب من أجل محاكمة الحيوانات التى تؤدى الزرع كالفئران مثلا • وكانت هذه الحيوانات تستدعى للمثول أمام هيئة القضاء ، ويعين لها مدافعون عنها • فاذا لم تحضر الفئران حكم عليها بالنفى أو الحرمان من رحمة الكنيسة الى غير ذلك من الأحكام التى لم تنفذ قط بطبيعة الحال •

٤ — ومن بين تلك التشريعات كذلك ، ذلك التشريع الذى سن

---

(١) سفر الخروج ١٢ : ١٨ •

تعليق الأجـــراس فى جبة الكاهن عنـــد دخوله المعبـــد ، والا أصيب بضرر قد يفضى به الى الموت • فقد نص القانون الكهنوتى على أن يصنع رداء الكاهن وفقا للوصـــف التالى : « وتصنع جبـــة الرداء كلهـــا من اسمانجونى ، وتكون فتحة رأسها فى وســـطها ويكون لفتحتها حاشـــية حواليهـــا صنعة الحائك كفتحـــة الدرع يكون لهـــا لا تشق ، وتصنع على أذيالهـــا رمانات من اسمانجونى وأرجوان وقرمز على أذيالهـــا حواليهـــا وجلاجل من ذهب بينهـــا حواليها جلجل ذهب ورمانة عـــلى أذيال الجبة حواليها • فتكون على هرون للخـــدمة ليســـمع صـــوتها عند دخوله الى القدس أمام الرب وعند خروجه لئلا يموت » [1] •

فلماذا كان يتحتم على الكاهن أن يرتدى الأجراس المجلجلة التى يعلقها بين تطريز الثوب حتى يســـمع صـــوت رنينها عنـــد دخـــوله المعبـــد ، والا مات ؟ عندما قارن فريزر هذا الاعتقاد بالاعتقـــاد السائد بـــين الشـــعوب البدائيـــة والحضـــارية فى أن صليل الأجـــراس فى المناسبات التى تكون فيها الأرواح مهددة بمطـــاردة الأشـــباح الشريرة لها ، يعمـــل على ابعاد هذه الأشباح ، رأى أن تفســـير هذا التشريع الذى يحتم على الكاهن ارتداء الأجراس ، لا يمـــكن أن يفسر الا من خلال هذا المعتقد البدائى ، وهو أن الأرواح الشريرة تتربص بالكهنة عند دخولهم المعبد فتتعرض لابذائهم ما لم يعملوا على طردها بعيـــدا عنهم • وليست عادة دق النواقيس فى الكنائس ســـوى امتداد لهـــذا المعتقد البدائى القـــديم وان نسى السبب الأصلى فى استخدامها •

ولعلنا ندرك الآن بعد تلك الجـــولة فى ثنايا كتاب « الفولكلور فى العهد القـــديم » أن فريزر قد قدم لنا بحـــق « أسطورة أنثروبولوجية رائعة » للشعب العبرى • وقد كان فى تقسيمه كتابه الى هذه الأبواب

---

(١) سفر الخروج ١٨ من ٣٢ الى ٣٥ .

الأربعة موفقا كل التوفيق ، حيث أنه تمكن بأسلوبه الشائق ومقدرته الفائقة على المقارنات من أن يبرز صنوفا من المعتقدات والتصورات العبرية في كل مرحلة من مراحل تاريخهم الدينى الطويل • واذا كان فريزر قد نجح بحق فى ارجاع تلك المعتقدات الى أصولها البدائية ، فهذا يعنى أنه نجح فى تحقيق هدفه الذى عبر عنه فى مقدمة كتابه عندما قال : « لقد دفعنى الهدف من دراستى هذه الى أن أنعم النظر بصفة أساسية فى الجانب الأدنى من حياة العبريين القدماء كما تتمثل فى العهد القديم ، وأن أتتبع آثار الهمجية والخرافة ، تلك الآثار التى تنتشر على صفحاته » •

وفى خاتمة هذه الدراسة يمكننا أن نتساءل عما اذا كان فريزر قد تمكن من تطبيق نظريته فى السحر والدين من حيث أن السحر يعيش بين الشعوب فى مرحلة حضارية أدنى من الدين ، حتى اذا ما انتشر الدين واستقر فى النفوس انقضت المرحلة السحرية الى غير رجعة • فهل تنتمى تلك المعتقدات والتصورات والعادات التى عرضناها فى هذا البحث الى السحر أم الى الدين • أحسب لو أن فريزر سأل نفسه هذا السؤال لأدرك التناقض بين نظريته وأبحاثه ، وهو الأمر الذى أخذه الباحثون عليه وعدوه من نقاط الضعف فى أبحاثه الأنثروبولوجية • فلو أن مرحلة الدين تعد منفصلة تماما عن مرحلة السحر ، لما برزت تلك الطقوس السحرية بين سطور التوراة ، كتاب اليهود المقدس • ولعله يبدو الآن تفوق نظرية مالينوفسكى فى العلم والسحر والدين فى مجال الدراسات الأنثروبولوجية على نظرية فريزر • ذلك أننا لو افترضنا وفقا لمالينوفسكى أن السحر والدين يعيشان جنبا الى جنب ، وأن كلا منهما يلعب دورا مستقلا فى حياة الشعوب ، لاستطعنا أن نميز بين ما ينتمى الى السحر وما ينتمى الى الدين فى التوراة • فعبادة الأماكن المقدسة وتقديم التضحيات للرب ينتمان فى وضوح الى الجانب الدينى الذى يسعى الانسان بدافعه

الى استرضاء الاله لحمـاية كيانه ووجوده فى لحيـاة • وأما ارتداء يعقوب لجلد النعجة ، ولجوء شاءول الى سـاحرة عين دور وغـرض الصمت على الأرملة أثر وفاة زوجهـا ، وتقديم الضحية لآله النهر ، الى غير ذلك من الطقوس والشعائر التى عرضها الكتاب ، فهى تنتمى جميعا الى الجانب السـحرى الذى يقوم بوظيفة محاربة القـوى الشريرة حتى يكون المصير الخير حليف الانسـان • واذا كنا نلاحظ أن الطقوس السحرية تغلب بحق الطقوس الدينية فى التوراة ، فان هذا ان دل على شىء فانما يدل على أن اليهـودى لم يستطع نتيجـة ارتباطه الشديد بالمادة ، أن يسمو بدينه السـماوى الى طبيعته الروحـانية التأملية ، ومن ثم فقد ظلت طقوس السـحر البدائيـة عالقة بنفسـه وانتشرت بدورها بقصـد أو غير قصد بين سطور التوراة •

يونيو ١٩٨١

د• نبيلة ابراهيم
استاذة الأدب الشعبى
كلية الآداب ـ جامعة القاهرة

مدخـــل بقـــلم المؤلف

(١)

نبوني بعض الباحثين الى أن عددا من القراء الذين لا يقـــدرون على شراء الطبعة الأصلية من كتابى « الفولكلور فى العهـــد القـــديم » ، الذى يقع فى ثلاثة أجـــزاء ضـــخمة ، أو الذين لا يجـــدون متسعا من الوقت لقراءة هذه الطبعة ، يرحبون بظهور طبعة مختصرة لهذا الكتاب • ولهـــذا فقد قمت باعداد هـــذا الموجز تقـــديرا منى لهـــذه الفكرة ، فحذفت بعض فصول الطبعة الأصلية نهائيا ، واختصرت سائرها • ولكى أفسح المجال للنص نفسه فقد حذفت ، بصـــفة خاصة ، القدر الأكبر من الهـــوامش التى تحتـــوى على الشـــواهد المقتبسة من أعمـــال بعض الباحثين ، ولم أبق منها الا القليل ، وذلك فى بعض الأحوال النـــادرة التى كنت أرغب فيها فى تقديم تفســـير ما ، أو أرى من الضرورى ـــ فى مجال الاستشهاد بنص من العهـــد القديم ـــ أن أبدى الأســـباب التى دعتنى الى أن أتبنى قراءة مخالفـــة لتلك التى أخذت بهـــا الترجمـــة الانجليزية الرســـمية أو المعتمـــدة للعهـــد القديم • أما القراء الذين يرغبون فى التعرف على الأصول الخاصـــة بأى موضـــوع فعليهم أن يرجعوا الى الطبعة الأصلية التى تحتوى على كثير من الوثائق ••

ولقد لاحظ « رينان » أن التـــاريخ البشرى لا يقـــدم للعقـــل الفلسفى المشتغل بالبحث عن أصـــول الأشياء ســـوى ثلاث حقب ذات أهمية أساسية ، هى : تاريخ الاغريق ، وتاريخ بنى اسرائيل ، وتاريخ روما • ويمكننا الآن ـــ على سبيل المثال ـــ أن نضيف الى هذه التواريخ الثـــلاثة التى تعتمد جميعهـــا على وثائق مكتوبة ، تاريخا رابعـــا على الأقل ، هو تاريخ البشرية فى العصور والبـــلاد التى لم تكن تعـــرف

الكتابة • فمنذ أن قدم رينـــان للعالم تاريخه الكبير عن بنى اسرائيـــل وعن المسيحية فى عصـــورها الأولى ، ازدادت معلوماتنا عن التـــاريخ البشرى اتساعا وغنى ، ســـواء عن طريق الكشـــوف الأثرية لعصور ما قبـــل التاريخ أو نتيجة لدراســـة الأجناس البدائية على نحـــو أكثر دقة ، تلك الأجناس التى تقدم الينا صـــورة دقيقة ــ على نحـــو أو آخـــر ــ لمراحل التطـــور الاجتمـــاعى المختلفة التى اجتازها قديمـــا أسـلاف الأجناس المتحضرة • وقد تضافرت هذه العلوم الحديثة نسبيا على كشف القناع الى حد ما ، ذلك القنـــاع الذى ظل مســـدلا حتى هذا الوقت على طفولة البشرية ، وأخذت تتيح لنا أن ننفذ بأبصارنا ــ ان جاز لنا هذا التعبير ــ خلال الحائط المصمت الذى ظل حتى زمن متأخر حجر عثرة فى طريق الباحثين عما وراء نطـــاق التراث الكلاسيكى ، وتكشف لنـــا آفاقا تبدو لا نهـــائية للفـــكر البشرى ونشـــاطه فى تلك الأحقاب المظلمة السحيقة التى انقضت بين ظهور الجنس البشرى على وجه الأرض ، وبلوغه حالة النضج الكامل فى اطـــار الحيـــاة الانسانية المتحضرة • ومن ثم ظهرت هذه الحماســـة التى صاحبت الدراســـات الفولكلورية ودراســـة الآثار القديمة فىالوقت الراهن ، فى نطـــاق دائرة الباحثين الذين يتزايد عددهم يوما بعد يوم • ويمكننا أن نقول : أنه من بين القوى التى تشـــكل وجهة نظرنا المستنيرة فى أيامنا هـــذه وتحور فيهـــا بدأت مناهج البحث الانســـانى هذه تؤثر فى حركة الفكر العـــامة تأثيرا ثانويا فقط بالقياس الى الحافز الذى تركته فى أذهاننا صـــور التقـــدم المثيرة التى أحرزتها العـــلوم الطبيعية • فالسؤال عن صحة المعتقدات وأنماط السلوك لانســـانى من الصعب فصـــله عن محاولة معرفة أصولها ، تلك الأصول التى مازال علم الفولكلور وعـــلم الآثار القديمة يلقيـــان عليها مزيدا من الضوء ••

وقد حاولت فى هـــذا الكتاب أن أســـير على هدى الدراســـات الفولكلورية متعقبـــا بعض معتقـــدات الاسرائيليين القـــدماء وأنماط سلوكهم الفكرية والعملية فى المراحل الأكثر قدما وفجاجة ، تلك التى

تشبه ما نجده لدى القبائل البدائية التى تعيش حتى اليوم من معتقدات وعادات . واذا كنت قد حققت أى قدر من النجـــاح فى هذه المحـــاولة ، فانه سيكون من الممكن النظر الى تاريخ بنى اسرائيل فى ضـــوء أكثر صدقا ، وان يكن أقل رومانســـية ، بوصفهم شـــعبا لا يميزه الوحى الالهى عن غيره من الشـــعوب الأخرى ذلك التمييز العجيب ، بل شعبا تطور كبقية الشعوب من مرحلة بدائية يســـودها الجهـــل والهمجية ، وذلك عن طرق عملية انتخـــاب طبيعى بطيئة ..

(٢)

توصلت الأبحاث الحديثة التى تدرس فجر التاريخ البشرى بشتى اتجاهاتها الى نتيجة مؤكدة الى حد بعيـــد ، مؤداها أن كل الأجنـــاس المتحضرة قد تطورت ، فى زمن أو آخـــر ، من المرحـــلة الهمجية التى تشبه فى قليل أو كثير المرحلة التى لا تزال بعض الشـــعوب المتأخـــرة تعيشها اليوم . كما انتهت هذه الأبحاث الى أن هنـــاك آثارا ليست بالقليلة من الطرز البدائية القديمة فى الحياة والتفكير ما تزال ماثلة فى عادات الناس وتقـــاليدهم ــ حتى بعد أن كانوا قد كفوا منذ زمـــن طويل عن التفكير والســـلوك الهمجيين . وهذه الآثار الباقيـــة تدخـــل فى اختصـــاص علم الفولكلور الذى يمكن أن نعـــرفه ، بمعناه الواسع ، بأنه العـــلم الذى يستوعب مجموعة المعتقدات والعادات المأثورة لدى شـــعب من الشعوب ، مادام مرد هـــذه لمعتقـــدات والعـــادات الى السلوك الجمعى لعامة الناس ، وكانت بمنأى عما يكون لعظماء الرجال من تأثير فردى . وعلى الرغم مما كان العبريون القدماء قد أحرزوه من رقى فكرى وتطـــور دينى ، فليس هنـــاك ما يدعو لافتراض أنهم قد شـــذوا عن هذا القانون العـــام ، اذ المحتمل أنهم أيضـــا قد مروا بمرحـــلة بربرية بل همجية . وهذا الاحتمال ، الذى يرتكز على ما بينهم وبين الأجناس البشرية الأخرى من تشـــابه ، تؤيده النظرة الفاحصـــة لأدبهم ، ذلك الأدب الذى يتضمن كثيرا من الاشـــارات الى معتقداتهم

وعاداتهم التى لا يمكن أن تفسر الا من خـــلال لفتراض أنهـــا مخلفات باقية من مستوى حضـــارى أشد انخفاضا بكثير • ومن ثم كان موضوع دراستى هذه هو أن أوضح وأفسر قدرا محدودا من تلك المعتقدات البالية التى تنتمى الى عصـــور بدائية ، والتى يحتفظ بها العهـــد القديم كأنها حفريات • ولقد أتيحت لى للفرصـــة من قبل فى غير هـــذا الكتاب لأن أضع يدى على آثار بدائية أخـــرى يتضمنها العهد القـــديم ، لها نظائرها عند القبـــائل الهمجية ، مثـــل التضحية بالابن الأول ، وقانون دنس النســـاء ، ثم عادة تقـــديم ذبيحة الخطيئة [1] Scapegoat ولكن حيث اننى لا أود أن أكرر ما ســـبق أن ذكرته حـــول هذه الموضـــوعات ، فاننى أكتفى باحالة القارىء الذى يرغب فى البحث فيهـــا ، الى كتاباتى الأخـــرى • •

ووسيلتنا فى الكشف عما يتغلغل فى الحضـــارة من آثار بدائيـــة هو المنهج المقـــارن ، فهـــو يمكننا ، فيما يتصـــل بالعقل الانســـانى ، من أن نقتفى أثر تطـــور الانســـان فكريا وأخلاقيا ، بنفس الدرجـــة التى يمكننا بها ، فيما يتصـــل بجسم الانسان من أن نقتفى أثر تطوره جســـديا من الأشكال الدنيا للحياة الحيوانية • وباختصـــار فان هناك تشريحا مقارنا للعقل ، كما أن هناك تشريحا مقـــارنا للجسم • وتشريح العقـــل تبشر نتائجه البعيدة المدى بأنها لن تكون ، بالنســـبة لمستقبل

---

(١) راجع سفر اللاويين اصحاح ١٦ .
« يسميها بعضهم كبش الفداء وآخرون « تيس عزازيل » وهي تعني في علم الانثروبولوجيا أن شخصا أو شيئا أو حيوانا يحمل خطايا الفرد أو المجتمع أو يحمل ما يبتلى به الفرد أو المجتمع من أمراض وكوارث ، ومن ثم فان هذا الشخص أو الشيء أو الحيوان يقدم ضحية الاله . ويرجع هذا الاصطلاح الى عادة عبرية قديمة ، اذ كان العبريون يقدمون كبشين ضحية للاله تكفيرا عن ذنوب الشعب أو الفرد . ثم دخل هذا الاصطلاح فيما بعد مجال علم النفس ومعناه أن يلوم شخص غيره عما يصاب به من خيبة في أمر ما . فهو ينسب اليه التقصير لا الى نفسه . ومن ثم فهو يعد شكلا من اشكال الاسقاط .
(المترجمة)

الانسانية ، أقل قيمة من نتائج تشريح الجسم ، لا من الناحية النظـرية فحسب ، بل من الناحية العملية كذلك • وليس بدعـا أن نطبق المنهج المقارن على دراسة التراث العبرى القديم ، فقد اسـتخدم العـالم لفرنسى صموئيل بوشار القس هذا المنهج فى القرن السـابع عشر فى فرنسـا استخداما ناجحا ، كمـا استخدمه فى انجلترا رجـل الدين المسـلم « جـون اسبنسر » رئيس كليـة « جسـد المسـيح » Corpus Christi بجامعة كمبودج • وقد قيل عن كتابه الذى ألفه حول قوانين الطقوس لدى العبريين القـدماء أنه أرسى دعائم الأديان المقـارن • أما فى عصرنا ، وبعـد قرنين من الزمـان ، فقـد استأنف أستاذى المبجل وصـديقى « وليم روبرتسون سـميث » فى كمبردج العمل الذى اضطلع به هذان العالمان الجليلان • ويرجع التقـدم الذى أحرزته هذه الدراسة فى حياته وبعد وفاته المبـكرة جـدا الى حـد بعيد ، الى أثره القوى الـذى ظفرت به هـذه الدراسـة بفضـل عبقريته الخارقة وعلمه • وقد كان الأمل يحدونى أن أقتفى أثر هـؤلاء المتقدمين المرموقين فى هذا المجال من العـلم ، وأن أسـير به قدما بما يمكننى من أن أسـمح لنفسى بأن أسـميه تراث كمبردج فى الأديان المقارنة •

ومن المسـلمات الشـائعة أن الوصـول الى حل كامل لمشـكلة ما يتضمن حلا لمشـكلات أخرى كثيرة • ولكن لا ، فالقليل من العـلم بكل شىء لن يكون كافيا لأن يجيب ضمنا عن الأسئلة التى تثيرها أبسط أشـكال البحث • وبنـاء على ذلك ، فان فحص مسـألة فولكلورية ، بخاصـة فى المرحـلة الأولية الراهنة لهـذه الدراسـة ، من الطبيعى أن يفتح مجـالات للتساؤل تتشعب فى اتجاهات عدة • واننا لننسـاق بطريقة عفوية ـ فى أثناء تتبعنا لمجالات هـذا التسـاؤل ـ الى آفاق من البحث تزداد اتساعا على الدوام حتى لتختفى عن أنظارنا النقطة التى بدأنا منهـا • أو ـ بتعبير أدق ـ حتى لتبدو النقطة التى بدأنا منهـا فى بعدها الحقيقى مجرد ظاهرة ضمن عـدد كبير من الظواهر

المماثلة • وأن ما صادفته منـذ سنين طويلة عندما أخذت على عاتقى أن أبحث مسألة فولكلور ايطاليا القديمة ، يصـادفنى الآن وأنا أتهيأ لمناقشـة مسـائل بعينها فى فولكلور العبريين القـدماء • فقد حدث أن البحث فى أسطورة معينة أو عـادة أو قانون قد تشعب بى فى بعض الأحيـان ، حتى أوشك أن يصبح بحثا بل رسـالة • ولكننى آمل — بعيـدا عمـا تضمنته أبحاثى من رأى متعجـل فى تراث الاسرائيليين وعاداتهم — أن تكون هذه الأبحاث بمثابة اسـهام فى دراسة الفولكلور بصفة عامة • ان هذه الدراسـة لاتزال فى مرحلة البداية والأرجح أن تظل نظرياتنا ، التى تتعلق بهذه الموضـوعات ، تجريبية ومؤقتة على مدى فترة متطاولة من الزمن ، وأن تكون مجرد أدراج تصـنف فيهـا الحقائق الكثيرة الى حين ، لا قوالب حديدية تسـتقر فيها تلك الحقائق الى الأبـد • وفى هذه الأحوال يقـدم البـاحث المخلص فى مجـال الفولكلور فى الوقت الحاضر نتائج بحثه فى قـدر من التهيب والتحفظ اللذين يتلاءمان مع ما تتسم به المادة التى فى متناول يده من صـعوبة وحاجة الى التمحيص ••

وعلى هدى من هذا كنت أسير دائما • واذا كنت فى أى مكان من هذا البحث قد نسيت هذا التحذير الـذى أتجه به الى الآخـرين ، وعبرت عن نفسى فى صـورة تقريرية لا تؤيدها الأدلة ، فاننى أطلب من القارىء أن يصحح مثل هذه العبارات التقريرية جميعـا ، عن طريق اعلان هذا النوع من التشكك العام المخلص ••

وقد حاولت فى هذا لبحث أن أضـع فى الاعتبار النتـائج التى توصـل اليها أشهر النقـاد المحدثين فيما يختص بتأليف أسفار العهد القديم المختلفة وتاريخها • ذلك أننى أعتقـد أن كثيرا من المتناقضات الجلية فى الكتاب المقدس ، لا يمكن أن تقبل تفسـيرا منطقيا وتاريخيا معقولا الا فى ضـوء هذه النتائج • أما النصـوص التى اقتبستها فقد دونتها عادة بألفاظ « الترجمة الانجليزية المعتمدة للعهد القـديم » •

ومع اننى خاطرت بين الحين والآخر بأن أخالف الترجمـــة الانجليزية وأن أفضـــل عليها ترجمة أخرى ، أو أفضـــل عليهـــا ـــ فى مواضـــع قليلة للغـــاية ـــ قراءة خاصة من قراءات العهد القديم ، فاننى أود أن أقول أننى اذا كنت قد قرأت العهد القـــديم كنه باللغة العبرية قراءة فاحصـــة ، وبجانبى « الترجمـــة الانجليزية المنقحة » على الدوام ، فاننى شديد الاعجاب بلباقة المترجمين والنقحين على الســـواء ، تلك اللبـــاقة الفائقة فى اختيارهم لعبـــاراتهم مع اخلاصـــهم البالغ لحرفية النص والتزامهم بروح النص الأصـــلى • ان « الترجمـــة الانجليزية المنقحة للعهد القديم » فى جمعها بين الدقة البالغة ووقار اللغة وجمالها ، لا يبزها بدون شـــك ، بوصفها نصا مترجما ، أى عمـــل أدبى آخر ، بل المحتمـــل أنه ليس هنـــاك عمـــل أدبى آخـــر يقف معهـــا عـــلى قدم المســـاواة ••

لقـــد دفعنى الهـــدف من دراستى هـــذه الى أن أنعم النظـــر بصـــفة أساسية فى الجـــانب الأدنى من حياة العبريين القـــدماء كمـــا تتمثل فى العهد القديم ، وأن أتتبع الآثار الهمجية والخرافية ، تلك الآثار التى تنتشر فى صفحاته • واذا كنت قد صنعت هذا فليس معناه أننى أجهـــل الجانب الأعلى من العبقرية العبرية التى كشفت عن نفســـها فى ديانة روحية وآثار خلقية سجلها العهد القديم الخالد ، أو أن أحط من قدرها • •

الباب الأول

عصر الحيـــاة الأولـــى

الفصل الأول

خلق الإنسان

الذين يقرءون الكتاب المقدس قراءة فاحصة لا يمكن أن يغيب عنهم التناقض الصارخ بين قصتى خلق الانسان ، اللتين تقعان فى كل من الاصحاحين : الأول والثانى من سفر التكوين • ففى الاصحاح الأول نقرأ كيف أن الله خلق فى اليوم الخامس من بدء الخليقة السمك والطيور ، بل كل الكائنات التى تعيش فى الماء أو الهواء ، وكيف أنه خلق فى اليوم السادس كل صنوف الحيوان التى تعيش على وجه الأرض ، وأخيرا خلق الانسان ، الذكر والأنثى كليهما ، على صورته • ومن هذه القصة نستنتج أن الانسان قد خلق بعد أن خلقت كائنات الأرض جميعها ، كما نتبين أن تقسيم الانسان الى ذكر وأنثى — وهو التقسيم الذى تختص به الانسانية ، قد تم على يدى الخالق نفسه ، وان لم يقدم الينا الكاتب أية معلومات تمكننا من التوفيق بين الخلق الثنائى للانسان ووحدة الخالق • فاذا تجاوزنا تلك المشكلة الدينية ، التى ربما شقت على الفهم الانسانى ، فاننا نتجه الى مسألة أخرى أبسط منها ، تتصل بالسبق التاريخى للخلق ، ونتدبر العبارات التى تقول : ان الله خلق صنوف الحيوان الدنيا أول الأمر ، ثم أعقبها بخلق الانسان ، وأن الانسان قد انقسم الى ذكر وأنثى تم خلقهما فى آن واحد معا ، وأن كلا منهما كان يعكس بنفس الدرجة عظمة أصلهما الالهى • هذا ما نقرؤه فى الاصحاح الأول من سفر التكوين • فاذا نحن انتقلنا الى الاصحاح الثانى ، انتابتنا الحيرة على نحو ما ، عندما نفاجأ برواية تختلف تماما عن هذه الرواية

الخطـــيرة ، بل انهـــا لتتناقض معهـــا كل التناقض ، اذ نفاجأ فيهـــا بما يثير فينا الدهشـــة ، وهو أن الله خلق الانســـان أولا ، ثم خـــلق صنوف الحيوان الدنيا من بعده • أما المرأة فقد خلقهـــا بعد فراغـــه من كل هذا ، وشكلها من ضلع انتزعه من الرجـــل فى أثناء نومه ، كما لو كانت مجرد فكرة خطرت له فيما بعد ••

وواضح أن نظـــام خلق الكائنات من حيث قيمتهـــا معكوس فى كلتا الحكايتين •

ففى الحكاية الأولى يبدأ الاله بعملية خلق الســـمك ، ثم يمضى بعـــد ذلك فى خـــلق الطيور والوحوش حتى ينتهى الى خـــلق الرجل والمـــرأة •• •

أما فى الحكاية الثانية فهو يبدأ بخلق الرجـــل ، ويمضى بعد هـــذا الى خلق الحيوانات الدنيا ، ثم يخلق فى النهـــاية المرأة ، التى تشـــير بوضـــوح الى أدنى أعمال الصنعة الالهية • وليس هنـــاك فى الحكاية الثانية أدنى اشـــارة الى أن كلا من الرجل والمرأة قد خلق على صورة الاله ، وانما تحكى لنا الحكاية ببســـاطة فتقول : « وجعل الرب الاله آدم ترابا من الأرض ونفخ أنفه نسمة حيـــاة فصـــار آدم نفســـا حية » (١) ••

وبعد ذلك أراد الله أن يخفف على الرجل وحشـــته ، اذ كان يتجول دون رفيق فى الجنة الجميلة التى كانت قد صنعت من أجـــله ، فخلق له الطيور والوحوش ، وقدمها اليه فيما يبـــدو لتسليته ، ولـــكى تؤنس وحشته • وعند ذاك نظر الرجل اليها وســـماها بأسمائها ، ولكنه كان لايزال غير راض عن رفقتها ، فخلق الله له فى النهـــاية ـــ وكأنه كان قد يئس من أمره ـــ المرأة من جزء من جسمه لا أهمية له ، وقدمهـــا اليه لكى تكون زوجا له •

---

(١) سفر التكوين ٢ : ٧ .

هذا التناقض البين بين القصتين يفسره ببساطة أن القصتين قد استمدها الكاتب من مصدرين مختلفين ومستقلين أصلا ، ثم جمع بينهما فى كتاب واحد ونقلهما معا ، دون أن يجهد نفسه فى أن يخفف من حدة التناقض فيهما أو يوائم بينهما • فقصة الخلق فى الاصحاح الأول مستمدة مما يسمونه بالمصدر الكهنوتى الذى ألفه كتاب كهنوتيون فى أثناء السبى البابلى أو بعده • •

وأما قصة الخلق فى الاصحاح الثانى فمستمدة مما يسمى بالمصدر اليهودى الذى ألف قبل المصدر الكهنوتى بمئات السنين ، أى أنه ألف — فيما يبدو — فى القرن التاسع أو الثامن قبل الميلاد • والاختلاف بيّن بيْن وجهات النظر الدينية لدى كل من الكاتبين ، فالكاتب المتأخر أو الكهنوتى يصور الاله فى صورة مجردة على نحو ما قد يتصوره الانسان ، وأنه قد خلق الكائنات جميعا بأن أمرها فى بساطة أن تكون فكانت • أما الكاتب المتقدم ، أو اليهودى ، فقد صور الاله فى صورة حسية فهو يتصرف ويتكلم على نحو ما فعل الانسان ، وهو يشكل الانسان من الطين وفقا لنموذج معين ، ويزرع جنة ويسير فيها عندما يميل الجو الى البرودة ، ويطلب من الرجل والمرأة أن يظهرا من بين الأشجار التى كانا يختفيان وراءها ، ويصنع لهما أردية من الجلد ليرتدياها بدلا من الغلالات الهزيلة المصنوعة من أوراق التين التى اهتدى اليها أول أبوين لكى يخفيا بها عورتهما خجلا منها • فالبساطة الجميلة بل المرح ، فى القصة المتقدمة تتعارض مع الجدية البالغة فى القصة المتأخرة ، وان كنا لا نملك الا أن ندهش لذلك الطابع الحزين المتشائم الذى يستخفى وراء صور الحياة البهيجة فى عصر البراءة ، تلك الصورة التى رسمها لنا الفنان اليهودى الكبير • ولم يستطع هذا الفنان بعد كل هذا أن يخفى احتقاره الشديد للمرأة ، فتأخر خلقها ، فضلا على الطريقة الشاذة غير المشرفة التى خلقت بها — اذ شكلها الاله من جزء من جسم سيدها آدم ، بعد أن خلقت صنوف الحيوان بطريقة طبيعية لائقة — كل هذا يشير

اشـــارة كافية الى رأيه فى حقارة شـــأن المـــرأة • وترتيبا على هـــذا فان كرهه للمرأة ـــ كمـــا يمكن أن نسميه بحق ـــ يضفى على القصـــة لونا قاتمـــا ، وذلك حين يعزو الكاتب محنة الجنس البشرى وأحزانه الى سلوك الأم الأولى الذى يتســـم بالحماقة الساذجة ، والى شهوتها التى أطلقت لها العنان • •

ولا تتميز القصـــة المتقدمة عن أختها المتأخرة بأنها أكثر زخرفة منهـــا فحسب ، بل تتميز عنهـــا . فضـــلا على هذا ، بغنى عناصرها الفولكلورية ، فلقـــد أبقت على ملامح واضحة من البســـاطة البدائية ، طمسها الكاتب الثانى فى حـــرص • وبنـــاء على هذا قـــد تقـــدم من العناصر ـــ فى مجـــال المقـــارنة بالحكايات البدائية الســـاذجة ، التى حاول الناس عن طريقها فى العصـــور والبـــلاد المختلفة أن يشرحـــوا اللغز الكبير لبداية الحياة على وجـــه الأرض أكثر مما تقـــدمه الحكاية الكهونية • وسوف أورد فى الصفحات التالية بعض هـــذه الحـــكايات البســـيطة • •

ويبدو أن المؤلف اليهودى قد تصـــور أن الاله قد شـــكل الرجل الأول من الطين على نحو ما يفعل صانع الفخـــار تماما ، أو كما يفعـــل الطفل حين يشـــكل دمية من الطين • فبعـــد أن عجن الاله الطين وسواه على الصـــورة المعلومـــة ، بث فيه الـــروح بأن نفخ فى فم التمثـــال ومنخريه ، بنفس الطريقة التى يروى عن النبى اليشع أنه أعـــاد بهـــا الحياة الى جسد الطفل الميت ابن الشـــونامية [1] ، وذلك بأن استلقى فوق الطفل ، ووضع عينيه على عينى الطفل ، وفمه على مه ، وذلك لكى يمنح الجســـد بطبيعة الحـــال بعض أنفاسه • وبعد ذلك عطس الطفل سبع مرات وفتح عينيه • على أن فكرة العبريين فى أن الجنس البشرى يرجع فى أصله الى التراب ـــ تتضح لنا على نحو طبيعى للغاية ، اذ أننا نجد أن كلمة « أدمة » فى لغتهم ، ومعناها الأرض ، هى الصيغة المؤنثة

---

(١) الملوك الثانى اصحاح ٤ آية ٨ ـــ ٣٧ .

الكلمة آدم ، ومعناها الرجـــل • ويبدو من نصـــوص مختلفة فى الأدب البـــابلى أن البابليين كذلك كانوا يرون أن الانســـان قد خلق من طين • فهناك رواية اغريقية احتفظت بحكاية عن أصـــل الخليقة « لبيروسوس » الكاهن البابلى تقـــول : ان الاله « بل » [1] قطع رأسه ، وأن ســـائر الآلهة جمعوا الدم المتدفق منه وعجنوا به التراب ، وخلقوا البشر من هذه لعجينة المخلوطة بالدم • ولهذا السبب ، كما يقول البابليون ، كان الرجال حكماء كل الحكمة ، لأن الطين الذى خلقوا منه كان مخلوطا بدم الاله • ويروى فى الأساطير الفرعونية أن « خنم » [2] أبا الآلهة قد خلق الانسان من الطين على دولابه الذى كان يشـــكل عليه الفخار ••

وبالمثـــل يحـــكى فى الأسطورة الاغريقيـــة أن بروميثوس [3] • الحكيم قد خلق الانسان الأول من الطـــين عند بانوبيوس التى تقع فى فوكيس [4] • وقد تخلفت عن عملية الخلق كمية من الطين كان من الممكن رؤيتها بعد هذا بزمن طويل على شـــكل صخرتين كبيرتين تشرفان على واد ضيق ••

وقد تراءى لمســـافر يونانى كان يزور هذا المكان فى القرن الثانى الميلادى أن الصخرتين كانتا بلون الطين ، وأن رائحة اللحم البشرى كانت تفوح منهما قوية •

وقد قمت أنا كذلك بزيارة هذا المكان بعد ذلك بما يقرب من سبعة عشر قرنا ونصف قرن ، فوجدته واديا مهجورا ، أو بالأحرى تجويفا يقع على الجانب الجنوبى من تل بانوبيوس ، فى أســـفل صف من الآثار المتهدمة وان كانت لاتزال تبدو فى شكل حوائط متماســـكة وقلاع تتـــوج

---

(١) بل هو الاسم البابلى للآلة « بعل »

(٢) الاله المصرى القديم خنم الذى تصوره المصريون برأس كبش واسمه مرتبط من حيث الاشتقاق اللغوى بالكلمة العربية « غنم »

(٣) هو خالق الجنس البشرى وبادىء الحضارة الانسانية وفقا للأسطورة لااغريقية وقد حكم عليه الاله زيوس بالنفى الى جبال القوقاز ، حيث اخذ نسر ينهش لحمه ، لانه كان قد سرق النار واحضرها للبشر . ثم اطلق هرقل سراحه فيما بعد . (المترجمة)

(٤) اقليم كان يتوسط بلاد الاغريق فى الزمن القديم . (المترجمة)

صـــخور القمة الرمادية • لقـــد كان قائظا فى أواخر أيام الخـــريف ، هو اليوم الأول من شـــهر نوفمبر . وقد بدا الوادى جافا كل الجفاف بعد صيف طويل لم تســـقط فيـــه الأمطـــار فى بلاد اليونان • ولذلك لم تكن قطرات الميـــاه تتســـاقط على جانبيه المليئين بالأدغال ، ولكنى أبصرت فى قاع الوادى تربة مفتتة مائلة الى الاحمرار ، ربمـــا كانت مخلفات أثرية من الطين الذى خلق منـــه بروميثيوس أول أبوين على وجه الأرض • وقد كان المكان موحشا مهجورا ، اذ لم يكن هناك أثر لانسان أو لمسكن سوى صف من القلاع المعفنة ، وشرفات تطـــل من فوق التل تحكى عن الحياة المصطخبة التى ولت منذ زمن طويل • فالمنظر كله ـــ شأن كثير من مناظر اليـــونان ـــ كان ملائما لأن يثير فى النفس احساسا بحياة الانسان القصيرة الصاخبة اذا هى قيست بدوام الطبيعية وهدوئها وأمنها الظاهرى على الأقـــل • وقـــد ازداد هـــذا الاحساس عمقا فى نفسى حينما خلدت الى الراحة فى قيظ ذلك اليوم على قمة التل فى ظل بعض أشجار البلوط الجميلة الدائمة الخضرة ، ونفذت ببصرى فى المنظر البعيد المغنى بذكريات الماضى ، فى حين كانت رائحة الزعتر البرى تفوح فى الأرجاء • وفى الجنـــوب كانت ذروة جبـــل هيليكون المنحوتة نحتا دقيقا تشرف على سلسلة التلال المنخفضـــة التى يتداخل بعضها فى بعض • أما فى الغرب فقد برزت كتلة جبل بارناسيوس الصخرية الهائلة ، وقد غطت أشجار الصنوبر منحدراته الوسطى ، كمـــا لو كانت ظلالا من السحب تكسوها النباتات المتسلقة ، وقد أشرقت على الوادى العميق الذى يتلائم جماله الرومانسى كل التلاؤم مع أفراح بروكنى وفيلوميلا [1] وأحزانهما ، وهمـــا الشخصيتان اللتـــان ربطت بينهمـــا الأسطورة الاغريقية وبين هذا المكان ••

---

(١) « فيلوميلا » هى ابنة الملك الأثينى « باندويون » وفقا للأسطورة الاغريقية . وقد سلبها « بيروس » زوج اختها « بروكنى » شرفها ثم انتزع لسانها حتى يظل حبه لها سرا خافيا . ولكن « بروكنى » انتقمت من «بيروس» بأن قتلت ابنه . وأخذ « بيروس » بعد هذا يتعقب الأختين ، ولكن الآلهة حولت بروكنى الى بلبل كما حولت فيلوميلا الى طائر السنونو وبذلك استطاعتا أن تهربا منـــه . (المترجمة)

أما فى الشمال عبر السهل الفسيح الذى ينحدر اليه تل بلنوبيوس المارى ، فان العين تستقر على فجوة فى التلال يشق فيها نهر سيفيسسيس طريقه المتعرج وهو يتدفق أسفل أشجار الصفصاف الرمادية التى تقع فى سفح التلال الصخرية المارية ، حتى تختفى ميـاهه المعـكرة لا فى مستنقعات بحيرة كوبياك الممتدة النحيلة التى اختفت الآن ، ولكن فى كهف مظلم يقع داخل صخرة من الحجر الجيرى.وفى الشرق يتصل حطام شايرونيا ، حيث ولد بلوتارك ، بمنحدرات سلسلة الجبال المارية التى يكون تل بلنوبيوس جزءا منها • هناك فى هـذا السـهل قامت المعركة الفاصلة التى انتهت بخضوع الاغريق لمقدونيا ، وهناك أيضـا اشتبك الشرق والغرب فى الأزمنة الغابرة فى معارك دامية ، انتهت بهزيمة جيوش ميثريداتس [1] الآسيوية على يد جيوش روما بقيادة سولا • لقد كان هذا المنظر الذى بدا أمام عنى فى أحـد أيام الخريف الأول التى تثير روعتها النفس ، عندما كان الصيف المدبر ما زال ينسحب فى ادلال ، كما لو كان يشق عليه أن يترك للشتاء جبال اليونان الساحرة • وفى اليوم الثانى تغير المنظر ، اذ كان الصيف قد ولى • وأطل ضباب شهر نوفمبر الرمادى على التلال التى كانت حتى الأمس تتألق فى ضوء الشمس • وتحت ستائره الحزينة اكتسى سهل شايرونيا المنبسط اللهامد ،الذى يخو من الأشجار ، وتحيط به المنحدرات الموحشة من جانب ــ اكتسى بحزن رهيب يتفق مع المعركة التى فقدت فيها أمة حريتها •

اننا لا نستطيع أن نشك فى أن مثل هـذه الأفكار الساذجة عن أصل الانسان التى كانت مألوفة لدى الاغريق والعبريين والبابليين والمصريين القـدماء ، قـد انتقلت الى الشـعوب المتحضرة القـديمة عن طريق

---

(١) « ميثريداتس » أو « ميثراداتس » ملك بونطوس . حكم فيما بين ١٣٢ الى ٦٣ ق.م. وقد سولت له أطماعه أن يستولى على آسيا الصغرى . فاشتبك مع الجيوش الرومية بقيادة « سولا » من سنة ٨٨ الى ٨٥ ق.م. وهزم « سولا » « ميثريداتس » واضطره الى اللجوء الى زوج ابنته فى أرمينيا . وظل الرومانيون يتعقبونه حتى قتل فى مملكته . (المترجمة)

أجدادهم الهمجيين أو المتبربرين • فمن المؤكد أن مثل هذه الحكايات رواها الهمجيون الذين يعيشون اليوم أو كانوا يعيشون بالأمس ، فقد حكى سكان استراليا السود الذين يقطنون ضواحى ملبورن ، أن بندجل الخالق قطع ثلاث شرائح من لحاء الشجر بسكينه الكبير ، ثم وضع بعض الطين على احدى هذه الشرائح ، وأخذ يسويه بسكينه حتى صار قوامه معتدلا ، ثم وضع كمية أخرى من الطين على شريحة أخرى وشكلها على هيئة انسان ، فصنع الأقدام فى أول الأمر ، ثم الارجل فالجذع فالأذرع فالرأس • وهكذا صور انسانا من الطين على كلتا الشريحتين من لحاء الشجر ، وعندما شعر بالارتياح لعمله هذا أخذ يرقص حولهما مبتهجا • وبعد ذلك أحضر خيوطا لحائية من شجر الديكاليبتوس وصنع منها شعرا لصقه فى رأسه ورجليه المصنوعين من الطين • ثم نظر اليهما مرة أخرى وأعجب بعمله ، ورقص من حولهما مرة أخرى تعبيرا عن سعادته • وبعد ذلك استلقى فوقهما ونفخ أنفاسه بقوة فى فم كل منهما وفى أنفه وسرته • وفى الحال تحركا وتكلما ونهضا مكتملى النمو •

ويحكى الماءوريون ، سان نيوزيلندة ، أن آلها معينا يسمى بأسماء مختلفة هى تو ، وتيكى ، وتانى ، أخذ طينا أحمر من جانب النهر وعجنه بدمه ، وشكله على صورته ، بعينين ورجلين وذراعين وغير ذلك من الأعضاء • بحيث أصبحت الصورة مطابقة للاله • وبعد أن أتقن صنع نموذجه ، بعث فيه الحياة بأن نفخ فى فمه ومنخره • وفى الحال اكتسبت الدمية الطينية الحياة وعطست • ولقد كان الرجل الذى صنعه « تيكى » آله الماء وريين شديد الشبه به الى درجة أن سماه « تيكى أهوا » أى شبيه تيكى ••

ومن الروايات الشعبية المألوفة فى تاهيتى أن الاله « تاروا »، الاله الأكبر ، خلق أول زوجين • فهو بعد أن خلق العالم ، كما يقولون ، خلق الانسان من الطين الأحمر الذى كان الانسان يستخدمه كذلك فيما بعد طعاما له ، وذلك قبل أن يزرع الثمار التى صنع منها الخبز • ويحكى بعض سكان تاهيتى أن « تاروا » نادى الرجل باسمه ، فلما جاء اليه سلط عليه النوم • فلما استغرق فى نومه انتزع منه عظمة من عظامه

(وتسمى العظمة فى لغتهم « ايفى ») ، وصنع منها امرأة قدمها الى الرجل ليتخذ منها زوجة له • ومن هذين الزوجين تناسلت البشرية فيما بعـــد • وقد دونت هـــذه الرواية من أفواه أهالى تاهيتى فى الســـنين الأولى من وفود المبشرين اليهم • ويعلق المبشر « وليم اليس » على هذه القصة التى دونها بنفسه قائلا : « ان القصة تبدو لى مجرد سرد للحكاية الموسوية عن الخليقة ، تلك الحكاية التى سمعها الأهالى من الأوربيين • ولكننى لم أعول على هذه الرواية ، على الرغم من أن الأهالى ذكروا لى مرارا أنها حكاية مأثورة عرفوها قبـــل أن تطأ قـــدم أى أجنبى أرض بلادهم • كما قرر بعضهم أن المرأة كان اسمها ايفى Iv¹ • وهم ينطقون هذه الكلمة حسبما تكتب كلمة Eve أى « ايف » • وايفى Ivi كلمـــة أصـــلية فى لغتهم ، وهى لا تعنى العظمـــة فحســـب ، بل تعنى كذلك الأرملة ، كمـــا أنهـــا تعنى ضـــحية الحرب • وعلى الرغم من تأكيد الأهالى لهـــذه المعانى ، فاننى أميل لأن أعتقد أن كلمة Evi أو Eve ، هى الجزء الأصلى الوحيـــد فى القصـــة ، وذلك فى نطاق علاقتها بالأم الأولى للجنس البشرى » • ومهما يكن من شىء فان هذه الحكاية المأثورة بعينها قد دونت فى مناطق أخرى من بولينيزيا الى جانب تدوينها فى تاهيتى • فأهالى فاكاؤمو أو جزيرة بادويش يقولون : ان الرجل الأول خلق من حجر ، وأنه قرر بعـــد مرور فترة من الزمن أن يخلق امرأة ، فجمع ترابا وشكله فى صورة امرأة ، ثم انتزع ضلعا من جنبه الأيسر وزج به فى تمثال المرأة ، فدبت فيها الحياة توا ، وأطلق عليها اسم « ايفى » أى الضلع ، واتخذ منها زوجة له ومنهما معا تناسل الجنس البشرى فيما بعد • وقد روى كذلك أن الماءوريين يعتقـــدون أن المرأة الأولى قد خلقت من ضلوع الرجل الأول • وانتشار هـــذه الحكاية على هذا النحو فى بولينيزيا يثير الشك فيما اذا كانت ، كمـــا اعتقـــد « اليس » ، مجرد تكرار لحكاية الكتاب المقـــدس كما ســـمعها الأهالى عن الأوربيين أم لا •

وعلى كل فان قصـــة خلق أول امرأة من ضلع أول رجل تصادفنا فى

أماكن أخرى فى شكل روايات شديدة الشبه بحكاية الكتاب المقـــدس ، الى درجة أننا لا يمكن أن نعدها مستقلة عنها • فالكارينيون سكان بورما يقولون : « أن الله خلق الرجل ، ولكن من أى شىء خلقه ؟ لقد بدأ بخلق الرجل من التراب ، ثم أتم من بعده عملية خلق المرأة ، ولـــكن من أى شىء خلقها ؟ لقد أخذ ضلعا من أضـــلاع الرجل وخلق المرأة » • ومرة أخرى نجـــد التتار البيدليين سكان سيبيريا يروون حـــكاية مأثورة ، مؤداها أن الله فى بادىء الأمر خلق الرجل الذى عاش وحـــده على وجه الأرض • وأنه بينما كان الرجل ينام وحـــده ذات مرة ، لمس الشيطان صدره ، فبرزت عظمة من بين ضـــلوعه ، وحينما ســـقطت على الأرض أخذت تنمو ، وصارت المرأة الأولى •

وهنا نلاحظ أن التتار قد عمقوا نغمة السخرية عنـــد كاتب ســـفر التكوين حينما جعلوا للشيطان يدا فى خلق أمنا الأولى • ولنعـــد مرة أخرى الى أقاليم المحيط الهادى

ويروى سكان « جزر بيليو » [1] أن أخا وأخته صـــنعا رجالا من طين عجن بدماء صنوف من الحيـــوان ، وأن شخصيات هؤلاء الرجال الأولين ونسلهم تحددت وفقا لخصائص صنوف الحيـــوان التى مزجت دماؤها بالطـــين الأصـــلى ، فالرجال الذين امتزج طينهم بدم الفيران أصبحوا لصوصا ، وهؤلاء الذين امتزج طينهم بدم الثعابين اتصـــفوا بالغدر ، وهؤلاء الذين امتزج طينهم بدم الديوك اتصفوا بالشجاعة • ووفقا لأسطورة ماليزية تروى فى جزيرة « موتا » احـــدى « جزر البانك » [2] أن البطـــل « كات » خلق الرجال من الطين ، وعلى وجه

---

(١) جزر « بالاو » أو « بيليو » وهى مجموعة جزر فى المحيط الباسفيكى وتبعد عن الفيليبين بحوالى ٥٥٠ ميلا .
(المترجمة)

(٢) « جزر البانك » وهى مجموعة من الجزر الصغيرة ويبلغ عددها خمسا وتقع فى الجنوب الغربى من المحيط الباسفيكى . وأهم هذه الجزر تانوا ولافا وموتا وجاوة .
(المترجمة)

للتحديد من الطين الأحمر ،الذى أخذه من شواطىء النهر التى تكثر فيها المستنقعات عند « فانوا لافا » • وقد صنع « كات » فى بادىء الأمر الرجال والخنازير متشابهين ، ولكن اخوته ثاروا ضده لهذا السبب، فضرب الخنازير وجعلها تسير على أربع ، فى حين جعل الرجـل يسير على قدميه فحسب • أما المرأة الأولى فقد صنعها « كات » من غصـن لدن ، فلما ابتسمت عرف أن الحياة قد دبت فيها • وقـد أطلق أهالى « ماليكولا » احدى جزر الهبريد الجديدة [1] ، اسم « بوكور » على الخالق الكبير الذى خلق أول رجل وامرأة من الطين ••

ويروى سكان اقليم نو ــ هو ــ روا ، الذى يقع فى جزر « كاى »[2] أن الاله الأعلى « دوادليرا » خلق أجدادهم من الطين ، بعد أن نفـخ فى أجسادهم الطينية أنفاس الحياة • ووفقـا للتورادجيين ، سـكان « سيلبس الوسطى » [3] ، الذين يتحدثون اللغة البارئية ، أنه لم يكن هناك فى البداية أى كائن حى على وجه الأرض ، ثم قرر « اى لاى » ، اله العالم العلوى ، و « اى ندارا » الهة العالم السفلى ، أن يخلقـا البشر ، فأسـندا هـذا العمـل الى « اى كومبينجى » الذى صـنع نموذجين : أحدهما لرجل والآخر لامرأة من الحجر وفقا لأحد الآراء ، أو من الخشب وفقا لرأى آخر • بعد أن أتم « اى كومبينجى » عمله ، أوقف النموذجين على جانب الطريق الذى يوصـل العالم العلوى بالعـالم السفلى ، حتى يتسنى للأرواح العابرة أن ترى صنعه وتحـكم عليه • وفى المساء اجتمعت الآلهة لتتداول الرأى حول خلق النموذجين ، واتفقوا على أن سمانة ساق كل من الرجل والمرأة ليست مسـتديرة اسـتدارة كافية • وعندئذ صنع « اى كومبينجى » نموذجين آخرين وعرضـهما

---

(١) مجموعة جزر تقع فى المحيط الهـادى وسكانها الأصـليون من الميلانيزيين . (المترجمة)

(٢) مجموعة جزر اندونيسية واكبرها جزيرة « توهو ــ شوت » . (المترجمة)

(٣) احدى الجزر الأندونيسية الكبرى . (المترجمة)

على الآلهة لتبدى رأيها فيهما ، فلاحظت الآلهة هذه المرة أن البطن فى كلا النموذجين منتفخة الى حـــد كبير • ولهذا صـــنع « اى كومبينجى » للمرة الثالثة نموذجين رضيت عنهما الآلهة بعـــد أن أحـــدت تعديلات طفيفة من الناحية التشريحية ، وذلك بأن قام بنقـــل جزء من جســـم الذكر الى المرأة • ولم يبق بعد ذلك سوى أن تدب الحياة فى النموذجين• وعندئذ صـــعد الاله « لاى » الى مسكنه فى المساء لكى يحضر النفس الأبدى لكل من الرجل والمرأة • ولكنه ــ فى أثناء هـــذا ــ ترك الريح ، اما نتيجة غفلة منه ، أو لأنه كان فى عجلة من أمره ، تهب على النموذجين ، حاملة معها الأنفاس والحيـــاة اليهما ، فاستنشقهما النموذجان بدورهما • وهـــذا هو السبب فى أن نفس الانسان يعود الى الريح عندما يموت • ويروى « الدياكيون » [1] ، الذين يســـكنون « ساكاران » فى جزيرة بورنيو التابعة للاحتلال البريطانى ، ان أول رجل على وجه الأرض خلقه طائران كبيران • وقد حاول هذان الطائران أن يخلقـــا البشر من الشجر فى بادىء الأمر ، ولكن دون جـــدوى ، فنحتوا أشـــكالهم من الصخور ولكنها كانت خرساء • عنـــدئذ شكلا رجلا من الطين ، ودفعا فى عروقه صمغ شجرة الكومبانج الأحمـــر ، وناداياه فرد عليهما ، فلما جرحاه تدفق الدم من جروحه • عندئذ أطلقا عليه اسم « تانا كومبوك » أى « الطين المشـــكل » • على أن بعض « الدياكيين » يرون حـــكاية أخرى مخالفة لهذه الحـــكاية ، فهم يعتقدون أن الهـــا بعينه اســـمه « سالا مباندیا » هو الذى قام بخلق البشر ، اذ أخـــذ يشـــكل الطين بمطرقته حتى سوى أجساد الأطفال الذين كان مقدرا لهم أن يولدوا فى الحيـــاة • وعندما يسمع الدياكيون صـــوت حشرة عنـــدهم تحدث صلصلة غريبة فى الليل فانهم يقولون : انه صوت مطرقة « سلامباندیا » وهو يقـــوم بعمله • ثم تســـتمر القصـــة فتحـــكى أن الآلهة أمرت « سلامباندیا » أن يصـــنع رجلا ، فصنعه من الحجر • ولكن التمثال

---

(١) هم سكان جزر الملايو الأصليون . وتعد « بورنيو » من اكبر جزر الملايـــو . (المترجمة)

كان أخرس ، ولذلك فقـد رفضته الآلهة كما رفضت التمثال الأول • وفى المرة الثالثة صنع سلامباندیا رجلا من الطين كانت له القـدرة على الكلام ، فسرت به الآلهة وقالت له : « ان المرجل الذى صـنعته يبشر بالخير ، فلتجعل منه جدا للجنس البشرى ، وعليك أن تصـنع أشكالا مثله » • عنـدئذ بدأ « سلامبفانديا » فى صنع النماذج البشرية ــ وهو مازال يقوم بصنعها مستعينا بسندانه وآلاته ــ فى مناطق مجهـولة • فهو هناك يشـكل الطين فى شكل أطفال ، وكلما فرغ من صـنع أحدهم أحضره الى الآلهة ، فتوجه اليه الآلهة هذا السؤال : « ما الشىء الذى تود أن تمسك به وتستعمله ؟ » فاذا هو أجاب بقوله : « السـيف » نادت به الآلهة ذكرا ، أما اذا أجاب بقوله : « القطن ودولاب الغزل » ، نادت به أنثى • ومعنى هذا أن الأطفال قد ولدوا ذكورا أو اناثا وفقـا لرغبتهم ••

ويحفظ أهالى « نياس » ، وهى جزيرة تقـع فى الجنوب الغربى من سومطرة ، قصيدة طويلة تصـف قصـة الخلق ، وينشدونها عندما يرقصـون فى أثناء الاحتفال الجنـائزى لوفاة أحـد زعمائهم • وفى هـذه القصـيدة ــ المؤلفة على نظام المزدوجات مثل نظام الشـعر العبرى ، حيث يعيد جزؤها الثانى فـكرة الجزء الأول بعبارات أخرى مختلفة بعض الشىء ــ نقرأ أن الاله الأعلى « ليوزاهو » عندما كان يستحم فى نبع سماوى ، انعكست صورته فى مياهه الصافية كالمرآة ، فلما أبصر صورته فى المـاء ، أخـذ حفنة من التراب فى حجم البيضة وشكلها فى صورة تشبه صور الأجـداد ، تلك التى كان أهالى « نياس » يصنعونها • وحين فرغ من ذلك وضـع هـذا التمثال فى كفة ميزان ووزنه ، ثم وزن الريح كذلك ، ووضـعها بعد وزنها على شفتى التمثال الذى صنعه • عند ذلك تحدث التمثال على نحو ما يتحـدث الرجـل أو على نحو ما يتحـدث الطفل ، وأطلق عليه الاله اسم « سيهاى » • وعلى الرغم من أن « سيهاى » كان يشبه الاله فى شكله فانه لم يعقب ذرية • وقـد كانت الدنيا آنذاك مظلمة ، اذ لم تكن الشمس ولا القمر

قد خلقا بعـــد ، فتدبر الاله الأمر وأرسل « سيهاى » الى الأرض ، ليعيش فى بيت شـــيد من أشجار السرخس • ولكن « سيهاى » توفى ظهر يوم ، قبـــل أن يرزقه الله بزوجة أو ولـــد ، ولكن شـــجرتين نبتتا من فمه ، وأينعتا وأزهرتا ، وهز الريح الزهر فتساقط على الأرض ، ومن هـــذا الزهر نشأت الأمراض • ثم نبتت من حنجرة « سيهاى » شجرة كان يستخلص منها الذهب ، كما نبتت من قلبه شـــجرة أخرى ينتسب اليها الرجال • وفضـــلا على ذلك فقد بزغت الشمس من عينيه اليمنى وبزغ القمر من عينه اليسرى • وفى هـــذه الأسطورة نلاحظ أن فـــكرة خلق الانسان فى صورة الاله تراءت للخالق بعد أن رأى صورته منعكسة على صفحة النبع الصافى •

وتحكى قبيلة « بيـــلا ـــ آن » البدائية ، وهى قبيلة من قبـــائل « مندناو » ، احدى جزر الفيلبين ، قصـــة خلق الانسان الأول كما يلى : كان هناك فى بداية الحياة كائن بعينه يدعى « ميلو » ، وكان ضـــخما للغاية ، الى درجـــة لا يمكن مقارنته بشىء معلوم لدينا • وكان هـــذا الكائن أبيض اللون ، ذا أسنان ذهبيـــة ، وكان يجلس فوق الســـحب فيشغل كل أجواز السماء • وحيث انه كان بطبعه نظيفا للغاية فقـــد كان دائم التدليل لنفسه حتى يحتفظ ببياض جلده نقيـــا • وكان يلقى بجانبه القشور التى يزيلها من جسمه ، حتى تجمعت منها كومة أزعجه منظرها ، فخلق منها الأرض لكى يتخلص منها • ولمـــا سر بعمله هذا قرر أن يصنع شكلين يشبهانه ولكن دونه حجما • وقد شكلهما مطابقين له كل المطابقة ، وذلك من القشور التى سبق له أن خلق منها الأرض • وقد كان هـــذان الشـــكلان أول مخلوقين بشريين • وبينما كان هذا الخالق يقوم بعمله ، فأتم صنع أحـــد النموذجين فيما عـــدا أنفه ، كما أتم صنع النموذج الثانى فيمـــا عـــدا أنفه وجزءا آخر منه ، جـــاءه « تاو دالوم تانا » وطلب منه أن يسمح له بأن يصـــنع أنفى الشكلين • وبعـــد جـــدل عنيف بينه وبين الخالق حول هـــذا الموضـــوع انتهى « تاو دالوم تانا » الى صنع الأنفين • ولكنه حينما شاء أن يركبهمـــا

على وجهى أول أبوين فانه وضعهما على نحو معكوس • ومرة أخرى دب الخلاف العنيف بين الخالق ومساعده حول تركيب الأنفين الى درجة أن الخالق نفسه نسى كلية أن يكمل الجزء الباقى من الشـــكل الثانى ، وصـــعد الى مكانه فوق السحاب ، تاركا نموذج الرجل الأول أو المرأة الأولى (فالقصـــة لم تحـــدد النوع) ناقصـــا ، كما هبط « تاو دالوم تانا » الى عالمه السفلى • ثم أخـــذت أمطار غريزة تهطل بعد ذلك ، الى درجة أن كاد يهلك أول مخلوقين بشريين ، لأن الميـــاه أخـــذت تتدفق على قمة رأسيهما متخللة أنفيهما المعـــكوسين • ولحسن الحظ أبصر الخالق النموذجين فى هذا الموقف الحرج ، فخف لنجدتهما وخلع أنفيهما وأعادهما الى وضعها الطبيعى ••

وتحكى قبيلة « الباجوبوس » ؛ وهى قبيلة وثنية تقطن جنـــوب شرق « ميندناو » أن خالقا بعينـــه يدعى « ديواتا » قد خلق فى بداية الحيـــاة البحر والأرض وغرس أشـــجارا مختلفة الأنواع ، ثم أخـــذ حفنتين من تراب وشكلهما فى هيئة شكلين آدميين ، ثم بصـــق عليهما فتحولا الى رجـــل وامرأة • أما الرجل الشـــيخ فسمى « توجلاى » ، وأما المرأة العجوز فسميت « توجليينج » • ثم تزوجا ، وابتنى الرجل بيتـــا عظيما وزرع أنواعا أنواعا متعـــددة من الحبـــوب التى كانت المرأة قـــد قدمتها اليه •

وقد حكى « الكوميون » الذى يسكنون بقاعا من « أراكان » وتلال « وتشيتاجونج » فى الهنـــد الشرقية ، حكوا للكابتن « لوين » الحكاية التالية عن خلق الانسان ، التى تقول : ان الله خلق العالم والأشـــجار والحيوانات الزاحفة فى بادىء الأمر ، وبعد ذلك شَـــكل رجلا واحـــدا وامرأة واحـــدة من الطين • على أن حيـــة كانت تتسلل فى كل ليلة ، بعد أن يفرغ الاله من عمله ويخلد للنـــوم ، وتبتلع النموذجين اللذين صنعهما الاله • وتكرر حدوث هـــذا مرتين أو ثلاثا ، حتى كاد الاله أن يفقـــد صوابه ، اذ كان عليه أن يعمل طوال اليوم ، ولم يكن فى وسعه

أن يتم صـــنع النموذجين فى أقل من أثنتى عشرة ساعة • واذا هو لم يسترح بعـــد تعب النهار « فان حالته تســـوء » ـــ على حـــد تعبير القصاص الكومى ـــ ولهذا فقد كاد الاله أن يفقد صوابه كما ذكرت ، ولكنه فى نهاية الأمر استيقظ مبكرا ذات فصباح ، وشـــكل نموذجا لكلب وبث فيه الحيـــاة ، وعينـــه حارســـا على النموذجين الآدميين • فلما تســـللت الحية اليهما نبـــح الكلب فهربت الحيـــة فزعا • وهـــذا هو السبب فى أن الكلاب تأخذ فى النباح عندما يحتضر الانسان • على أن « الكوميين » يعتقدون أن الاله فى هـــذه الأيام يغط فى نوم عميق ، أو أن الحية صارت أشجع مما مضى ، وذلك لأن الناس يموتون على الرغم من نباح الكلاب • ولو لم ينم الاله لمـــا كان هنـــاك مرض أو موت ، فالحية لا تأتى وتنتزعنا إلاّ فى أثنـــاء الفترة التى ينـــام فيها الإله • وشبيه بهـــذه الحـــكاية حكاية يرويها الخاسيون « سكان أسام » • فهم يقولون : ان الله خلق الرجل فى بادىء الأمر ووضعه على الأرض ، وعندما عاد ليعيـــد النظر فيما صنعه يداه وجـــد أن الروح الشريرة قد حطمت الرجل ، فلما حـــدث هـــذا مرة أخرى خلق الاله الكلب أولا والرجل ثانيا ، فسهر الكلب على حراسة الرجل ، ومنح الروح الشريرة من أن تصيبه بأذى • وبهـــذا أبقى على عمل الاله •

وقد برزت هـــذه الحـــكاية نفســـها ملونة بمســـحة طفيفة من الميثولوجيا الهنـــدوكية عنـــد قبيلة « كوركوس » ، وهى قبيلة عريقة تقطن الأقاليم الوسطى فى الهند • وخلاصة هذه الحكاية أن « راوان » ، ملك « ســـيلان » الشيطان ، لاحظ أن سلســـلة جبـــال « فندهيان » و « ساتبورا » غير مأهولة ، فتضرع الى الاله الكبير « ماهاديو » أن يعمرها بالسكان • عنـــدئذ أرســـل « ماهاديو » ، الذى يعنـــون به « سيفا » ، غرابا لكى يبحث له عن كثيب الرمال ذى التربة الحمراء ، فعثر الطـــائر على هـــذا الكثيب بين جبال « بيتول » • عندئذ رحـــل الاله الى هـــذا المكان ، وأخـــذ حفنة من التربة الحمراء وصـــنع منها تمثالين لرجل ومرأة • ولم يكد الاله يفعل هـــذا حتى بزغ حصانان

ناريان من الأرض ، أرسلهما « اندرا » ، فأحالا التمثالين الى تراب • وعاود الاله المحـــاولة فى يومين متتاليين ، ولكن تماثيله كانت تتحطـــم بمجرد فراغه من عملها • وأخيرا صـــنع الاله تمثالا لكلب ونفث فيه أنفاس الحيـــاة ، فاستطاع الكلب أن يبعد حصانى « اندرا » الناريين عن التمثالين • ومن ثم تمكن الاله من أن يصـــنع تمثالى الرجل والمرأة دون ازعاج ، ومنحهما الحيـــاة وسماهما « مـــولا » و « مولاى » • وقد أصبح هذا الرجل وهذه المرأة الأبوين الأولين لقبيلة «كروكوس » •

ويروى عن قبيلـــة « موندا » ، وهى قبيلة بدائيـــة قـــديمة فى « شوتانجبور » ، حكاية شبيهة بالحـــكاية السابقة مع بعض الاختلاف المثير ، تقول : ان اله الشمس الذى يدعى « سنجبونجا » قـــد شـــكل تمثالين من الطين : أحدهما فى صورة رجل ، والآخر فى صـــورة أمرأة ، ولكنه قبـــل أن يمنحهما الحيـــاة داسهما الحصـــان بحوافره ، ناظرا بعين المستقبل الى ما يمكن أن يلقاه منهما من متاعب • وقد كان للحصان فى تلك الأيام أجنحة ، وكان فى وسعه أن يركض أسرع منه فى هـــذه الأيام • ولمـــا رأى اله الشمس أن الحصـــان قد حطم تمثاليه خلـــق حشرة العنكبوت أولا ، ثم عاد فشـــكل تمثالين آخرين شبيهين بالتمثالين اللذين داسهما الحصـــان بحوافره ، وأمر العنـــكبوت بأن يحرسهما ، فنسج العنكبوت خيوطه حول التمثالين بطريقة لم تمكن الحصـــان من أن يدوس التمثالين مرة أخرى بحوافره • وبعد ذلك تمكن اله الشمس من أن ينفث الحيـــاة فى التمثالين اللذين أصبحا أول بشرين على وجـــه الأرض ••

ويحكى « الشيريميون » فى روسيا ، وهم قوم من أصـــل فنلندى ، حكاية عن خلق الانسان تذكرنا بحوادث فى أساطير الهنود و «التورادجيين» عن الخلق • فهم يرون أن الاله شكل جسم الانســـان من الطين ، ثم صـــعد الى السماء ليحضر الروح الذى يحيى به الانسان ، بعـــد أن ترك الكلب يحرس التمثال فى غيابه • ولكنه ما أن تجاوز مكان التمثال ،

حتى اقترب الشيطان من التمثال وأثار ريحا باردا على الكلب ، واستطاع أن يرشوه برداء من الفرو كى يتنحى عن حراسة التمثال • وبعد ذلك بصـــق الشيطان على التمثال فلوثه بطريقة غاية فى القذارة ، الى درجة أن الاله عنـــدما أبصر ذلك ، لم يتمكن من تنظيفه ، ووجـــد نفســـه مضطرا لأن يقلب التمثال ظهرا لبطن • وهـــذا هو السبب فى أن باطن الانسان قد أصبح قذرا كل القذارة • وفى ذات اليوم نفسه صـــب الاله اللعنة على الكلب جزاء اهماله الذى استحق عليه العقاب •

فاذا انتقلنا الى أفريقيا فاننا نجـــد أن أسطورة خلق الانسان من الطـــين تنتشر بين قبـــائل الشـــلوك التى تســـكن اقليـــم النيـــل الأبيض • وتفسر أساطيرهم بطريقة بارعة اختلاف ألوان بشرة الأجناس البشرية المختلفة باختلاف ألوان الطين الذى خلقت منه • فيروى فى حكاياتهم أن الخالق « جووك » شـــكل الناس جميعا من التراب • وأنه كان يتجـــول فى أنحـــاء العالم ، فى أثنـــاء قيامه بعمله • ففى بلاد الأجناس البيضـــاء عثر على تراب أو رمل أبيض نقى ، فشـــكل منه الناس ذوى البشرة البيضاء •• ثم وفد على أرض مصر ، فشـــكل من طمى النيل أناسا ذوى بشرة حمراء أو بنية •• وأخيرا وصـــل الى أرض الشلوك ، ووجـــد بها تربة ســـوداء ، فشـــكل منهـــا النـــاس ذوى البشرة السوداء •

وقد اتبع الاله « جووك » الطريقة الآتية فى تشـــكيل النموذج الانسانى : كان يأخـــذ حفنة من التراب ويقول لنفسه : سأشـــكل نموذجا للانسان بشرط أن يكون قادرا على السير والجرى والخروج الى الحقول ، ولهـــذا سأمنحه رجلين طويلتين كرجلى طائر « البشروش » فلما فرغ من صنع الرجلين قال لنفسه مرة أخرى : « ولا بد أن يكون هـــذا الانسان قادرا على أن يزرع الذرة ، ولهذا فسأمنحه ذراعين : ذراعا تحمل الفأس ، وأخرى تنتزع العشب الضـــار بالزرع » • ومن ثم صنع له ذراعين • ثم تدبر الأمر مرة ثالثة وقال : « ولا بد لهـــذا

الانسان أن يرى النبات ، ولهـذا فسأمنحه عينين » • وركب له عينين فى وجهه • ثم قال بعد ذلك : « ولا بد أن يكون قادرا على أكل مالديه من ذرة ، ولهذا فسأمنحه فما » • ومنحه الفم • ثم تدبر الأمر وقال : « ولا بد أن يكون الرجل قادرا على انكلام والرقص والغناء والصراخ ولكى يستطيع أن يفعل كل هذا فهو فى حاجة الى لسان » • ثم ركب له لسانا • وأخيرا قال لنفسه : « ثم لابد أن يكون الانسان قادرا على سماع ضجيج الرقص ، وحديث العظماء من الرجال ، ولهـذا فهو فى حاجة الى أذنين » • ثم ركب له أذنين وبعث به على هـذا النحو انسانا كاملا الى الحيـاة • ويحـكى « الفانيون » الذين يسـكنون فى غرب أفريقيـا ، أن الله خلق الانسان فى بادىء الأمر على شـكل سحلية من الطين ، ثم وضعه فى حوض به ماء مدة سبعة أيام • وفى نهاية اليـوم السابع صاح به وقال له : « اصـعد من المـاء » • فبرز من المـاء شكل فى هيئة رجل لا فى هيئـة سحلية • وتعتقـد القبائل التى تسكن « توجولاند » فى غرب أفريقيا ، وتتحدث لغة قبائل « ايوى » [1] ، ان الله مازال حتى اليوم يشـكل الناس من الطين ، فاذا تبقى قليـل من المـاء الذى يبلل به التراب ، سـكبه على الأرض ، وخلق منـه الأشرار والعصاة من الناس • فهو حينما يود أن يخلق انسانا صالحا ، فانه يشكله من طين جيـد ، أما عندما يود أن يخلق انسانا شريرا ، فانه يشكله من الطين الردىء • وقد شـكل الاله الرجل فى بداية الأمر ، وأوقفه على الأرض ، ثم شـكل المرأة من بعـده • فنظر الرجل والمرأة أحدهما الى الآخر ، وشرعا يضحكان ، فبعث الاله بهما أثر ذلك الى الحيـاة •

وكذلك يروى « الاسكيمو » والهنود الذين يسـكنون فيما بين

---

(١) « ايوى » مجموعة من القبائل التى تنتمى الى الزنوج السودانيين وتقطن فى جنوب « توغجو » و « داهومى » . وهى تكون منذ عـام ١٩٥٧ العنصر السـائد فى جمهورية « تنجو » . (المترجمة)

ألاســـكا وبراجواى فى أمريكا أســـطورة خلق الإنسان من الطين • فالاسكيمو الذين يسكنون فى « بوينت بارو » فى ألاســـكا يقولون انه مضى زمن على الوجـــود لم يكن فيه رجـــل على وجه الأرض ، واستمر الأمر كذلك الى أن جاء روح بعينه اسمه « آسى لو » فأقام فى « بوينت بارو » ، وشـــكل رجلا من الطين ، ثم وضـــعه على الشاطىء ليجف ثم نفخ فيه أنفاسه ومنحه الحياة • ويحكى قوم آخرون من اســـكيمو ألاســـكا أن الغراب شـــكل أول أمرأة من الطين لكى تكون رفيقا لأول رجـــل ، ثم ألصـــق فى مؤخر رأسها عشبا مائيا لكى يكون لها شعرا ، ثم نشر جناحيه على التمثال الطينى فانتصب امرأة شابة جميلة • وقـــد حـــكى الهنـــود « الاكاجشميم » فى كاليفورنيا ان كائنـــا مهولا كان يدعى « شينجشنيش » خلـــق الانســـان من الطـــين الذى وجـــده على شواطىء احـــدى البحيرات • وقد قام بخلق الرجل والمرأة من الطين ، وعنهما تناسل الهنود الذين يعيشون اليوم فى تلك البقاع •

وقد قامت شخصية غامضة تدعى « العارف بالأرض » بخلق أول رجل وامرأة وذلك رفقا لرواية الهنود « المايـــدو » الذين يســـكنون كاليفورنيا وقد هبطت هـــذه الشخصية من السماء عن طريق حبـــل مصنوع من الريش ، وكان جسمه يشرق كالشمس وان كان قد أخفى وجهـــه فلم يره أحـــد قط • وفى عصر أحـــد الأيام أخـــذت هـــذه الشخصية كمية من التراب الأحمر الداكن ومزجتها بالمـــاء ، وصنعت منها شـــكلين : أحدهما لرجل والآخر لامرأة • وعنـــدما عادت هـــذه الشخصية الى مسكنها العلوى وضـــعت الرجل عنـــد جانبها الأيمن ، والمرأة عند جانبها الأيسر ، ورقدت بينهما ، وأخـــذ العرق يتصـــبب منها طوال عصر هـــذا اليوم وفى أثناء الليـــل • وفى الصباح الباكر أخـــذت المرأة تدغدغ جنبها ، ولكنها ظلت ساكنة ولم تستسلم للضحك • ثم نهضت بعد قليل وغرست قطعة من الخشب مطلية بالقار فى الأرض ، فاندلعت النار فى الحال • وقد كان الزوجان المخلوقان ناصعى البياض ، وليس فى الناس اليوم من يماثلهما فى نصاعتهما • وكذلك كانت عيونهما

وردية وشعرهما أسود وأسنانهما براقة ، كما كانا غاية فى الوسامة • وقد قيل : ان « العارف بالأرض » لم يصنع لشكليه أياد ، لأنه لم يهتد الى الطريقة المثلى فى تشكيلهما •

ثم أبصر « الكويوت » ، أو ذئب انبرارى الذى يقوم بدور كبير فى أساطير الهنود الغربيين ، أبصر التمثالين فيما بعـــد ، ورأى ضرورة خلق أياد لهما مثل يديه • ولكن « العارف بالأرض » رد عليه قائلا : « لا ، بل ان أيديهما ستكون مثل يدي » • ومن ثم أكمل صنع الزوجين • فلما سأله « الكويوت » عن سبب صـــنعه الأيادى على هـــذا النحو أجاب : « حتى اذا طاردتهما الدببة استطاعا أن يتسلقا الأشجار » • وقد سمى أول رجل « كوكسو » ، كما سميت أول أمرأة « المرأة نجمة الصـــباح » •

ويروى الهنود « الديجونيو » أو ــ كما يســـمون أنفســـهم ــ « الكواكيايس » وهم الهنود الذين يســـكنون الركن الجنـــوبى الغربى الأقصى من ولاية كاليفورنيا ، يرون أسطورة يفسرون بها كيف خـــلق العالم والجنس البشرى على نحو ما هما عليه الآن • فهم يقولون انه لم يكن هناك فى بادىء الأمر تراب أو أرض صلبة ، أو أى شىء آخر سوى المياه الملحة التى كانت تملأ محيطا واحـــدا قديم العهد شاسعا • وقد كان يسكن تحت سطح الماء أخوان يدعى أكبرهما « تشاياكومات » ، وكان كلاهما يعيش بعينين مغمضتين ، لأنهما ان لم يفعلا ذلك أصابتهما الميـــاه الملحة بالعمى • وبعد مرور وقت خرج الأخ الأكبر الى ســـطح المحيط فلم يستطع أن يبصر شيئا سوى المـــاء • ثم اتخذ الأخ الأصغر طريقه الى الســـطح كذلك ، ولكنه فتح عينيه فى غير حـــذر فى أثنـــاء صعوده ، فأصيب بالعمى ، فلما وصـــل الى السطح لم يبصر شيئا • ومن ثم فقد هبط ثانيا الى قاع المحيط • ولمـــا وجـــد الأخ الأكبـــر نفسه وحيدا على سطح المـــاء وشرع فى خلق تراب صـــالح للســـكنى عليه من مهملات المحيط ، فخلق فى أول الأمر نملا أحمر صغيرا غطى

الميـــاه بأجسامه الدقيقة حتى تحول سطح الميـــاه الى جسم صـــلب • وقد كان الكون حتى ذلك الوقت مظلما ، اذ لم تكن الشمس ولا القمر قد خلقا بعـــد ، فلما خلق « تشاييباكومات » بعد ذلك طيـــورا معينة سوداء مفلطحة المناقير حـــدث أنها ضلت طريقها فى الظـــلام ولم تجد لها مســـتقرا • وبعـــد ذلك أخـــذ « تشاييباكومات » ثلاثة أنواع من الطين : أحمر وأصفر وأسود ، وصنع منها شـــيئا مستديرا مســـطحا أمسكه فى يده وقـــذف به نحو السماء فالتصق بها ، وأخـــذ ينبعث منه ضوء خافت تكون منه القمر بعد ذلك • ولكن « تشاييباكومات » لم يقنع بهذا الضـــوء الخافت الذى ينبعث من هـــذا النجم الشاحب ، فأخـــذ مزيدا من الطين وشـــكله على هيئة قرص آخر مستدير ومســـطح ، وقذف به نحو السماء ، فى الجانب الآخر منها ، فالتصق بها ، وأصبح هو الشمس التى تضىء الكون بأشعتها • وبعد ذلك أخذ « تشاييباكومات » قطعة من الطين ذات لون فاتح وشطرها شطرين ، وشـــكل منها الرجل • ثم أخذ ضلعا من الرجل وشـــكل منه المرأة التى أطلق عليها اســـم « سيني أكساو » ، ومعنـــاه المرأة الأولى • وكلمـــة « سيني » تعنى المرأة ، وكلمة « أكساو » تعنى الأولى • وقد تناســـلت البشرية من هـــذين الشكلين اللذين شكلهما هـــذا الخالق من الطين ••

وعلى هـــذا النحو يعتقد الهنود « الهوبى » أو « الموكو » الذين يسكنون أزيزونا أنه لم يكن فى بداية الحيـــاة ســـوى المـــاء يعم كل البقاع ، وأن الهـــين ـــ وربما كانتا الهتـــين ـــ كلتاهما كانت تدعى « هوروينج وهتى » كانتا تعيشان فى بيتين يقعان فى المحيط ، أحدهما يقع فى الشرق والآخر فى الغرب • وقد اســـتطاعت هاتان الالهتـــان بجهودهما أن تجعلا الأرض الصلبة تظهر وســـط الميـــاه • على أن الشمس لاحظت ، فى أثناء مرورها يوميا فوق الأرض الجـــديدة ، أنه ليس هنـــاك كائن حى من أى نوع يعيش على هـــذه الأرض ، فلفتت نظر الالهتين الى هـــذا العيب الجوهرى • وبنـــاء على ذلك اجتمعت الآلهتان للتشاور فى هذا الأمر ، واتخـــذت الالهة التى تسكن شرقا من

قوس قزح جسرا عبرت عليه الى اختها التى تسكن غربا • وبعـــد أن تشاورتا معا قررتا أن تخلقـــا طائرا صغيرا ، فشـــكلت الهة الشرق طائرا صغيرا للغاية ثم أخذتا معا تتلوان عليه التعاويذ ، فدبت الحياة فى الطائر على الأثر • وعند ذاك أطلقت الالهتان الطائر ليطوف فى أرجاء العالم ليرى ما اذا كان هناك على وجه الأرض أى كائن حى ، فلما عاد الطائر أخبرهما بأنه لم يرأثرا لأى كائن حى • وعند ذاك خلقت الالهتان بنفس الطريقة أنواعا مختلفة من الطيـــور ، وبعثتا بها الى الأرض لكى تعمرها • وفى نهاية الأمر استقر رأى الالهتين على أن تخلقا الانسان ، فأخـــذت الهة الشرق قطعة من الطين وشكلت المرأة أولا ثم الرجل بعد ذلك ، وبثت الالهتان الحيـــاة فى الرجـــل والمرأة على نحـــو ما فعلتا مع الطيـــور والوحوش •

ويزعم الهنود « البيما » الذين يسكنون فى أريزونا أن الخالق أخذ قطعة من الطين فى يده ثم مزجها بعرق جسده وصـــنع من هـــذا المزيج كتلة من العجين ، ثم راح ينفخ فيها حتى دبت فيها الحيـــاة ، وأخذت تتحرك ، وتحولت الى رجل وامرأة • وقد قال أحـــد كهنـــة الهنـــود « الناقشـــيز » الذين يســـكنون « لويزيانا » ــ قال لـ « دوبراتز » « ان الاله عجن قطعة من انطين الذى يشبه ما يستعمله صـــانع الخزف فى صـــنع الأوانى الخزفية ، وشـــكل منه تمثالا صغيرا لرجل • وبعد أن تفحصه ووجـــد شكله لائقا نفخ فيه فدبت الحيـــاة فى التمثال ، وأخـــذ الرجل يكبر ، كما أخـــذ يسير ويسلك مسلك البشر • ثم نظر هـــذا الرجل الى نفسه فوجـــد نفسه مصـــورا أحسن تصـــوير » • أما بالنسبة للطريقة التى خلقت بهـــا المرأة فقد أقر الكاهن لـ « دوبراتز » صراحة بأنه لا يعرف شيئا عن هـــذا الموضـــوع ، فتراث قبيلته القديم لم يذكر شيئا عن الفرق بين الجنسين فى طريقة خلقهما • وهو يعتقـــد كذلك أن الرجل والمرأة قد خلقا بطريقة واحـــدة •

وقد روى « المتشواكان » وهم من سكان المكسيك أن الاله الكبير

« توكاباشا » شـــكل الرجل والمرأة فى بادىء الأمر من الطين ، ولكن عندما نزل الزوجان الى النهر ليستحما امتص الطين المـــاء وتفتت • ولكى يتفادى الاله هـــذا العيب فقد شكل التمثالين مرة أخرى من الرماد ، ولكن النتيجة لم تكن سارة فى هـــذه المرة كذلك • وأخيرا فقـــد قـــام بتشكيلهما من المعـــدن حتى يتجنب الاخفاق للمرة الثالثة • وقد كان عمله محمودا هـــذه المرة ، اذ أنه أحـــكم صنعهما بحيث لم تعد الميـــاه تتسرب اليهما ، فلما نزلا الى المـــاء لكى يستحما لم يتعرض جسماهما للتفتت • ومن هذين الزوجين تناسلت السلالات البشرية • وقد حـــكى هنود « بيرو » لقس أسبانى من « كوزكو » أسطورة ، مؤداها أن الجنس البشرى عاد الى الظهور مرة أخرى فى « تياهوانكو » بعـــد أن قضى الطوفان عليه جميعا ، فيما عـــدا رجل وامرأة • فهناك فى « تياهوانكو » التى تبعـــد حوالى سبعين فرسخا عن « كوزكو » بعث الخالق الناس والشعوب التى هلكت فى تلك البقاع بأن شـــكل أفراد كل أمـــة من الطين ، ولون رداء كل فرد باللون الذى يميزه عن أردية الأمم الأخرى • واذا كان انفرد ينتمى الى أمة كان أفرادها يسدلون شعورهم ، خلق له شعرا مسدلا ، وأما اذا كانت أمته تحلق شعورها ، فانه كان يخلقه بشعر قصير • كما أنه جعل كل أمة تتحـــدث اللغة التى كانت تتحـــدث بها ، وتغنى الأغانى التى كانت تتغنى بها ، ومنح كلا منها الحبـــوب والأطعمة الخاصة بها • ولمـــا فرغ الخالق من تشكيل شـــخوص كل أمة ، وتلوين ملابسها ، بث الحيـــاة فى هـــذه الأشكال ، الذكور منهـــا والاناث ، وأمرهم أن يسيروا تحت الأرض ، ثم صـــعدت كل أمة من المكان الذى أمرها الله أن تصـــعد منه » • ويعتقـــد الهنود « اللينجوا » الذين يسكنون « براجواى » أن الخالق كان فى شـــكل خنفساء يسكن جحرا فى الأرض ، وأنه شـــكل الرجل والمرأة من الطين الذى كان يطوح من مسكنه تحت الأرض •

وقد كان الزوجان ملتصقين فى بادىء الأمر « مثل التوأم السيامى » • وفى هـــذه الصورة الشاذة بعث بهما الخالق الى العالم الأرضى ، حيث تنازعا ـــ وهما على هـــذه الصورة غير الملائمة ـــ مع جنس من الكائنات

القوية التى كان الخالق قد خلقها من قبل • وعند ذاك توسل الزوجان الى الخالق الخنفساء أن يفصل أحدهما عن الآخر ، فاستجاب لطلبهما ، ومنحهما القـــدرة على التكاثر ، ومن ثم أصبحا الأبوين الأولين للجنس البشرى • أما الخالق الخنفساء فقد كف ، بعد أن خلق الكون ، عن أن يقوم بعـــد ذلك بأى عمل ايجابى قبه ، كما لم يعد يهتم لشىء فيه •

وتذكرنا هـــذه الرواية بحـــكاية أرستوفان الخيـــالية فى « محاورات أفلاطون » تلك الحـــكاية التى يحكى فيها أرستوفان عن الشكل الأصلى للجنس البشرى ، وكيف أن المرأة والرجـــل قـــد خلقا فى بداية الأمر ملتحمين فى شـــكل واحـــد مركب له رأسان وأربع أذرع وأربع أرجل ، حتى جـــاء زيوس فشقهما من النصـــف ، وفصـــل الجنسين أحـــدهما عن الآخر » •

ومن الجدير بالملاحظة أن عددا من الحكايات السالفة الذكر تتفق جميعا فى أن الطين الذى شـــكل منه أول أبوين كان أحمر اللون ومن المحتمل أن اللون الأحمر يقصـــد به تفسير لون الدم • وعلى الرغم من أن الكاتب اليهودى قد أغفل ، فى حـــكايته فى سفر التكوين ، ذكر لون الطين الذى استخدمه الله فى خلق آدم ، فاننا نحدس ، ولعلنا لا نكون متعجلين فى حدسنا ، أن الطين الذى استخدم فى هـــذه المناسبة كذلك كان لونه أحمر • فالكلمة العبرية التى تطلق على الرجل فى العموم هى « آدم » ، والكلمة التى تطلق على الأرض هى « أدمة » ، كما أن الكلمة التى تطلق على اللون الأحمر هى « أدوم » • وبذلك نصـــل عن طريق التسلسل الطبيعى ، بل الضرورى ، للعلل ، الى أن الأبوين الأولين قـــد خلقا من التراب الأحمر • فاذا ساورنا شـــك فى هذا فربما كانت ملاحظة أن تربة فلسطين تميل حتى اليوم الى الحمرة الداكنة تبدد هذا الشك • « وهـــذا يشير ـــ وفقا لرأى الكتاب الذى لاحظ هـــذه الملاحظة وعلق عليها فى انصاف ـــ « الى العلاقة بين آدم والتربة التى خلق منهـــا • وهـــذا اللون يبدو بشـــكل واضح عندما تقلب التربة ، اما عن طريق المحراث أو عن طريق الحفر » • فالشىء اللافت أن الطبيعة نفســـها تحمل شواهد على الدقـــة الأدبية فى الكتاب المقدس •

الفصل الثانى

ســـقوط آدم

١ ــ القصـــة فى سفر التكوين :

يصـــور الكاتب اليهودى عن طريق القـــاء قليل من الضـــوء ، ولكن بريشة فنان ماهر ، الحيـــاة السعيدة التى عاشها الأبوان الأولان فى جنة السعادة التى خلقها الرب لهما ليسكنا فيها • هناك نمت فى وفرة كل الأشجار التى تعطى الثمار الطيبة وتسعد العين بمرآها ، وهنـــاك عاشت صنوف الحيوان فى وئام مع الانسان ومع بعضها بعضا ، وهناك لم يكن الرجل والمرأة يعرفان الخجل ، لأنهما لم يكونا يعرفان العيب ، فقـــد كان هـــذا عصر البراءة •

ولكن هذه الحيـــاة السعيدة لم تدم طويلا ، اذ سرعان ما غشى الغمام ضوء الشمس • وينتقل الكاتب فجأة من قصـــة خلق حـــواء ، وتقـــديمها لآدم ، ليحكى لنـــا قصة سقوطهما الحزينة ، وفقـــدانهما للبراءة ، وطردهما من جنـــة عـــدن ، وما قدر لهما هما ونسلهما من بعد من العمل والحزن والموت • ففى وسط الجنة نمت شجرة المعرفة ، معرفة الخير والشر ، التى حرم الرب على آدم أن يأكل من فاكهتها قائـــلا : « وأما شـــجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها ، لأنك يوم تأكل منها موتا تموت » [1] ، ولكن الحية كانت ماكرة ، كما كانت المرأة ضعيفة ومن السهل أن يغرر بها • فذهبت الحيـــة الى حواء وأغرتها أن تأكل من الثمار المشئومة ، وقدمت حواء بدورها الثمار لزوجها ، فأكلها كذلك •

---

(١) سفر التكوين ٢ : ١٧ .

وما كادا يتذوقان الثمـــار حتى تفتحت عيونهما على الحقيقـــة وأدركا أنهما عاريان ، فسترا عورتيهما ، وقد ملأهما الخزى والارتباك ، بغطاء من أوراق التين : وفى هـــذه اللحظـــة ولى عصر البراءة الى غير رجعة • وبعد أن خفت وقدة حر الظهيرة ، وانتشرت الظلال فى ربوع الجنـــة ، أخـــذ الرب يتمشى ، كما كانت عادته ، فى ساعة العصر الرطبة • وسمع الرجل والمرأة وقع خطواته ، وربما سمعا كذلك حفيف الأوراق وهى تتساقط تحت قدميه (اذا كان يمـــكن لأوراق الشـــجر فى الجنـــة أن تتساقط) • فاختبأ بين الأشجار ، وقد ملأهما الخجـــل من أن يراهما عاريين • فصاح بهما الرب أن يخرجا من خلف الأشجار • ولمـــا علم من الزوجين الخجولين أنهما قد عصـــيا أمره وأكلا من شجرة المعرفة ثارت ثورة غضبه ، ولعن الحيـــة ، وحـــكم عليهما بأن تزحف على بطنها ، وأن تأكل التراب ، وأن تكون عدو الانســـان الى الأبد ، ولعن الأرض وقضى عليها أن تنبت الشوك والحسك ، ولعن المرأة وحكم عليها أن تلد أولادها فى ألم ، وأن تكون خاضعة لزوجها ، ولعن الرجل وقضى عليه ، أن يستخرج خبز يومه من الأرض بعرق جبينه ، وأن يعـــود فى نهاية حياته الى التراب ، كما خلق من التراب • وخفت ثورة غضـــب الرب بعد أن نطق بهـــذه اللعنات المتعددة • ومع ذلك فان الرب الغاضـــب ، بل الرءوف بحق ، أشفق على المذنبين الى حـــد ما ، وصـــنع لهما رداءين من الجلد ، ليرتدياهما بدلا من الغلالات المصـــنوعة من ورق التين • أما آدم وحواء فقد انسحبا الى الوراء من خـــلال الأشجار فى رداءيهما الجديدين والخزى يشـــيع فى وجهيهما ، فى حين كانت الشمس تختفى شيئا فشيئا جهة الغرب ، والظلال تتراكم فى الجنـــة المفقودة •

ان كل حدث فى هـــذه القصة يرتبط بشجرة معرفة الخير والشر ، فهى تقف مع الرجل والمرأة والحيـــة الناطقة ، فى بؤرة المأساة الكبيرة ، اذا أمكن لنا أن نقول هذا • على أننا أمعنـــا فى النظر ، فاننا نجـــد شجرة أخرى تقف مع شجرة المعرفة جنبا الى جنب وســـط الجنـــة ، وهـــذه الشجرة تلفت النظر للغاية ، لأنها ليست سوى شجرة الحياة

التى تكسب كل من يأكل من فاكهتها الخلـــود • ومع ذلك فان هـــذه الشجرة الرائعة لا تلعب أى دور فى قصـــة الســـقوط الحقيقية ، فعلى الرغم من أن ثمارها كانت تتدلى منها يانعة القطوف ، وعلى الرغم من أنه لم يكن يحول بين الانسان وبين هـــذه الثمار أى تحريم الهى ، على عكس ما حـــدث مع شجرة المعرفة ، فان أحـــدا من الأبوين لم يفـــكر فى قيمة تناول شىء من فاكهتها اللذيذة ، فيعيش الى الأبد • ولكن يبدو أن شخوص المأساة الكبيرة وقد تركزت أبصارهم حول شجرة المعرفة ، لم يبصروا شـــجرة الحيـــاة ، بل ان الرب نفسه لم يتذكر هذه الشجرة العجيبة التى تقف بامكانيتها غير المحـــدودة مهملة وسط الجنة ، الا بعد أن قضى الأمر وانتهى كل شىء • وقـــد خشى الرب بعـــد أن أصـــبح الانسان صنوه فى المعرفة عندما أكل من ثمار شجرة المعرفة ، أن يصبح كذلك خالدا مثله اذا ما أكل من شجرة الحيـــاة ، ولذلك فقـــد أسرع بطرده من الجنـــة ، وعين فريقا من الملائكة الذين يحملون سيوفا لامعة لتحرس الشـــجرة من كل من يقترب منها ، حتى لا يتسنى لأحـــد أن يأكل من فاكهتها السحرية ، فيعيش الى الأبد ، ومن ثم فانه على حين تتركز أبصارنا ، طوال حركة المسرحية فى الجنة ، حـــول شجرة المعرفة كل التركيز ، فان النظرة الأخيرة الى الجنـــة السعيدة تطالعنا عنـــدما يتغير المشهد فى النهاية ويخبو بهاء جنـــة عدن الى الأبد ، ويتحـــول نهارها الى نهار عادى ــ تطالعنا على شجرة الحيـــاة وهى تقف بمفردها وقد أضاءها بصيص الضـــوء المنبعث من سيوف الملائكة المشرعة •

ومن المسلم به بوجه عام ، فيما يبـــدو ، أن حـــكاية الشجرتين قـــد اعتراها بعض الخلط ، وأن شجرة الحيـــاة لم تلعب فى الحـــكاية الأصـــلية هـــذا الدور المثير السلبى الصرف الذى لعبتـــه فى هـــذه الحكاية • ومن ثم فقـــد اعتقـــد البعض أنه كان هنـــاك فى الأصـــل حكايتان مختلفتان عن السقوط ، صورت فى احديهما شجرة المعرفة على حـــدة ، كما صـــورت فى الأخرى شجرة الحيـــاة منفردة ، وان كاتبا مزج بين الحكايتين فى غير حـــذق ، وجعل منهما حكاية واحـــدة • وعلى

حين احتفظ باحداهما فى شـــكلها الأصـــلى على وجه التقريب ، اختصر الحكاية الثانية وشذبها حتى كادت تفقد معالمها • وربما كان الأمر كذلك كما يعتقـــد هؤلاء ، ولكن ربما استطعنا أن نجـــد حلا لهـــذه المشكلة بطريقة أخرى •

فالهدف من حـــكاية السقوط ، فيما يبـــدو ، هو محاولة لتفسير فناء الانسان ولتقـــديم السبب الذى من أجله أصبح الموت جزءا من كياننا الدنيوى • حقا ان القصـــة لم تذكر أن الانسان قد خلق خالدا ، وأنه فقـــد هـــذا الخلود عن طريق عصيانه ، ولكن الحـــكاية لم تذكر كذلك أنه خلق فانيا • بل انه حرى بنا أن نفهم من سياق الحكاية ، أن امكانية الخلود والفناء كانت متروكة له ، وكان عليه أن يختار أحـــد الأمرين ، ذلك أن شجرة الحيـــاة كانت فى متناول يده ، ولم تكن فاكهتها محرمة عليه ، وما كان عليه سوى أن يمد يده ويقطف ثمارها ، ويأكلها فيكتسب الخلود الى الأبد • بل انه من المفهوم ضمنا ، بعيـــدا عن أن الانسان قد حرم عليه أكل ثمار هـــذه الشجرة ، أن الخالق قد سمح له أن يأكل منها ، ان لم يكن قد شجعه على ذلك ، فلقد قال له صراحة : انه فى وسعه أن يأكل فى حرية من ثمار أية شجرة من أشجار الجنـــة فيما عـــدا شجرة معرفة الخير والشر • فمن الواضـــح اذن أن الرب ، بغرســـه شـــجرة الخلود فى الجنـــة ، وعـــدم منعه آدم من يأكل من ثمارها ، كان يهـــدف الى أن يجعـــل للانســـان الخيـــار أو على الأقل يتيح له الفرصـــة ، لأن يكون خالدا ، ولـــكن الانســـان ضـــيع على نفسه هذه الفرصة حينما اختار أن يأكل من الشجرة الثانية التى حذره الله من أن يمسها ، والا استعجل فناءه • وهذا يؤكد أن الشجرة المحرمة كانت فى الحقيقة شجرة فنـــاء لا شجرة معرفة ، وأن مجرد تنـــاول فاكهتها المهلكة ، بغض النظر عن موضوع طاعة الأمر الالهى أو عصيانه ، كان كفيلا بأن يفضى بالانسان الى الموت • ويتمثل هـــذا الاستدلال كل التمثل فى تحذير الرب لآدم عندما قال له أنك لن تأكل منها ، واليـــوم الذى تأكل فيه من ثمارها شيئا ، سيكون مصيرك الموت المحتوم • وبناء

على ذلك ، يمكننـا أن نفترض أن القصـة الأصـلية أشـارت الى شجرتين : شجرة الحيـاة وشجرة الفنـاء ، وأنه كان للانسان الخيار فى أن يأكل من الشجرة الأولى وأن يعيش خالدا الى الأبد ، أو أن يأكل من الشجرة الثانية ويصـبح انسانا فانيا • وأن الرب ، رحمة بمخلوقه ، نصـحه أن يأكل من شجرة الحيـاة وحـذره من أن يأكل من شجرة الفنـاء ، ولكن الانسان ، عندما أضلته الحيـة ، أكل من الشـجرة المحرمة ، وبذلك حرم عليه الخلود الذى كان ربه الرحيم قد رسمه له •

ومن شأن هـذا الافتراض أنه يوجـد — على الأقل — نوعاً من التوازن بين دور الشجرتين فى القصـة ، وأن يكسب القصـة بوصفها كلا الوضـوح والبساطة والتماسك • كما أنه يقـدم حـلا لضرورة افتراض وجود قصـتين أصليتين متميزتين مزج بينهما كاتب سـقيم التفكير فأفسدهما • بل ان هـذا الافتراض يرجحه أكثر من ذلك اعتبار آخر عمقا ، يصـور السلوك الالهى فى صـورة مقبولة ، فهو ينزهه كل التنزيه عما أثير عن حقـده وحسده ، فضـلا على الجبن وتعمد الأذى ، تلك الصفات الشائنة التى ظلت ، بتأثير قصـة سفر التكوين — بقعـة سوداء فى حق الصفات الالهية • ذلك أن الاله ، وفقا لهـذه القصـة ، قد نفس على الانسان امتلاكه للمعرفة والخلود معـا ، ورغب فى أن يستبقى هـذه الصفات الطيبة لنفسه وخشى أن يصـبح الانسـان مناوئا لخالقه ، اذا ما استحوذ على أحـدهما أو كليهما ، الأمر الذى لم يكن من الممكن للرب أن يتقبله بحال من الأحوال • ومن ثم فقـد حذر الانسان ، وفقا لهـذه القصة ، أن يأكل من شجرة المعرفة ، ولما لم يكترث الانسان لهـذا التحـذير ، طرده الرب من الجنـة وأوصد بابها دونه ، حتى يحول بينه وبين الشجرة الأخرى التى ان هو أكل من ثمارها أصبح خالدا • ان الدافع الذى تقـدمه القصة دنىء ، كما أن السلوك الذى تنسبه للرب يستحق الازدراء • وفضـلا على هـذا فان كلا من هـذا الدافع وذلك السلوك يتناقض مع سلوك الرب ازاء الانسان فى بداية الأمر كما صورته القصـة ، قد كان الرب بعيدا كل البعـد عن

آن ينفس على الانسان شيئا ، بل انه بذل كل ما فى وسعه لكى يجعله سعيدا هانئا ، فخلق له جنـــة رائعة الجمال لينعم بها وخلق له الطيور وصنوف الحيـــوان ليأتنس بها ، كما خلق له المرأة لتكون زوجا له •

حقا ان التلاؤم بين عناصر مغزى القصـــة من ناحـــة ، وبينهـــا وبين الصـــفات الالهية من ناحية أخرى ، يكون أبعـــد مدى اذا افترضنا أن الرب شاء أن يتوج عطفه على الانسان بمنحه الخلود ، وأن قصـــده النبيل لم يحبطه سوى مكيدة الحيـــة •

على أنه مازال علينا أن نواجه هـــذا السؤال : لماذا دبرت الحية تلك المكيدة للانسان ؟ وماذا كان هدفها من وراء حرمان الجنس البشرى من المميزات الكبيرة التى كان الرب يعتزم أن يخلعها عليه ؟ فهـــل كان تدخلها فى هـــذا الأمر مجرد فضـــول ؟ أم أنها كانت تكن هدفا أبعـــد من هـــذا ؟ كل هـــذه الأسئلة لا يجيب عنها سفر التكوين أدنى اجابة • فالحيـــة لم تغنم شيئا من وراء تلك المكيدة ، بل انها كانت على عكس هـــذا ، من الخاسرين ، اذ حلت عليها اللعنة الالهية ، وقضى عليها أن تزحف على بطنها وأن تعلق التراب • وربما لم تكن نياتها سيئة للغاية ، بل ربما كانت تقوم بعمل لاهدف وراءه كما يبدو من ظاهر القصـــة • ولكن اذا كانت القصـــة تخبرنا بأنها كانت أشـــد ميلا للخديعة من أى حيوان آخر ، فهل شاءت حقا أن تدل على حـــكمتها بأن تطيـــح بآمال الانسان دون تحقق لنفسها شيئا منها ؟ وربما ساورنا الشك فى أن الحية فى القصـــة الأصـــلية قد أثبتت لنفسها مكانا مرموقا بأن استولت على البركة التى حرمت منها الجنس البشرى ، اذ أنها فى الواقع أكلت هى نفسها من شجرة الحياة فاكتسبت الخلود ، فى الوقت الذى أغرت فيـــه الأبوين الأولين أن يأكلا من شجرة الفناء • ويبدو أننـــا لسنا مغالين فى هـــذا الفرض ، فنحن نقرأ فى حكايات بدائية ليست بالقليلة ، تحكى عن أصـــل الموت ، وسأعرضها على القارىء وشيكا ، أن الحيات سعت فى تدبير حيلة لتسخر من الانسان أو لتلقى الروع فى قلبه ، حتى تحتفظ

لنفسها بالخلود الذى كان الانســـان معنيـــا به • فكثير من البدائيين يعتقدون أن الحيـــات وبعض أنواع من الحيوان تجـــدد شبابها وتحيا الى الأبد ، وذلك عن طريق تغييرها لجلدها مرة فى كل عام • ويبـــدو أن الشعوب السامية قد عرفت هـــذه العقيـــدة كذلك ، فالحيـــة ــ وفقا لرأى الكاتب الفينيقى القديم « سانشونياثون » ، كانت أطول الحيوانات عمرا ، لأنها كانت تجـــدد شبابها على الدوام عندما تغير جلدها • واذا كان الفينيقيون قد اعتقدوا أن الحـــة معمرة ، وأن سبب هـــذا يرجع الى تغييرها جلدها ، فليس ببعيد أن جيرانهم وأقرابهم العبريين كانوا يعتقدون الاعتقاد نفسه • والشىء الذى لا جـــدال فيه ، هو أن العبريين كانوا يعتقدون أن النسور تجـــدد شبابها عندما تغير ريشها • واذا كان الأمر كذلك ، فلماذا لا يعتقدون بالمثل أن الحيـــة كذلك يتجـــدد شبابها بتغير جلدها ؟ على أن فـــكرة خـــداع الحيـــة للانسان ، وسلبها منه الخلود ، عن طريق استيلائها على عشب الخلود ، الذى كانت الآلهـــة تقصـــد الاحتفاظ به للجنس البشرى ــ تتمثل فى الواقـــع فى ملحمة جلجامش التى تعـــد معلما من المعالم الأدبية القـــديمة لدى الجنس السامى ، أكثر قـــدما من سفر التكوين •

ففى هـــذه الملحمة نقرأ كيف أن أوتنابيشتيم الانسان المؤله ، أفشى للبطل جلجامش سر وجود نبات له مقدرة ســـحرية على اعادة الشباب الى الانسان ، يطلق عليه اسم « الرجل الكهل يعود شـــابا » ، وكيف أن جلجامش اهتدى الى هـــذا النبـــات ، وأصـــابه الزهو بأنه سيأكل منه ويسترجع شبابه الذى ولى ، ثم كيف أن حيـــة تسللت ، قبل أن يأكل جلجامش من هـــذا العشب ، وسرقت النبات المسحرى ، بينما كان جلجامش يستحم فى الميـــاه الباردة فى أحـــد الينابيع أو الغدران ، ثم كيف أن جلجامش ، بعد أن فقـــد الأمـــل فى اكتساب الخلود ، جلس وبكى • حقـــا ان الملحمة لا تذكر صراحة أن الحيـــة اكتسبت الخلود عندما التهمت ذلك النبات ، ولكن ربمـــا كان حـــذف هـــذا مرده الى غموض النص وما فيه من عيب • واذا كان شاعر الملحمة قد ســـكت

عن هـذا الموضوع ، فان الروايات الأخرى التى سأذكرها وشـيكا مطابقة لهـذه القصـة ، تمكننا من أن تسد هـذه الثغرة على أساس احتمال معقول • وأكثر من هـذا فان هـذه الروايات تشير دون دليـل الى أن الحية فى الحكاية الأصلية التى أفسدها الكاتب اليهودى وشوهها، كانت رسولا من الله للانسان يحمل اليه نبأ الخلود السار ، ولكن هـذا المخلوق الماكر استغل الرسالة لصالح نوعه ولدمار البشر • أما منحة الكلام التى استغلتها الحيـة من أجل تحقيق غرضـها الخبيث فقـد زودها الاله بها لتـكون قادرة على تبليغ رسـالته الى الانسـان •

وباختصـار فاننا يمكننا أن ننتهى ، من خـلال الموازنة بين روايات هـذه الحكاية المختلفة ، المنتشرة بين الشعوب المختلفة ، الى أن حكاية سقوط الانسان الأصلية الحقيقية كانت تجرى على النحو التالى على وجه التقريب : ان الخالق الكريم ، بعد أن شكل الرجـل الأول والمرأة الأولى ، وأحياهما عن طريق عملية بسيطة بأن نفخ فى فميهما وأنفيهما ـ أسـكن الزوجين السعيدين فى جنـة أرضـية ، حيث عاشا متحررين من كل عنـاء ومشـقة ، يأكلان من ثمار هذه الجنـة السعيدة اليانعة ، ويستأنسان بالطيور والحيوانات وهى تمرح من حولهما فى اطمئنـان لا يتسرب اليه الخوف • ثم فـكر الرب فى أن يتوج سعادة الزوجين بأن يمنحهما نعمة الخلود الكبيرة • ولكنه قرر ، فى الوقت نفسه ، أن يكونا هما نفساهما حـكما على مصيرهما ، وذلك بأن ترك لهما حرية قبول أو رفض المنحة المقـدمة اليهما • ولهذا الغرض أنبت فى وسـط الجنة شجرتين عجيبتين تحمل كل منهما فاكهة من كل نوع ، وتجلب فاكهة احديهما الفناء لآكلها ، بينما تكسب ثمار الشجرة الثانية الخلود لمن يأكل منها • وبعد ذلك أرسـل الحيـة برسالة لكل من الرجل والمرأة لتقول لهما : لا تأكلا من شجرة الفنـاء ، ففى اليوم الذى تأكلان فيه من فاكهتها يكون مصيركما الموت المحتوم • على أن الحيـة التى كانت أكثر الحيوانات مكرا ، تفكرت ، وهى فى طريقها الى الرجل والمرأة ، فى أن تغير فحوى الرسالة • فلما وصلت الى الجنـة السعيدة ، حيث

وجـــدت حواء بمفردها ، قالت لها : « ان الله يقول : لا تأكلا من شجرة الحيـــاة ، لأنه سيقضى عليكما بالموت المحتم فى اليوم الذى تأكلان فيها منها ، ولكن كلا من شجرة الفنـــاء لتعيشا الى الأبد • وصدقتها المرأة الحمقاء وأكلت من الفاكهة المهلكة ، وأعطت منها لزوجها فأكل منهـــا كذلك • أما الحيـــة الماكرة فقـــد أكلت من ثمار شجرة الخلود • ولهـــذا السبب أصبح الانسان فانيا والحية خالدة الى الأبد ، اذ ان الحيـــة تغير جلدها كل عام ، وبذلك يتجـــدد شبابها • ولو أن الحيـــة لم تشوه رسالة الخالق ، ولم تخـــدع أمنا الأولى ، لمنحنا الخلود بدلا منها ، ذلك أننا كنا سنغير جلودنا فى كل عام كما تفعل الحية ، ومع تغيرها يتجدد شبابا على الدوام •

ومما يزيد من احتمال أن هـــذه الرواية ، أو ما يشبهها ، كانت هى الصـــيغة الأصـــلية للحـــكاية ، مقارنتها بالحـــكايات التالية التى يمكننا أن نصنفها فى يسر تحت عنوانين رئيسيين هما « حـــكاية الرسالة المحرفة » وحكاية « تغيير الجلد » •

٢ ــ حـــكاية الرســـالة المحرفة :

تربط قبائل « الناماكوا » أو « الهوتنتوت » كما يصـــنع غيرهم من الشعوب البدائية ، أطوار نمو القمر ونقصـــانه بفـــكرة الخلود • فما يبدو لهم من زيادة ونقصـــان فى شـــكل القمـــر ، يفسر على أنه عملية حقيقية من التفكك واعـــادة التكامل ، ومن الاضمحلال والنمو ، تحـــدث بصـــفة مستمرة • بل انهم يفسرون بزوغ القمر ومحـــاقه بميلاده وموته • فهم يقولون ان القمر شاء ذات يوم أن يبلغ الانســـان نبأ خلوده ، وأخـــذ الأرنب البرى على عاتقه أن يقوم بتبليغ هـــذه الرسالة ، فوافق القمر وطلب اليه أن يقول للنـــاس : « كما أننى أموت ثم أعود الى الحيـــاة ، فانكم ستموتون وتعودون الى الحيـــاة مـــرة أخرى كذلك » • وبناء عليه ذهب الأرنب الى الناس وحرف الرسالة ،

اما نتيجة نسيانه أو اضماره الشر للانسان ، وأبلغها اياهم على النحو التالى : « كما أننى أموت ولا أعود الى الحيـــاة مرة أخرى ، فانكم كذلك ستموتون ولا تعودون الى الحيـــاة مرة أخرى » • ثم عاد الى القمر الذى طلب منه أن يعيـــد عليه ما قاله للناس • فأخبره الأرنب بما أبلغه الناس • فلما سمع القمر منه الرســـالة المحرفة غضب كل الغضب الى درجة أنه رماه بعصـــا شقت شفته • وهذا هو الســـبب فى أن شـــفة الأرنب لا تزال مشـــقوقة حتى اليوم • ثم ولى الأرنب مسرعا عنـــدما رماه القمر بالعصـــا ، وهو ما زال يجرى بسرعة حتى هـــذا اليوم • على أن بعض الناس يقولون : ان الأرنب خدش وجـــه القمر قبل أن يهرب ، ولهـــذا فان القمر مازال يحمل فى وجهه آثار هذا الخـــدش الذى يمكن أن يراه كل فرد عندما يكون القمر بدرا فى ليلة صـــافية • ولا تزال قبائل « الناماكوا » غاضبة على الأرنب حتى اليوم ، لأنه سلبهم الخلود • وقـــد تعـــود الرجال المسنون فى هـــذه القبيلة أن يقولوا : « اننا ما زلنـــا غاضبين من الأرنب ، لأنه حمل لنا هـــذه الرسالة المشئومة ، ومن ثم فنحن لا نأكل لحمه » • ولهـــذا فان الصبى اذا بلغ سن النضج ، واتخـــذ مكانه بين الرجال ، فانه يمنع من أكل لحم الأرنب ، بل يمنع من استخدام نار سبق أن طهى عليها أرنب • فاذا خالف رجل هـــذا المحظور فانه يبعد عن القرية ، كما يحـــدث هذا فى كثير من الأحيـــان ، اللهم الا اذا دفـــع دية ، وعنـــد ذاك تقبله جماعته مرة أخرى •

وتحكى قبائل « البوشمان » حكاية شبيهة بهـــذه الحـــكاية مع اختلاف طفيف • ففى ســـالف الأزمان ، وذلك وفقـــا لروايتهم ، قال القمر للنـــاس : « كمـــا أننى أموت ثم أعود الى الحيـــاة مرة أخرى ، فانه سيصيبكم ما يصـــيبنى • فاذا متم ، فانكم لن تموتوا كلية ، بل سرعان ما تعودون للحيـــاة مرة أخرى » • وسعد الجميع بهـــذا النبأ السعيد ، سوى رجل واحـــد لم يستطع أن يسكت عن الجهر بعـــدم تصـــديقه لهذا النبأ • فقـــد حـــدث أن توفيت أم هـــذا الرجل فبكاها

بعويل وصراخ ، وما من شيء استطاع أن يقنعه بأن الحيـاة ستعود اليها مرة أخرى ، عند ذاك دبت مشاجرة حامية بينه وبين القمر حول هـذا الموضوع المؤلم ، فقـد قال القمـر له : « ان أمك نائمـة ولم تمت » • فأجابه الرجل : « لا بل انها قد ماتت » • عنـد ذاك احتد بينهما الشجار حتى نفـذ صـبر القمر وضرب الرجل بقبضـة يده ضربة شجت فمه ، وصب عليه اللعنة قائلا : أن فمه سيظل مشجوجا على هـذا النحو وان تحول الى أرنب • ذلك لأنه سيمسخ حتما فى صورة أرنب • ولسوف يقفز بعيـدا عنا ثم يرتد الينا ، ولسـوف تعـدو الكلاب فى أثره ، حتى اذا أمسكت به مزقته شر ممزق ، ولسوف يفنى الى الأبد ، وكذلك سائر البشر • ذلك أنه أبى أن يصـدقنى عنـدما طلبت منه ألا يبـكى أمه لأن الحيـاة ستعود اليها مرة أخرى ، ورد على قائلا : « لا ان أمى لن تحيـا مرة أخرى » • من أجل هـذا السبب فانه سوف يتحول كلية الى أرنب ، كما أن الناس سيفنون جميعا بسبب أنه عارضنى بتبجح عندما أخبرته أن النـاس سيصيبهم ما يصيبنى ، فيعودون للحيـاة بعد الموت » • وهـكذا عوقب هـذا الرجل عقابا عادلا جزاء شكه ، فلقـد مسخ فى صـورة أرنب ، وما زال ممسوخا فى شـكل أرنب حتى اليوم ، وان كان لا يزال محتفظا فى فخـذه بلحم انسانى • وهـذا هو السبب فى أن « البوشمان » ، عنـدما يذبحون أرنبا ، لا يأكلون هـذا الجزء ويرمونه جانبا ، لأنه لحم آدمى • ومازلوا يقولون : « لقد لعننا القمر بسبب الأرنب ، من ثم قضى علينا بالموت الذى لا رجعة فيه • ولولا ذلك لعـدنا للحيـاة بعد الموت • ولـكن ما حيلتنا فى هـذا ، وقد أنكر الرجل ما أخبـره به القمر وعارضـه معارضـة صريحة » • فالأرنب فى رواية البوشمان لم يكن رسـولا من الخالق الانسان ، ولكنه انسان شاك مسخ فى صـورة أرنب ، وقـد هـكم على الجنس البشرى كله بالفنـاء ، لأنه شك فيما بشره القمر به من خلود الانسان •

وتحكى قبيلة « ناندى » التى تسكن « أفريقيا الشرقية البريطانية »،

حكاية تعزو فيها ابتلاء الجنس البشرى بالموت الى افتقار كلب ما لروح الفكاهة : فقد كلف كلب بأن يحمل رسالة الخلود لبنى الانسان ، ولكنه لما لم يستقبل بالحفاوة التى تتلاءم مع مهابة الرسالة ، انتابته نوبة من الغضب وحكم على الانسان بهذا المصير الحزين الذى قدر له منذ ذلك اليوم .

وتجرى الحكاية على النحو التالى : ذات يوم جاء كلب الى القوم الأولين الذين كانوا يعيشون على وجه الأرض وقال لهم : « انكم سوف تموتون كما يموت القمر ، ولكنكم لن تعودوا الى الحياة كما يفعل القمر . اللهم الا اذا قدمتم لى قليلا من اللبن أشربه من وعائكم ، وقليلا من الجعة أرتشفها عن طريق عود من قشكم ، فان فعلتم هذا فسوف أساعدكم على أن تحملوا الى النهر يوم تموتون ، ثم تعودون الى الحياة فى اليوم الثالث من وفاتكم » . ولكن الناس سخروا من الكلب ، وقدموا اليه قدرا من اللبن ليشربه من وعاء يتبولون فيه ، فغضب الكلب لأنه ، لم يشرب من الوعاء الذى يشرب منه الانسان . وعلى الرغم من أنه شرب اللبن والجعة باشمئزاز من الوعاء الذى قدم اليه ، فانه رجل والغيظ يملأ صدره وهو يقول : « سوف يموت الناس جميعا الى الأبد ، ولن يعود الى الحياة على الدوام سوى القمر . وهذا هو السبب فى أن الناس يموتون موتة واحدة لا يعودون بعدها الي الحياة ، فى حين أن القمر يختفى ويعود الى الظهور بعد اختفائه بثلاثة أيام . ولو كان الناس قد قدموا وعاءهم للكلب ليشرب منه اللبن . وعودا من القش ليرتشف منه الجعة ، لعدنا الى الحياة بعد الموت بثلاثة أيام كما يفعل القمر . ولا تذكر هذه الحكاية شيئا عن حمل الكلب رسالة الخلود لبنى الانسان ، ولكننا نستدل استدلالا منطقيا من خلال اشارة الكلب الى القمر ، ومن خلال مقارنة هذه الرواية برواية « الهوتنتوت » الشبيهة بها ، على أن القمر هو الذى كلف الكلب بالقيام بهذه المهمة . ولكن هذا الحيوان الغافل لم يستغل هذه الفرصة فى أن يحتفظ لنفسه بمنحة لم يؤهل لها بحق ..

فى هـذه الحـكايات كلف رسـول واحـد بحمل الرسـالة ذات الشأن الخطير الى البشر • وقد أخفق الرسـول فى تأدية رسـالته ، اما بسبب اهماله أو بدافع مكره • على أن هنـاك بعض الحـكايات الأخرى التى تحكى عن سبب ابتلاء الانسان بالموت ، كلف فيها رسولان بحمل الرسـالة • وسبب ابتلاء الانسان بالموت فى هـذه الحكايات هو تأخر الرسـول فى تبليغ رسالة الخلود الى الانسـان ، أو سـوء تصرفه • ومن بين هـذه الحكايات حـكاية تروى كذلك عن قبـائل « الهوتنتوت » وهى تجرى على النحو الآتى : أرسل القمر ذات مرة حشرة الى بنى الانسان وقال لها : « اذهبى الى الناس وقولى لهم : كما أننى أموت ثم أحيـا بعد الموت ، فإنكم كذلك ستموتون وتحيـون بعد الموت » • فذهبت الحشرة لتبلغ الرسالة • وبينما كانت ترحف فى الطريق ، اعترضـها أرنب برى ووقف بجانبها وسـألها : « الى أين تسيرين ؟ » • فردت عليه قائلة : « لقـد أرسلنى القمر الى النـاس لـكى أبلغهم أنه ، كما يموت القمر ويحيـا بعـد الموت ، كذلك هم سيموتون ويحيون بعد الموت » • عندئذ قال لهـا الأرنب : « حيث انك تعوزك الرشاقة فى الحركة ، دعينى أنا أذهب اليهم وأبلغهم الرسالة » • ثم جرى الأرنب وسارت الحشرة ترحف وراءه : ولمـا وصـل الى الناس غير من فحوى الرسالة التى أخـذ على عاتقه أن يبلغها الى الناس بطريق غير رسمى • فلقد قال لهم : « ان القمر أرسلنى اليكم لأبلغكم رسالته التى قال فيها : « كما أننى حينما أموت أفنى الى الأبد ، فأنتم كذلك ستموتون وتفنون الى الأبد » • ثم رجـع الأرنب الى القمـر وأعاد عليه ما قاله للناس • فغضب عليه القمر أشـد الغضـب وعنفه وقال له : « كيف تجرؤ على أن تقول للناس كلاما لم أنطق به ؟ » ثم أمسك بعصـا وهوى بها على أنف الأرنب فشجه • وهـذا هو السبب فى أن أنف الأرنب ما زال مشقوقا حتى اليوم •

وتحكى قبـائل « تاتى بوشمان » أو « ماسـاروا » التى تسـكن « محمية بتشوانالاند » وصحارى « كالاهارى » وبقـاعا فى جنـوب

روديسيا ، هذه الحكاية نفسها مع تغيير طفيف • فهم يقولون : ان أجدادهم فى قديم الزمان حكوا الحكاية التالية : لقد شاء القمر أن أرسل رسالة الى الرعيل الأول من الناس يقول لهم فيها : انه كما مات وعاد الى الحياة مرة أخرى ، فهم كذلك سيموتون ثم يعودون الى الحياة مرة أخرى • عند ذاك صاح القمر بالسلحفاة وقال لها : « اذهبى الى هؤلاء الناس وبلغيهم رسالتى • قولى لهم أنى أعيش بعد موتى فانهم كذلك سيعيشون بعد موتهم » • على أن السلحفاة كانت تسير سيرا بطيئا للغاية ، كما ظلت تردد رسالة القمر فى أثناء الطريق حتى لا تنساها • ولكن القمر أقلقه بطء السلحفاة وضعف ذاكرتها فصاح بالأرنب وقال له : انك تستطيع أن تجرى فى سرعة فاذهب الى الناس الذين يسكنون بعيدا هناك وقل لهم : « كما أننى أحيا بعد موتى ، فهم كذلك سيحيون بعد موتهم » وأسرع الأرنب ليبلغ الرسالة ، ولكنه سرعان ما نسى مضمونها • ومن ثم فقد بلغ الناس الرسالة على النحو التالى ، فقال لهم على لسان القمر : « كما أننى أموت ثم أحيا بعد ذلك ، فانكم حين تموتون فستموتون الى الأبد » •• وفى أثناء هذا تذكرت السلحفاة الرسالة واستأنفت سيرها وهى تقول لنفسها : « لن أنسى مضمون الرسالة بعد ذلك » • وفى النهاية وصلت الى مكان تجمع الناس وأبلغتهم الرسالة الصحيحة • فلما سمع الناس قولها غضبوا كل الغضب من الأرنب الذى كان يجلس على بعد منهم يقرض الحشيش • فجرى أحد الرجال ورفع حجرا ورماه به • فأصاب الحجر الأرنب اصابة مباشرة ، وشج شفته العليا • ولا تزال شفة الأرنب العليا مشجوبة حتى اليوم • وبهذا تنتهى الحكاية •

وكذلك يروى زنوج ساحل الذهب حكاية الرسولين هذه • والرسولان فى روايتهم هما شاة وعنزة • وفيما يلى صيغة الحكاية كما رواها مواطن زنجى لمبشر سويسرى فى « أكروبنج » :عندما خلقت السماء والأرض فى بداية الحياة ، لم يكن على وجه الأرض بعد أثر لانسان • ثم هطلت أمطار غزيرة ، تدلت فى أعقابها سلسلة كبيرة من السماء وقد علق بها سبعة من الرجال • لقد كان الاله قد خلق هؤلاء

الرجال ، وجعلهم يهبطون الى الأرض عن طريق هذه السلسلة • وكانوا قد أحضروا معهم نارا طهوا عليها طعامهم • ولم يكد يمضى بعض الوقت على استقرار هؤلاء الرجال على وجه الأرض ، حتى أرسل الاله اليهم من السماء عنزة لتحمل اليهم الرسالة التالية : « ان هناك شيئا يسمى الموت ، وسوف يصاب به بعضكم يوما ما ، ولكن على الرغم من أنكم ستموتون ، فانكم لن تفنوا فناء كليا ، فلسوف ترجعون الى هنا فى السماء » • وذهبت العنزة تحمل الرسالة • وعندما اقتربت من بلاد هؤلاء الرجال ، تريثت عند أيكة حسبتها صالحة للأكل • فتلكأت عندها وأخذت تقرض الأشجار • ولما استبطأها الاله ، أرسل فى أثرها شاة لتبلغ الرسالة • فذهبت الشاة ولكنها لم تبلغ الرجال ما أمرها الاله به ، اذ أنها غيرت الرسالة وقالت لهم : « انكم اذا متم مرة ، فانكم ستفنون الى الأبد ، ولن تبعثوا فى أى مكان » ولم تكد تمضى الشاة حتى وصلت العنزة وقالت للرجال : « ان الاله يقول لكم انكم حقا ستموتون ولكن هذه الميتة لن تكون هى نهايتكم ، لأنكم سوف ترجعون الى » • عندئذ رد عليها الرجال قائلين : لا أيتها العنزة ، ان الاله لم يقل هذا ، فما أخبرتنا به الشاة من قبل ، سوف نلتزم به » ••

والرسولان فى رواية أخرى لهذه الحكاية التى تروى عن قبيلة « أشانتى » ، هما أيضا شاة وعنزة • ويعزى تحريف رسالة الخلود الى هذه أو الى تلك • ويقول « الأشانتيون » : ان الناس عاشوا فى سعادة زمنا طويلا ، لأن الاله كان يقيم بينهم ويتحدث معهم وجها لوجه • ولكن هذه الأيام المباركة لم تدم طويلا • فقد حدث فى يوم مشئوم أن كان بعض النسوة يسحقن الحنطة بالمدق فى الهاون ، بينما كان الاله واقفا ينظر اليهن • ولسبب ما تضايقت النساء من وقوف الاله بجوارهن وطلبن منه أن يرحل بعيدا عنهن • ولما رفض ، ضربنه بالمدق ، فانتابت الاله نوبة من الغضب الشديد واعتزل العالم الانسانى كلية ، ورحل الى عالم الآلهة • ومازال الناس يقولون حتى اليوم : « كم كنا نكون سعداء ولا هؤلاء النساء العجائز » •

وعلى الرغم مما حدث فقد كان الاله رحيما طيبا ، اذ أرسل من ملكوته البعيد رسالة الى الناس فى الأرض عن طريق عنزة يقول لهم فيها : « ان هناك شيئا يسمى الموت اذى يقضى على عدد منكم • ولكنكم لن تفنوا فناء كليا حتى عندما تموتون ، اذ أنكم تعودون الى فى السماء بعد ذلك » • وبهذا النبأ السعيد رحلت العنزة الى الناس • ولكنها قبل أن تصل الى بلدتهم ، أبصرت أيكة عى قارعة الطريق أعجبها منظرها فتوقفت لتأكل من ورقها • ولما نظر الاله من السماء ، وأبصر أن العنزة تتلكأ فى السير ، أرسل شاة لتبلغ الناس الرسالة نفسها على التو • ولكن الشاة لم تبلغ الرسالة على نحو صحيح ، بل حرفتها تحريفا كليا وقالت لهم : ان الاله يبلغكم كلمته ، وهى أنكم ستموتون ، وفى هذا تكون نهايتكم » • أما العنزة فانها بعد أن انتهت من وجبتها ، أسرعت الى البلدة وأبلغت الناس الرسالة وقالت لهم : « ان الاله يرسل اليكم كلمته ويقول : حقا انكم ستموتون ، ولكن هذا لا يشكل نهايتكم ، لأنكم سترجعون اليه بعد الموت » • ولما سمع الناس كلام العنزة أجابوها قائلين : « لا أيتها العنزة ، ان الاله لم يقل لك هذا ، ونحن نعتقد أن الرسالة التى حملتها الشاة الينا هى الرسالة الصحيحة » • وقد ابتلى الانسان بالموت منذ أن حدث سوء التفاهم المشئوم هذا • ويختلف الدور الذى لعبته كل من الشاة والعنزة فى رواية أخرى لهذه الحكاية تروى عن « الأشانتيين » • فالشاة هى التى حملت أولا رسالة الخلود من الاله الى الانسان • ولكن العنزة سبقتها وأبلغته نبأ موته بدلا من أن تبلغه بنبأ خلوده • وقد استقبل الناس ببراءتهم ، نبأ الموت بحماسه ، لأنهم ما كانوا يعرفون ما الموت ، وطبيعى أن الموت أخذ يفنيهم منذ ذلك الحين ••

واذا كانت الرسالة فى كل الحكايات السابقة ، قد أرسلها الاله للناس ، فان هناك حكايات أخرى رويت فى « توجولاند » فى غرب أفريقيا ، تحكى أن الرسالة أرسلت من قبل الناس الى الاله • فقد أرسل الناس الى الاله ذات يوم كلبا ليخبره بأن الناس يودون أن

يعودوا الى الحيـــاة بعد الموت • ومضى الكلب يحمل رســـالة الناس الى الاله • ولكنه شـــعر بالجوع فى أثناء الطريق فدخل بيتا كان صـــاحبه يغلى أعشـــابا ســـحرية ، فجلس انكلب وقال لنفســـه : « ان الرجـــل يطهو طعاما وأود أن آكل منه » • وفى أثنـــاء ذلك كانت الضفدعة قـــد رحلت الى الاله لتخبره بأن النـــاس يفضلون ألا يعودوا الى الحياة مرة أخـــرى بعد موتهم • ولم يكن هذا الســـلوك من قبل الضفدعة ســـوى مجـــرد فضول ووقاحة ، اذ لم يكن أحـــد قد طلب منهـــا أن تبلغ الاله هذه الرســـالة ، ولكنها ذهبت على كل حـــال • أما الكلب الذى كان يراقب فى أمـــل الحساء وهو يغلى ، فقـــد أبصر الضفدعة تجرى مسرعة أمام باب البيت • ولكنه قال لنفســـه ، سوف ألحق بها بعد ما أتناول شيئا من الطعام • ولكن الضفدعة سبقته وقالت للاله : « ان النـــاس يفضلون ألا يعودوا الى الحياة مرة أخرى بعد ما يموتون » • ووصـــل الكلب من بعدها مبـــاشرة وقال للاله : « ان الناس يودون أن يعودوا الى الحيـــاة مرة أخرى بعد ما يموتون » وكان من الطبيعى أن يشعر الاله بالحيرة ، فورد على الكلب قائلا : « اننى لا أفهم حقيقة هاتين الرسالتين ، فسأمتثل لمطلبها لا لمطلبك » • وهـــذا هو السبب فى أن الناس لا يعـــودون الى الحياة مرة أخرى بعـــد الموت • ولو أن الضـــفدعة اهتمت بشئونها الخاصة ، ولم تتدخل فى شـــئون الناس لكان الأحياء يعودون بعـــد الموت الى الحيـــاة حتى يومنا هذا • على أن الضفادع تحيا مرة أخرى عندما ترعد السماء فى بداية الفصـــل الممطر بعد أن تظـــل ميتة طوال فصل الجفـــاف الذى تهب فيـــه الرياح « الهارماتانية » [1] • ومن ثم ، فانك قد تســـمع نقيق الضفدع فى المروج ، بينما تســـقط الأمطار ويدوى الرعد • وبنـــاء على ذلك فنحن نرى أن الضـــفدعة قد حرفت الرســـالة لصالحها • ولهذا اكتسبت الضفادع الخلود الذى حـــرم منه الانســـان ••

---

(١) رياح قوية مترية تهب من الشمال الى الشرق على ساحل شمال غينيا • (المترجمة)

ونلاحظ أن سبب ابتلاء الانسان بالموت فى هذه الحكايات يرجع الى خطأ فاضح أو الى خدعة ماكرة دبرها أحد الرسولين • على أن الموت لم يتسبب ، وفقا لرواية أخرى للقصة تنتشر انتشارا واسعا بين قبائل « البانتو » فى أفريقيا ، عن خطأ ارتكبه الرسول ، بل عن تردد الاله نفسه ، الذى انتهى الى أن يكون الانسان خالدا ، ثم عدل عن رأيه وقرر أن يفنيه أو أن يتركه يفنى • ولسوء حظ الانسان أن الرسول الذى كان يحمل رسالة الموت اليه وصل قبل الرسول الذى كان يحمل اليه رسالة الخلود • وقد قامت الحرباء فى هذا النوع من الحكايات ، بدور الرسول الذى حمل نبأ الخلود ، كما قامت السحلية بدور الرسول الذى حمل رسالة الفناء • فتحكى قبائل « الزولو » أن « أنكولونكولو » « الاله القديم » ، كلف الحرباء أول الأمر بأن تحمل رسالة للناس وقال لها : « اذهبى الى الناس وأخبريهم بأنهم لن يقضى عليهم بالموت » • فمضت الحرباء ، ولكنها كانت تزحف فى بطء كما أنها تلكأت فى الطريق لتأكل ثمار التوت ذات اللون الأرجوانى من شجيرة « أوبو كوبيزافى » أو من شجرة التوت • ويقول بعض الناس أنها تسلقت شجرة لتستلقى فى دفء الشمس وابتلعت الذباب حتى ملأت جوفها به ثم استغرقت فى نوم عميق • وفى أثناء ذلك راجع « الاله القديم القديم » نفسه فى هذا الأمر وأرسل بسرعة البرق سحلية من بعد الحرباء لتبلغ الناس رسالة تختلف كل الاختلاف عن الرسالة الأولى • فلقد قال لها : « عندما تصلين الى الناس قولى لهم : « أنه قد قضى عليكم بالموت » • فرحلت السحلية وسبقت الحرباء ، وأبلغت الناس هذه الرسالة وكرت راجعة الى « الاله القديم القديم » • ثم وصلت الحرباء بعد ذلك الى الناس تحمل اليهم النبأ السار بخلودهم وقالت بصوت عال : « قد طلب منى أن أبلغكم أنكم لن تموتوا » • فرد عليها الناس قائلين : « لقد بلغتنا من قبلك رسالة السحلية ، اذ قالت لنا : « انه قد قضى عليكم بالموت السحلية » • ومنذ ذلك اليوم دارت على الناس دائرة الموت • ولهذا فان « الزولو »

يمقتون السحلية ويقتلونها حيثمـــا يتيسر لهم ذلك • فهم يقولون : « انها الشيء المقيت نفســـه الذى أسرع الى الناس أول الأمر وأخبرهم أنهم ســـيموتون » • وبعضـــهم يمقتون الحرباء ويبعـــدونها عنهم أو يقتلونها ويقولون : « انها الشيء الحقير الذى تلكأ فى حمـــل نبـــأ الخلود الى الانســـان • ولو أنها أبلغت النبأ فى حينه لخلدنا وخـــلد أجدادنا ولما كان للمرض وجود عى وجه الأرض • ولكن تلكؤ الحرباء تسبب فى حرماننا من هذا كله » •

وتحكى قبائل أخرى من قبائل « البانتو » هذه الحكاية على هـــذا النحو نفسه على وجـــه التقريب • وهـــذه القبـــائل هى : البينشوانا والباسوتو والبارونجا والنجونى كما يبدو أن قبيلة « واسانا » التى تســـكن « افريقيا الشرقية البريطانية » تحكيها كذلك • ويحكيها بتغيير طفيف شعب « الهاوسا » الذى لا ينتمى الى قبائل البانتو • ولا تزال قبيلتا « بارونجا » و « نجونى » تكنان الضغينة للحرباء حتى اليوم ،

وهكذا نرى أن الاعتقاد فى أن الاله قد فكر ذات مرة فى أن يمنح الانسان الخلود دون أن تتحقق هذه الفكرة الطيبة نتيجة خطأ اتركبه الرسول الذى عهد اليه الاله بتبليغ البشارة للانسان ـــ قد انتشر فى أفريقيـــا انتشارا واسعا •

٣ ـــ حـــكاية تغيير الجـــلد :

يعتقد كثير من البدائيين أن بعض الحيوانات وبصفة خاصـــة الثعابين ، يتجـــدد شـــبابها ولا تموت أبدا ، بفضـــل مقدراتها على تغيير جلدها فى مواسم معينة • وهؤلاء يحكون بسبب تصورهم هذا ، حكايات تبين كيف اكتسبت هـــذه الحيـــوانات ، بناء على ذلك ، منحة الخـــلود ، وكيف حرم الانسان منها •

مثال ذلك ما تحكيه قبيلتنا « وافيبا » و « وابندى » اللتان تسكنان فى « أفريقيا الشرقية » ، من أن الاله الذى يسمونه « ليزا » هبط ذات يوم الى الأرض وسأل الكائنات الحية جميعها قائلا : « من منكم يود

ألا يموت ؟ » ولسوء الحظ كان الناس نائمين ، وكذلك كل صنوف الحيوان ، فيما عدا الحية التى كانت مستيقظة آنذاك فردت هذه على سؤال الاله قائلة « أنا أرغب فى هذا » • ولهذا فان الانسان وكل صنوف الحيوان فيما عدا الحيات ، يموتون • أما الحية فلا تموت الا اذا قتلت ، فاذا لم تقتل فانها تغير جلدها ، وبذلك يتجدد شبابها كما تتجدد قوتها • وشبيه بهذه الرواية ما يحكيه «الدوسون» سكان « شمال يورينو البريطانية » ، فهم يقولون : ان الخالق — حينما فرغ من خلق كل شىء — سأل الكائنات الحية : « من منكم يستطيع أن يغير جلده ؟ • ان من يفعل هذا لن يموت أبدا » • ولم يطرق هذا السؤال سمع أحد من الكائنات الحية سوى الثعبان الذى أجاب على الفور : « أنا أستطيع أن أفعل هذا » • ولهذا السبب فان الثعابين حتى يومنا هذا ، لا تموت الا اذا قتلها الانسان • أما « الدوسون » فلم يسمعوا سؤال الاله ، ولو أنهم سمعوه لغيروا جلودهم كذلك ، ولأصبحوا خالدين •

وكذلك يحكى « التودجو تورادجا » سكان «سيلييس الوسطى» أن الاله استدعى الناس وصنوف الحيوان ذات يوم لكى يقرر معهم مصيرهم • ومن بين المصائر المختلفة الى قدمها الاله ما قاله لهم : « انكم ستغيرون جلدكم القديم » • ولسوء الحظ أن الجنس البشرى كانت تمثله فى هذه المناسبة المصيرية امرأة عجوز لم يمكنها تدهور قواها العقلية من الاستماع الى هذا الاقتراح المغرى ، فى حين سمعته الحيوانات التى تغير جلدها مثل الثعابين ، وحيوان الجمبرى الذى يعيش فى البحر • وطبيعى ان هؤلاء وافقوا على هذا الاقتراح • ومرة أخرى نجد أن أهالى جزيرة « فواتوم » ، وهى جزيرة تقع فى « أرخبيل بسمارك » يقولون : ان كائنا بعينه يدعى « كونوكونو ميانجى » طلب من غلامين أن يحضرا نارا ، ووعدهما أنهما لن يذوقا طعم الموت ، ان هما لبيا رغبته ، أما اذا لم يلبيا رغبته ، فان جسديهما سيفنيان ، ولن يبقى خالدا سوى ظليهما أو روحيهما • ولكن الغلامين لم يولياه

أذنا صاغية ، فصب عليهما اللعنة قائلا : « لقد كنت أعمل على أن يخلد الجنس البشرى بأسره ، أما الآن فسوف يفنى الى الأبد ، وان ظلت أرواحه خالدة • أما الضب « المونيكيفالوس » والسحلية « فارانوس انديكوس » ، والحية « اينجروس » فسوف تعيش الى الأبد ، لانها ستغير جلدها القديم على الدوام • « ولما سمع الغلامان هذا بكيا وندما أشد الندم على سلوكهما الأحمق فى عدم تلبية رغبة « كونوكونو ميانجى » واحضار النار له •

ويحكى « الأرواك » سكان غانا البريطانية أن الخالق هبط ذات يوم الى الأرض ليستطلع أحوال مخلوقه الانسان • ولكن الناس كانوا غاية فى الحمق ، الى درجة أنهم حاولوا أن يقتلوا الخالق • ولهذا فقد حرمهم الخالق الخلود ، ومنحه صنوف الحيوان التى تغير جلدها مثل الثعابين والسحالى والخنافس • وتحكى قبيلة « تامانا شير » ، وهى قبيلة هندية تسكن « أورينوكو » ، رواية مختلفة بعض الشىء عن الرواية السابقة • فهى تروى أن الخالق بعد أن مكث بعض الوقت بين الناس ، استقل قاربا ليعبر به الى الشاطىء الآخر من البحر المالح الشاسع الذى كان قد ركبه اليهم • ولم يكد يتجاوز الشاطىء حتى صاح بهم فى نغمة مختلفة وقال لهم : « انكم ستغيرون جلودكم » • وكان يعنى بهذا أن يقول لهم : « انكم ستجددون شبابكم كما تفعل الحيات والخنافس » • ولسوء الحظ أن كانت امرأة عجوز تستمع الى هذه الكلمات ، فصرخت فى نغمة ، ملؤها الشك ، ان لم تكن ملؤها السخرية ، وقالت « آه » • فتضايق الخالق كل الضيق ، وتغيرت نغمة صوته فى الحال وقال غاضبا : « انكم ستموتون » • وهذا هو سبب ابتلاء الناس بالموت •

ويحكى أهالى «نياس» ، وهى جزيرة تقع فى غرب «سومطرة» ،أن كائنا بعينه أرسل من السماء الى الأرض التى كان قد تم خلقها ليضع عليها اللمسات الفنية الأخيرة • وقد كان ينبغى على هذا الكائن أن يكون صائما فى هذه الحالة• ولكنه لما لم يستطع أن يتحمل وخز الجوع ، فقد

أكل بعض الموز • وقد كان اختياره لهذا النوع من الطعام غير موفق ، اذ لو كان قد أكل من سرطان النهـــر ، لغير الناس جلودهم كما يفعل هذا الحيوان ، ولعاشوا الى الأبد نتيجة تجدد شبابهم على الدوام • ولكن حيث ان الكائن المعنى قد أكل ثمار الموز ، فقد ابتلى الانســان بالموت نتيجة ذلك [1] • وتضيف رواية أخرى تروى عن أهالى جزيرة « نياس » كذلك ، أن « الحيات ، على العكس ، أكلت السرطان النهرى الذى يغير جلده ولا يموت وفقا لاعتقاد ســكان « نياس » • ولهــذا فان الحيات لا تموت كذلك ، بل تغير جلدها فحسب » ••

ويلاحظ أن خلود انحيـــات فى هذه الرواية الأخـــيرة يعزى الى أكلها سرطان النهر الذى يجدد شبابه كلما غير جلده ، وبذلك تعيش الى الأبد • وكذلك يعزى خلود السمك الصدفى الى السبب نفسه ، وذلك فى رواية « ساموائية » تحكى عن أصل الموت • ففيها يروى أن الآلهة عقدت مجلسا لتقرر مصير الانســـان • وأبدى أحدهم اقتراحا هو أن يغير الناس جلودهم كما يفعل السمك الصدفى وبذلك يتجـــدد شبابهم • ولكن الاله « بالسى » رأى ، على العكس ، أن يغير السمك الصدفى جلده فيتجـــدد شبابه على الدوام ، فى حين يحتفظ لانســـان بجلده حتى يهرم ويموت ، وبينما كانت المداولة تدور ، قبل أن ينعقـــد المجلس رسميا ، هطلت الأمطار لســـوء الحظ وعطلت مناقشة هـــذا الموضوع • وفى الوقت الذى أخذت الآلهة تجرى فيه لتبحث لهـــا عن مأوى من لمطر ، ووفق على رأى « بالسى » بالاجمـــاع • ولهذا السبب فان السمك الصدفى ما زال يغـــير جلده حتى اليوم ، فى حين يعجـــز الانســـان عن فعل ذلك •

وهكذا يبدو لنا أن عددا غير قليل من الشعوب ، يعتقد أن هبـــة الخلود السعيدة التى تتحقق من خلال عملية بســـيطة تتمثل فى تغيير

---

(١) من المعروف أن شجرة الموز الأم تنبت الى جانبها شجيرة قبل أن تموت . وقد أصبح الانسان مثل شجرة الموز بعد أن أكل منها هذا الكائن . فهو يترك أولادا من بعده وأما هو فيموت . (المترجمة)

الجلد بانتظـــام فى فترات ثابتـــة ، كانت يوما ما فى متنـــاول الجنس البشرى ، ولكنها تحولت عنه الى الكائنات الدنيئة ، نتيجة حدث غير سعيد ، فاكتسبتها نتيجة ذلك الحيـــات وسرطان النهـــر والسحالى والخنافس • على أن هناك شعوبا أخرى تعتقد أن الجنس البشرى كان يستحوذ بحق فى وقت ما على تلك الهبة التى لا تقدر بثمن ، ولكنه ضيعها بسبب حماقة امرأة عجوز • « فاليلانيزيون » سكان « جزر البانك » ومثلهم سكان جزر « الهبريد الجديدة » يقولون : ان الجنس البشرى لم يكن يموت فى بادىء الأمر على الاطلاق ، بل كان النـــاس يغيرون جلودهم حينما يهرمون ، كما تفعل الحيـــات وسرطان الماء ، وبذلك كانوا يستعيدون شبابهم • ثم حدث بعد مرور الوقت أن ذهبت امرأة عجوز الى النهر لتغير جلدها فى الماء • وهذه المرأة ، وفقـــا لما يقـــوله بعض هـــؤلاء الســـكان ، هى أم البطـــل الأســـطورى « كـــاث » ، فلمـــا وصـــلت هـــذه المـــرأة الـــى النهـــر ، انتـــزعت جلدهـــا القديم وألقت به فى المـــاء • ولكنها لاحظت ، أن جلدها اصطدم ، وهو يهبـــط الى قاع النهر ، بعصا • على أنها عادت بعد ذلك الى بيتها حيث كانت قد تركت ابنها • ولما أبصرها الابن رفض أن يعترف بها بوصفها أمه ، وصرخ فى وجهها قائلا : ان أمه كانت عجوزا ولا تمت لهذه المرأة الشابة الغريبة بصلة • فرجعت الأم الى النهر ، واســـتردت جلدها القديم ، لكى تطيب خاطر ابنهـــا ، ولبســـته • ومنـــذ ذلك اليوم كف الجنس البشرى عن أن يغير جلده ومن ثم أخذ يتعرض للموت •

ويحكى سكان « جزر شورتلاند » وبالمثل قبيلة « كاى » وهى قبيلة من « البابو » تســـكن شـــمال شرق « غينيا الجـــديدة » ، حكاية شبيهة بهذه الحكاية عن أصل الموت • فقبيلة « كاى » تحكى أن الجنس البشرى لم يكن يموت فى بادىء الأمر ، ولكن النـــاس كانوا يغيرون جلودهم • فعندما كانت جلودهم القديمة ذات اللـــون البنى تتجعد وتصبح قبيحة الشكل ، كانوا ينزلون الى النهر ، ويخلعونها ، ويرتدون بدلا منها جلودا جديدة بيضـــاء تنطق بالشـــباب • وفى هذه

الأيام كانت هناك جدة عجوز تعيش مع حفيدها • وفى يوم من الأيام ضاقت الجدة ذرعا بهرمها وذهبت لتستحم فى النهر ، وخلعت عنهـا جلدها الذابل ، وعادت الى القرية جديدة كل الجدة فى جلدها القشيب وبهذه الصورة المتغيرة صعدت السلم ودخلت البيت • وعندما أبصرها حفيدها على هذا النحـو بكى وصرخ • وأبى أن يصـدق أنهـا هى بعينهـا جدته • وفشلت كل محاولاتها معه فى تهدئته واقناعه بأنهـا جدته • وأخيرا عادت فى غضب الى النهر واصطادت جلدها القـديم المجعـد ولبسته ، ورجعت الى بيتها عجوزا شمطاء قبيحة الشـكل • وسعد الولد برؤية جدته مرة أخرى ، ولكنها قالت له : « ان الجراد يغير جلده ، أما نحن البشر فسـوف نموت من الآن فصاعدا » • وقد ابتلى البشر بالموت حقا منذئذ • ويحكى سـكان « جـزر أدميرالتى » هذه الحكاية بعينها مع تغيير طفيف • فهم يقولون انه كان فى سـالف الزمان امرأة عجوز ضعيفة ، وكان لها ولدان خرجا ليصطادا ، بينمـا ذهبت هى لتستحم • وهناك فى الماء خلعت جلدها القديم وارتدت جلدا جديدا ، ورجعت الى بيتها شابة كما كانت منذ زمن طويل • فلمـا عاد ولداها من الصيد وأبصراها دهشا لمنظرها ، فقال أحدهما للآخر : « انهـا أمنا » فرد عليه الآخر قائلا : « ربمـا كانت أمنـا ، ولكننى سأتخذها زوجـة لى » • وسمعت الأم هـذا الحـديث مصادفة ، فسألتهما قائلة : « ماذا كنتما تقولان الآن ؟ » • فرد عليهـا الولدان قائلين : « اننا لم نقل شيئا سـوى أنك أمنا » • فقالت الأم : « انكما تكذبان ، فلقد سمعت حديثكما • ولو أننى ملكت من الأمر شـيئا لكنا نكبر فى السن ـ رجالا ونسـاء ـ ثم نغـير جلودنا فنعـود فتيانا وصبايا • ولكنكما شئتما أن تتبعـا أهواءكما ، ولذلك فسـوف نكبر ونهرم ثم نموت » • وعند ذاك عادت الأم الى الماء وأحضرت جلدهـا القـديم وارتدته فارتدت امرأة عجوزا • ولذا فنحن سـلالتها نكبر ونهرم • ولولا هذان الولدان المتهوران لما كانت هناك نهاية لأيامنا ، ولعشنا الى الأبد •

فاذا ابتعدنا عن « جزر البانك » • فاننا نجد أن قبيلة « توكولاوى »

وهى قبيلة جبلية تسكن « سيليبس الوسطى » تحكى حكاية شبيهة بالحكاية السابقة الى حد كبير • وتروى هذه الحكاية ــ وفقا لما ذكره المبشرون الهولنديون الذين اكتشفوها منتشرة على نطاق واسع ــ على النحو التالى : كانت للناس فى قديم الزمان المقدرة على تغيير جلودهم على نحوما تفعل الحيات وبراغيث البحر (الجمبرى) ، ومن ثم كانوا يستعيدون شبابهم دائما أبدا • وكانت بينهم امرأة عجوز تعيش مع حفيدها • وذهبت الجدة لتستحم ذات مرة ، وخلعت جلدها القديم ، وعلقته على شجرة ، وارتدت جلدا جديدا • ثم عادت الى بيتها وقد استعادت شبابها • ولكن حفيدها لم يستطع أن يتعرف عليها ، ومن ثم لم يكترث بمقدمها ، وأخذ يقول لها : « انك لست جدتى ، لأن جدتى كانت عجوزا وأنت امرأة شابة » • فعادت المرأة توا الى الماء واستعادت جلدها القديم وارتدته • ومنذ ذلك اليوم لم تعد للناس المقدرة على استعادة شبابهم ، ومن ثم صاروا يموتون •

وبينما يعتقد بعض الناس أن الجنس البشرى كان خالدا فى الأزمنة الأولى بفضل المقدرة التى اكتسبها على تغيير جلده بانتظام ، فان هناك آخرين يعزون هذه الخاصية الى تعاطف بين الانسان والقمر • فالانسان يمر بأحوال متعاقبة من النمو والفناء والحياة والموت الى غير نهاية ، مطابقا بذلك أطوار نمو القمر وزواله •

فالانسان وفقا لوجهة النظر هذه ، يموت بحق ، ولكنه سرعان ما يبعث فيما يبدو بوجه عام بعد موته بثلاثة أيام ، وهى المدة التى تفصل بين اختفاء القمر القديم وظهور القمر الجديد ، فقبيلة « منتراس » أو « مانتراس » الهمجية التى تعيش منعزلة فى أحراش شبه جزيرة الملايو ، تزعم أن الناس فى العصور الأولى لخلق العالم لم يذوقوا طعم الموت • بل كانوا يتضاءلون مع تضاؤل القمر ، ثم تعود أجسامهم الى وضعها الطبيعى مع اكتمال نموه • ولم يكن السكان يتحققون من تعدادهم الذى كان يتزايد تزايدا مخيفا • ولكن ابن

الرجل الأول لفت نظر أبيه الى هذا الأمر ، وسأله عما يجب فعله ازاء هذا التزايد المطرد • ورد الرجل ذو الروح البسيطة الطيبة قائلا : « دع الأمور تسير على ما هى عليه» •ولكن الابن الثانى الذى كان ينظر الى هذا الأمر نظـرة أكثر « مالثوسيانية »[1] من ذلك قال لأبيه : « بل لنترك الناس يموتون كما تموت شجرة الموز ، تاركة ذريتها تعيش من بعدها» • وعند ذاك طرح الأمر على اله العالم الســفلى الذى تبنى رأى الابن الثانى • ومنذئذ لم يعد الناس يستعيدون شبابهم من جديد كما يفعل القمر ، بل أصبحوا يموتون كما تموت شجرة الموز •

ويرى أهالى « جزر كارولين » أن الناس لم يكونوا يعرفون الموت فى الأزمنة القديمة ، أو هم بالأحرى كانوا ينظرون اليه بوصــفه فترة نوم وجيزة • فالناس يموتون فى اليوم الذى يصبح فيه القمر محاقا ، ثم يعودون الى الحيــاة مرة أخرى مع ظهور القمــر الجديد ، وكأنهم يستيقظون بعد غفوة يستعيدون بعدها نشاطهم • على أن روحا شريرا دبر بعد ذلك مؤامرة لكى لا يستيقظ الناس قط عندما يغفون اغفــاءة الموت • وقد حكت قبيلة «ووتجوبالوك» وهى قبيلة تسكن جنوب شرق استراليا ، أنه عندما كانت الحيوانات جميعا فى هيئة رجال ونســاء ، وكان بعضها يموت كان القمر يصيح بها قائلا : « هيا استيقظــوا » • وعند ذاك يعود النــاس الى الحياة مرة أخرى • على أنه حــدث ذات مرة أن قال رجل هرم : « بل ليمت الناس الى الابد » • ومنــذ ذلك الوقت لم يعد أحد الى الحياة بعد الموت ، فيما عدا القمر الذى يموت ويحيــا حتى يومنــا هذا • ويروى عن قبيلتى « أونتماتجــيرا » و « كايتش » وهما قبيلتان تسكنان وسط استراليا ، أنهم تعودوا أن يدفنوا موتاهم اما فى الأشــجار أو تحت الأرض ، وبعــد ثلاثة أيام يعود هؤلاء الموتى بانتظام الى الحياة • كما تحكى قبيلة «كايتش» عن

---

(١) نسبة الى « مالثوس » الذى عاش فيما بين (١٧٦٦ ــ ١٨٣٤م) • وهو صاحب النظرية القائلة بأن عدد السكان يتزايد بنسبة تفوق ازدياد الموارد الغذائية وبأن النسل يجب أن يحدد • (المترجمة)

انقضاءهذه الأيام السعيدة ، فتقول : ان هذا حدث نتيجة خطأ ارتكبه رجل ينتسب الى « الكروان » الطـــوطم ، غد فقد أبصر هذا الرجل بعض الرجال الذين ينتسبون الى « الكنغر الصغير » الطوطم ، وهم يشرعون فى دفن رجل من جماعتهم • ولأمر ما استشاط الرجل الأول غضبا ، وركل الجسد فدفعه الى البحر • وكان من الطبيعى ألا يعـود هذا الرجل الى الحيـاة بعـد ذلك • وهذا هو السبب فى أن موتاهم لا يعودون الى الحياة بعد موتهم بثلاثة أيام كما تعودوا أن يفعلوا هذا من قبل •

وعلى الرغم من أن هذه الحـكاية التى تحكى عن أصـل الموت ، لا تذكر شيئا عن القمر ، فانه من المحتمل ، اذا ما قارنا هذه الحكاية بما سبق من حكايات،أن تكون الأيام الثلاثة التى تعود الميت أن يرقدخلالها فى القبر قبل أن يعود الى الحياة ، هى بعينهـا الأيام الثـلاثة التى « يختفى فيها القمر فى كهفه الشاغر عندها يصبح محاقا » • وبالمثـل ربط « انفيجيون »[1] بين احتمال خلود الانسان وأطوار نمو القمر ، وان لم يذكروا أن الانسان ظل يتمتع بالخلود بحق حقبة من الزمن • فهم يذكرون أن الهين من الآلهة القديمة ، وهما الاله « الفأر » والاله « القمر » تناقشا فى أمر نهاية الانسان على وجه التحديد • فقال الاله « القمر » : لندع مصير الانسان يكون مثل مصيرى ، فيختفى فترة ثم يعود الى الحياة مرة أخرى » • فرد عليه الاله «الفأر» قائلا : « بل ندعه يموت كما تموت الفئران » • وقد كان رأى الاله « الفأر » هو الفائز •

ويحكى « الأوبوتيون » سكان الكنغو كيف أن الانسـان فاتته هبة الخلود ، فى حين حصل عليها القمر ، فيقـولون : ان الاله الذى يطلقون عليه اسم « ليبانزا » أرسل ذات يوم فى طلب سكان القمـر وسكان الأرض • فخف سكان القمر الى الاله ، ومن ثم فقد كافأهم الاله

---

(١) هم سكان جزر « فيجى » وهى مجموعة جزر فى المحيط الهادى . (المترجمة)

جزاء امتثالهم السريع لأمره ، فلقد قال للقمر : « انك لن تموت أبدا ، لأنك جئت الى توا عندما ناديتك•ولن تموتفكل شهر سوى يومين،لم أقصد بهما الا راحتك ، ثم تعود بعدهما الى الحياة أكثر بهاء » • فلما مثل أهل الارض بعد ذلكأمام الاله « ليبانزا » تحدث اليهم فى غضب وقال : « أما أهـل الأرض ، فلأنكم لم تلبوا ندائى توا • فانـكم ستموتون حتما ، ولن تعودوا الى الحياة مرة أخرى ، الا عندما تبعثون الى » •

ولا يربط « الباهناريون » سـكان شرق « كوشنصين »[1] بين خلود الانسان البدائى وأطوار نمو القمـر ، كمـا أنهم لا يعزونه الى تغيير الانسان لجلده ، بل يعـزونه الى قـدرة شجرة معينـة عـلى الشفاء • فهم يقولون : انه حينما كان الناس فى بداية الحياة يموتون ، كانوا يدفنون عند جذع شجرة تسمى « لونج بلو » ، ثم يبعثـون فى العادة بعد مضى وقت ، لا فى صورة أطفال بل فى صورة رجال ونسـاء مكتملى النمو • وبذلك عمرت الأرض بالناس فى مدة وجيزة ، وكانوا جميعا يسكنون بلدة واحدة يشرف عليها الأبوان الأولان •

وقد أخذ عدد الناس يتزايد تزايدا بالغـا الى درجة أن سـحلية بعينها لم تكن تزحف على وجه الأرض دون أن تطأ قدم أى فرد ذيلها• فتضايقت وقدمت لحفارى القبور نصيحة غادرة وقالت لهـم : « لماذا تدفنوا الموتى عند شجرة « لونج بلوو » ؟ ادفنوهم عند شجرة « لونج خونج » فلا يعودون الى الحياة مرة أخرى • أتركو هم يموتون ميتة واحدة وكفى » وعمل حفارو القبور بهذه النصيحة ومنذ ذلك الوقت لم يعد الأموات الى الحياة مرة أخرى •

ونلاحظ فى هذه الحكاية الأخيرة ، كمـا هو الحـال فى كثير من

---

(١) هو اقليم دلتا نهر ميكونج الذى يقع فى جنوب فيتنام وينتمى هذا الاقليم اليوم الى كمبوديا • (المترجمة)

الحكايات الافريقيـــة ، أن ســـبب ابتـــلاء الانســـان بالموت يرجع الى السحلية • ويمكننا أن نحدس أن السبب فى نســـبة هذا العمـــل الذى يتسم بالغدر الى السحلية ، هو أن السحلية شأنها شـــأن الثعبـــان ، تغير جلدها فى أوقات معينة من الســـنة ، الأمر الذى دعا الانســـان البدائى الى أن يعتقد أن السحلية ، مثل الثعبان ، يتجدد شبابها بتغيير جلدها ، ومن ثم فهى تعيش الى الأبد • وعلى ذلك ، فربما كان الدافع وراء نشأة الأســـاطير التى تحكى كيف أصبحت الحيـــة أو الســـحلية

الرسول الشرير الذى حمل رسالة الفناء للانسان ، يرجع الى فـــكرة قديمة عن غيرة بعينها وتنافس بين النـــاس والمخـــلوقات التى تغير جلدها،وبصفة خاصة الحيات والسحالى،بل ربما افترضنا أن أى حكاية نشأت حول هذا الموضـــوع ، كانت تصـــور الصراع بين الانســـان والحيوان الذى ينازعه الحصول على الخلود ، وهو صراع تم النصر فيه ، سواء كان ذلك نتيجة خطأ أو بسبب تدبير مكيدة ، للحيـــوانات التى أصبحت من بعده خالدة • أما الانسان فقد صبت عليـــه لعنـــة الابتلاء بالموت •

٤ ــ الحكاية التى جمعت بين الرسالة المحرفه وتغيير الجلد :

تجمع بعض الحكايات التى تحكى عن أصل الموت ، بين موضوع الرسالة المحرفة وموضوع تغيير الجلد • فان «الجالا» الذين يسكنون فى شرق أفريقيا يعزون فناء الانسان وخلود الحيات الى خطأ ارتكبه طائر معين ، أو نتيجة مكيدة منه ، فحرف لذلك رسالة الخلود التى عهد اليه بها الاله لكى يبلغها للانسان • والطائر الذى أخطأ هذا الخطـــأ الذريع فى حق الانسان ، ذو لون أســـود أو أزرق داكن ، وله بقعـــــة بيضاء على كل من جناحيه ، كما أن له تاجا على رأسه • وهو يحط على رأس قمم الأشجار ويعول عويلا شبيها بثغـــاء الشـــاة ، ومن ثم فان « الجالا » سمونه « هولاواكا » أى « شاة الاله » وهم يفسرون ماييدو على هذا الطائر من حزن من خلال الحكاية التالية •فقد أرسل الاله هذا

الطائر ذات مرة الناس ليخبرهم أنه لا ينبغى لهم أن يموتوا ، وانمـا ينبغى أن يغيروا جلودهم عندما يبلغ بهم الكبر والوهن مبلغهما ، وبذلك يتجدد شبابهم • ولكى يضفى الاله على هذه الرسالة صفة الشرعية ، وضع فوق رأس هذا الطائر تاجا ليكون علامة على المهمة السامية التى كلفه الاله بها • وطار الطائر على الفور ليبلغ الانسان نبأ الخلـــود السعيد • على أنه لم يكن قد طار الى مسافة بعيدة عندما صادف حية تأكل جيفة • فنظر الطائر الى الجيفة بشـــهية بالغـــة وقال للحيـــة : « اعطينى شيئا من لحم الجيفة ودمها وأنا أفشى لك برسالة الاله الى البشر » • فردت الحية عليه بجفـــاء وقالت له : « اننى لا أرغب فى سماع فحوى هذه الرسالة » • ثم استأذنت أكلها ، ولكن الطائر أخذ يلح عليها فى أن تستمع الى الرسالة حتى وافقت فى كل شىء من التردد• عند ذلك قال الطائر : « ان الرسالة كالآتى : اذا تقدم السن بالانسان فانه سيموت ، فى حين أنك عندما تهرمين فستغيرين جلدك وتجددين شبابك » • وهذا هو السبب فى أن الناس يمـــوتون بعد أن يبلـــغ بهم العمر مبلغه ، فى حين أن الحيـــات بتجدد شبابها علـــى الدوام بتغيير جلدها • وقد عاقب الاله هذا الطائر المهمـــل أو الأحمق بسبب تحريفه المبالغ للرسالة ، وذلك بأن ابتلاه بداء أبدى وبيل ما زال يعانى منه حتى الآن • وهذا هو السبب فى أن الطائر يقف فوق قمم الأشجار ويعول هذا العويل • وبالمثل يحكى «الميلانيزيون» الذين يسكنون ساحل«شبه‌جزيرة المغـــزال » فى نوبريتين » أن « توكامبينا » الروح الطيب كان يحب الناس ويود أن يجعلهم خالدين • فاستدعى أخاه « توكورفوفو » وقال له : « اذهب الى النـــاس وافش لهم سر خلودهم • قل لهم أن يغيروا جلودهم مرة فى كل عام ، وبذلك يتحصنون ضد الموت ، لأن حيـــاتهم ستجدد بذلك على الدوام وعليك أن تخبر الحيات أنها ستموت حتمـــا من الآن فصاعدا » • على أن كورفوفو » لم يحسن أداء الرسالة ، فقد أمر الناس أن يموتوا ، وأفشى فى الوقت نفسه سر الخلود للحيات • ومنذ ذلك الوقت أصبح الجنس البشر فانيا ، فى حين أصبحت الحيات تغير

جلدها مرة فى كل عام ، ولهـذا فانهـا تعيش الى الأبد • وتروى فى « أنام »•(١) حكايات عن أصل الموت شبيهة بالحـكايات السـابقة • فهناك يقول الأهالى : ان « نحبك هوانج » أرسل رسالة من السـماء الى الناس يقول لهم فيها : انه يتحتم عليهم أن يغيروا جلودهم عندما يهرمون ، وأن يعيشوا بهذه الوسيلة الى الأبد ، أما الحيات فيتحتم عليها أن تفنى عندما تهرم • فلما هبط الرسول الى الأرض أبلغ الناس الرسالة صحيحة بحق • فلقد قال لهم : « ان الانسان سوف يغير جلده عندما يهرم ، أما الحيات فسوف تموت عندما تكبر ، وتوضع فى اللحد» والى هذا الحد سارت الأمور على خير ما رام • ولكن لسـوء الحظ ، أنه كان هناك عدد من الثعابين الصغيرة يستمع لهذا القول • فلما علمت الثعابين أن اللعنة قد حلت ببنى جنسها تملكها الغضب وقالت للرسول : « أعد كلامك واعكس العبارة والا لدغناك » • فخاف الرسـول وأعاد العبارة وغيرها على النحو التالى : « اذا كبرت الحيات فانها سـتغير جلدها ، أما الانسان فسوف يموت عندما يكبر ويوضـع فى اللحد » • وهذا هو السبب فى أن كل المخلوقات تفنى فيما عدا الحيات ، فانهـا تغير جلدها عندما تكبر ، ولهذا فهى تعيش الى الأبد •

خاتمة :

وهـكذا نرى أن الفليسوف البدائى ــ قياسا على حـكايات القمر أو حكايات الحيوان الذى يغير جلده ــ أشار الى أن كائنا طيبـا قد وعد أبناء الجنس البشرى فى بداية الحياة بهبة القـدرة على تجـديد شبابهم على الدوام ، أو أنهم كانوا يتمتعون بهذه النعمة حقا • ولولا حدوث جريمة أو حادثة أو خيانة لظلوا يتمتعون بهذه النعمة حتى اليوم• أما الشعوب التى تربط فكرة خلود الجنس البشرى بتغيير الحيـات أو السـحالى أو الخنافس أو ما أشـبه ذلك لجلـودها فهى تنظـر بطبيعة الحال الى هذه الحيوانات بوصفها منافسا بغيضا سلبهم الارث

---

(١) يعد هذا الاقليم أصل فيتنام . (المترجمة)

الذى شاء الاله ، أو شاءت الطبيعة أن تمنحنا اياه حقا • ومن ثم فان هذه الشعوب تحكى حكايات تذكر فيها كيف أن هذه الكائنات الدنيئة قد دبرت مكيدة لكى تحرم الانسان من هذا الحق الذىلا يقدر بثمن • وهذا النوع من الحكايات ينتشر انتشارا كبيرا فى أنحاء العالم، وليس غريبا أن نجدها منتشرة بين الشعوب السامية • ويبدو أن قصة سقوط الانسان التى تروى فى الفصل الثالث من سفـــر التكوين ، تعد رواية مختصرة لهذه الأسطورة البدائية ، فهى فى حاجة الى قليل من الاضافة حتى يكتمل تشابهها بمثيلاتها التى لا تزال القبائل البدائية تحكيها فى بقاع كثيرة من العالم • فالجزء المحذوف فى الحـــكاية العبرية ، وربما كان الجزء الوحيد ، هو الذى يتمثل فى ســـكوت القاص عن ذكر أكل الحية من فاكهة شجرة الحيـــاة ، وما نتج عن ذلك من حصـــول هذا الحيوان الدنىء على الخلود • على أنه ليس من العسير علينا أن نفسر سبب وجود هذه الفجوة فى الحكاية العبرية ، فالاتجاه العقلانى الذى يبدو فى ثنايا قصة الخلق العبرية ، ذلك الاتجاه الذى سلبها كثيرا من الملامح التى تزين الرواية البابلية المطابقة لها ، أو تشوهها ، قد شـــكل عقبة فى سبيل نسبة فكرة الخلود المزعومة الى الحية • وقد اســـتبعد مؤلف القصة فى صيغتها الأخيرة عاقبة الاساءة هذه من طريق المؤمنين عن طريق عملية بسيطة ، هى حذف هذه الحادثة كليـــة من القصـــة العبرية • ومع ذلك فان هذه الفجوة الواسعة التى أحدثها الكاتب فى القصـــة العبرية نتيجة تطفله ، لم تغب عن الدارســـين الذين أخذوا يجيلون النظر ، فى غير جدوى ، فى الدور الذى كان يجب أن تلعبـــه الحية فى القصة العبرية • واذا كان تفسيرى للقصة العبرية صحيحـــا فاننى أدعه للمنهـــج المقارن لكى ييسد الفجـــوات فى التراث الفنى القديم ، بعد أن مرت عليه آلاف السنين ولكى يحتفظ له ، على ما فيه من سذاجة بدائيـــة ، بالألوان البربرية المرحة التى خففت من حدتهـــا أو محتها يد الفنان العبرى الماهرة •

الفصل الثالث

علامة قابيـــل

نقرأ فى سفر التكوين أن « قابيل » لفظه مجتمعه عندما قتل أخاه هابيل وأصـــــبح بعد ذلك هائما شريدا على وجه الأرض • ولما كان يخشى من أن يقتله أى فرد يقابله ، احتج على الرب لمـــا آل اليه حظه العثر • وأشفق عليه الرب كل الاشفاق ، الى درجة أن « جعـــل الرب لقابيل علامة لكى لا يقتله كل من وجده »(١) •

فما العلاقة التى ميز بهـــا الرب أول قاتل علـــى وجه الأرض ؟ أو ما الاشارة التى حددها له ؟

من المحتمل كل الاحتمال أن هذه القصة تحتوى على بقايا عادات كان يتبعها القتلة • وعلى الرغم من أنه ليس فى وسعنا أن نأمل فى أن نحدد الشكل الحقيقى لهذه العـــلامة أو الاشـــارة ، فان الموازنة بين العادات التى يتبعها القتلة فى بقاع أخرى من العالم ، ربما أعانتنا على تفهم ملامحها العامة على الأقل •

لقد رأى « روبرتسون سميث » أن تلك العـــلامة التى نتســـاءل عنها ، كانت علامة القبيلة ، وهى شعار يحمله كل فرد من أفراد القبيلة بقصد حمايته ، وذلك عن طريق الاشـــارة الى أنه ينتمى الى جمـــاعة يمكن أن تثأر لقتـــله • ومن المؤكد أن مثـــل هذه العـــلامة مألوفة بين الشعوب التى احتفظت بالنظام القبلى • ومثال ذلك ، هنـــاك شـــعار رئيسى تعرفه القبائل البدوية التى تعيش فى العصر الحاضر يتمثل فى

---

(١) سفر التكوين ٤ : ١٥ •

طريقة معينة فى تصفيف شعورهم • وفى كثير من أنحاء العالم ، وبصفة خاصة فى افريقيا ، يكون شعار القبيلة وشما أو « شلخا » يحفر فى عضو من أعضاء الانسان•ومن المحتمل أن تكون وظيفة هذه الشعارات هى حماية الفرد الذى ينتمى الى قبيلة ما على نحو ما افترض « روبرتسون سميث » • على أنهينبغى لنا أن نتذكر ، من ناحية أخرى ، أن هذه الشعارات ، على العكس ، ربما زادت من خطورة موقف الفرد اذا ما كان فى بلد معاد لقبيلته ، ذلك لأنها تبرزه بوصفه شخصا معاديا لهم • على أننا اذا سلمنا بأن مهمة هذه الشعارات هى حماية حاملها ، فما زال هذا التفسير ، اذا ارتضيناه بالنسبة لعلامة « قابيل » لا يتلاءم مع موقف « قابيل تماما ، ذلك لأنه تفسير يتسم بالعمومية التامة • فاذا كانت العلامة من شأنها أن تحمى كل فرد من أفراد القبيلة ، سواء أكان قاتلا أم غير قاتل ، فان حوادث قصة قابيل فى مجموعها ، تنحو الى أن تبرز لنا أن علامة قابيل لم يكن يحملهاكلفرد من أفراد جماعة « قابيل ، وانما كانت خاصة بقابيل وحده • ومن ثم فنحن مضطرون لأن نبحث عن تفسير آخر من زاوية أخرى •

فنحن نخلص من حكاية « قابيل » نفسها الى أن قابيل كان معرضا لأخطار أخرى خلاف كونه معرضا لأن يقتله أى فرد يقابله لكونه طريد مجتمعه • فلقد قال الرب : « ماذا فعلت • صوت دم أخيك صارخ الى من الأرض • فالآن أنت ملعون من الأرض التى فتحت فاها لتقبل دم أخيك من يدك • متى عملت الأرض لا تعود تعطيك قوتها • تائها وهاربا تكون فى الأرض »(١) ••

ومن هنا يتضح أن دم الأخ المقتول يشكل خطرا طبيعيا على القاتل ، فقد لوث دم القتيل الأرض ، ومنعها من أن تفيض بخيراتها• ومن ثم كان الاعتقاد فى أن القاتل قد بث السم فى منابع الحياة ، ونتيجة لذلك فقدعرض مصدر طعامه ، وربما طعام غيره ، للخطر •

---

(١) سفر التكوين ٤ : ١٠ الى ١٢ .

ومن المسلم به ، بناء على وجهة النظر هذه ، أنه يتحتم معاقبة القاتل وطرده من البلد الذى يشكل وجوده فيه خطرا على الدوام • انه أصبح أشبه بالمبتلى بالطاعون ، ومحاطا بجو من السموم ، ومصابا بعدوى الموت ، وربما تلوثت الأرض بلمسة من يده • وفى هذه الحال يمكننا أن نفهم نظاما ما بعينه فرضه قانون « أتيكا » ، فالقاتل الذى نفى من « أتيكا » ، واتهم فى أثناء غيابه بتهمة أخرى ، كان يسمح له بالعودة الى بلده لكى يدافع عن نفسه • ولكنه لا يسمح له بأن تطأ قدمه الأرض ، وانما عليه أن يدافع عن نفسه وهو على ظهر السفينة • وحتى هذه السفينة لا يسمح لها بأن تلقى مرساها أو تنزل سلمها ، كما لا يسمح للقضاة بأن يتصلوا بالمذنب ، وانما عليهم أن يصدروا حكمهم جالسين عند الشاطىء أو واقفين عليه • ومن الواضح أن الغرض من هذا النظام هو وضع القاتل فى الحجر الصحى • حتى لا يصيب « أتيكا » بآفة ، اذا ما مست قدماه ترابها ، أو حتى اذا اتصل بها بطريق غير مباشر عن طريق مرساة السفينة أو سلمها • ومن أجل هذا السبب نفسه ، فان مثل هذا الرجل اذا ما كان عثر الحظ ، وقذف به البحر ، فى أثناء ابحاره على شاطىء البلد الذى ارتكب فيه جرمه ، فانه ، وان كان يسمح له حقا أن ينصب خيمته على الشاطىء حتى تفد سفينة وتقله معها ، الا أنه كان يتحتم عليه أن يجلس على الشاطىء ويدلى قدميه فى الماء طوال الوقت ، حى يبطل مفعول السم الذى يظن أنه غرسه بقدميه فى التربة اذا ما مستها قدماه ، أو هو على الأقل يخفف بذلك من تأثيره •

ونظام الحجر الصحى الذى فرضه قانون « اتيكا » على القاتل ، له ما يناظره عند أهالى جزيرة « دوبو » البدائيين ، وهى جزيرة تقع فى أقصى جنوب شرق « غينيا الجديدة » ، فهؤلاء مازالوا يفرضون العزل على القتلة حتى اليوم • وقد كتب حول هذا الموضوع مبشر أقام فى هذه الجزيرة سبعة عشر عاما ، فقال : « ان الحرب يمكن أن تقوم ضد أقرباء الزوجة • فاذا قتل شخص فى هذه الحرب ، فانه لا يجوز

أكل لحمه • فاذا قتل شخص أحد أقرباء زوجته ، يحرم عليه بعد ذلك أن يتناول طعاما أيا كان نوعه أو أية فاكهة من قرية زوجته • ولا يجوز لأحو أن يعد له الطعام سوى زوجته • فاذا خبت النار عندها وهى تطهو لزوجها الطعام ، لا يجوز لها أن تحضر شعلة من النار من أى بيت من بيوت قريتها • وعقوبة مخالفة هذا التحريم هو موت الزوج عن طريق تسميم دمه • ويكون التحريم أشد قسوة من ذلك ، اذا ما قتل الرجل أحد أقربائه •

فعندما قتل الزعيم « جاجانومور » أخاه (وهو وفقا لاصطلاحهم ابن خاله) لم يسمح له بالعودة الى قريته ، وكان عليه أن يشـــيد قرية يسكن فيها ، وأن يكون له وعاء خاص به من نبات القرع مطلى بالجير ، كما يكون له سكين فيها ، وأن يكون له ســـكين وزجاجة ماء وفنجـــان ، ومجموعة من أوعية الطبخ • كما عليـــه أن يحصـــل على شراب جوز الهنـــد وعلـــى الفاكهـــة من مكان آخر غير قريتـــه • وكان عليـــه أن يظل موقدا ناره أطول وقت ممـــكن ، فاذا ما انطفـــأت لا يمكنـــه أن يعيـــد ايقـــادها من نار أخرى ، بل عليـــه أن يحصـــل على شعلة النـــار عن طريق قدح الزند • فاذا خالف الزعيم هـــذه المحرمات ، فمن الممكن أن يبث دم أخيه القتيل السم فى دمه ، فيتورم جسمه ويمـــوت ميتة رهيبة •

من خلال هذه الأمثلة نرى أن أهالى جزيرة « دوبو » يعتقدون أن دم القتيل يفعل السم فى جسم القاتل ، وذلك اذا ما جرؤ القاتل على أن تطأ قدمه قرية القتيل ، أوحتى ان اتصل بها بطـــريق غير مباشر • فعزله عن جماعته وقاية يحرص عليها لصالحه أكثر من حرصه عليهم لصالح الجماعة التى ينعزل عنها • ومن المحتمـــل أن النظـــام الذى يفرضه قانون « اتيكا » على القاتل ، يمكن أن يفسر على هذا النحو • ومن المحتمل عى أى حال أن النـــاس كانوا يعتقدون فى وجود الخطـــر المتبادل ، وبتعبير آخر ، أنهم كانوا يعتقدون أن كلا من القـــاتل ومن

يتصل به معرض لأن يصاب بتسمم دمه الذى يحدث عن طريق العدوى• ومن المؤكد أن «الاكيكويو» الذين يسكنون «أفريقيا الشرقية البريطانية» يعتقدون فى أن القاتل يمكن أن يصيب غيره بعـدوى ميكروب كريه • فهم يظنون أن القاتل اذا نام فى قرية وتنـاول الطعـام مع عائلة من العائلات فى كوخها ، فانه يصيب الشخص الذى تناول الطعـام معـه بدنس (ثاهو) الأمر الذى يهدد العائلة بحدوث كارثة ، ما لم يتمكن الطبيب من ازالة الدنس فى حينه • فالجلد الذى ينام عليه القـاتل يمتص ما ابتلى به من دنس ، ومن ثم فهو يعرض من ينام عليـه بعد ذلك للاصابة بهذا الدنس ولهذا فان العائلة تستدعى الطبيب لكى يطهر الكوخ وسكانه •

وكذلك « يعد القاتل » عند المغاربة سكان مراكش « شخصا نجسا على نحو ما ، وهو يظل هكذا سائر سنى حياته • فالسم ينضـج من تحت أظافره ، ومن يشرب من الماء الذى غسل فيه يده ، يصـاب بداء وبيل ، كما أن لحم الحيوان الذى يقوم بذبحه لا يعـد صالحا للأكل ، وبالمثل يشارك فى أكله • فاذا وقد على مكان تحفر فيه بئر ، فان المياه تتسـرب فى باطن الأرض فى الحال • وقد أخبرنى أهالى منطقـة « الحياينة » فى بلاد المغرب ، أن القاتل لم يكن يسمح له أن يسير فى حقول الخضر ، أو يدخل حدائق الفاكهة ، أو أن تطأ قدمه مكان درس الحنطة أو يدخل مخزن الغلال أو أن يسير بين الخراف • والقـاعدة المألوفة ، وان كانت لا تتبع بشكل عام ، الا يقوم القاتل بذبح ضحية عيد الأضحى بنفسه • وهناك تحريم مشـابه بهـذا تلتزم به بعض القبائل التى يتحدث أغلبها اللغة البربرية ، وهو تحريم يفرض على من يقتل كلبا ، اذ أن الكلب من وجهة نظرهم حيوانا نجسا ، وكل نقطة من الدم تخرج من جسم الكلب تعد نجسة ومأوىللجن •

على أن دم هابيل فى القصة التورانية ليس هو الشىء الوحيد الذى شخصه القاص • فاذا كان قد صور الدم يصرخ صراخا عاليا ، فقـد صور الأرض فاغرة فاها لتستقبل دم الضحية • وفى ملحمة الاليـاذة

شخص أخيل الأرض على نحو مماثل ، اذ صور الأرض تشرب من دم أغاممنون القتيل • ولكن خلع الصفات الانسانية على الأرض يمتد خطوة أبعد من ذلك فى قصة سفر التكوين ، ذلك أن « الأرض أحلت اللعنة بالقاتل » كما تقول القصة ، وعندما حاول أن يفلحها لم تنبت له خيراتها، لأنه قدر له أن يصبح هائما شريدا على وجه الأرض • والمقصود بذلك فيما يبدو هو أن ارض ، وقد تلوثت بدم القتيل واستاءت لجريمة الدم ، أبت أن تتيح للحب الذى بذره المجرم أن ينمو ويحمل ثمارا ، بل انها طردت القتيل من الارض الخصبة التى شب عليها من قبل ، وأخرجته الى المتاهات القاحلة حيث يهيم فيها بلا مأوى ولا طعام • وليست فكرة أن الأرض كائن حى يصارع ضد ما يرتكبه سكانها من اثم ويطردهم بازدراء من أحضانها ، غريبة فى العهد القديم • فنحن نقرأ فى سفر الأحبار « أن الأرض تقذف سكانها » اذا هم دنسوها كما أن الاسرائيليين قد حذروا تحذيرا رهيبا من ألا يحافظوا على شريعة الرب وأحكامه : « فلا تقذفكم الأرض بتنجيسكم اياها كما قذفت الشعوب التى قبلكم »(١) •

ويبدو أن الاغريق كانوا يصطنعون مثل هذه الأفكار عن تلوث الأرض بدم القتل المسفوح ، أو بدم الأقرباء بصفة عامة ، فقد حكى فى تراثهم كيف أن « الخاميون » كان يطارده شبح أمه « ايريفلى » التى قتلها ، فهام على وجهه فى الأرض فى غير راحة ، حتى لاذ فى النهاية بنبوءة معبد « دلفى » • وهناك أخبرته الكاهنة أن « المكان الوحيد الذى لن يطارده فيه شبح أمه « ايريفيلى » ، هو أكثر الأماكن حداثة ، وهو المكان الذى عراه البحر من بعد أن سفك دم أمه » • أو أن الكاهنة أخبرته وفقا لما ذكره « توسيديد » : « أنه لن يتخلص من فزعه الا اذا عثر على البلد الذى لم تكن قد أشرقت عليه الشمس عندما قتل أمه ، وكان مغمورا بالمياه حتى ذلك الحين ، فيسكنه ، لأن سائر بقاع الأرض قد تلوثت بجريمته » • فرحل « الخاميون » مقتفيا أثر الطريق الذى أخبرته به النبوءة حتى اكتشف عند منبع نهر

---

(١) انظر سفر الأحبار (اللاويين) ١٨ : ٢٨ •

« أشيليوس » جزر « ايخينادیان » الصغيرة العارية التى قيـــل : ان النهر قد صنعها من الطين الذى جرفه من شواطئه بعد أن اقترب الآثم جريمتـــه ، فاتخذ القاتل هذه الجزر مأوى له • ووفقـــا لرواية أخرى للأسطورة ، استقر القاتل بعض الوقت فى وادى « بسوفيس » المرتفع الأجرد الذى يقع بين جبال أركاديا المهيبة • ولكن حتى هذه الجـــزر رفضت أن تقدم خيراتها للقاتل ، ومن ثم اضطر أن يستأنف تجـــواله المضنى كما فعل قابيل •

والاعتقاد فى أن الأرض ذات الوهية قوية ، يدنسها ويسىء اليهـــا دم الانسان المسفوح ، ومن ثم يتحتم أن تقـــدم لها التضحيات حتى تهدأ ، عقيدة تنتشر ، أو كانه تنتشر حتى زمن قريب بين بعض قبـــائل « السنغال الأعلى » ، التى تكفر حتى عن الجراح التى انســـكب الدم منها ، دون أن يفضى هذا الانسكاب الى الموت • ففى اقليم « البوبو » يقدم القاتل شاتين وكلبا وديكا لزعيم القرية الذى يقدمها بدوره ضحية للأرض ، بأن يذبحها ويربطها فى خشـــبة يثبتها فى الأرض • أما أسرة القتيل ، فلا يقدم لها شىء • وبعـــد هذا يأخذ أهالى القـــرية ومعهم الزعيم ، نصيبهم من الضحية ، ويستثنى من ذلك أسرة القاتل وأسرة المقتول • أما اذا حـــدث شـــجار بين بعض أفراد « لبوبو » ، وجرح بعضهم جراحا لم ينسكب منها الدم ، فانهم لا يقدمون ضحية عند ذاك • أما اذا انسكب الدم ، واستاءت الأرض لمرآة ، لزم تقديم الضحية لها حتى يهدأ غضبها ، فيقدم المذنب لزعيم القرية نعجة وألف محارة [1] • أما النعجة فيقدمها الزعيم ضحية للأرض ، وأما المحار فيوزعه على أكبر رجال القرية سنا ، كما يوزع عليهم لحم النعجة بعد أن يقدم للأرض • وأما أهل القتيل فيهملون كلية فى هذا الاحتفال ، ولا يقدم اليهم شىء ، وهو تصرف منطقى لأبعد حد ، فليس الغرض من هذه الطقوس تعويض أهل القتيل على حساب القاتل ، بل الغرض منه تهـــدئة ســـورة غضب

---

(١) صدفة صفراء كانت تستخدم كعملة وبخاصة فى افريقيا وآسيا . (المترجمة)

الأرض ، تلك القوة الالهية الجبارة التى استاءت لمنظر الدم المسفوك • ومن ثم فان الطرف الذى لحقت به الاســاءة ، لا يمنح شــيئا فى هذه الظروف ، وانما يكفى أن تبتلع الأرض روح النعجة حتى يهدأ غضبها • فالأرض عند « البوبو » وغيرهم من الشعوب الســوداء ينظر اليهــا بوصفها الهة عظيمة •

وتتشابه معتقدات قبيلة « ناونوما » وعاداتها ، وهى قبيلة أخرى تسكن « السنغال الأعلى » ، مع معتقدات البوبو وذلك فما يختص بدم القتيل المسفوح • فقد نفت القبيلة قاتلا لمدة ثلاث سنوات وألزمتــه بدفع دية كبيرة من القطيع والمحار ، لا لتقدم الى عائلة القتيل ، بل الى الأرض والالهة المحليين الذين استاءوا لمرأى الدم المسفوك • ويقــوم الكاهن الذى يحمل لقب « سيد الأرض » بتقديم الثور أو الثيران ضحية للأرض الغضبى ، كما يقسم لحم الضحية والمحار معا على أكبر رجال القرية سنا ، ولا تنال أسرة القتيل من ذلك شيئا ، أو هى على أحســن تقدير تأخذ نصيبا مناسبا من اللحم والنقود • أما فى حالة المشاجرات التى لا يقتل فيها أحد ، بل يسيل فيها الدم فحسب ، فان المعتدى يدفع دية تتكون من ثور وشــاة وعنزة وأربع دجاجات لتقدم ضــحية للاله المحليين الذين غضبوا لرؤية الدم • ويقدم « سيد الأرض » الثــور ضحية للأرض فى حضرة كبار رجال القرية كما تقــدم الشــاة ضحية للنهر ، والدجاج للصخور والغابة • وأما العنزة فيقدمها زعيم القرية ضحية لحيــوانه المبارك (الفتيش) الذى ينتسب هو اليه • واذا لم تقدم كل هذه الدية ، فان الأهالى يعتقدون أن الآلهة ربما قتلت المذنب وجميع أفراد أسرته وهى فى سورة غضبها •

كل هذه الحقائق السابقة تشير الى احتمال أن العلاقة التى يميز بها القاتل لا يقصد بها أولا حماية القاتل نفسه ، بل يقصد بها حمــاية

الآخرين الذين يصـــادفهم والا انتقلت اليهـــم عدوى الدنس اذا ما اتصلوا به ، فيحل بهم غضب الاله الذى استاء لفعلته ، أو يحل بهـــم غضب شبح القتيل الذى يطارده • أى أن العلامة ، باختصار ، ربمـــا كانت اشارة خطر تحذر الناس من خطر القاتل ، شـــأنها شأن الرداء الخاص الذى كان يتحتم على المجـــذوم فى بنى اسرائيـــل أن يرتديه ليحذر الأصحاء من خطره •

ومع ذلك ، فان هناك حقائق أخرى تنحو الى أن تبين أن العـــلامة التى يميز بها القاتل ، وكما يفهم هذا ضمنا من قصة هابيل ، كما يعنى بها صالح القاتل وحده • وأكثر من هذا فانها تشـــير الى أن الخطـــر الحقيقى الذى تحميه العلامة منه ليس هو غضب أقرباء ضحيته ، بل غضب شبح القتيل • وهنا يتراءى لنا أنه يجب علينـــا أن نغوص فى أعماق خرافات « أتيكا » كما سبق لنا أن تعرضنا لعادات « أثينا » • فأفلاطون يخبرنا أن شبح الرجل الذى قتل حديثـــا يغضب من قاتله ، ويسبب له المضايقات • فالشبح عندما يثور لمقتل صاحبه ، يطوف فى الأماكن التى ألف أن يأوى اليها • ومن ثم كان من الضرورى للقـــاتل ، أن يغادر بلده طيلة عام ، حتى يهدأ غضب الشبح • ولا ينبغى له أن يعود اليه الا بعـــد أن تكون الضحيات قد قدمت ، وأقيمت احتفـــالات شعائر التطهير • فاذا صادف أن كان القتيل غريبا عن البلد الذى قتل فيه ، فعلى القاتل أن ينأى بنفسه عن بلد القتيل وبلده معا ، كمـــا أن عليه أن يسير فى الطريق الذى يوصف له ، وهو فى طريقه الى منفـــاه ، اذ من الواضح أنه لا يسمح له أن يتجـــول فى البلد وشـــبح القتيـــل الغاضب فى أعقابه •

لقد سبق أن رأينا أن قبيلة « أكيكويو » تعتقد أن القاتل مصـــاب بدنس (ثاهو) يمكن أن يصيب الآخرين عن طريق العدوى • ويتضح من خلال بعض الاحتفالات التى تقيمها هذه القبيلة بقصد التكفير عن

خطيئة القاتل ، أن هذا الدنس يرتبط بشبح القاتل • فشيوخ القـرية يذبحون خنزيرا عند احدى أشجار التين المقدسة التى تلعب دورا كبيرا فى الطقوس الدينية عند هذه القبيلة • وهناك يقيمون وليمة من أجزاء الحيوان الكثيرة اللحم ، ويتركون الأجزاء الدسمة والأمعـاء وبعض العظام لشبح القتيل الذى يعتقـدون أنه يأتى الى هذا المكان فى تلك الليلة بعينها فى صورة قط متوحش ويفترس هذه الأجزاء • فاذا سـد رمقه ، فانه يحجم عن أن يعود الى القـرية ليضايق أهلهـا • وجدير بالذكر أن قبيلة « كيكويو » لا تحتفل بشعائر تطهير دنس القـاتل ، الا اذا قتل أحد أفراد عشيرته • ومن ثم فهى لا تقيم هذه الشـعائر اذا هو قتل رجلا من عشيرة غير عشيرته أو قبيلة غير قبيلته •

ومن عادة قبيلة « باجيسو » التى تسكن جبل « الجـون » الذى يقع فى « أفريقيا الشرقيـة البريطانيـة » ، أنه يتحتم على الرجل أن يغادر قريته ، اذا ما اتهم بالقتل وكان القتيـل من نفس عشيرته ومن قريته ، وأن يبحث له عن مأوى فى مكان آخر • وهو مطالب بأن يصنع هذا كذلك وان استطاع أن يصالح أقرباء القتل •وعليه بعـد ذلك أن يذبح نعجة ، ويلطخ صدره بمحتوى أمعائها ، ويرمى ما تبقى من ذلك على سـطح بيت القتيل « لكى يهدىء من غضب الشـبح » • ويؤدى المحارب فى قبيلته « باجيسو » هذه الشعائر اذا كان قد قتل رجلا فى احدى المعارك • ويحق لنا أن نفترض ، ونحن مطمئنون ، أن الغـرض من اقامة هذه الشعائر ، هو العمل على تهدئة غضب شـبح القتيـل • ويمكن للمحارب بعد ذلك أن يعـود الى قريته ، ولكن بشرط ألا يقضى الليلة الأولى فى بيته ، بل يقضيها فى بيت أحد أصدقائه • وفى مسـاء تلك الليلة يذبح شاة أو نعجة ، ويضع محتويات أحشائها فى اناء ، بعد أن يلطخ بها رأسه وصـدره وذراعيـه • فاذا كان له أولاد ، فانهم يلطخون أنفسهم على نحوذلك • حتى اذا ما حصن المحـارب نفسـه وأولاده على هذا النحو ، مضى الى بيته فى جرأة ، ولطخ جوانب بابه

بأمعاء الحيوان ، ورمى ما تبقى منها على السطح لكى يأكلها الشبح ، فيما يبدو ، لأنه يمر فوق هذا السطح ، ان لم يكن قد اســتقر فوقه • ولا يجوز للقاتل أن يلمس بيده الملوثة بدم القتيل الطعام مدة يوم كامل ، بل يوصل الطعام الى فمه عن طريق زوج من العصى أعد لهذا الغرض • وفى اليوم التالى تترك له الحرية فى أن يعود الى بيته وأن يستأنف حياته العادية • ولا تلزم زوجة القاتل بهذه القيود ، بل إنه يمكنها أن تشارك أسرة القتيل فى حدادها ، وأن تشترك فى مأتمه • فربما هدأ هذا الحزن المصطنع مشاعر شبح القتيل ، وأغراه بأن يترك زوجها وشأنه •

ويعــزل القاتل فى قبيلة « نيلوتيك كافيروند» ، وهى قبيلة أخرى تسكن فى « أفريقيا الشرقية البريطانية » ، عن أفراد قريته ، ويسكن فى كوخ مع امرأة عجوز تقوم على شــئونه ، وتطهــو له الطعــام ، وتطعمه كذلك ، لأنه لا يجوز له أن يلمس الطعــام بيده • وتستمر هذه العزلة ثلاثة أيام ، وفى اليوم الرابع يأتى اليه رجل يكون هو نفســه متهما بالقتل ، أو سبق له أن قتل رجلا ، معركة حربية ، ويصطحبه الى نبع ويغسل له جسمه • ثم يذبح هذا الرجل نعجة ، ويطهــو لحمهــا ويضع أربع قطع من اللحم على أربع عصى ، ثم يقدم قطع اللحم الأربع الى القاتل ليأكلها واحدة تلو الأخرى ، ثم يضــع الرجل بعد ذلك أربع كرات معجونة من الثريد على العصى الأربع ، ويقدمها للقاتل لكى يأكلها كذلك • وفى النهاية يقطع جلد النعجة الى أشرطة ، ويلف شريطا منهــا حول رقبة القاتل وشريطا حول كل من معصميه ، وكل هذه الشعائر يؤديها الرجلان منفردين عند النهر • وبعد ذلك يكون القاتل حرا فى أن يعــود الى بيته • وتقول القبيلة : ان شبح القتيل لا يذهب الى المكان الذى يرقد فيــه الميت ، بل يظــل يحلق فوق القــاتل ، حتى ينتهى من تأدية هذه الشعائر •

ولا يخاف القــــاتل فى قبيلة « بولوكى » التى تعيش فى « أعالى الكنغو » ، من شبح من قتله ، اذا كان هذا القتيل ينتمى الى البــلاد المجاورة لبلده ، وذلك لأن المساحة التى يستطيع أن يتجول فيها الشبح

« البولوكى » ، محدودة للغاية • على أن جريمة القــتل التى يمكن أن ترتكب فى هذه الحالة دون أدنى خوف انما تخلق موقفا أشد خطــورة اذا ارتكبت مع رجل من بلد القاتل نفسه ، فالقاتل يعــلم عند ذاك ان الشبح يتجول على مقربة منه ، ومن ثم فان الخوف من انتقامه يؤرقه• وليس هناك لسوء حظه طقوس تذهب عنه الفزع • ولكنه ، رغم غياب هذه الطقوس ، يعلن الحداد على ضحيته ، كما كان القتيل أخاه ، فهو يهمل زينته ، ويحلق رأسه ويصوم عن الطعام ، ويبكيه بدموع منسكبة كدموع التمساح ، ومن ثمفان علامات الحزن التى ينظر اليها الأوربى المخلص على أنها دليل على صدق الندم وتأنيب الضمير ، ليست سوى امارات حزن مزيفة يقصد بها خداع الشبح •

ومرة أخرى نجــد أن القاتل عند « الهنود الأوماها » الذين يسكنون أمريكا الشمالية ، مطالب بأن يخضع لنظام صارم محددلمدة تتراوح بين سنتين وأربع سنوات ، وذلك بعد أن يصفح عنه أهل القتيل ويبقوا على روحه • فعليه أن يسير حافى القدمين وألا يأكل طعاما ساخنا ، ولا يرفع صوته عند الكلام ، ولا ينظر حوله • وعليه أن يلف ثوبه حول جســمه وجعله ملتصقا برقبته ، ولا ينبغى له أن يتركه يتدلى أو يفتحه وان كان الجو حارا • ولا يجوز له أن يحرك ذراعيه جانبا ، بل يحتفظ بهمــا ملتصقين الى جانبه • كما لا يجوز له أن يمشــط شعره ، ولا أن يتركه يتطاير فى الهواء • ولا يســمح لأحد أن يأكل معــه ، ولا يبقى معه فى الخيمة سوى واحد من أقربائه • فاذا خرجت قبيلته للصــيد ، تحتم عليه أن يضرب خيمته فى مكان سائر القوم بحوالى ربع ميل ، « لئــلا يثير شبح الميت ريحا تحدث اضرارا وتعطل الصيد » • وربما قدم لنا هذا السبب الذى يفسر ابعاد القاتل عن مخيم الجمــاعة التى تقــوم بالصيد ، المفتاح لفهم ما يفرض على القتلة عند الشعوب البدائيــة من تعليمات محددة • فابعاد هؤلاء الناس عن المجتمع ليس بدافع النفور الأخلاقى من جرائمهم ، بل تفرضه الدوافع التحفظيــة التى تتلخص

ببساطة فى الخوف من الشبح الخطير الذى يعتقد فى أنه يقتفى أثر القاتل ويطارده •

ومن عادة « اليابيم » الذين يسكنون الساحل الشمالى الشرقى من « نيو غينيا » أن يضع أقرباء القاتل علامة بالطباشير على جباه أقرباء القتيل ، وذلك اذا قبل أقرباء القتيل دية الدم بدلا من الأخذ بالثأر • والغرض من هذه العلامة هو « تجنب مضايقات شبح القتيل الذى قد يخطف خنازيرهم أو يخلع أسنانهم ، لأنهم فشلوا فى الأخذ بثأرهم » • فأقرباء القتيل هم الذين يعملون وفقا لهذه العادة ، وليس القاتل نفسه ولكن الهدف واحد على أية حال ، اذ من الطبيعى أن يحيل شبح القاتل غضبه الى أقربائه القساة الذين لم يثأروا للدم بالدم • ولكنه فى اللحظة التى ينقض عليهم فيها ليخلع أسنانهم أو ليخطف خنازيرهم أو يقوم بأى عمل آخر يضايقهم ، يفاجأ برؤية العلامات البيضاء مرسومة على جباههم السوداء أو البنية اللون • فهذه العلامة اذن هى بمثابة الايصال الذى يثبت أن الدية قد دفعت كاملة ، وهى دليل على أن أقارب القتيل قد قبلوا تعويضا ماليا عن القتيل وان لم يطلبوا تعويضا دمويا • وبهذا القدر اليسير من العزاء يجب على الشبح أن يكون قانعا ، وأن يكفى أسرته أية مضايقات فى المستقبل • وربما رسمت العلامةنفسها بوضوح على جبهة القاتل لتثبت أنه دفع المبلغ المطلوب من النقود فورا أو دفع ما يساوى هذا المبلغ فوريا وفقا لما يصطلح عليه محليا ، جزاء فعلته • ومن ثم فان الشبح لا يطالبه بشىء بعد ذلك • فهل كانت علامة قابيل من هذا القبيل ؟ وهل كانت اثباتا على أنه دفع دية الدم ؟ وأنها بمثابة الايصال على أنه قد دفع الدية فورا ؟ ربما كان الأمر كذلك ، ولكنه لايزال هناك احتمال آخر ينبغى أن يوضع موضع الاعتبار • من الواضح ــ بناء على النظرية التى أشرت اليها من قبل ــ أن قابيل لم يكن ليميز بعلامة الا اذا كان قد قتل رجلا من قبيلته أو عشيرته ،حيث ان التعويض لم يكن يدفع لأهل القتيل الااذا كانوا من قبيلته أو عشيرته • على أن خوف الناس

من شبح القتيل العدو ليس أقل من خوفهممن شبح القتيل الصديق • وما الوسيلة اذن لتهدئة غضب الشبح العدو ان لم يكن ذلك عن طريق دفع الدية لأقربائه ؟ • لقد كانت الشعوب تصطنع كثيرا من الوسائل لحماية المحاربين من أشباح الرجال الذين عجلوا بهم الى الموت • ويبدو أنه كان من بين وسائل الحيطة أن يتنكر القاتل حتى لا يتعرف عليه الشبح • ووسيلة أخرى هى أن يحيل شكله الى صورة مفزعة أو كريهة تنفر الشبح فلا تجعله يتحرش به • وربما فسرت هذه الوسيلة أو تلك العادات الآتية التى اخترتها من بين عدد هائل من الأحوال المشابهة لما أشرت اليه •

فقبلة « با ــ ياكا » ، وهى احدى قبائل « البانتو » التى تسكن فى « ولاية الكنغو الحرة » ، » تعتقد أن الرجل الذى قتل فى احدى المعارك ، يرسل روحه لكى تأخذ بثأره من الرجل الذى قتله • غير أن القاتل قد يهرب من هذا الانتقام بأن يضع على رأسه ريشا أحمر من ريش ذيل الببغاء ، وأن يصبغ جبهته باللون الأحمر » • ويعتقد « الثنجاويون » الذين يسكنون جنوب شرق افريقيا ، أن الرجل الذى قتل عدو له فى معركة معرض لخطر جسيم من قبل شبح ضحيته الذى يطارده ، وربما أصابه مس من الجنون • ولكى يقى القاتل نفسه شر شبح القتيل ، يتحتم عليه أن يعيش فى عزلة فى عاصمة بلاده عدة أيام لا يذهب فى أثنائها الى زوجته ، ويرتدى الملابس القديمة ، ويستعمل ملاعق وأطباقا خاصة به • وقد كانت من عادة « الثونجاويين » فى الازمنة السالفة ، أن يصنع القاتل فيما بين حاجبيه وشما وأن يضع دواء فى مكان حفر الوشم ، فتبرز أثر ذلك نتوءات تجعله يبدو كالجاموسة العابسة • « واذا قتل المحاربون « الباسوتو » [1] أعداء لهم ، وجب تطهير هؤلاء المحاربين • فيقوم زعيم القبيلة بغسلهم ويقدم

---

(١) قبيلة من اكبر قبائل « البانتو » فى جنوب افريقيا .
(المترجمة)

ثورا ضحية فى جفرة الجيش كله • كما أن المحاربين يدهنون أجسامهم بمرارة النور ، الأمر الذى يمنع شبح العدو من تعقبهم بعـد ذلك » •

ومن عادة قبائل « البانتو » التى تسـكن فى اقليم « كافيراندو » الذى يقع فى أفريقيا الشرقية البريطانية » ، أن الرجل اذا قتل عدوا له فى معركة ، فانه يحلق شعره عند عودته الى بيته كما يدلك له أصدقاؤه جسمه بدواء يتكون من روث البقر ، وذلك لكى يمنعوا روح الميت من مضايقته • أما عند قبائل « نيلوتيك » التى تسكن فى اقليم « كافيراندو » كذلك ، « فان المحارب يعزل عن قريته اذا هو قتل شخصا آخر فى احدى المعارك ، حيث يقيم فى كوخ حوالى أربعة أيام • وهناك تطهو له امرأة عجوز طعامه ، وتطعمه كما يطعم الطفل ، اذ أنه لا يسمح له بأن يلمس بيده أى نوع من الطعام • وفى اليوم الخامس ، يرافقه رجل ويذهب معه الى النهر ، فيغسل له جسمه ، ويذبح له نعجة بيضـاء ويطهوها ويطعمه لحمها • أما جلد النعجة فيقطعه الى شرائح تلف حول معصمه وحول رأسه • ثم يعود القاتل الى منزله المؤقت ، ويبيت فيه تلك الليلة• وفى اليوم التالى يأخذه الرفيق الى النهر مرة أخرى ، ويغسل له جسمه ويقـدم له دجاجة بيضاء يذبحها القاتل بنفسه ، ويقوم الرفيق بطهيها له واطعامه لحمها • وعندئذ يعلن طهره ويسمح له أن يعود الى بيته • وقد يحـدث فى بعض الأحيان أن يصيب المحارب رجـلا بسهامه فى احـدى المعارك ، فيموت بعد وقت متأثرا بجراحه ، وعند ذاك ، يذهب أقرباء المصاب بعـد أن توافيه منيته ، الى المحارب ويحملون اليه نبأ وفاة المصـاب ، وعندئذ يعزل المحارب فى الحال عن مجتمعه حتى يتم اجراء الطقوس السالف ذكرها • ويقول الناس : ان هـذه الطقوس من الضرورة بمكان ، لأنها تحرر المحارب من شبح قتيله الذى يظـل ملازما له ، ولا يفارقه الا بعـد تأدية هـذه الطقوس • فاذا رفض المحارب أن يؤديها فان الشبح يسأله : « لماذا لم تؤد الطقوس وتتركنى وشأنى ؟ » فاذا أصر المحارب على عدم الاذعان لمطلب الشبح ، أمسك الشبح برقبته وخنقه •

لقد سبق أن رأينا أن القاتل عند قبائل « نيوليتيك » التى تسكن اقليم « كافيريندو » عليه أن يؤدى طقوسا مشابهة لهذه الطقوس من أجل الغرض نفسه ، وهو أن يخلص نفسه من شبح القتيل ، فان هو لم يفعل هـذا ، ظل شبح القتيل يطارده •

وهذا التشابه التام بين الطقوس فى هاتين الحالتين ، بالاضـافة الى دوافعها التى عبرت عنها القبائل صراحة ، يلقى الضوء على الهدف من طقوس التطهير التى يتحتم على القاتل أن يؤديها ، محاربا كان أم غير محارب ع ويتلخص هذا الهـدف ببسـاطة فى تخليص القاتل من شبح قتيله حتى يتجنب ما يمكن أن يصيبه الشبح به من أذى • وربما كان الغرض من لف شرائح جلد النعجة حول معصم القاتل ورأسـه ، هو اخفاء القاتل عن الشـبح • وعلى الرغم من أن النصـوص التى نستشهد بها لا تذكر شيئا عن شبح القتيل ، يمكننا أن ندعى ، ونحن مطمئنون لسلامة ادعائنـا ؛ أن الغرض من طقـوس التطهـير التى يؤديها المحاربون ، أو تؤدى لهم ، هو تهدئة الأرواح الغاضبة أو ابعادها عن قتلة أصحابها ، أو خداعها • فمن عادة « النجونيين » الذين يسكنون « افريقيا الوسطى البريطانية » أنه عندما يقترب الجيش المنتصر من القرية الملكية ، يقف عند شاطىء مجرى مائى ، ويطلى المحاربون الذين قتلوا أعداء لهم فى المعركة أجسامهم وأذرعهم بالجص • أما المحاربون الذين لم يكونوا هم البادئين بالقتل ، بل كانوا عونا لاخوانهم فى الاجهاز على أعدائهم فيطلون أذرعهم اليسرى فقط بالجص • وفى هذه الليلة ينام المقاتلون فى حظيرة مكشوفة مع القطيع ، ولا يجرءون على الاقتراب من بيوتهم • وفى الصـباح الباكر ينزلون النهر ليزيلوا عن أجسامهم الجص • ثم يحضر الطبيب الساحر ويقـدم لهـم جرعة من الدواء السحرى ، ويطلى أجسامهم مرة أخرى بطبقة من الجص • وتتـكرر هذه العملية ستة أيام على التوالى حتى يتم تطهيرهم • وعند ذاك تحلق رءوسهم ويسمح لهم بالعودة الى بيوتهم ، بعد التأكد من طهرهم من كل دنس • ومن عادة « الجالا » من سكان « بورانا » أنهم عنـدما

يعود المحاربون الى القرية ، تقوم النساء بغسل أجسام المنتصرين الذين قتلوا بعض أعدائهم بمزيج من الدهن والزبد ، كما تطلين وجوههم بطلاء أحمر وأبيض • أما المحاربون من « الماساى » فانهم عندما يقتلون بعض الهمجيين فى معركة ، يطلون النصف الأيمن من أجسامهم باللون الأحمر والنصف الأيسر باللون الأبيض • وبالمثل يفعل الرجل من قبيلة « ناندى » اذا قتل رجلا من قبيلة أخرى ، فهو يطلى أحد جانبى جسمه باللون الأحمر والجانب الآخر باللون الأبيض ، وهو يعد نجسا مدة أربعة أيام بعد قتله القتيل ، لا يسمح له فى أثنائها بالعودة الى بيته ، بل يتحتم عليه أن يشيد لنفسه مأوى بجانب النهر ، ويعيش فيه ، ولا يسمح له أن يختلط بزوجته أو بعشيقته ، ولا يأكل الا الثريد ولحم البقر والماعز • وفى مساء اليوم الرابع يتحتم عليه أن يزيل عن نفسه الدنس بتناول شراب قوى مسهل مستخرج من شجرة « السيجيتيت » ولبن الماعز الممزوج بدم ثور مخصى • واذا قتل رجل من قبيلة « واجوجو » التى تسكن « افريقيا الشرقية » عدوا له فى معركة ، فانه يرسم دائرة حمراء حول عينه اليمنى ، ودائرة سوداء حول عينه اليسرى •

ومن المألوف عند الهنود « الطومسونيين » الذين يسكنون كولومبيا البريطانية ، أن يطلى الرجال الذين يقتلون أعداءهم وجوههم باللون الأسود • فاذا أهملوا هذا الاجراء الاحتياطى ، أصابتهم أرواح القتلى ، ووفقا لاعتقاد هؤلاء الهنود ، بالعمى • وكان الفرد من الهنود « البيماويين » اذا قتل رجلا من أعدائه القدامى وهم « الاباتشيون » ، اتبع على نحو منتظم أسلوبا صارما فى العزلة والتطهير يدوم ستة عشر يوما • ولا يسمح له طيلة هذه الفترة أن يمس لحما أو ملحا ، أو أن ينظر الى نار متوهجة ، أو يتحدث مع أى كائن حى • كما كان يقيم وحده فى غابة ، حيث تقوم على رعايته امرأة عجوز ، فتحضر له حصته الزهيدة من الطعام • كذلك كان يغطى رأسه معظم الوقت بطبقة من الطين ، ولا يجوز له أن يلمسها بأصابعه •

وقد حـدث أن قتلت عصابة من « الهنود التينيهين » جماعة مستضعفة من الاسكيمو عند نهر « كوبر » ، وعند ذاك عـدت نفسها مصـابة بالدنس ، وكان على أفرادها بنـاء على ذلك ، أن يقوموا على أثر ذلك ببعض الالتزامات الغريبة لفترة ليست بالقصيرة ، فهؤلاء الذين قتلوا أعدائهم بأيديهم ، يمنعون كلية من أن يطهوا لأنفسـهم أو لغـيرهم الطعام • وكذلك لم يكن يسمح لهم أن يشربوا أو يدخنوا الا من وعاء أو غليـون يمتلكونه • وكذلك كان يحرم عليهم أكل اللحم المسلوق ، على حين كان يسمح لهم بأكل اللحم النيىء أو المشـوى على النار أو المجفف فى الشمس • وكان عليهم فى كل وجبـة قبـل أن يأكلوا أول لقمة ، أن يطلوا وجوههم باللون الأحمر الوردى فيما بين الأنف والذقن ، وبين الأذنين عبر الخـدين •

وكان من عادة « الهنـود التشينوكيين » الذين كانوا يسـكنون « أوريجون » و « واشـنطون » أن يسـود القـاتل وجهه بالفحم المعجون فى الشحم ، ويضع حول رأسه ورسغيه وركبتيه ومعصـميه حلقات من لحاء شجر السدر ، وبعد خمسة أيام ، يغسل وجهـه ليزيل الطلاء الأسود ويطليه مرة أخرى بطلاء أحمر • وفى أثناء هذه الأيام الخمسة لا يسمح له بأن يستغرق فى النوم ، بل له أن يرقد للراحة ، كما لا يسمح له بأن ينظر الى طفل أو الى أناس وهم يأكلون • وبعد أن تنتهى طقوس التطهير ، يعلق الحلقات التى كان يضعها حول رأسه على شجرة من المفروض أن تجف نتيجة لذلك فيما بعد •

ويعد قتل الهندى وقتل الحوت عملا رائعا عنـد الاسكيمو الذين يسكنون « خليج لانجتون » ، فمن يقتل منهم أحـد الهنود يوشم من الأنف حتى الأذن ، وأما من يقتل حوتا فيوشم من الفم حتى الأذنين • وكلا البطلين يمسك عن عمل مدة خمسة أيام كما يمتنع لمـدة عام عن تناول أطعمة بعينها وبخاصة رأس الحيـوان وأمعائه • وعنـدما تعود جماعة من قبيلة «أرونتا » التى تسكن وسط استراليا من بعثة انتقامية

يكونون قد أجهزوا فيها على عدو لهم ، فانهم يخشون شبح القتيل ، لأنهم يعتقدون أنه يتعقبهم فى هيئة طائر صغير يصيح صياحا حزينا • ولهذا فانهم يسكتون بضـــعة أيام بعد عودتهم عن الحديث عن فعلتهم ، ويطلون كل جزء من جسمهم بمسحوق الفحم ، ويزينون أنوفهم وجباههم بفروع الشجر الخضراء • وفى نهاية الأمر يطلون أجسامهم ووجوههم بألوان براقة ، ويحل لهم بعد ذلك أن يتحدثوا فى حرية عن فعلتهم • ومع ذلك فهم يستيقظون فى هدوء الليـــل ويصغون الى شكوى الطـــائر الذى يتوهمونه صوت ضحيتهم •

واذا قتل المحارب عند « الفيجيين » عدوا له فى المعركة ، تخلع عليه صـــفة القدسية ، أى يصبح محرما ، وعند ذاك يطلى الملك جسمه ، بالكركم من قمة رأسه الى أخمص قدميه • ثم يبنى له كوخ ليقضى فيه الليالى الثلاث التالية لذلك • ولا يسمح له فى هـــذه الليالى أن ينام مستلقيا بل ينام جالسا • كما لا يسمح له أن يغير رداءه أو يزيل الكركم عن جسمه ، أو يدخل بيتا فيه امرأة ، حتى تنقضى الليالى الثلاث •

وهناك عادة « فيجيانية » أخرى تشعر بأن هـــذه النظم التى تتبعها قبيلة « فيجى » كان يقصـــد بها حماية المحارب الفيجيانى من شبح قتيله ، وان لم تؤكد ذلك • فعندما كان هؤلاء الهمجيون يقومون بدفن رجل حيا ، كما كانوا يفعلون هـــذا كثيرا ، كانوا يحدثون ضجيجا فى هدوء الليل ، مستخدمين فى ذلك مزامير القصب والطبول المصـــنوعة من الأصـــداف البحرية ، الى غـــير ذلك من الوســـائل التى تحـــدث صخبا ، وذلك بقصد افزاع الشبح حتى لا يحاول العودة الى مسكنه القـــديم • كما أنهم يجردون هـــذا المســـكن من معالمه ويغطونه بكل ما يمكن تغطيته به ، فيبدو على هذا النحو منفرا للغاية ، فلا يجتـــذب شبح صاحبه اليه • وقد تعود هنود أمريكا الشمالية كذلك أن يتجولوا فى القرية وهم يصرخون صرخات مزعجة ويضربون على الأثاث وحيطان الأكواخ وأسطحها لكى يطردوا شبح العدو الغاضب الذى عذبوه حتى

الموت • ولا تزال مثل هذه العادة تتبـــع فى بقاع كثـــيرة من « غينيا الجديدة » و « الأرخبيل البسماركى » •

وبناء على ذلك فربما كان القصـــد من تعليم قابيل بعـــلامة هو اظهاره للشبح بمظهر كاذب • أو ربما كان الغرض منها اظهاره فى صورة منفرة أو مفزعة حتى لا يتعـــرف عليه شبح القـــاتل ، أو على الأقل يتجنبه • وقد سبق أن افترضت فى مكان آخر ، أن عادات الحـــداد فى العموم ، كانت فى الأصـــل وسيلة للتنكر تصطنع بقصـــد حماية أقرباء الميت الأحياء من شبحه الذى انفصـــل عنه حديثا بموته • وسواء كان هذا الافتراض صحيحا أم غير صحيح ، فمن المؤكد أن الأحياء يظهرون فى بعض الأحيان بمظهر مخادع حتى يهربوا من مراقبة شـــبح الميت اياهم • ففى الأحيـــاء الغربية من « تيمور » ، وهى جزيرة كبيرة تقع فى « الأرخبيل الهندى » ، تقف زوجات الميت ، قبل أن يوضـــع زوجهن فى اللحـــد ، وتبكينه ، كما يتحتم أن تقف بجانبهن رفيقاتهن فى القرية « وقد أسدل الجميـــع شعورهن على وجوههن حتى لا يتعرف عليهن « نيتو » الميت ، أى شبحه » • وعندما يكون المريض عند « الهيريرو » الذين يسكنون « أفريقيا الجنوبية الغربية » فى ساعة الاحتضار ، فانه فى بعض الأحيان يسأل أحد الذين لا يحبهم ويقول لهم : « متى جئت الى هنا ؟ اننى لا أرغب فى رؤيتك فى هـــذا المكان ؟ » • وعنـــد ذاك يضغط على أصابع يد الرجل اليسرى بطريقة معينة بحيث يبرز طرف أصبع الابهام من بين أصابعه • وعنـــد ذاك يعرف هـــذا الرجل أن المحتضر قد قرر أن يأخذه معه بعيدا (أوكوتوايريرا) ، بعـــد موته ، أى أنه سوف يموت كذلك • على أن مثل هـــذا الرجل يمكنه ، فى كثير من الأحيان أن يتجنب خطر الموت الذى يهدده به الشخص المحتضر ، وذلك بأن يترك المكان الذى يرقد فيه المريض المحتضر فى سرعة ، ويبحث عن « أو نجانجا » ومعناه « الطبيب الساحر » ؛ لكى يخلع عنه ملابســـه ويغسل له جسمه ويدهنه ويلبسه ملابس أخرى • وعند ذاك يهـــدأ خوفه من تهديد الشخص المحتضر اياه بالموت ، ويقول : « الآن لم يعد

شيخنا يعرفنى » (نامبانو تاتى كى نديى اى) ومن ثم فليس هنـــاك أدنى سبب يجعله يخاف الموت بعد ذلك •

ويمكننا أن نفترض على نحو هـــذا أن قابيل قد هـــدأ روعه بعد أن علمه الرب بعلامة ، معتقدا بذلك أن شبح أخيه الذى قتله لن يتعرف عليه ويضايقه • على أنه ليست لدينا وسيلة لأن نعرف بهـــا على وجه التحديد شكل العلامة التى علم بها أول قاتل على وجه الأرض ، ومن ثم لا يمكننا سوى أن نطرح فرضا عفويا حول هذا الموضـــوع • فاذا كان من حقنا أن نحكم على هـــذه العلامة مستعينين بعادات البدائيين المشابهة لذلك فى الوقت الحاضر ، فان الرب يكون بذلك قد علم قابيل بعلامة حمراء أو بيضـــاء أو سوداء ، وربما مزج بين هـــذه الألوان ليكون منها لونا مناسبا فعلمه به • وربما لون جسمه كله بلون أحمر كما يفعل « الفيجيانيون » على سبيل المثال ، وربما لونه بلون أبيض كما يفعل « النجونيون » أو بلون أسود كما يفعل « الارونتانيون » ، وربما لون نصـــف جسمه باللون الأحمر ونصفه الآخر باللون الأبيض كما يفعل « الساى » و « الناندیون » • واذا كان الرب قد قصر جهده الفنى على وجه قابيل ، فربما رســـم دائرة حمراء حول عينه اليمنى ودائرة سوداء حول عينه اليسرى على نحو ما يفعل « الواجوجيون » • أو أنه زين وجهه فيما بين الأنف والذقن ، وما بين الفم والأذنين ، بظل خفيف من اللون القرمزى كما يفعل « الهنـــود التينيهيون » أو ربما غطى رأسه بطبقة من الطين كما يفعـــل « البيمايون » • أو أنه غطى جسمه كله بروث البقر كما يفعل « الكافريندیون » • أو ربما وشـــمه فيما بين الأنف والأذنين كما يفعل « الاسكيمو » • أو أنه فعل كما يفعل « الثنجاويون » ، فوشمه فيما بين الحاجبين ، بحيث يبدو كالجاموسة العابسة • وربما استطاع هذا الحـــداد الأول (كلمة قابيل «قايين » Cain معنـــاها الحـــداد Smith) أن يتجـــول فى بقاع الأرض القاحلة ، مزينا بهـــذه الألوان ، دون أن ينتابه أدنى خـــوف من أن يتعرف عليه شبح أخيـــه ويتعقبه •

ان تفسير علامة قابيل على هـذا النحو من شـأنه أن يخلص القصة التوراتية من السخف الواضـح فيها ، فان تفسير العلامة بأن الرب علم قابيل بها لكى يحول بينه وبين أن يقتل على يد أى انسـان آخر ، فيه اغفال لحقيقة أنه لم يكن على وجه الأرض من يقتله ، حيث ان الأرض لم يكن يعمرها آنذاك سوى القاتل ووالديه • أما اذا تبينا التفسير الذى مؤداه أن العدو الذى كان يخشاه القاتل هو شبح القتيل وليس انسانا حيـا ، فاننا نتجنب بذلك التهاون الوقح الماثل فى اتهام الرب بزلة فى ذاكرته ، الأمر الذى لا يتلاءم كلية مع صفات الرب العالم بكل شىء • ومن ثم يؤكد المنهج المقارن مرة أخرى أنه دفاع قـوى فى حق الرب •

الفصل الرابع

الطـــوفان الكبـــير

١ ــ مقـــدمة :

عنـــدما دعانى « مجلس المعهد الملكى للأنثروبولوجيا » لكى ألقى محاضرة « هكسلى » السنوية ، قبلت الدعوة شاكرا • وقد رأيت فى ذلك شرفا كبيرا لى ، أن أتصـــل بشخص أكن له تقديرا عميقا بوصفه مفكرا وانسانا معا ، كما أتعاطف معه قلبيا فى موقفه ازاء مشـــكلات الحيـــاة الكبرى • ان أعمال هذا الرجل ستظل تحتفظ له بذكرى نضرة • ومن الملائم أن يكون علمنا بمثابة أكليل من الزهر يوضـــع سنة بعـــد أخرى على قبر أحـــد الذين يحظون بأبلغ تقدير لنصرتهم هذا العلم •

وبينما كنت أجيل الفكر فى موضوع مناسب للمحاضرة ، تذكرت أن هكسلى فى أيامه الأخيرة ، كان قد كرس جزءا كبيرا من وقت فراغه الثمين فى فحص التراث الذى يتصـــل بعصور الحيـــاة الأولى كما هو مدون فى سفر التكوين • ومن ثم فقد فكرت فى أن أتخـــذ من هـــذا التراث موضوعا ملائما لمحاضرتى • وهـــذا الموضـــوع هو القصـــة المألوفة عن الطوفان الكبير • وكان هكسلى نفسه قد ناقش هذه القصة فى مقال تثقيفى عام كتبه بكل ما عرف عن أسلوبه من سحر فى سلاسته ووضـــوحه ، وقد كان هـــدفه أن يبين أن هذه الحكاية التى ينظر اليها بوصفها سجلا لحادثة الطوفان الذى أغرق العالم كله ، وكل ما كان يعمره على وجه التقريب من انسان وحيـــوان ، تتعارض مع مبادىء الجيولوجيا البسيطة ، ومن ثم ينبغى رفضـــها ، على أساس أنهـــا أســـطورة • على أننى لن أحاول أن أدعم رأيه والنتيجة التى انتهى

اليها ، أو أن أرفضـــها ، لسبب بسيط هو أننى لست جيولوجيا • كما آننى أرى أن ابداء الرأى حول هــذا الموضوع يعد خارجا عن نطاق البحث • ومن ثم فقد تناولت هــذه القصـــة من زاوية آخرى ، أى بوصفها تراثا شعبيا • ومن المعروف منذ زمن طويل أن أساطير الطوفان الكبير الذى هلك فيه كل الناس على وجـــه التقريب ، تنتشر انتشارا كبيرا فى جميع أنحاء العالم • وبناء على ذلك فقد حاولت أن أجمـــع الروايات المختلفة لهــذه القصة ، وأن أقارن بينها ، لكى أرى ما تسفر عنه هذه المقارنة من نتائج • أى أن دراستى لهذه الروايات ، باختصار ، هى دراسة فى علم الفولكلور المقارن • وهـــدفى من ذلك هو أن أستكشف نشأة هــذه الحكايا ت، وأن أتبين كيفيـــة انتشارها فى جميع أنحـــاء العالم ، ولم يعننى فى المقـــام الأول أن أتساءل عن صـــدقها أو كذبها ، وان كان لا ينبغى اهمال هذا السؤال عند البحث عن موضوع نشأتها • على أن تحديدنا لهذا الموضوع على هــذا النحو ليس بجـــديد ، فكثيرا ما حاول الباحثون بحث هــذا الموضـــوع من زاوية التراث الشعبى بخاصة فى السنين الأخيرة • وقد استفـــدت أيما استفادة • باقتفائى أثر هذه الأبحاث ، من أعمال الذين سبقونى فى هــذا المجال ، بخاصة هؤلاء الذين ناقشوا هذا الموضوع بعلم واســـع وكفاية ممتازة • وانى مدين بصـــفة خاصة للعالم الألمانى الجغرافى والأنثروبولوجى المرموق الدكتور الراحـــل « ريتشارد أندرى » الذى يعـــد بحثه فى التراث الشعبى حول قصة الطوفان ، شأنه شأن سائر كتاباته ، نموذجا للدرس الرصين والادراك الحصيف ، بالاضافة الى وضوح وايجاز بالغين •

واذا صرفنا النظر عن أهميـــة هــذه الأساطير فى حـــد ذاتها ، بوصفها سجلا للكارثة التى قضت دفعة واحـــدة على الجنس البشرى كله على وجه التقريب ، فانها لا تزال تستحق الدراسة لاحتوائها على سؤال عام يناقشـــه الأنثروبولوجيون اليوم مناقشة جادة • وهــذا السؤال هو : كيف يمكننا أن نفسر وجوه التشابه الكثيرة القوية بين

معتقدات الأجناس المختلفة وعاداتها ، تلك الأجناس التى تسكن فى بقاع متفرقة متباعدة من أنحـــاء العالم ؟ فهل يرجع هذا التشابه الى انتقال المعتقدات والعادات من جنس بشرى الى جنس آخر ، اما عن طريق الاتصال المباشر فيما بينهم أو عن طريق الاتصـــال غير المباشر ؟ أم أن هـــذه المأثورات والمعتقدات المتشابهة نشـــأت مستقلة عند كثـــير من الأجناس ، نتيجة تماثل الفكر البشرى فى ظروف فكرية متماثلة ؟ واذا كان لى أن أبدى رأيا فى هذا الموضوع الذى طال الجدل حوله ، فاننى أقول توا ، ان هذا السؤال يبدو لى نوعا من العبث ، اذا ما وضع موضع الجـــدل بين وجهات النظر الخاصة المتبادلة • فـــكل التجارب وكل الاحتمالات ، بالقدر الذى أستطيع أن أحكم به فى هذا الموضوع ، تخدم النتيجة التى توصلنا اليها ، وهى أن كلتا الوجهتين قد عملت فى قوة وعلى نطاق واسع لايجاد هذا التشابه الملحوظ بين عادات الأجناس البشرية المختلفة وتقاليدها • وبتعبير آخر نقول : ان كثيرا من وجوه التشابه يمكن أن تفسر من خلال عملية الانتقال البسيطة من شـــعب لآخر ، وما يعترى هـــذه المأثورات والمعتقدات من تغيير قليل أو كثير فى أثناء عملية الانتقال • وكذلك فان كثيرا من وجوه التشابه هذه يمكن أن تفسر بأنها قد نشأت مستقلة نتيجة لتماثل حركة التفكير فى العقل البشرى ، الذى يعد استجابة لظروف التطور المتماثلة • فاذا كان هذا قد حـــدث حقا ، وأنا أميل لأن أرى فيـــه الرأى الوحيـــد المعقول والمحتمل ، فانه يتبع هـــذا ، أنه عندما نتعرض لحالة خاصة من التشابه يمكن أن نقتفى أثرها فى عادات الأجناس المختلفة ومعتقداتها ، يكون من العبث أن نلجأ الى المبدأ العام ، سواء فى انتشارها أو فى نشوئها مستقلة ، اذ أن كل حالة ينبغى أن يحكم عليها فى حدودها الخاصة بعد أن تفحص الحقائق فحصا منصـــفا ، وبعد أن نرجعها الى هذا الأساس أو الى ذاك ، وربما الى الأساسين معا ، حسبما يميل ميزان الشواهد الى هذا الجانب أو ذاك ، أو يقف فيما بنهما عندما تتوازن كفتاه •

ويؤكد الفحص الدقيق للروايات الخاصـــة بحكاية الطوفان هذه

النتيجة العامة التى تسلم بمبدأى الانتشار والنشوء المستقل ، بوصفهما مبدأين صحيحين وسليمين ، وذلك فى نطاق حـــدود معينة • ذلك أنه من المؤكد أن أســـاطير الطوفان الكبير قد عثر عليها منتشرة بـــين شـــعوب مختلفة تعيش فى بقاع نائية على وجه الأرض • ويمكننا أن نستدل ـــ وذلك فى حـــدود الاستدلال الممـــكن فى مثل هـــذه الأمور ـــ على أن التشابه الذى لا يخطئه الباحث بين هـــذه الروايات ، يرجع من ناحية الى انتقالها المباشر من شعب الى آخر ، ومن ناحية أخرى الى تجارب مشابهة ، وأن تكن مســـتقلة تماما ، ونعنى بها تجارب الشـــعوب مع حوادث الفيضانات الكبيرة التى حدثت فى بقاع مختلفة من العالم • ومن ثم فان دراسة هذه الروايات الشعبية ، بصرف النظر عن النتائج التى ننتهى اليها فيما يتعلق بصـــدقها التاريخى ، ربما حققت غرضـــا نافعا ، اذا ما استطاعت أن تخفف من حـــدة النقاش الذى كان يحتدم حولها فى بعض الأحيان ، وذلك باقناع الجانبين المتطرفين المتعصـــبين لكلا الأساسين بأن الحقيقة لا تقع كلية فى هذا الجانب أو ذاك ،بل تقع فى مكان ما بينهما •

٢ ـــ حكاية الطوفان الكبير البابلية :

تعد أسطورة الطوفان البابلية ، أو بالأحرى السومرية ، أقـــدم أساطير الطوفان المدونة فى الأدب • ذلك أننا نعلم أنه على الرغم من قدم الرواية البابلية ، فانها لا تزال مستمدة من أسلافهم السومريين الذين استمد منهم ســـكان بابل الســـاميون ، فيما يبـــدو ، العناصر الأساسية لحضارتهم •

وقد تعرف الدارسون الغربيون على حكاية الطوفان الكبير البابلية التى عرفتها العصـــور القـــديمة ، حيث ان المؤرخ البابلى الأصـــل « بيروسوس » الذى كتب عن تاريخ بلاده فى النصف الأول من القرن الثالث قبل الميلاد كان قد دون هـــذه الحكاية • وقد كان « بيروسوس »

يكتب مؤلفاته باللغة اليونانية • على أن هــذه المؤلفات لم تصــلنا كاملة ، بل وصلتنا مقتطفات منها حفظها لنا المؤرخون الاغريق المتأخرون• ولحسن الحظ أن هــذه المقتطفات تحتوى على حكاية الطوفان البابلية التى تجرى على النحو التالى :

لقد حدث الطوفان فى عهد الملك « اكسيسوثروس » ، الملك العاشر الذى حكم بابل • وقد ظهر الاله « كرونوس » لهذا الملك فى رؤياه ، وحذره من أن طوفانا سيغمر الأرض ويهلك الناس جميعا ، وذلك فى اليوم الخامس عشر من شهر « دايسيوس » ، وهو الشهر الثامن من السنة المقــدونية • ولهذا حثه الاله على أن يكتب تاريخ العالم منــذ بداية الخلق ، وأن يدفن ما يكتبه فى « سيبار » ، بلد الشمس ، حتى يظل فى مأمن من الطوفان ، كما طلب منه أن يبنى فلكا يأوى اليه هو وأقرباؤه وأصحابه وأن يختزن فيه زادا من اللحم والشراب ، كمــا يأخذ معه فيه الكائنات الحية من الطيور وذوات الأربع • فاذا ما فرغ من اعداد كل شىء ، كان عليه أن يبحر بفلكه • عنــد ذاك سأل الملك « اكسيسوثروس » الاله قائلا : « ولكن الى أين أبحــر بالفلك ؟ » فأجابه الاله : « الى الآلهة ، ولكن بعد أن تصلى من أجل خير الناس »• فأطاع الملك أمر الاله ، وابتنى فلكا طوله مائة وألف ياردة ، وعرضه أربعمائة وأربعون ياردة • وبعد أن جمع كل ما يحتاج اليه ، اختزنه فى الفلك ، ثم جعل أولاده وأصدقاءه يركبون فيه• وبعد أن أغرق الطوفان الأرض ثم انحسر عنهــا فور ذلك ، أطلق « اكسيسوثروس » سراح بعض الطيــور • ولكن الطيور لم تجــد طعاما تأكله أو مكانا تستقر فوقه ، فعادت الى الفلك • وبعــد بضــعة أيام ، أطلق سراحها مرة أخرى ، فعادت هذه المرة الى الفلك وأرجلها ملوثة بالطين • فلما أطلقها للمرة الثالثة طارت بعيدا ولم تعــد الى الفلك • عند ذاك عرف الملك أن الماء قد انحسر عن الأرض ، فرفع من الفلك بعض ألواحه الخشبية ، ونظر من الفتحة فأبصر الشاطىء • عند ذاك سار بالفلك حتى استقر عند جبل ، فنزل منه هو وزوجته وابنته وقائد الدفة ، وسجد للأرض

وابتنى مذبحا • وبعد أن فرغ من تقـديم الضحية للآلهة ، اختفى هو ومن معه • فلما رأى الذين كانوا لا يزالون داخل الفلك أن الملك ومن كانوا فى رفقته لم يرجعوا اليهم ، نزلوا من الفلك كذلك وأخذوا يبحثون عنهم وينادون الملك باسمه ، ولكنه لم يكن ليرى فى أى مكان • غير أنهم سمعوا صوتا يدوى فى الهواء ويطلب منهم أن يخشوا الآلهة ، ويكفوا عن البحث عن الملك لأن الآلهة قد اختارته لكى يسـكن الى جوارها ، كما شاركته زوجته وابنته وقائد الدفة هذا الشرف • ثم أمرهم الصوت أن يعودوا الى بابل ويستخرجوا الكتابات التى كانوا قد دفنوها هناك ويوزعوها فيمـا بينهم • وكذلك أخبرهم الصـوت أن الأرض التى يقفون عليها هى أرمينيا • وبعد أن سمع ركاب الفلك كل هذا الحديث قدموا الضحية للآلهة ، ورجعـوا راجلين الى بابل • أما الفلك الذى استقر عند جبال أرمينيا فلا يزال جزء منه مطروحا على هـذه الجبال حتى اليوم ، وما زال بعض الناس يزيلون عنه القار ويستخدمونه فى تعاويذهم • أما ركاب الفلك فقد عادوا الى بابل واستخرجوا الكتابات المدفونة فى « سيبار » ، وشيدوا مدنا كثيرة ، وأعادوا بنـاء الأمكان المقدسة وعمروا بابل بنسلهم •

ووفقا لما رواه «نيقولاوس الدمشقى» الذى كان معاصرا وصديقا « لأغسطس » و « وبيرودس العظيم» ، أن هناك فى « منياس » التى تقع فى أرمينيا جبلا ضخما يسمى جبل « باريس »، وهو الجبل الذى أوى اليه كثير من الناس ، كما تذكر حكاية الطوفان البابلية ، هربا من الطوفان ، وبذلك نجوا بحياتهم • وقد قيل كذلك : ان رجلا بعينه كان يبحر فى الفلك حتى رسا عند قمة هـذا الجبل • وقد ظل حطام الفلك مطروحا على الجبل زمنا طويلا • وربما كان هذا الرجل هو ذلك الذى ذكره موسى واضع شريعة اليهود • على أن الشك يساورنا فيما اذا كان « نيقولاوس الدمشقى » قد استقى هـذه الأخبار من التراث البابلى أو العبرى ، ولكن ذكر نيقولاوس لموسى على كل حال يشـير الى أن نيقولاوس كان يعرف حكاية سفر التكوين التى ربما تعلمها فى يسر من رفيقه « هيرودس » •

وقد ظل الباحثون الأوربيون قرونا طويلة لا يعرفون رواية أخرى للحكاية البابلية عن الطوفان الكبير الا تلك التى احتفظت بها مقتطعات « بيروسوس » التى كتبت باللغة اليونانية • وقد ظلت الحكاية البابلية معروفة على هذا النحو لدى العلماء حتى العصر الحديث ، الى أن اكتشفت طويلة ، فقد حالف الحظ المستكشفين الانجليز ، الذين قاموا بعمليات طويلة فقد حالف الحظ المستكشفين الانجليز ، الذين قامـــوا بعمليات الحفائر فى « نينوى » ، تلك الحفائر التى كانت من المعالم الرائعة فى القرن التاسع عشر ، والتى بدأت عصرا جديدا لدراسةالتاريخ القديم ، فى استكشاف بقايا هائلة من مكتبة الملك العظيم «آشوربانيبال» ،الذى حـــــكم من عام ٦٦٨ ق • م • حتى عام ٦٢٦ ق • م • فى آخر عصر الامبراطورية الآشورية الزاهر •

وفى خلال تلك الفترة بسط « آشوربانيبال » نفوذه حتى شواطىء النيل ، وزين عاصمته بأبهى العمارات ، وجمع فيها من البلاد النائيـــة والقريبة مجموعة كبيرة من الكتب فىالتاريخ والعلم واللغة والدين لكى تستنير عقول شعبه • أما كتب الآداب التى استمدت جزءا من مادتها من أصول بابلية ، فقد دونت بنقوش الكتابة المسمارية على ألواح من الطين الطرى ، وكانت تحرق فى الافران بعد تدوين الكتـــابة عليها ثم تودع فى مكتبة العاصمة • ويبدو أن المكتبة كانت مرتبة فى طابق علوى من القصر الذى حطمه الحريق فى حوادث النهب الأخيرة التى تعرضت لها المدينة فى آخر أيامهـــا • وكان نتيجـــة هذا أن تهشمت الألواح • ولا يزال كثير منها مشدوخا قد لفحته حرارة الخرائب المحترقة • وفى العصور المتأخرة نهب جامعو الآثار القديمة الذين كانوا معـــاصرين لـــ « ووسترز ويفل » ، والذين كانوا يبحثون ، لا عن العلم المدفونة ، بل عن كنوز الذهب ، نهبوا ما تبقى من آثار ثمينة فى حطـــام المدينة ، كما نهبها عمالهم الذين اشتركوا معهم فى تحطيم الســـجلات الثمينـــة وتكسيرها • ثم هطلت الأمطار بعد ذلك فأكملت تحطيم هذه السجلات ، فقد كانت الأرض تمتص أمطار كل ربيع ، فتمتصها السجلات بدورها بما كانت تحتوى عليه من المـــواد الكيماوية التى كانت تتبلور فى شدوخ

الألواح وشقوقها • ومع تراكم هذه المواد المتبلورة تهشمت الألواح التى كانت محطمة من قبل وأصبحت قطعا متناثرة • ومع ذلك فقد استطاع « جورج سميث » الذى كان يعمل بالمتحف البريطانى ، استطاع بالعمل المضنى أن يجمع القطع المتناثرة الكثيرة بعضها الى بعض ، ويستعيد شكل ملحمة جلجامش التى ذاع صيتها حتى اليوم ، مكتوبة فى اثنى عشر نشيدا أو بالأحرى لوحا ، ومحتوية على حكاية الطوفان الكبير فى لوحها الحادى عشر • وقد أعلن مستر « سميث » هذا الاكتشاف الهائل فى اجتماع « جمعية الآثار الانجيلية » الذى عقد فى الثالث من ديسمبر عام ١٨٧٢ م •

لقد كان « سير هنرى رولينسون » بارعا فى فرضه أن الأناشيد الاثنى عشر فى ملحمة جلجامش تشير الى الاثنى عشرة علامة التى تميز الدائرة الفلكية ، بحيث أن مجرى الملحمة يسير وفق دورة الشمس فى أثناء شهور السنة • وتتأكد هذه النظرية الى حد ما بالمكان الذى يشار اليه فى أسطورة الطوفان فى النشيد الحادى عشر • وهذا النشيد مخصص للاله « رومان » اله العواصف ، واسمه يعنى فيما يقال « شهر المطر الملعون »(١) ، لأن الشهر الحادى عشر من السنة البابلية يتفق مع دورة موسم الأمطار • وكيفما كان هذا الرأى ، فان حكاية الطوفان على ما هى عليه : تعد حادثة فرعية أو استطرادا يفتقر الى الرابط العضوى بسائر أجزاء الملحمة • وتجرى هذه الحكاية على النحو التالى ••••

فقد جلجامش ، بطل الملحمة المسماة باسمه ، صديقه أنجيدو عندما توفى وحزن لفقده حتى أسلمه الحزن الى المرض • ثم قرر آسفا لما حدث لصديقه وشغوفا بمعرفة ما سيحدث له فى المستقبل ، أن يبحث عن جده « أوتنابشتيم » ابن « أوبارا ــ توتو » الذى يسكن فى مكان

---

(١) رمان : معناه فى اللغتين البابلية والآشورية اله الرعد ، والكلمة هى التى تقابلها فى العربية « رنان » وفى ديانات الساميين الغربيين ، الكنعانيين خاصة صار اسمه رمون أو بعل رمون . (وهذا المعنى يبدو واضحا فى تلخيص المؤلف لملحمة جلجامس هذه ، ص ٥٢) .

بعيد ، ليسأله كيف يمكن للانسان الفانى أن يكون خالدا ، اذ كان يعرف يقينا أن « أوتنابشتيم » على علم بهذا السر ، حيث أن الآلهة قد رفعته الى مصافها وجعلته يسكن بعيدا فى مكان ما متمتعا بنعمة الخلود • وكان على جلجامش أن يتجشم القيام برحلة مضنية خطيرة حتى يصل اليه ، فمر بالجبل الذى يحرسه رجل وامرأة ، فى شكل ثعبان ، كما اخترق طريقا مظلما مفزعا لم تطأه قدم انسان فان من قبل • ثم عبر بحرا مترامى الأطراف ، كما عبر بحر الموت عن طريق جسر ضيق • وفى النهاية وجد نفسه فى حضرة « أوتنابشتيم » • ولكنه عندما طرح عليه سؤاله عن كيفية حصول الانسان على الخلود ، كانت اجابة جدة الكبير عن سؤاله غير مرضية ، فلقد اخبره هذا الانسان الحكيم أن الانسان لم يقدر له الخلود • ولما تعجب جلجامش من هذه الاجابة التى صدرت عن شخص كان هو نفسه انسانا فانيا ثم أصبح خالدا فيما بعد ، كان من الطبيعى لجلجامش أن يطلب من جده الجليل أن يشرح له كيف استطاع هو نفسه أن يهرب من النهاية المحتمة لكل انسان • ولكى يجيب « أوتنا بشتيم » عن ذلك ، أخذ يقص على جلجامش قصة الطوفان الكبير التى تجرى على النحو التالى :

تحدث « أوتنابشتيم » الى جلجامش وقال : « سأكشف لك ياجاجامش عن كل كلمة خبيئة ، وسأفشى لك غرض الآلهة من وراء منحها اياى الخلود : فأنت تعرف مدينة « شورييك » ، تلك المدينة القديمة التى تقع على شاطىء الفرات • لقد حثت الآلهة التى كانت تسكن تلك المدينة ، كبار الآلهة على أن يرسلوا طوفانا الى الأرض • وقد كان مجمع الآلهة يضم « آنو » أبا الآلهة ، « وانليل » مستشارهم الحربى ، « ونينيب » رسولهم ، « وأنوجى » أميرهم ، كما كان يجلس معهم كذلك رب الحكمة « ايا» الذى ردد نداءهم الى كوخ البوص قائلا : « أيها الكوخ المصنوع من البوص ••أيها الكوخ المصنوع من البوص •• ويا أيها الحائط • يا أيها الحائط استمع الى واصغ الى أيها الحائط • ويا رجل «شورييك» ، ابن « أوبارا ــ توتو » • أهدم بيتك

وابتن سفينة ، واهجر ممتلكاتك ، واستمع لندائى انقاذا لحياتك •• فقد استقر رأى الآلهة على أن تنقــذ حياتك • فانج بنفســك وخذمعك فى الســفينة كل نوع من أنــواع الحبــوب • أما عن الســفينة التى ســتبتنيها ، فينبغى أن تبنى بدقــــة محـــكمة ، بحيث يــكون طولها وعرضها متناسقين ، لأنك ستبحر بها فى عرض المحيط • عند ذاك انتبهت الى الهى « ايا » وقلت له : ان الأمر يا الهــى الذى أمرتنى به سأحترمه وأنفذه ، ولكن ماذا أقول للناس ولشيوخ قومى؟ ففتح «ايا» فاه وتحدث الى أنا العبد وقال : « اذا سألك قومك عن هذا الأمر فقــل لهم : ان « انليل » يكرهنى ، ولذلك لن أبقى بينكم بعد اليــوم ، ولن أدع رأسى يستقر على أرض « انليــل » ، بل يتحتم على بعد اليوم أن أغوص فى قاع البحــر وأسكن هنــاك مــع الهى « ايا » • وأطــاع «أوتيابشتيم » أوامر الإله «ايا» وأخذ يجمع الأخشاب وكل ما يحتاج اليه لبناء السفينة • وفى اليوم الخامس صنع هيكل السفينة فى شكل سفينة بضائع وبنى فى وسطها مسكنا بلغ ارتفاعه مائة وعشرين ذراعا ، وقسمه الى ستة طوابق ، فى كل طابق تسع حجرات ، ثم ربط بالسفينة مصارف للمياه وطلاها من الخرج بالقطران ومن الداخل بالقار • ثم أمر باحضار الزيت وذبح الثيران والخراف وملأ الدنان بنبيذ السمسم وزيته ونبيذ العنب • ثم أخذ الناس يشربون النبيذ كما لو كانوا يشربون من نهر • وأقام وليمة شبيهة بوليمة العام الجديد • وبعد أن جهــز السفينة بكل شىء ، ملأها بكل ما لديه من ذهب وفضة ، وكل ما لديه من حبوب • ثم أدخل فيها أفراد أسرته وخدمه وكل ما معه من قطعان الماشية والوحوش وأصحاب الحرف • وأخذ «أوتنابشتيم» ينتظر الوقت المحدد الذى عينه اله الشمس « شمس » عندما قال لأوتنابشتيم : ان اله الظلام سيرسل الى الأرض مطرا غزيرا ، فاذا جاء هذا الوقت ، فأدخل سفينتك وأوصــد بابها » • وأخذ الوقت المحدد يقترب ، وفى المساء أرســل اله الظــلام المطر الغــزير • ولما هبت العاصــفة عرفت أن البــداية قد حانت ، ولكننى كنت خائفــا من أن أنظر الى العاصــفة • وعنــد ذاك دخلت الى السفينة وأوصدت بابها ، وسلمت القصر (العائم) بكل ما فيه الى

ربان لسفينة وبحارها « بوزور أمورى » • وعندما بزغ الفجر ظهرت فى الافق سحابة سوداء يدوى فى وسطها صـــوت الاله « رمان » وأمامه يسير الالهان « موجاتى » و « لوحال » • وكان الثلاثة يمرون كالملائكة فوق الجبال والأرض • ومزق « اراجال » ســـارية الســـفينة • ثم جاء « نينيب » وفجر العاصفة ، كمـــا حمل « أنوناكى » • شعلات النـــار الملتهبة ، فأضاء الأرض ببريقها • ثم صعدت زوبعـــة « رمان » الى السماء وتحولت الأضواء جميعا الى ظلام » • لقد ظلت العاصفة تهب نهارا كاملا ، وارتفعت المياه حتى وصلت الى قمم الجبال ، « ولم يعد الرجل يبصر أخاه ، ولم يعد الرجال يعرف بعضهم بعضا • وانتـــاب الفزع الآلهة وهى قابعة فى سمائها ، فتراجعت وصعدت الى الســـماء « آنو » ، وربضت كما تربض الكلاب ، وجثمت الى جانب الحيطان • وصرخت « عشتروت » صراخ المرأة التى جاءها المخاض ، وأخذت ملكة الآلهة تعول بصوتها الجميل وتقول : اللعنة على ذلك اليوم الذى أمرت فيه مجتمع الآلهة أن يحل الشر بالشر •• ولكننى حين أمرت بدمارهم ، أردت أن يتم هذا عن طريق القتال • فأين هذا الذى قد أمرت به ؟ انهم يملأون البحر كبيض السمك » • وبكى آلهة « أنوناكى » معها ، وخروا ساجدين وهم يبكون وقد التصقت شفاههم بعضها ببعض وأخذت الريح تهب ستة أيام وست ليال ، وأغرق الطوفان الأرض وشملتها العاصفة • وعند اقتراب اليوم السابع ، أخذت تهدأ العاصفة والزوبعة والطوفان ، بعد أن كانت تحارب جميعا محاربة الجيش لأعدائه • ثم سكن البحـــر وهبطت مياهه كما خمدت الزوبعة والفيضان تماما • ونظرت الى البحر ، فاذا هو ساكن واذا بالناس قد تحولوا الى كتـــل من الطين • وأبصرت المستنقعات أمامى وقد استقرت مكان الحقـــول • فلمـــا فتحت نافذة السفينة ، سقط النور على وجنتى ، فخررت ساجداً وبكيت حتى انساب الدموع على خدى ، ونظرت الى العـــالم فاذا كل شىء قد تحـــول الى بحر • وبعد مرور اثنى عشر يوما برزت جزيرة وسط المياه ، فأبحرت بالسفينة فى اتجاه أرض « نيسير » ، والتصقت السفينة بجبل «نيسير» ولم تتزلق • ومر اليوم الأول والثانى والسفنة ملتصقة بالجبل • ومر

اليوم الثالث والرابع والسفينة لا تزال ملتصقة بالجبل ، ثم مر اليـــوم الخامس والسادس وكان الجبل لا يزال ممسكا بالسفينة • وفى اليوم السابع أطلقت حمامة من السفينة • وأخذت الحمامة تطير هنا وهناك . ولما لم تجد مكانا تستقر عليه عادت الى السفينة • فأطلقت من بعدها طائر السنونو فطار هنا وهناك ولم يجد كذلك مكانا يستقر عليه وعاد الى السفينة • ثم أطلقت غرابا فى المرة الثالثة • وأبصر الغـــراب أن الميـــاه قد انحسرت عن الأرض ، فغاص فى الطين وأخذ ينبش بمنقـــاره ويأكل ، ونفق ولم يعد • عند ذاك أطلقت الطيور جميعا لتطير فى الجهات الأربع ، وقدمت الضحية للآلة على قمة الجبل وسكبت عليها الخمـــر •

وفى اليوم السابع أعددت أوعية الطهى وأشعلت تحتها الغـــاب وخشب السدر والرند • واشتمت الآلهة الرائحة الطيبـــة ، فاجتمعت حولها كالذباب واشتركت فى تقديم الضحية • واقتربت ملكة الآلهة ، ورفعت الجواهر العظيمة التى كان « آنو » قد صنعها لها وفقا لرغبتها ، وقالت :« أيتها الآلهة ، كما أننى لن أنسى حلى اللازورد التى ارتديها حول عنقى ، فاننى سوف أذكر هده الأيام بحق ولن أنســـاها أبدا • فدعوا الآلهة تحضر لتقدم الضحية ، ولكن « انليل » لن يشترك معها ، لأنه لم يشارك الآلهة الرأى فى أمر الطوفان وأرســـله الى الأرض فتسبب فى دمار شعبى » • فلما اقترب انليـــل من الآلهة وقال : « من ذا الذى نجا بحياته ؟ اننى لن أسمح لانسان أن يعيش بعد هذا الدمار » • عند ذاك فتح « نينيب » فمه وقال للمحـــارب « انليـــل » : ومن ذا الذى يمكنه أن يفعل هذا خلاف الاله « ايا » ؟ ان « ايا » هو الذى له علم بكل الأمور » • ففتح « أيا» فمه وقال للمحارب «انليل » : انك أيها المحارب رئيس الآلهة ، ولكنك لم تستشر الآلهة فى موضوع الطوفان . وأرسلته إلى الأرض من تلقاء نفســـك • وكان ينبغى أن يلقى الآثم جزاء اثمه والمذنب جزاء ذنبه • فلتعمل الآن ما يحول دون القضاء على الجنس لبشرى بأجمعه ، ولتكف عن احلال اللعنة بكل شىء • لقـــد كان فى وسعك أن ترسل الى الأرض أسدا بدلا من الطوفان فيلتهم الناس •

وكان من الممكن أن ترسل اليهم نمرا أرقط فيفترسهم جميعا. وكان من الممكن أن ترسل الى الأرض مجاعة فلا تتركها الا خرابا ، أو ترسل اليها اله الوباء فيقضى على الجنس البشرى • على اننى بعد كل هذا لم أكتشف بنفسى ما تنوى فعله ، بل جعلت « أتراكهاسيس » «أثرخاسيس» يرى رؤيا ، فاستمع فى رؤياه الى ما تنوى الآلهة فعله » • واستقر رأى « انليل » إثر هذا الحديث على قرار ، فصعد الى ظهر السفينة وأخذ بيدى ، وأحضرنى أنا وزوجتى وجعلها تركع الى جانبى ••

ثم اتجه البنا ووقف بيننا وباركنا (قائلا) : « ان أوتنابشتيم » كان يعد انسانا حتى هذه اللحظة ، أما الآن فقد أصبح « أوتنابشتيم » وزوجته شبيهين بالآلهة ، حتى بنا نحن • والآن دعوه يسكن هو وزوجته بعيدا عند منبع الأنهار » • وعند ذاك أخذت الآلهة بيدى وسارت بى بعيدا عند منبع الأنهار ، وتركتنى أعيش هنا فى هذا المكان » •

هذه هى قصة الطوفان التى تدخل فى نسيج ملحمة جلجامش • ولعله يتضح لكل دارس ، أن هذه القصة لم تكن لها فى الأصل صلة بالملحمة • وقد احتفظ لوح مكسور بجزء من رواية أخرى لهذه القصة. وقد عثر على هذا اللوح مع سائر ألواح ملحمة جلجامش بين أنقاض مكتبة « آشوربانيبال » فى « نينوى » • وهذا اللوح يحتوى على جزء من الحديث الذى قيل انه دار بين الاله « أيا » ونوح البابلى قبل أن يحدث الطوفان • ونوح البابلى هنا يدعى « أثرخاسيس » وهو اسم أطلق عليه فى الملحمة ، لأنه فى غير هذا المكان من الملحمة لا يسمى « أثر خاسيس » ، بل «أوتنابشتيم » • ويقال : ان «أثر خاسيس» هو الاسم البابلى الأصلى •

وقد ورد نص « بيروسوس » عن أسطورة الطوفان تحت اسم « اكسيسوثروس » • وقد أمر الاله « ايا » فى الرواية الثانية التى احتفظ بها كذلك لوح مكسور تلك التى أشرنا اليها وشيكا ، أمر

« أتراكهاسيس » قائلا : أدخل السفينة وأغلق بابها دونك ، وخذ معك غذاءك وبضاعتك وممتلكاتك (وزوجتك) وأسرتك وعمالك وقطيعك ووحوش حقلك ، بقدر ما تأخذ من صنوف الحيوان آكلة العشب » • وعند ذاك رد البطل على الاله بأنه لم يسبق له أن ابتنى سفينة ، وتوسل اليه أن يرسم له على الأرض خطة السفينة لكى يستعين بها عند بنائها •

وبناء على ذلك فان الروايات البابلية لأسطورة الطوفان ترجع فقط الى عصر « آشور بانيبال » أى أنها ترجع الى القرن السابع قبل الميلاد • ويمكننا أن نتصور أن هذه الروايات ترجع الى رواية أصلية أكثر قدما من الرواية العبرية ومنقولة عنها • وعلى كل فان الشواهد القاطعة للآثار القديمة الهائلة لأسطورة الطوفان البابلية تؤيدها الكتابات المدونة على لوح مهشم اكتشف فى مدينة « أبو حبة » التى تقع الآن مكان مدينة « سيبار » القديمة ، وذلك فى أثناء عمليات الحفر التى قامت بها الحكومة التركية • ويحتوى هذا اللوح على رواية مشوهة كل التشويه ، ومدون عليها تاريخ كتابتها على وجه التحديد • فهناك فى نهاية الخطوط كلمات أو حاشية تذكر أن اللوح قد كتب فى الثامن من شهر « شباطو » (وهو الشهر الحادى عشر من السنة البابلية) فى السنة الحادية عشرة من حكم الملك « عمى صادوقا » أى حوالى عام ١٩٦٦ ق • م • ولسوء الحظ أن هذا اللوح عبارة عن كسر كثيرة متفرقة لا يستطيع الباحث أن يستخلص منها سوى مادة ضئيلة • ولكن اسم « أثرخاسيس » يرد فى ثناياها ، بالاضافة الى اشارات الى المطر الغزير وكذلك الى السفينة فيما يبدو ، ودخول الأفراد الذين أنقذوا فيها •

بل هناك رواية أخرى لأسطورة الطوفان قديمة كل القدم ، اكتشفت فى « نيبور » فى أثناء عمليات الحفر التى قامت بها جامعة بنسيلفانيا • وهذه الرواية مدونة على كسرة من الفخار غير المحترق • وقد رأى الأستاذ هـ • و • « هيلبرخت » • مرتكزا على أسلوب كتابة

هذه الرواية ، وعلى المكان الذى عثر عليهـا فيـه ، أن هذه الرواية لم تدون بعد سنة ٢١٠٠ ق • م • وقد ورد فى هذه الرواية أن الاله ظهـر ليذيع نبأ حدوث طوفان سيكتسح الجنس البشرى فى الحـال ، وحذر من هذا الطوفان شخصا بعينه ، فطلب منه أن يبتنى سفينة كبيرة ذات سقف قوى لينجو فيها بحياته ، وأن يأخذ معه فيها صنوف الحيـوان الأليفة وطيور السماء •

هذه الروايات المختلفة عن قصة الطوفان قد دونت باللغة السامية، البابلية والأشورية • لكن هناك رواية أخرى مكتوبة باللغة السومرية • وهذه الرواية مكونة من مقتطعات متفـرقة عثر عليهـا علمـاء الآثار الأمريكيـون فى « نيبـور » ، وقد فكت رموزها أخيرا • ومعنى هـذا أن هذه الرواية قد دونت بلغة غير سامية كان يتكلم بهـا الشعب الذى يبدو أنه كان يعيش فى بابل قبل الساميين ، وأسس فى وادى الفـرات الأدنى ذاك النظام الحضـارى المرموق الذى نسميه عادة بالحضارة البابلية • وقد كانت مدينة « نيبور » التى عثر فيهـا على هذه الرواية أكبر مدينة مقدسة ، وربما أكبر مركز دينى فى بابل • كما كان « انليل » اله المدينة ، رئيس مجمع الآلهة « البانثيون » البـابلى • ويبـدو من طابع الكتابة التى كتبت بها الأسطورة المدونة على هذا اللوح أنهـا كتبت فيما يقرب من عصر الملك الشهير « حمورابى » ملك بابل ، أى أنها دونت فى حوالى سنة ٢١٠٠ ق • م • علـى أنه من المؤكد أن الحـكاية نفسها ترجع الى عصر أقدم من ذلك • ذلك أنه فى بداية الألف الثـالث قبل الميلاد ، وهو الوقت الذى كتب فيه هذا اللوح ، لم يكن هناك وجود للسومريين بوصفهم عنصرا مسـتقلا ، اذ كانوا قد ذابوا فى الشـعب السامى • كما أن لغتهم الأصلية كانت قد أصبحت من قبل لغـة ميتة ، وذلك على الرغم من أن الكهنـة والكتـاب السـاميين كانوا لا يزالون يدرسون الأدب القديم والنصوص المقدسة المحفوظة فى ثنايا الآداب ، ويعيدن كتابتها • من ثم فان اكتشاف رواية قصة الطوفان السـومرية يدعو الى افتراض أن الاسطورة نفسها يرجع تاريخها الى زمن سابق

على احتلال الساميين لوادى الفرات ، هؤلاء الســاميون الذين أخذوا هذه الأســطورة فيما يبدو ، بعد هجــرتهم الى وادى الفــرات ، عن السومريين الذين سكنوا بابل قبلهم • ومن الطريف أن نلاحظ أن الرواية السومرية لقصة لطوفان تكون تكملة لحــكاية عن خلق الانســان عثر عليها ، لسوء الحظ ، فى شكل مقتطعات متفرقة • ووفقا لهــذه الحكاية خلقت الآلهة الانسان قبل الحيوان • ومن ثم فان الحــكاية السومرية تتفق مع الحكاية العبرية فى سفر التكوين ، من حيث أن كلتيهما تعــالج موضوع خلق الانسان وحادثة الطوفان بوصفهما حادثتين حدثتا فى فجر تاريخ الحياة ، وترتبط احداهما بالأخرى كل الارتباط وأكثر من هذا فان القصة السومرية تتفق مع المصدر اليهودى • وتعارض المصدر الكهنوتى فى الوقت نفسه ، من ناحية أن الاله خلق الانسان أولا قبل خلقه صنوف الحيوان •

وعلى الرغم من أن الباحثين لم يعثروا الا على النصف السفلى من اللوح الذى نقشت عليه قصة الخلق السومرية ، فان هذا القــدر يكفى مع ذلك لأن يمدنا بالخطوط الأساسية لقصة الطوفان • ففى هذا الجزء نقرأ أن « زيو جيدو » أو بالأحــرى « زيود ســودو » كان ذات يوم ملكا كاهنا للاله « انكى » ، وهو الاله الســومرى الذى يوازى الاله « ايا « السامى • وقد كان هذا الملك الكاهن ينشغل كل يوم بخــدمة الاله ، ويكب على خدمته فى خشوع ، ويطيل النظر الى المكان المقدس • ولكى يكافئه الاله « انكى » على ورعه ، فقد أخبره بأنه قد تقرر فى مجمع الآلهة ، بناء على طلب الاله « انليــل » ، أن ترســل الآلهة الى الأرض عاصفة ممطرة تقضى على أصــل الجنس البشرى • وقبــل أن يتلقى الكاهن هذا التحــذير فى حينه ، طلب منه صديقه الاله أن يقف بجانب حائط وقال له : « قف عند الحائط الذى يقع على جانبى الأيسر وعند هذا الحائط سأسر اليك بكلماتى » • ومن الواضح أن هذه الكلمات تتصل بالعبارة الغريبة فى الرواية السامية ، وهى تلك العبارة التى بدأ بها الاله « ايا » تحذيره الى « أوتنابشتيم » وقال له : « أيهــا الكوخ

المصنوع من البوص ، أيها الكوخ المصـــنوع من البـــوص ، ويا أيهـا الحائط • استمع الى أيها الكوخ وأنصت الى أيها الحائط » •

وكلتا العبارتين تشير الى أن الاله الطيب الذى لم يشـــأ أن يفشى قرار الآلهة للانســـان الفانى بطريق مباشر اصطنع حيلة افشـــاء السر الى حائط البوص الذى كان على « زيود سودو » أن يقف بادىء الأمر عند جانبه الآخر • وبذلك علم الانسان الطيب بالسر الخطير عن طـريق استراق السمع . فى حين استطاع الاله أن يدعى فيما بعد أنه لم يفش القرار الذى اتخذته الآلهة فى مجتمعها • وتذكرنا هذه الحيلة بالحكاية المشهورة التى تحكى أن خادم الملك « ميداش » اكتشف أن لسيده أذنين كأذنى الحمار • ولما لم يستطع أن يكتم هذا السر فى نفسه ، فقد أسر به الى جحر فى الأرض ، ثم غطى الجحر بالتراب • وفى الحـــال نمـا حوض من نبات البـــوص فوق الجحـــر ثم هبت الرياح فأذاع حفيف البوص عيب الملك على الملأ • وقد فقد شطـــر اللـــوح الذى كان من المحتمل أنه يصف بناء السفينة ولجوء « زيوو سودو » اليها • ومن ثم فنحن ننتقل فجأة من موضوع تحذير الاله للانســـان الى موضـــوع الطوفان ويصف المخطوط العاصفة والأمطار وقد ثارت جميعا • ثم تستمر الرواية بعد ذلك فتقول : « وبعد أن هبت العاصفة الممطرة على الأرض سبعة أيام وسبع ليال ، وبعد أن حمل الريح العاصف السفينة على المياه المضطربة ، ظهر اله الشمس وهو يسكب الضوء على السماء والأرض » • وعندما اخترقت أشعة الشمس وقدم ثورا وشاة ضحيـــة له • ثم يلى ذلك فجوة فى المخطوط ، وبعـــدها نقـــرأ أن الملك « زيود سدو » خـــر ســـاجدا للالهين « آنو » و « انليل » • ويبدو أن غضب الاله انليل من الجنس البشرى قد هدأ بعد ذلك ، لأنه يقول موجها حديثه الى « زيودسودو » « لقد منحته حياة كحيـــاة الآلهة ، وخلقت له روحا خالدا كروح الآلهة • وهذا يعنى أن بطل أسطورة الطوفان ، أى نوحا السومرى قد وهب الخلود ، ان لم يكن قد اكتسب هبة الألوهية • ثم خلعت عليه الآلهة بعد ذلك لقب « الشخص الذى حافظ علـــى ســـلالة

الجنس البشرى » ، كما جعلته يسكن جبلا يبدو أنه جبل « ديلمـون » ذلك ان اسم الجبل غير واضح على وجه التأكيد • أما نهاية الأسطورة فمفقودة •

وهكذا نرى أن قصـة الطوفان السـومرية تتفق فى ملامحهـا الأساسية مع قصة الطوفان التى تحتوى عليها ملحمة جلجامش ، تلك القصة التى تتميز عن أختها السومرية بطولها البالغ وكثرة حوادثها • ففى كلتا القصتين قرر اله كبير (« انليل » أو « بل ») أن يهلك الجنس البشرى عن طريق اغراق الأرض بالأمطار • وفى كلتيهما حذر اله آخر (هو « انكى » أو « ايا ») رجلا من حدوث الكارثة ، وقد أنقذ هذا الرجل الذى قبل النصح بأن لجأ الى السفينة التى أمره الاله ببنائها • وفى كلتا الحكايتينبلغ الفيضان ذروته فى اليوم السابع • وفى كلتيهمـا قدم الانسان ضحية للآلهة بعد أن انتهى الطوفان • ثم رفعتـه الآلهـة بعد ذلك الى مصافها •

أما الاختلاف الجوهرى الوحيد بين الروايتين فيتمثل فى اسـم البطل فيهما • فهو فى الرواية السومرية يدعى « زيود سودو » • وفى الرواية السامية يدعى « أوتنابشتيم » أو « أثر خاسيس » • والاسم السومرى « زيود سودو » يشبه اسم « اكسسوثروس » وهم الاسم الذى أطلقه « بيروسوس » على البطل الذى أنقذ فى حادثة الطوفان • فاذا كان الاسمان متشابهين حقـا ، فان هذا يجعلنـا نعجب لاخلاص المؤرخين البلبليين فى اقتناء أقدم الآثار المدونة •

ان اكتشاف هذا اللوح ذى الأهمية البالغة بما يحتوى عليـه من قصتين مترابطتين هما قصة الطوفان وقصة الخلق ، يجعل الاحتمـال كبيرا فى أن القصص الذى يحتوى عليه سفر التكوين عن فجـر تاريخ الحياة ، لم ينشأ أصلا عند الساميين ، بل استمدة الساميون من الذين سبقوهم فى الحضارة ، هؤلاء الذين وجدتهم الجماعات السامية النازحة من الجزيرة العربية مستحوذينعلى أرضالفرات الأدنى الغنية والذين

تعلمت منهم ــ سلالة هؤلاء البدو البدائيين ــ تدريجيا طرز الحضارة وتقاليدها على النحو الذى اكتسب به برابرة الشمال مظاهر الحضارة بعدما استقروا فى الامبراطورية الرومانية .

٣ ــ قصة الطوفان الكبير العبرية .

يجمع نقاد العهد القديم على أن أسطورة الطوفان العبرية كما هى مدونة فى سفر التكوين تجمع بين قصتين متميزتين فى أصلهما ومتناقضتين تناقضا جزئيا . وقد مزج المؤلف بين القصتين لكى يكون منهما قصة واحدة متجانسة من ناحية الشكل . ومع ذلك فقد مزج المؤلف بينها بطريقة فجة للغاية ، بحيث لا يفوت القارىء ما فيهما من تكرار وتناقض ، حتى وان كان القارىء غير مدقق فى قراءته ..

واحدى روايتى الأسطورة اللتين جمع بينهما المؤلف بطريقة مصطنعة هى مستقاة مما يطلق عليه نقاد العهد القديم المصدر الكهنوتى Priestly Document أو القانون ، (ويشار اليه عادة بالحرف P ... أما الرواية الثانية فمستقاة مما يطلقون عليه المصدر اليهودى Iclovistic Document (ويشار اليه فى العادة بالحرف J) نسبة للاسم المقدس «يهوه» .وكلا المصدرين يختلف عن الآخر اختلافا بينا فى أسلوبه وطبيعته كما أنهما ينتميان الى عصور مختلفة ،فبينما يعد المصدر اليهودى هو الأقدم ، كما يرجح ذلك النقاد ، فان المصدر الكهنوتى يؤخذ على أنه أحدث المصادر الأربعة الرئيسية التى جمع بينها لتكون أسفار العهد القديم الستة الأولى . ويعتقد الباحثون أن المصدر اليهودى قد كتب فى أرض الميعاد فى العصور الأولى من الحكم العبرى : أى أنه كتب فى القرن الثامن أو التاسع على وجه لاحتمال .

أما المصدر الكهنوتى ، فيرجع تاريخه الى ما بعد عام ٥٨٦ق.م عندما استولى « يختصر » ملك بابل على أورشليم وأخذ اليهود أسرى معه الى بابل . فكلا المصدرين تاريخى فى شكله ، ولكن بينما نجد

مؤلف المصدر اليهودى يهتم اهتماما حقيقيا بشخصية الرجال والنساء الذين يصفهم ، كما يهتم بمغامراتهم ، فان كاتب المصدر الكهنوتى يهتم بهم فى حدود استخدامهم وسيلة لخدمة فكرة « العناية الالهية » التى يقصد بها تزويد بنى اسرائيل بمعرفة الهية ، وبنظم اجتماعية ودينية ، شاء بها الرب أن ينظم شعبه المختار حياته عن طريقها • فالتاريخ الذى كتبه مؤلف هذا المصدر تاريخ مقدس وكهنوتى أكثر منه دنيوى ومونى ، ذلك أنه يهتم بإسرائيل بوصفها أمة دينية لا بوصفها دولة • ومن ثم فانه بينما يسهب الى حد كبير فى وصف حياة شيوخ بنى اسرائيل وأنبيائهم الذين اختارهم الرب ليظهر لهم ، نجده يمر مر الكرام على أجيال كاملة من البشر العاديين الذين لا يذكر أسماءهم الا عابرا ، كما كانوا مجرد حلقات تربط عصرا دينيا بعصر دينى آخر ، أو مجرد خيط تنظم فيه على مسافات متباعدة ، جواهر الوحى الرائعة • وموقفه من الماضى تفسره كل التفسير أحداث العصر الذى كان يعيش فيه ، فقد كان عصر بنى اسرائيل الذهبى قد ولى كما انتهى عصر استقلالها وانتهت مع ذلك آمالها فى البهاء والرخاء الدنيوى • أما أحلام الامبراطور المزدهرة ، تلك التى علقت بقلوب الناس بتأثير ذكرى حكمى داود وسليمان ، التى ربما عاشت مع الناس فترة من الزمن حتى بعد اضمحلال حكم الملوك كأنها سحب الصباح ، فسرعان ما تلاشت مع سحب المساء فى حياة أمة ، بتأثير واقع الحكم الأجنبى الكئيب • ولما كانت كل الطرق التى تؤدى الى الطموح الدنيوى الخالص قد سدت دون الشعب الاسرائيلى ، فقد وجدت مثالية المزاج الوطنى التى لا تخمد متنفسا لها فى اتجاه آخر ، كما اتخذت أحلامها شكلا آخر • فإذا كانت أبواب الأرض قد أغلقت دون آمال هذا الشعب ، فان أبواب السماء كانت لا تزال مفتوحة • ومن ثم فقد نصب الاسرائيلى الحالم سلما وراء السحب لكى يهبط عليه حشد من الملائكة يرعون روحه الهائم ويواسونه ، على نحو ما فعل يعقوب عند « بيت ايل » ، والأعداء من قدامه ومن ورائه • باختصار فإن قادة بنى اسرائيل كانوا يبحثون عن سلوى وتعويض لأمنهم فى مقابل المذلة التى كانت تعانيها فى حياتها

الدنيوية ، وذلك عن طريق رفعها الى درجة عالية من الروحانية • ولكى يحقق القادة هذا الغرض فانهم وضعوا ، أو بالأحرى ــ أحكموا وضع نظام من الطقوس الدينية يستهدف احتكار الرحمة الالهية الاستئثارية بها ، وبذلك تصبح « صهيون »[1] المدينة المقدســة ــ مركزا لملكة الرب فى الأرض وموئل بهجتها •

وبهذا الطموح وتلك الأهداف أخذ نفــوذ رجال الدين يتزايد فى الحياة اليومية كما أصبحت اهتمامات الحياة تتجه نحو بيوت العبادة . وأصبح تأثيرها السائد روحانيا ، فقــد حل الكاهن الأكبر محل الملك ، بل ان هذا الكاهن كان يرث من ســالفه الأردية الأرجوانية والتــاج الذهبى • وأصبحت الثورة ، التى استبدلت بعدد من الحــكام المدنيين فى أورشليم عدد من الأحبار ، شبيهة بثورة روما فى العصور الوسطى التى حولتها من نظام القياصرة الى نظام حكم البابوات •

هذه الحركة الفكرية ، وهذا التيار من الطمــوح الدينى ، اللذان اتجها بعنف وجهة كهنوتية ، انعكسا ، أو بالأحرى تبلورا ، فى المصدر الكهنوتى ، فقد انعكست الأبعاد الأخلاقية والفكرية لهذه الحركة فيما ماثل هذا من أبعاد أخلاقيــة وفكرية لدى الكاتب • فهــو لم يهتــم الا بالجانب الشكلى للدين • وهو لا يستشعر المتعة الحقيقية،الا عندما يتعرض لتفاصيل الطقوس والاحتفــالات وتفصــيل الأثاث والملابس الدينية • أما الجانب العميق من الدين ، فهو بالنسبة اليه كتاب مغلق ، اذ قلما ينظر الى الجوانب الأخلاقية والروحية لهــذا الدين ،كمــا أنه لا يسبر على الاطلاق أغوار مشــكلات الخــلود وأصــل الشر • تلك المشكلات التى أثارت النفوس المتسائلة عنها فى جميع القصور • فقــد كان الكهنوتى ــ باستغراقه فى تفاصيل الطقوس التافهة ، وعدم اكتراثه بالشئون الدنيوية الخالصة ، وولعه بالتقويم والأنســاب والتــواريخ والأرقام ، أو اهتمامه على الجملة بالهيكل العظمى للتــاريخ أكثر من

---

(١) بيت المقدس . (المترجمة

اهتمامه بدم هذا التاريخ ولحمه ـ كان أشبه بأحد الرهبان المؤرخين فى العصور الوسطى ، الذين كانوا ينظرون الى الحياة العريضة من خلال كوة صومعة الدير ، أو من خلال زجاج نافذة الكاتدرائية ذى الألوان المتعددة • ولقو ضاق أفق تفكير المؤرخ الكهنوتى ، كما تلونت نظـرته للأحداث وفقا للوسيلة التى كان ينظر من خلالها اليها • فقد صور مباهج المعيد المتنقلة فى القفار ، تلك المباهج التى كانت تغيب عن كل العيـون سوى عينه هو ، صورها كما لو كانت تلوح لخيـاله الدافىء من خلال الأضواء الأرجوانية التى يعكسها شباك ذو زجاج وردى ، أو من خلال الألواح الزجاجية الرائعة لمشربية تتماوج منها الأضـواء • بل انه لم يكن يرى العمليات الطبيعية البطيئة أو الكوارث المفاجئـة ، تلك التى شكلت مادة الكون أو غيرتها ، لم يكن يرى فيها أكثر من كونها امارات ومعجزات من الرب يعلن بها عن ظهور حقب جديدة من حياة الشرائع الدينية • وكذلك لم تكن عملية الخلق بالنسبة اليه سوى تمهيد كبير ليوم الراحة والعبادة عند اليهود وهو يوم لسبت ، كمـا أن قبو السـماء المتلالىء بالأضواء الساطعة لم يكن سوى طبق مستدير رائع مقسم الى درجات ، تتحرك عليه أصابع الرب الى الأبد لتشير الى مواسم الأعياد الصحيحة المثبتة فى التقويم الدينى • وأما الطوفان الذى قضى عـلى الجنس البشرى كله على وجه التقريب ، فلم يكن سوى مناسبة خلقهـا الرب القادم ليقيم عهدا بينه وبين الأحياء البؤسـاء الذين نجـو من الطوفان • كما لم يكن قوس قزح الذى يستطيع باشعاعاته المتلونة بين السحب المعتمة سوى الخاتم الالهى المذيل لهذا العهـد ضمانا لأصالته وصفته الملزمة •

ولأن المؤرخ الكهنوتى كان محاميا بقدر ما كان كاهنا ، فقـد بذل جهدا مضنيا لاثبات أن علاقات المحبة بين الرب وشـعبه ترتكز علـى أسس شرعية صارمة ، حيث انها قد وثقت بمجموعة من العهـود التى قبلها الطرفان بكل ما تتطلبـه من التزامات • وهو لا يكون فى أحسـن حالاته الا عندما يعرض لهذه العهود ، وهو كذلك لا يكل على الاطلاق

من ذكر مجموعات صكوك التمليك الاسرائيلية الطويلة • ولا يجد هذا الرجل الاثرى الجاف ، والطقوسى الجامد مجالا يسترضى فيه استرخاء معقول من صرامته المألوفة ، ولا يجد مجالا يسلك فيه مسلكا خاليا من التوتر والتحفظ ، الا عندما يسهب فى موضوعات العهود ووثائق التمليك الملائمة لمزاجه • ومن المسلم به أن تحفة قصصه التاريخى هى حكاية مفاوضة ابراهيم الأرمل مع أبناء الحيثيين لكى يحصل على قبو عائلى يدفن فيه زوجته • ولم تخفف الطبيعة المحزنة لهذا العمل من حيـوية القاص الحرفية ، كما أن الصورة التى صور فيها هذه القصة تجمع بين لمسات لا تنقصه البراعة ، والدقة البالغة لكاتب حجج متمرن • ولايزال المنظر الكلى لتلك الحقبة البعيدة من الزمن يمر بحذافيره أمام أعيننا ، وكما يمكن أن تشاهد اليوم فى الشرق عندما يتطاحن شيخان عربيان من أصل طيب فى براعة حول عمل من الأعمال ، وهما يراعيـان مراعاة دقيقة الشكليات الرسمية ، وآداب الدبلوماسية الشرقية •

ولكن مثل هذه الصور نادرة بحق فى معرض صور هذا الفنـان ، فهو قلما يحاول وصف المناظر الطبيعية ، كما أن صور أشـخاصه غير متقنة وتنقصها مشخصاتها الفردية والحياة والألوان • وفيما يتصـل بتصويره لموسى الذى خصه بأكبر قدر من عناية ، فان صورة هذا القائد الكبير لا تفوق صورة التمثال الأصم الا فى قليل ، كمـا أن وظيفتـه تقتصر على توزيع اللباس وغطاء الرأس الكهنوتيين •

على أن الصـور التى وصلتنا من زمن حكم الشـيوخ عن طريق مؤلف المصدر اليهودى تختلف عن تلك التى وصلتنا عن مؤلف المصـدر الكهنوتى كل الاختلاف ، فليس هناك ما يبزها فى الأدب ، أو يقف معها على قدم المساواة ، فى صفاء شكلها واشراق لمسـاتها ورقتهـا ودفء ألوانها • وان أقل لمسات من ريشة فنانها ، لتحدث أجمل تأثير • ذلك أن كل لمسة منها انما تصدر عن أستاذ فى فنه يعـرف بالغريزة علـى وجه التحـديد ما يدعه وما يبقيه ، فبينمـا يبدو لنا أنه يركز كل التركيز فى مقدم الصورة حول الشخوص الانسانية التى تبرز من الصـورة وهى

تنبض بالصدق : اذا به فى الوقت نفسه يحتال على الأمر ليبرز الطبيعة من خلف هذه الشخوص بقليل من الرشاقة الفنية ولمسات تكاد لاتحس، وذلك لكى ينجز صورة منسجمة تعلق بذاكرتنا الى الأبد • فمنظر يعقوب وراحيل عند البئر ، على سبيل المثال ، وقد استلقى حول البئر قطيع الخراف فى حرارة الظهيرة القائظة ، هو منظر ينبض بالحياة من خلال ألفاظ الكاتب كما تنبض صورة رفائيل من خلال ألوانه •

والى جانب اختبار الكاتب بعناية لما يستحق التصوير من صور الحياة الانسانية ، يضفى على أوصافه للرب براءة جذابة وطابع البساطة القديمة • ذلك أنه يحملنا الى الزمن القديم الذى لم يكن يعتقد فيه الانسان بأن هناك هوة شاسعة تفصله عن الرب • ففى صفحاته تقرأ كيف أن الرب شكل الانسان الأول من الطين كما يشكل صبى صورة لطفل من قطعة الطين ، وكيف أنه مشى الى الجنة فى المساء الرطب ، وصاح بالأبوين اللذين كانا قد ملأهما الخزى من فعلتيهما ، واختفيا وراء الأشجار ، وكيف صنع لهما ملابس من الجلد لكى يخفيا بها عورتها بدلا من أوراق التين الهزيلة ، وكيف أنه أغلق باب السفينة بعد أن دخلها نوح ، وكيف أنه اشتم رائحة الضحية المشوية ، وكيف أنه هبط من السماء لينظر الىبرج بابل ، لأنه ، فيما يبدو ، لم يكن يتمكن من رؤيته من على • وكيف أنه تحدث الى ابراهيم عند باب خيمته فى الحر القائظ وفى ظل شجرة السندباد الهامسة ، وباختصار فان عمل هذا الكاتب الممتع كله يفيض بنفحات شاعرية تمتزج بشىء من عبير الزمن القديم ونضرته ، مما أكسب عليه سحرا خالدا يفوق كل وصف •

وتتميز العناصر التفصيلية التى تتألف منها قصة الطوفان فى سفر التكوين ، والتى أسهم فى كتابتها كلا الكاتبين : اليهوى والكنهوتى — يتميز بعضها عن بعض من حيث اللفظ والمادة • فاذا بدأنا بوجوه الاختلاف الشكلية فان أول ما يلفت النظر هو اختلاف اسم الرب فى كلا المصدرين ، فهو فى المصدر اليهوى « يهوه » وهو فى المصدر الكهنوتى

« الوهيم » ، وكلا الاسمين نقلتها « الترجمة الانجليزية المعتمدة » على التوالى الى كلمتى « السيد » و « الرب » • والمترجمـون الانجلـيز فى استبدالهم كلمة « سيد » بكلمة « يهوه » ، انما يفعلون فعـل اليهـود الذين يستبدلون ــ عندما يقرءون كتابهم المقدس بصوت عال ــ بكلمة « يهوه » كلمة « أدوناى » أو « السيد » ، أينما صادفهم اسم «يهوه» مكتوبا فى النص • ومن ثم يمكن للقارىء الانجليزى أن يدعى ، كقاعدة عامة ، أنه ما دامت كلمة « السيد » يقصـد بهـا الرب فى « الرواية الانجليزية » ، فان الكلمة البديلة لهـا فى النص العبرى المطبـوع هى « يهوه » • أما الكاتب الكهنـوتى فانه يتجنب فى قصة الطـوفان وفى خلال سفر التكوين استخدام اسم « يهوه » ويستبدل به اسم«الوهيم»، وهو الاسم المألوف للرب عند العبريين • والسبب الذى دفع الـكاتب الكهنوتى الى هذا هو أن اسم « يهوه » وفقا لرأيه ، هو الاسم الذى أوحى به الرب لموسى لأول مرة • ومعنى هذا أن الرب لم يكن يسمى فى العصور الأولى السابقة على عهد موسى • أما الكاتب اليهودى فلا يتبنى من ناحية أخرى مثل هذا الرأى فيما يتصـل بكون الرب قد أوحى الى موسى باسم « يهوه » ، ومن ثم فهو يسـمى الرب بهـذا الاسم فى رواياته ، منذ بدء الخليقة دون أن يساوره شك فى هذا الاسم • والى جانب هذا الاختلاف اللفظى الجوهرى بين المصدرين ، هناك اختلافات لفظية أخرى لا تبدو واضحة فى « الترجمة الانجليزية المعتمـدة » • فهناك مجموعة من الألفاظ تستخدم فى المصدر اليهوى للدلالة على الذكر والأنثى(١) ، ومجموعة أخرى تخالفها تماما تستخدم فى المصدر الكهنوتى فى نفس الدلالة • كما أن الكلمات التى تنقلها « الترجمـة الانجليزية

---

(١) فى المصدر اليهوى يكثر قوله « الشخص وزوجه » (مثلا : التكوين ٢/٧) وفى المصدر الكهنوتى يقول فى مكان ذلك « الذكر والانثى » (مثلا : التكوين ١٩/٦ ، ٩/٧ ، ١٦) .

المعتمدة » الى كلمة « يخرب » (١) مختلفة فى كلا المصدرين ، وبالمثل الألفاظ التى تنقلها الترجمة الانجليزية الى «يموت » (٢) و « جف »••

على أن الاختلافات المادية بين الحكايات اليهوية والكهنوتية لا تزال تلفت النظر الى أكثر من ذلك • وحيث ان هذه الاختلافات تصل فى بعض الحالات الى حد التناقض القاطع ، فان اثبات أن هذه الحكايات مستمدة من مصدرين منفصلين يصل الى حد اليقين•فالحكاية اليهوية عن الطوفان تميز بين الحيوانات الطاهرة والحيوانات النجسة ، وبينما أخذ نوح معه فى الفلك سبعا من كل صنف من صنوف الحيوان الطاهر ، لم يأخذ معه سوى زوج من صنف الحيوان النجس • أما الكاتب الكهنوتى فلم يميز ، من الجهة الأخرى بين صنوف الحيوان على هذا النحو ، بل جعلها تدخل الفلك وهى على قدم المساواة مع بعضها البعض • وان كان قصر عددها بدون تحيز على زوج من كل صنف • والسبب فى هذا الاختلاف البين ، هو أن الكاتب الكهنوتى لم يفرق بين ما هو طاهر من الحيوان وما هو نجس ، على أساس أن هذه التفرقة قد أوحى بها الرب لموسى لأول مرة ، ومن ثم فان نوحا لم يكن يعرفها • أما الكاتب الذى لم يتعب نفسه بالتفكير فى هذا الموضوع ، فقد ادعى أن التفرقة بين صنوف الحيوان على أساس الطهارة والنجاسة كانت معروفة لدى الجنس البشرى منذ العصور الأولى ، كما لو كانت هذه التفرقة ترتكز عى أساس طبيعى واضح كل الوضوح بحيث لا يخطئها أحد •

ثم ان هناك اختلافا جوهريا آخر بين الكاتبين يتعلق بدوام مدة

---

(١) فى المصدر اليهوى « محا » (التكوين ٦/٧ ، ٤/٧ ، ٢٣) وفى المصدر الكهنوتى « دمر » (التكوين ٦/١٣ ، ١٧ ، ٩/١١ ، ١٥) .

(٢) الفعل مات يترجمه العرب عن العبرية بهذا اللفظ وهو من المصدر اليهوى . اما ما يقوله فريزر أن معناه جف فهو من المصدر الكهنوتى ، ويترجمه عادة بالفعل « هلك » .

الفيضان ، فقد ظلت الأمطار تهطل فى قصة الكاتب اليهوى مدة أربعين يوما وأربعين ليلة ، ثم ظل نوح فى فلكه بعد ذلك مدة ثلاثة أسابيع قبل أن ينحسر الماء بمقدار يمكنه من الرسو بسفينته • ووفقا لهذا الحساب فان الفيضان يكون قد دام واحدا وستين يوما • أما فى الحكاية الكهنوتية ، فقد أخذ الطوفان يهطل مدة مائة وخمسين يوما ، وبعدها أخذت المياه فى الانخفاض • أما مدة الطوفان فى العموم فقد استغرقت اثنى عشر شهرا وعشرة أيام • وحيث أن الشهور العبرية كانت شهورا قمرية فان الاثنى عشر شهرا تقدر بثلاثمائة وأربعة وخمسين يوما • واذا أضفنا الى هذا الرقم عشرة أيام أخرى فان المدة تكون حينئذ سنة شمسية كاملة ، أى ثلاثمائة وأربعة وستين يوما • وحيث أن الكاتب قد حسب مدة الفيضان بما يساوى سنة شمسية ، فانه يمكننا أن ندعى ونحن مطمئنون ، أن هذا الكاتب قد عاش فى الزمن الذى استطاع فيه اليهود أن يصححوا الخطأ فى التقويم القمرى عن طريق مراقبتهم للشمس •

ومرة أخرى يختلف الكاتبان فى مصدر الفيضان ، فبينما يعزوه الكاتب اليهوى الى الأمطار ، يعزوه الكاتب الكهنوتى الى تدفق المياه الباطنية الى جانب سقوط الأمطار الغزيرة •

وأخيرا فان الكاتب اليهوى يحكى عن بناء نوح للهيكل وتقديمه الضحية للرب شكرا له على انقاذه من الطوفان ، فى حين أن الكاتب الكهنوتى لا يذكر شيئا عن بناء الهيكل أو تقديم الضحية • وسبب هذا بدون شك هو انه لم يكن هناك هيكل سوى هيكل أورشليم من وجهة نظر القانون اللاوى الذى انشغل به الكاتب الكهنوتى • كما أن تقديم الضحية من قبل رجل عادى مثل نوح يعد عملا غير لائق لم يحدث من قبل ، كما يعد تعديا كبيرا على حقوق رجال الدين لم يفكر الكاتب الكهنوتى لحظة فى أن ينسبه الى الشيخ المبجل •

وبناء على ذلك فان الموازنة بين الحكايات اليهوية والكهنوتية تؤكد

بصورة واضحة النتيجة التى توصل اليها النقـــاد وهى أنهمـــا كانا فى الأصل مستقلين، وأن الحكايات اليهودية تعد أقدم بحق من الحـــكايات الكهنوتية • على أنه من الواضح أن الكاتب اليهودى كان يجهل قانون المكان المقدس الواحد الذى يحـــرم تقـــديم الضحيـــة فى أى مكان غير أورشليم • ولما كان هذا القانون قد أعلنه الملك « يوشـــيا » لأول مرة ، ونفذه عام ٦٢١ ق•م• فانه يترتب على هذا أن المصدر اليهوى قد ألف قبل هذا التاريخ بزمن يحتمل أن يكون طويلا • وهذا السبب نفسه يؤكد أن المصدر الكهنوتى قد ألف بعد هذا التاريخ بزمن ليس بالقصير فيما يبدو ، حيث أن الكاتب يعترف ضمنا بقانون المكان المقـــدس الواحد ؛ حينما رفض أن ينسب الى نوح عملا يخالفه • ويترتب على هذا أنه بينما يكشف الكاتب اليهوى عن لون بعينه من البساطة القديمة ، حيث أرجع بكل بساطة النظم الدينية فى عصره وطبيعـــة هذا العصر الى عصـــور الحياة الأولى ، فان الكاتب الكهنوتى يكشف عن انعكاسات عصرمتأخر تحددت فيه نظرية فى التطور الدينى طبقهـــا الكاتب الكهنوتى علـــى التاريخ تطبيقا دقيقا •

وربما كانت المقارنة الســـطحية بين حـــكايتى الطـــوفان العبرية والبابلية كافية لأن تؤكد لنـــا أن كلتا الحـــكايتين لم تنشـــأ فى أصـــل مستقلتين ، بل من المؤكد أن احداهما اعتمدت على الأخرى ، أو أنهما استمدا معا من أصل واحد • وتتعدد وجوه الاتفاق بين الحكايتين حتى تشمل التفصيلات الجزئية ، بحيث لا يمكننا أن نرجع هذا الى محض الصدفة • ففى كلتا الحكابتين قررت القـــوى الالهيـــة أن تقضى على الجنس البشرى بأن ترسل الى الأرض طوفانا عظيما • وفى كلتيهمـــا أفشى الاله هذا السر الى رجل قبل اغراق الأرض بالطوفان • وقد أرشد الاله هذا الرجل الى بناء فلك كبير لكى يأوى اليه فينقذ نفسه وينقـــذ معه صنوف الكائنات الحية جميعا • ومن المحتمل أنه ليس من قبيـــل الصدفة أن يكن البطل الذى أنقذ من الطوفان فى الحـــكاية البابلية ـــ وفقا لرواية « بيروسوس » ـــ هو ملك بابل العاشر ، وأن يكون نوح فى

الحكاية العبرية هو الرجل العاشر فى نسل آدم • وفى كلتا الحكايتين ابتنى الرجل المختار ، بعد تحذير الاله اياه ، سفينة ضخمة مكونة من عدة طوابق ، وطلاها بالقار والقطران حتى لا تتسرب اليها المياه ، وأدخل فيها أسرته وحيوانات من كل صنف • وفى كلتيهما هطلت الأمطار الغزيرة ،فتجمع الطوفان بمقدار كبير ودام أياما يختلف عددها قلة أو كثرة • وفى كلتيهما غرق الجنس البشرى جميعه فيما عدا البطل وأسرته • وفى كليتهما أرسل الرجل الذى أنقذ ، طائرين غرابا وحمامة ليرى عن طريقهما ما اذا كانت مياه الطوفان قد انحسرت عن الأرض • وفى كليتهما عادت الحمامة الى السفينة لأنها لم تجد مكانا تستقر فيه ، أما الغراب فلم يعد فى كلتا الحكايتين ، وفى كلتيهما رست السفينة على جبل • وفى كلتيهما اشتمت الآلهة رائحة الشواء الطيبة فسكن غضبها •

وهكذا تتعدد وجوه الشبه بين الحكايتين البابلية والعبرية فى مجموعهما • فاذا شئنا بعد ذلك أن نتعمق التفصيلات ، فاننا نجد أن الحكاية البابلية أقرب الى الحكاية اليهوية منها الى الحكاية الكهنوتية • فكل من الرواية اليهوية والبابلية تعطى أهمية للعدد سبعة •

فقد حذر نوح ، فى الرواية اليهوية ، من حدوث الطوفان سبعة أيام على التوالى • كما أخذ معه فى السفينة سبعا من كل صنف من صنوف الحيوانات الطاهرة • ثم ان المسافة الزمنية بين اطلاقه طائرا وآخر كانت سبعة أيام • وبالمثل دام الطوفان فى الرواية البابلية حتى بلغ قمته سبعة أيام • كما أن البطل فيها وضع مجموعات من أوعية التضحية فوق الجبل ، وكانت كل مجموعة تتكون من سبعة أوعية • وتؤكد كل من الروايتين البابلية واليهوية أن باب السفينة أوصد بعد أن دخلها الرجل وأسرته وصنوف الحيوانات التى اختارها •

وفى كلتيها صورت الحادثة المثيرة ، حادثة ارسال الحمامة ثم الغراب من السفينة • كما أن الضحية قدمت فى كلتا الحالتين ، وقد اشتمت

الآلهة فيهما رائحة الشواء وسكن غضبها • على أننا نجد من ناحية أخرى أن الحكاية الكهنوتية فى سفر التكوين تقترب من الحكلية البابليه فى بعض التفصيلات المحددة ، أكثر من اقتراب الرواية اليهوية • ففى كل من الروايتين الكهنوتية والبابلية أصدرت الآلهة تعليمات محددة الى البطل لبناء السفينة • وبناء على هذه التعليمات ، بنيت السفينتان فى كل من الروايتين من عدة طوابق وقسم كل طابق الى عدة حجرات كما أنها طليت فى كل منها بالقار أو القطران ، ورست كل منهما على جبل ، واستقبل البطلان بركة الاله عند خروجهما •

فاذا كانت الحكايتان العبرية والبابلية عن الطوفان تتشابهان الى هذا الحد ، فكيف يمكننا أن نفسر هذا التشابه ؟ ان الرواية البابلية لا يمكن تكون مستمدة من الرواية العبرية ، حيث ان الرواية البابلية أقدم من الرواية العبرية بما يقرب من أحد عشر أو اثنى عشر قرنا • وفضلا على ذلك ، « فان الحكاية العبرية فى جوهرها • كما لاحظ « تسيمرن » ، تقضى بأن يكون البلد المشار اليه قابلا لحدوث الفيضانات مثل بابل ، الأمر الذى لا يدع مجالا للشك فى أن الحكاية « نشأت أصلا فى بابل ، ثم انتقلت بعد ذلك الى فلسطين » • ولكن اذا كان العبريون قد أخذوا حكاية الطوفان الكبير عن البابليين ، فمتى وكيف تم ذلك ؟ • اننا لا نملك أدنى قدر من المعلومات عن هذا الموضوع ، ومن ثم فان الاجابة عن هذا السؤال لا يكون الا عن طريق التخمين • وقد افترض بعض البلحثين الذين يتمتعون بسمعة طيبة أن اليهود قد عرفوا هذه الحكاية فى فترة أسرهم فى بابل ، وبناء على ذلك لا يرجع تاريخ الرواية العبرية الى أقدم من القرن السادس قبل الميلاد • وقد تكون وجهة النظر هذه سليمة لو أن الرواية العبرية كانت متمثلة فى الأثر الكهنوتى المنقح وحده • ذلك أن الاحتمال يؤيد ، كما رأينا ، أن المصدر الكهنوتى قد ألف فى أثناء الأسر أو بعده •

ومن المحتمل كل الاحتمال أن كتاب هذا المصدر قد تعرفوا على التراث البابلى ، اما عن طريق الروايات الشفوية أو المدونة ، وذلك

فى أثناء أسرهم أو ربما بعد عودتهم الى فلسطين • ويحق لنا أن نفترض أن العلاقة الوثيقة بين البلدين التى مهد لها الغزو البابلى لفلسطين ، ربما أدت على نحو ما الى انتشار الأدب البابلى فى فلسطين ، كما أدى السبى الى انتشار الأدب اليهودى فى بابل • وبناء على وجهة النظر هذه فان بعض التفصيلات التى تختلف فيها الرواية الكهنوتية عن الرواية اليهوية ، وتتفق فيها مع الرواية البابلية ، ربما نقلها الكتاب الكهنوتيون مباشرة عن المصادر البابلية • وهذه التفصيلات تتعلق ببناء السفينة وطلائها بالقار أو القطران الذين يعدان بصفة خاصة من منتجات بابل • على أن احتمال معرفة العبريين لحكاية الطوفان الكبير قبل أن يؤخذوا فى الأسر بزمن طويل ، وقرب حكايتهم فى شكلها من الحكاية البابلية ، هذا الاحتمال تؤيده كل التأييد الحكاية اليهوية فى سفر التكوين التى يمكن أن ترجع الى القرن التاسع قبل الميلاد والتى لا يمكن أن تتأخر بحال من الاحوال عن القرن الثامن •

فاذا افترضنا أن العبريين فى فلسطين كانوا يعرفون أسطورة الطوفان البابلية منذ زمن مبكر ، فانه ما زال علينا أن نتساءل ، كيف ومتى عرف العبريون هذه الأسطورة ؟ لقد سبق للباحثين أن قدموا اجابتين على هذا السؤال : الاجابة الأولى هى أن العبريين ربما نقلوا هذه الحكاية معهم عندما هاجروا من بابل الى فلسطين قبل ميلاد المسيح بما يقرب من ألفى عام • وأما الاجابة الثانية فهى أن العبريين فيما رأى البعض ، ربما أخذوا الحكاية بعد أن استقروا فى فلسطين ، عن الكنعانيين ، سكان البلاد الأصليين الذين ربما عرفوها بدورهم عن طريق الأدب البابلى فى حوالى الألف الثانى قبل الميلاد • على أننا لا نستطيع أن نقرر فى الوقت الراهن أى الرأيين هو الصواب ، هذا اذا افترضنا أن أحدهما يحتمل الصحة •

وقد ذهب الخيال اليهودى فى العصور المتأخرة بحكاية الطوفان فأضاف اليها تفاصيل جديدة تميل فى الغالب الى المغالاة ، وذلك فيما يبدو ، بقصد اشباع شغف العبريين فى عصر انحطاطهم ، أو مداعبة

مزاجهم فى هذا العصر ، ذلك المزاج الذى لم يكن يقتنع ببسلطة بحكايات سفر التكوين النبيلة •

ومن بين هذه الزخارف الرخيصة أو الاضـــافات الغربيـــة التى أضيفت الى الأسطورة القديمة ، تصوير الناس وهم يعيشون فى دعة قبل أن يحدث الطوفان ، فقد كانوا يجنون من زراعة واحدة محصولا يكفى حاجاتهم طيلة أربعين عاما • كمـــا كانوا بفنـــونهم الســـحرية ، يسخرون الشمس والقمر لخدمتهم • ولم تكن الأجنة تمكث فى بطون أمهاتها سوى بضعة أيام بدلا من تسعة شـــهور • وبمجـــرد أن يولد الأطفال يكونون قادرين على الكلام والســـير على الأقدام ، بل أنهـــم يتحدون الشياطين ويستهزءون بهم •

ولقد كانت هذه الحياة السهلة المرفهة هى السبب فيما وصل اليه الناس من ضلالة ، كما كانت دافعا لهم الى ارتكاب الآثام ، وبخاصـــة الفســـق والسلب ، الأمر الذى أثار غضب الرب وجعله يقرر أن يقضى على العاصين بأن يغرقهم فى الطوفان • ومع ذلك فقد أمهلهم الرب عندما أمر نوحا بأن يعظهم حتى يرجعوا عن هذه الطريق ، وهددهم بأن الرب سيغرقهم فى الطوفان جزاء جورهم • وقد أخذ نوح يعظهم طيلة مائة وعشرين عاما ، بل ان الرب منحهم مهلة أســـبوع آخر فى نهـــاية هذه المدة • وفى هذا الأسبوع جعل الرب الشمس تشرق كل صـــباح من المغرب ، وتغرب فى المساء فى المشرق • ولكن هذا كله لم يحرك هؤلاء العاصين للرجوع الى التوبة ، بل انهم على العكس آخذوا يسخرون من نوح الورع ويستهززون عندما أبصروه يبنى الفلك ، وكان نوح قد تعلم بناءه عن طريق كتاب مقدس كان قد سلمه الملاك «رزائيل » الى آدم ، وكان يحتوى بين ثناياه على العلم الدينى والدنيوى جميعا • وقد كان هذا الكتاب من الياقوت االأزرق وقد وضـــعه نوح فى صـــندوق ذهبى أحكم اغلاقه وأخذه معه فى الفلك ، فقـــام مقـــام الساعة فى التمييز بين الليل والنهار فى أثناء فترة الفيضان التى لم تكن تسطع فيها الشمس أو يبزغ فيها القمر • أما الطوفان فقد تسبب عن التقاء المياه المذكرة

التى هطلت من السماء بالمياه الأنثوية التى تدفقت من الارض • قد تدفقت مياه السماء من تجاويف صنعها الرب بأن انتزع نجمين من برج الثريا فتركا مكانهما تجويفا • وعندما شاء الرب بعد ذلكأن يسكت الأمطار الهاطلة من السماء ، عاد فسد التجويفين بنجمين أخذهما من برج الدب • وهذا هو السبب فى أن برج الدب ما زال يلاحق برج الثريا حتى اليوم مطالبا بأولاده ، ولكنه لن يحصل عليهم الى الأبد •

وبعد أن أعد نوح الفلك ، بدأ يجمع اليه صنوف الحيوان • وجاءت الحيوانات جماعات فى أعداد كبيرة للغاية ، الى درجة أن نوحا لم يستطع أن يدخلها جميعا فى الفلك ، وكان عليه أن يجلس عند بابه ليختار بعضها ، فأدخل فى الفلك الحيوانات التى كانت تجلس عند الباب ، وأبعد تلك التى كانت واقفة•وحتى بعد أن نفذ نوح هذا المبدأ من الاختيار الطبيعى بصرامة ، كان عدد أنواع الزواحف التى دخلت الفلك لا يقل عن ثلاثمائة وخمس وستين صنفا ، كما بلغ عدد أنواع الطيور اثنين وثلاثين نوعا • ولم يحص نوح عدد أنواع الحيوانات الثديية ، أو أن الكاتب على الأقل لم يدون عددها ، ولكن الكثير منها كان ينتشر بين ركاب الفلك كما سنرى وشيكا • وقبل أن يحدث الطوفان كان عدد الحيوانات النجسة يفوق عدد الحيوانات الطاهرة ، ولكن هذه النسبة انعكست بعد حدوث الطوفان ، اذ أن نوحا أدخل فى الفلك سبعة أزواج من كل نوع من أنواع الحيوانات الطاهرة ، فى حين أدخل زوجين أثنين فقط من الحيوانات النجسة • وكان هناك حيوان ضخم هو الريم لم يجد له مكانا فى الفلك لضخامته • ولهذا فقد قيده نوح بحبل طويل ربطه فى الفلك ، وأخذ الحيوان يخب من ورائها • وبالمثل كان المارد « عوج » ملك « باشان » من الضخامة بحيث لم يجد مكانا فى الفلك ، فجلس على ظهره وبذلك أنقذ • أما عن الناس الذين كانوا مع نوح فى الفلك فهم زوجته « نعمة » ابنة « أنوش » وأولاده الثلاثة وزوجاتهم •

وهناك أيضا زوج غريب وجد له مكانا فى الفلك وهو النفاق والخيبة • وقد جاء النفاق وحده أول الأمر ووقف عند باب الفلك ، ولكن

نوحا منعه من الدخول لأنه لم يكن يسمح بالدخول سوى للمتزوجين • فانصرف النفاق وتقابل مع الخيبة فأقنعها أن يكون زوجا لهـا ويرحل معها الى الفلك ، وبذلك قبلا معا بالسفينة • فلما اجتمع هؤلاء جميعـا داخل السفينة ، وبدأ الطوفان يغمر الأرض ، اجتمع العصاة من حول الفلك فى حشد بلغ عدده ما يقرب من سبعمائة ألف شخص ، وأخذوا يتضرعون ويتوسلون لكى يقبلوا فى الفلك • فلما رفض نوح فى صرامة أن يقبلهم ، اندفعوا نحو باب الفلك كما لو كانوا يريدون تحطيمه • ولكن الحيوانات المتوحشـة التى كانت مكلفة بحمـاية الفلك هاجمتهم وابتلعت بعضهم • أما الوحوش التى هربت فقد غرقت فى الطـوفان الذى أخذ يعلو تدريجيا • وأخذت السفينة تطفـو على الماء طيلة عام كامل وهى تترنح وتتخبط وسط الأمواج المتراكمة ، وكل ما فيها يتأرجح بداخلها ، كما يتقلب العدس داخل الوعاء • ثم أخذت الأسـود تزأر والثيران تخور والذئاب تعوى وسـائر صـنوف الحيـوانات تصرخ بأصواتها ، كل حسب طبيعة صوته • على أن مشكلة المشاكل التى كان على نوح أن يواجههـا فى الفلك هى مشـكلة توزيع المؤن • وقد حكى « سام » ولد نوح بعد ذلك بزمن إلى « اليعازر » خادم ابراهيم عن المشقة التى كان نوح يعانيها فى سـبيل اطعـام جيش الوحوش داخل الفلك ، فقـد كان المسـكين يصعد ويهبط داخل الفلك ، عدة مرات فى الليل والنهار ، اذ كان عليه أن يطعم حيوان النهار نهارا ، وحيوان الليل ليلا • كما كان يقدم الطعام للمارد « عوج » من خلال ثقب فى سقف السفينة • وعلى الرغم من أن الأسد كان هادئا نسبيا ، اذ كان يعـانى طوال الوقت من آلام الحمى ، فانه كان فظا للغاية ، وعلى استعداد لأن يزأر لأقل اثارة • وذات مرة لم يقـدم له نوح الغذاء الكافى ، فضربه الحيوان النبيل بكفه ضربة عنيفة أصابته بالعرج سـائر أيام حيـاته ، فأصبح بعد ذلك غير قادر على أن يقوم بعمله بوصفه كاهنا • وفى اليوم العاشر من شـهر تموز أطلق نوح الغـراب ليسـتطلع الأمر ويقـدم له تقريرا عن الطوفان • ولكن الغراب وجد جسما يطفو على الماء فأسرع وراءه ليلتهمه • ونسى أن يعود الى نوح ليقدم له التقرير • فأطلق نوح

بعد ذلك بأسبوع الحمامة ثلاث مرات • وفى المرة الثالثة عادت وعلى منقارها ورقة من شجرة الزيتون كانت قد انتزعتها من فوق جبل الزيتون فى أورشليم ، ذلك أن الطوفان لم يكن قد أغرق المدينة المقدسة • وبعد أن خرج نوح من الفلك بكى عند رؤية المساحات الشاسعة التى كان الطوفان قد أغرقها • ثم قدم « سام » للرب قربان الشكر لنجاتهم من الطوفان ، ذلك أن نوحا لم يتمكن من القيام بهذا الواجب الدينى ، اذ كان لا يزال يعانى من أثر ضربة الأسد •

وقد ذكرت رواية أخرى متأخرة لحكاية الطوفان بعض التفصيلات المثيرة الخاصة بنظام الفلك الداخلى ونظام توزيع الركاب ، فقد سكنت القطعان والوحوش جوف السفينة ، كما سكنت الطيور الدور الاوسط منها ، وخص نوح سطح النزهة فى السفينة له ولأسرته بعد أن عزل الرجال عن النساء، فأقام نوح وأولاده فى الجانب الشرقى من هذا السطح ، كما أقامت الزوجات مع أولادهن فى الطرف الغربى منه ، وكان الحاجز بين هؤلاء وهؤلاء جثة آدم التى كانت قد انتشلت من قبر غمرته المياه • وهذه الرواية التى تخبرنا بعد ذلك بأبعاد الفلك على وجه التحديد بالذراع ، كما تذكر لنا اليوم والشهر الذى ركب فيه الركاب الفلك ــ هذه الرواية مستمدة من مخطوط عربى عثر عليه فى مكتبة دير سانت كاترين فى جبل سيناء • ويبدو أن مؤلف هذا المخطوط كان عربيا مسيحيا عاش فى فترة الفتح الاسلامى • هذا وان كان تاريخ المخطوط متأخرا •

٤ ــ الحكايات الاغريقية القديمة عن الطوفان الكبير :

فى أثناء قراءتنا للأدب الاغريقى القديم ، تصادفنا حكايات عن الطوفان الكبير الذى هلك فيه الجنس البشرى كله على وجه التقريب • وحكاية الطوفان الاغريقية كما رواها « أبولودوروس » جامع الأساطير تجرى على النحو التالى : كان « دويكاليون » ابنا « لبروميثيوس » •

وكان يحكم بوصفه ملكا ، على بلد تقع بالقرب من « فيثيا » ، كما كان متزوجا من «بيرها » ابنة « ابيميثيوس » و « باندورا » أول امـرأة خلقتها الآلهة • وعنوما شاء « زيوس » أن يهلك أهل العصر البرونزى ، صنع « دويكاليون » بناء على نصيحة « بروميثيوس » ، تابوتا أو ابنتى فلكا • وبعد أن جمع كل ما يلزمه ، دخل الفلك هـ وزوجته • ثم أسقط « زيوس » مطرا غزيرا من السماء أغرق جزءا كبيرا من بلاد الاغريق وغرق مع هذا الجزء كل الناس فيماعدا قليل منهم لجأوا الى الجبال العالية القريبة • ثم انفصلت جبال « ثيسالى » وغمرت المياه البلاد التى كانت تقع وراء « استموس » و « بيلوبونيز » • أما « دويكاليون » فقد سارت سفينته على سطح الماء وهو بداخلها تسعة أيام وتسع ليال الى ان رست على جبل « بارناسيوس » • فلما انقطعت الأمطار ، نزل من السفينة وقدم الضحية للاله « زيوس » ، اله النجاه • ثم أرسـل « زيوس » الرسول « هرمس » الى « دويكاليون » وسمح له أن أن يختار الجنس الذى يعمر الارض معه ، فاختار « دويكاليون » الذكـور • فأمـره « زيوس » أن يلتقط أحجارا ويرمى بهـا وراء ظهـره • وفعـل « دويكاليون » هذا وتحولت الاحجار الى رجال • أما الاحجار التى رمتها زوجته «بيرها» فقد تحولت الى نساء • وهذا هو السبب فى أن الشعب الاغريقى اسـمه « لاوى » (Laoi) ، وهو اسم مشـتق من لاس (Laas) ومعناه حجر •

ولا ترجع هذه الحكاية الاغريقية من حيث شكلهـا الى أقدم من منتصف القرن قبل الميـلاد ، أما من حيث المـادة فهى أقـدم من هذا بكثير • ذلك لانها قد رويت عن « هيلانسـيوس » وهو مؤرخ اغريقى عاش فى القرن الخامس قبل الميلاد • وقد ذكر هذا المؤرخ أن سفينة « دويكاليون » لم ترس على جبل « بارناسيوس » ، بل رست عند جبل « أوثريس » فى « ثيسالى » • وهناك رواية أخرى للحكاية الاغريقية رويت عن الشاعر « بندار » الذى ترجع مؤلفاته الى القرن الخامس قبل الميلاد ، قبل « هيلانسيوس » ، ذلك أن هذا الشاعر حكى

عن « دويكاليون » و « بيرها » ، عندما هبطا من جبال « بارناسيوس » وأعادا خلق الجنس البشرى من الحجر •

وقد رأى البعض أن المدينة الأولى التى أسسها « دويكاليون » بعد انتهاء الطوفان هى مدينة « أوبوس » التى كانت تقع فى سهل « لوكريان » الخصيب بين الجبال وخليج « أويتويك » • على أنه روى أن « دريكاليون » كان يسكن فى « سينوس » ميناء « أوبوس » ، بعيدا عن السهل بعدة أميال • وقد كان الأهالى يطلعون المسافرين على قبر زوجته فى مستهل التاريخ الميلادى ، كما يقال : إن رماد جسد الزوج يرقد فى اثينا • ووفقا لرأى أرسطو الذى كتب مؤلفاته فى القرن الرابع ق•م• فان الدمار الذى لحق بالبلاد بسبب الطوفان الذى حدث فى عصر « دويكاليون » ، شعر به سكان هيلاس القديمة بوضوح ، تلك المدينة التى كانت تقع على مقربة من «دودونا » ونهر « أشيلوس » ذلك أن هذا النهر قد غير مجراه فى أماكن عدة • وفى هذه الأيام كان يسكن هذه المنطقة « السيليون » ، كما كان يسكنها الشعب الذى كان يسمى « الاغريق » (جرايكوى) ، ويطلق عليه الآن اسم « الهيلينيين »

وقد كان بعض الناس يعتقدون آن ضريح « زيوس » المقدس فى « دودونا » قد شيده « دويكاليون » و « بيرها » اللذان كانا يعيشان بين « المولوسيين » سكان هذا البلد • قد ذكر أفلاطون كذلك فى القرن الرابع ق•م• الطوفان الذى حدث فى زمن « دويكاليون » و « بيرها » دون أن يصفه • وكذلك حكى عن الكهنة المصريين أنهم كانوا يسخرون من الاغريق الذين كانوا يعتقدون أنه لم يحدث سوى طوفان واحد فى حين أن الطوفان قد أغرق الأرض أكثر من مرة • أما المؤرخ « البارياني » الذى دون الأحداث التاريخية وفقا لتسلسلها الزمنى عام ٢٦٥ ق•م• فقد ذكر أن طوفان « دويكاليون » قد حدث قبل عصره بألف ومائتين وخمسة وستين عاما ، أى أنه حدث وفقا لحسابه عام ١٥٣٩ ق•م •

وهناك أماكن مختلفة فى بلاد اليونان تدعى شرف صلتها على نحو ما بدويكاليون والطوفان الكبير • ومن بين سكان هذه الاماكن ـ كما يمكن أن نتوقع ذلك ـ سكان أثينا الذين يتباهون بالعصور القديمة التى سكنوا فيها بلاد « أتيكا » • وليس عند الاثينيين مانع ان يزوروا عندما تكون المسألة متعلقة بدويكاليون وطوفانه • وهم عندما يشرحون صلتهم بهذا الحادث يتذر عون بذريعة ، مؤداها أن السحب حينما تجمعت فى كثافة حول قمة جبل « بارناسيوس » ، وهطلت الأمطار فى شكل سيول جارفة فى « ليكوريا » حيث كان « دويكاليون » يحكم بوصفه ملكا ، لاذ « دويكاليون » بأثينا ، وشيد عند وصوله اليها هيكلا لاله المطر « زيوس » ، كما قدم ضحية الشكر على نجاته • وهذه الأسطورة فى شكلها الموجز على هذا النحو ليس فيها ذكر للسفينة ، ويبدو أنه قد ترك لنا أن نحدس أن البطل قد هرب من الطوفان سائرا على قدميه • ومهما يكن الامر ، فان « دويكاليون » ، كما قيل قد شيد هيكلا « لزيوس الأولمبى » وأنه دفن فى اثينا • وقد ظل المرشدون الاثينيون المحليون ، حتى القرن الثانى الميلادى ، يشيرون بفخر وطنى الى ضريح نوح الاغريقى • بجانب هيكل « زيوس الأولمبى » الأحدث والاكثر فخامة من ضريح « دويكاليون » الذى يتوج حطام أعمدته فى بهاء فريد المدينة الحديثة • ومازال هذا المعبد يلفت الانظار من بعد ويحمل شهادة صامتة ، وان تكن بالغة الدلالة على عظمة الاغريق القدماء

وليس هذا الضريح وحده هو الذى كان يشير اليه المرشدون الاغريق فى ذكرى الطوفان المهول • بل كانوا كذلك يرشدون المسافر المحب للاستطلاع داخل أرباض اثينا التى يحجبها هيكل « زيوس » المترامى الارجاء الى ربض أصغر من « البقعة الاولمبية » ، حيث كانوا يشيرون الى شق فى الارض ، عرضه ذراع واحدة ، ويؤكدون أن مياه الطوفان كانت تجرى داخل هذا الشق • ومن ثم فهم يرمون فى هذا الشق كعكا مصنوعا من دقيق القمح والعسل • ويبدو أنه كان ينظر الى هذا الكعك بوصفه كعكا روحيا صنع للأرواح

الفقيرة التي هلكت فى الطوفان الكبير • ذلك أننـــا نظم ان طقوســـا تذكارية ، أو صلاة جنائزية كانت تقام فى أثينا فى كل عام تكريما لهؤلاء الشهداء • وكانت هذه الاحتفالات تسمى « بعيد الطفو على الماء » • ولا توحى هذه التسمية بأن ذوى القلوب الرحيمة لم يكونوا يرمون فى الشـــق الأرضى الكعك فحسب ، بل كانوا يصبون فيه المياه كذلك ، وبذلك يسدون جوع أشباح العالم آخـــر ، بمقدار ما يطفئون ظمأهم

وهناك مكان آخر كان الناس يحتفلون فيه بذكرى الطـــوفان على نحو ما سلف ، هذا المكان هـــو «هيرابوليس » الذى كان يقـــع عـــلى نهر الفرات•وهناك فى هذا المكان كانت الآلهة السامية تقدس حتى القرن الثانى قبل الميلاد بطريقة فرضتها الحضارة الاغريقية الاســـــمية التى انتشرت فى الشرق بتأثير فتوحات الاسكندر الأكبر • وبمقتضى هـــذه الطريقه ، كان الناس يخلعون على هذه الآلهه أردية تنكرية شـــفافة ، فكانت أشبه بالتماثيل القديمة التى ترتدى أردية فضفاضـــة • وقـــد كانت الالهة « عشتروت » تحتل مكانا بارزا بين هذه الآلهة القديمـــة وهى تلك الالهة التى كان يعبدها الاغريق متخفية تحت اسم « هيرا » وقد خلف لنا « لوسيان » وصفا قيما للغاية لمعبـــد « عشـــتروت » والطقوس التى كانت تقام فيه • فهو يخبرنا أن المعبد وفقـــا للرأى السائد ، بناه « دويكاليون » الذى حدث فى عهده الطوفان الكبير • وعند ذكـــر دويكاليون وجد « لوســـيان » فرصـــة لكى يحكـــى أسطورة الطوفان الاغريقية التى تجرى على النحو التالى : ان جيـــل الرجال الحالى ، كما يقول « لوسيان » ليس هو جيل الجنس البشرى الأول ، بل سبقه جيل آخر فنى عن آخره • أما نحن البشر الذين نعيش اليوم على وجهالبسيطة، فننتمى الى الجيل الثانى الذى تكاثر بعـــد عصر « دويكاليون » • وأما الناس الذين كانوا يعيشون قبل الطوفان ، فيقال انهم كانوا قد تجاوزوا الحد فى الاستهتار والحماقة ، فلم يكونوا يحفظون ايمانهم أو يكرمون الغرباء ، أو يلقون بالا لطالبى المعـــونة قد كان جزاؤهم أن أصابتهم هذه الكارثة الكبرى ، فتدفقت المياه من

جوف الارض ، وهطلت الأمطار فى شكل سيول جارفة ، وفاضت الأنهار وغمر البحر البلاد بحيث لم تعد العين تبصر سوى المياه فى كل مكان • أما الناس فقد غرقوا عن آخرهم ، فيما عدا « دويكاليون » الذى عاش بسبب حكمته وورعه ، وكان الحلقة بين جيله وجيل الناس من بعـــده •

وقد تم انقـــــاذ « دويكاليون » على النحو التـــــالى : لقد كان « دويكاليون » يملك فلكا كبيرا لجأ اليه هو وزوجته واولاده هربا مـــن الطوفان • وفى الوقت نفسه جاءته الخنازير والخيول والاسود والثعابين وسائر حيوانات الارض أزواجا ، فاستقبلها « دويكاليون » جميعا ، ولم تحدث له أى أذى • أجل ، لقد دبت بينها ، بعون الاله روح الصداقة العميقة ، وأبحرت جميعا فى سفينة واحدة حتى انتهى الطوفان • ثم يقول « لوسيان » بعد ذلك : ان هذه هى حكاية طوفان « دويكاليون » الاغريقية • ثم يستأنف حديثه قائلا ان سكان « هيرابوليس » يحكون حادثة غريبة • فهميقولون: ان خندقا انفتح فى بلدهم وتسربت اليـــه مياه الطوفان عن آخرها • فشيد « دويكاليون » أثر ذلك الهياكل كمـــا شيد معبدا مقدسا للآلهة « هيرا » بجوار الخندق وهو عبارة عن خندق صغير يقع أسفل المعبد • ولست أدرى أكان هـــذا الخنـــــدق كبيرا فى الازمنة السالفة ثم انكمش على مر الزمن ، فان ما رأيته كان خندقـــا صغيرا ما فى ذلك شك •

وفى ذكرى أسطورة الطوفان يقوم الناس بالاحتفالات الآتية ة يحضرون كمية من مياه البحر الى المعبد مرتين فى الســـــنة • ولا يقوم الكهنة وحدهم باحضار المياه ، بل يشاركهم فى ذلك السوريون والعرب ، بل الناس الذين يسكنون فيما وراء نهر الفرات • وتصب كل هذه المياه فى الخندق • وعلى الرغم من صغر حجم الخندق ، فانه كان يتســـــع لهذه الكمية الهائلة من المياه • ويعلق الناس على هذا بقـــــولهم : انهم انما يتبعون نظام الطقوس الذى كان « دويكاليون » يؤديه فى المعبـــد فى ذكرى الطوفان وفى ذكرى رحمة الآلهة بالناس • وفضلا على ذلك فقد كان هناك عمودان أو بالأحرى مسلتان عند المدخل الشمالى لهذا المعبد

العظيم ، يبلغ طول كل منها ثلاثمائة وستين قدما • وقد كان من المألوف أن يصعد رجل احدى هاتين المسلتين مرتين فى كل عام ، ويظل سبعة أيام جالسا فى الهواء على قمتها • وتختلف الآراء فى سبب صعود هذا الرجل وفى هدف هذا العمل ، ولكن أغلب الناس يعتقد أنه عندما يصعد الى هذا الارتفاع الشاهق يكون قريبا من الآلهة فى السماء ، فتستمع بوضوح الى الصلوات التى يؤديها باسم أهل سوريا جميعا • على أن البعض الآخر يرى أنه انما كان يصعد الى قمة المسلة ليبين للناس كيف كان لناس يصعدون الى قمم الجبال وأعالى الاشجار لكى يهربوا من طوفان « دويكاليون » •

هذه الرواية الاغريقية المتأخرة لاسطورة الطوفان تشبه الى حد كبير الرواية البالبلية • وقد أضاف « بلوتارك » عنصرا آخر من عناصر التشابك بين الراويتين عندما ذكر أن «دويكاليون » أطلق حمامة من السفينة حتى يستطيع أن يعرف من رجوعها أو عدم رجوعها الى السفينة ما اذا كانت العاصفة المطرة ما تزال مستمرة أم لا • وبهذا تكون الرواية الاغريقية فى شكلها هذا قد تلونت بدون شك ، أن لم تكن قد امتزجت ، بتأثير سامى ، اسرائيليا كان أو بابليا •

وهناك مدينة أخرى فى آسيا الصغرى ، كانت تزهو ، فيما يبدو ، بارتباطها بحادثة الطوفان الكبير • واسم هذه المدينة هو « أباميا سيبوتس » ، التى كانت تقع فى اقليم « فريجيا » • ولقب « سيبوتس » الذى تحمله هذه المدينة ، هو الكلمة الاغريقية التى تعنى التابوت أو الفلك • وتبدو على عملات هذه المدينة التى صكت فى عصر « سيفيروس » و « ماكرينوس » و « فيليب الأكبر » صورةالسفينة الطافية على الماء وبداخلها راكبان يبدو الجزء الأعلى من جسميهما • والى جانب السفينة هناك شكلان آخران ، أحدهما لرجل والآخر لامرأة وأخيرا هناك صورة طائرين يجثمان فوق السفينة ، قيل : أن أحدهما صورة غراب والآخر حمامة تحمل فرع زيتون • وقد نقش اسم « نوح » كما لو أنه أريد بذلك ازالة كل شك فى سبيل التعريف على الأسطورة

ومما لاشك فيه أن الشكلين يشيران الى نوح وزوجته ، مرة وهما بداخل السفينة ، ومرة أخرى وهما خارجها • وهذا النموذج من العملات يثبت بدون شك أن سكان « أباميا » كانوا يعرفون فى القرن الثالث الميلادى حكاية طوفان نوح العبرية فى الصورة التى حكيت بها فى سفر التكوين • وربما عرف السكان هذه الحكاية من المواطنين اليهـود الذين كانوا فى القرن الأول قبل الميلاد كثيرين للغاية ، أو كانوا أغنياء كل الغنى الـى درجة أنهم تبرعوا لاورشليم فى مناسبة واحدة بما لايقل عن مائة رطل من الذهب • على أن الباحثـين لم يتفقـوا على ما اذا كانت حكايـة « أباميا » عن الطوفان يهودية الأصل أو أنها تعتمد على أسطورة محلية قديمة عن الطوفان •

وعلى الرغم من أن رواية الطوفان الاغريقيـــة التى ترتبط باسم « دوكاليون » هى أكثر الروايات شهرة وذيوعا ، فانها ليست الرواية الوحيدة المدونة فى التراث الاغريقى • فالعلماء يميزون فى الواقـع بين كوارث ثلاث كبيرة اصابت العالم فى أحقاب مختلفة ، الكـارثة الاولى حدثت ، فيما يروى ، فى عهـــد « أجيجيس » ، والثانيـــة فى عهـد « دويكاليون » ، والثالثة فى عهد « داردانوس » • وقـــد قيل : أن « أجيجيس » أو « أجيجوس » ، كما ينطـــق الاســم كذلك فى بعض الأحيان ، نشا وحكم فى طيبة فى « بيوتيا » • وتعد طيبة ، وفقا لرأى العلامة « فارو » ، أقدم بلاد الاغريق ، حيث انهـا كانت قد بنيت فى عصور ما قبل حوادث الطوفان • وصلة « أجيجـوس » « ببيوتيـا » بصفة عامة ، وبطيبة بصفة خاصة ، يؤكدها اطلاق اسمه على البلد وعلى المدينة وعلى احدى بوابات هذه المدينة •

ويخبرنا « فارو » أن « طيبـــة البوتيانية » قد بنيت قبل الزمن الذى كان يكتب فيه كتاباته بما يقرب من ألفين ومائة عام • وقد كتب « فارو » كتاباته عام ٣٦ ق•م• أو ما يقرب من هذا التاريخ • وحيث ان الطوفان ، بناء على رأيه ، حدث فى عهد « أجيجوس » بعـــد أن أسس طيبة ، فاننا نستول من ذلك على أن الطفان قد حدث وفقا لرأى

« فارو »عام ٢١٣٦ ق٠م٠ أو بعد هذا التاريخ مباشرة ٠ أما وفقا لرأى مؤرخ الكنيسة « أويسيبيوس » فقد حدث الطوفان الكبير فى عهد « أجيجوس » بعد طوفان نوح بما يقرب من الفين ومائتى عام ، وقبل طوفان « دويكالين » بمائتين خمسين عاما ٠ ومن الطبيعى حقا ان يكون شرفا للمسيحيين الأولين أن يدعوا أن قدم قصة الطوفان المدونة فى كتبهم المقدسة يكسبها من التقدير ما تفوق به تلك الروايات المدونة فى الكتابات الدنيوية ٠

وقد جعل « يوليوس أفريكانوس » ، المؤرخ المسيحى « أجيجوس » يعيش فى عصر موسى لا فى عصر نوح ٠ وكذلك وضع « ايزيدور » اسقف « أشبيليه » العالم ، طوفان نوح على رأس قائمة حوادث الطوفان المختلفة ويليه حسب الترتيب الزمنى طوفان « أجيجوس » ثم طوفان « ديوكاليون » وقد كان « أجيجوس » ، من وجهة نظره ، معاصرا ليعقوب ، فى حين كان « دويكاليون » معاصرا لموسى ٠ وقد كان أسقف « أشبيليه » فيما أعلم ، أول الكتاب الذين لجأوا الى البقايا الحيوانية المدفونة فى الجبال النائية بوصفها شاهدا على حقيقة حكاية نوح المروية ٠٠

فاذا كان « أجيجوس » بطلا بيوتيانيا ، لا بطلا أتيكيا ، وهذا هو المرجح ، فان قصة الطوفان الذى حدث فى عصره ، تتاكد بالتغير الذى طرأ على بحيرة « كوبياك » التى كانت فى الازمنة السالفة تشغل مساحة كبيرة فى وسط « بيوتيا » ٠ فحيث انه لم يكن للبحيرة منبع خارجى على سطح الارض ، كانت تعتمد فى مصدر مياهها كلية على الخنادق والممرات الجوفية التى كانت المياه قد حفرتها فى الصخور الجيرية على مر الزمن لتجرى فيها ٠ وقد كان مستوى البحيرة يرتفع وينخفض بناء على انسداد هذه المجارى الجوفية أو خلوها من أى عائق ٠ وربما لم يحدث لبحيرة من البحيرات أن تعرضت للتغيرات السنوية بشكل منتظم واضح كما حدث لبحيرة « كوبياك » ٠ فبينما تطؤها عيدان البوص فى الشتاء وتكون مأوى لآلاف الطيور البرية ، تصبح فى الصيف فى كثير أو قليل سهلا

مستنقعا ترعى فيه القطعان ، وتزرع فيه المحاصيل وتنمو • ولكن مياهها كانت معرضة لأن ترتفع عن مستواها العادى ، بسبب اختلاف النسبة غير العادية ، قلة أو كثرة ، للامطار الشتوية ، أو بسبب اختلاف النسبة الجوفية أو خلوها من العوائق • كما أننا نقرأ فى الكتب القديمة عن مدن كانت تقع على مشارف هذه البحيرة ثم غرقت ، فان المسافر فى العصر الحديث يحكى عن مزارعين اضطروا الى أن يهاجـــروا قبل أن يعم الفيضان قراهم ، وعن مزارع العنب وحقول القمح التى اختفت تحت المياه • وربما كان من بين هذه الفيضانات فيضان أعنف وأكثر دمارا من سائر الفيضانات التى سبقته ، ارتبط « أجيجوس » به ، وظل مرتبطا به دائما بدا •

وهذه النظرية التى يمكن أن تفسر طوفان « أجيجوس » الكبـــير بفيضان بحيرة « كوبياك » غير العادى ، يدعمها الى حد ما ، ما حدث فى « أركاديا » • فقد راينا فى الاسطورة الاغريقية ، أن الطوفان الثالث الكبير ارتبط باسم « داردانوس » • و « داردانوس » هذا ، وفقـــا لاحدى الروايات حكم « أركاديا » أول ما حكم ، بوصفه ملكا ، ولكنه ترك هذه البـــلاد عنـــدما غمـــر الطوفان الاراضى المنخفضة وجعلها غير صالحة للزراعة لمدة طويلة • أما السكان فقد لجأوا الى الجبال وكافحوا من أجل الحياة بما استطاعوا أن يدبروه من الطعام • ولكنهم عندما أدركوا أن الأرض التى انحسر عنها الطوفان لم تكن كافية لامدادهم بالمحاصيل قرروا تركها • على أن يعضـــهم بقوا فيهـــا مع « ديمـــاس » ابن « داردانوس » واتخذوه ملكا عليهم ، فى حين هاجر البعض الآخر تحت قيادة « داردانوس » نفسه الى جزيرة « ساموثراسى » • ووفقا لرواية اغريقية قبلها « فادوا » الرومانى أن المكان الذى ولد فيه « داردانوس » هو «فينيوس» الذى كان يقع فى شمال «أركاديا» • وهذا المكان ذو شهرة ذائعة • فباستثناء منطقة « كوبياك » لم يعرف فى بلاد اليونان واد تعرض للفيضانات على نطاق واسع ولأزمنة طويلة ، مثل وادى « فينيوس » • وتتشابه الأحوال الطبيعية فى هذين المكانين تشابها جوهريا ، فكلاهما

أشبه بحوض وسط مناطق حجرية وليس لهما مصدر مائى فوق سطح الارض • وكلاهما تصب فيه الأمطار المنحدرة من الجبال المحيطة • وكلاهما يعتمد فى مياهه على المجارى الجوفية التى نحتتها المياه أو فجرتها الزلازل فى الصخور • فاذا ترسب الطمى فى هذه المنافذ ، أو اعترضتها أية عوائق أخرى ، فان المكان الذى يكون سهلا فى الأحوال العادية يتحول الى بحيرة فى هذه الظروف • ولكن على الرغم من هذا التشابه القوى بين المكانين ، هناك وجوه اختلاف جوهرية بينما • فعلى حين نجد حوض « كوبياك » أرضا منبسطة شاسعة ترتفع فوق مستوى صخور منخفضة أو منحدرات هينة ، نجد حوض « فينيوس » واديا ضيقا مرتفعا ، تحيط به من كل جانب جبال جهمة منحدرة ، تغلف منحدراتها المرتفعة غابات الصنوبر الدكناء ، وتغطى الثلوج قممها الشاهقة معظم شهور السنة • والنهر الذى يمد هذا الحوض بالمياه عن طريق مجرى جوفى هو نهر « لادون » وهو أكثر أنهار بلاد اليونان سحرا جمالا • فلقد عاش « ملتون » بخياله على شواطىء نهر « لادون » الرملية التى تنمو فيها أزهار السوسن » • بل ان الكاتب « باوزانياس» ادعى أن هذا النهر لا يدانيه نهر آخر ساء فى بلاد اليونان أو خارجها وليس هناك ما يثيرنى من بين الذكريات التى تركها فى نفسى بلاد الاغريق ، مثل تلك الايام التى قضيتها وانا أقتفى أثر النهرمن منبعه عند البحيرة الجميلة ثم منابعه التى تقع على الجانب البعيد من الجبل ، حتى الأخدود العميق الصخور فى شكل ملاءات من الزبد الأبيض المائل لونه الى الاخضرار ، حتى تلتحم بنهر « ألفيوس » المقدس • على أن الزلازل أخذت تسد من وقت لآخر مجرى نهر « لادون » الذى ينبع من وادى « فينيوس » ، وكانت النتيجة أن كف النهر عن الجريان • وعندما كنت أزور منابع هذا النهر عام ١٨٩٥ ، اخبرنى فلاح لحظة وصولى انه منذ سنتين كفت مياه النهر عن الجريان مدة ثلاث ساعات اثر هزة أرضية عنيفة ، وتعزى الخندق الذه يقع فى قاع البحيرة وشوهد السمك وهو يرقد على الارض الجافة • وبعد ثلاث ساعات أخذ النبع يتدفق بعض الشىء • وبعد ثلاثة أيام سمع انفجار صوت يدوى أعقبه تدفق المياه

بكميات هائلة • وقد رويت فى الزمن القديم والحديث معـــا حكايات شبيهة بهذه الحكاية التى تحكي عن توقف النهر لبعض الوقت • وحيثما كانت تدوم عوائق المجرى الجوفى ، كانت تحتل وادى « فينيس » بحيرة تختلف فى اتساعها وعمقها باختلاف حجم عوائق المجارى الجوفية • وقد اعترت هذا الوادى ، وفقا لرأى « بلينى » ، حتى يومنا هذا خمســة أحوال من التغير الذى كان يحيله من ألبلل الى الجفاف ، ومن الجفاف الى البلل ، وجميع هذه الأحوال المتغيرة تسببت فى حدوثهـا الزلازل • وفى زمن « بلوتارك » ارتفع الفيضان ارتفاعا كبيرا حتى اغرق الوادى كله • وقد عزا الشعب الورع هذا الحادث الى غضب « أبوللو » من هرقــل الذى كان قد سرق من الاله منذ ألف عام مرجله من « دلف » وحمله الى فينيوس • ومعنى هذا أن غضب أبوللو من هرقل قد ظهر متأخرا • على أن المياه انخفضت بعد هذا فى نفس القــرن ، لان الرحـــالة الاغريقى « بوزانياس » أبصر قاع الوادى جافا ، ولم يكن يعلم بوجد البحيرة الا من خلال الروايات •

وليس من اليسير اهمال الروايات التى تتصل بالطوفان الكبــير فى واد عاش ظروفا كثيرة التغير ، تراوحت بين الجفاف والبال وبين ظهور بحيرة واسعة ظرفا كثيرة التغير ، تراوحت بين الجفاف والبلل وبين ظهور بحيرة واسعة ذات مياه زرقاء ، وأرض زراعية شاسعة ينبت فيها الذرة الاصفر • بل ان كل شىء فى هذا المكان يؤكد على العكس احتمال روايتها ، ومن ثم فربما كانت الحكاية التى رددت أن « داردانوس » أحد اهالى « فينيوس » ، قد اضطره الطوفان الــذى غطى الاراضى المنخفضه وأغرق الحقول ،الى أن يهجر بلاده ، كما اضطر الاهالى الى أن يتركوا بلادهم ويلجأوا الى المنحدرات العليا فى الجبال ــ ربما كانت هذه الحكاية ترتكز بحق على أساس ثابت من الحقائق • وكذلك تصدق الحكاية التى دونها « باوزانياس » عن الفيضان الذى علا وأغرق مدينة « فينيوس » القديمة التى كانت تقع عند الطرف الشمالى من البحيرة •

وقد قيل : أن « داردانوس » المهاجر قد اتخذ طريقه من مسكنه فى الأماكن العالية فى « أركاديا » الى جزيرة « ساموثراس » •

وفقا لاحدى الروايات أنه طفا على لوح من الخشب • ووفقـــا لرواية لراوية أخرى أن الفيضان لم يباغته فى أركاديا بل فى جزيرة «ساموثراس» وأنه هرب على جلد منتفخ طافيا على سطح الماء حتى رسا على جبل «ادا» حيث شيد مدينة « داردانيا » أو « طروادة » •• ومن المؤكد أن أهل « ساموثراس » الذين كانوا يرتبطون بآثارهم القديمة كل الارتباط قد ادعوا أن طوفانهم حدث قبل أى طوفان آخر على وجه الأرض • فقـــد روى عنهم أنهم قالوا : أن مياه البحر ارتفعت وغطت مساحة كبيرة من الارض المنبسطه فى جزيرتهم ، وأن الاحياء لجأوا الى الجبال الشاهقة التى لا تزال تكسب جزيرة « ساموثراس » أكثر الملامح شهرة فى شمال منطقة بحر « أيجه » ، ولاتزال تبدو واضحة للناظر اليها من طـــروادة فى الجو المشرق • ثم أخذ البحر يقتفى أثر الهاربين فى أثناء لجوئهم الى الجبال ، فأخذوا يتضرعون للآلهة لكى تنقذهم فلما أنقذوا نصبوا فى كل مكان من أجزيرة معالم تشهد على انقاذ الآلهة اياهم ، كما شيدوا المعابد التى ظلوا يقدمون فيها الضحايا حتى زمن متأخر • وقد ظل الصيادون بعد حدوث الطوفان يقرون عدة يجرون فى شباكهم بين الحين والآخر أحجار العمد الرئيسية التى تشهد على وجود المدن الغريقة فى أعماق البحر • أما الأسباب التى يرجع سكان « ساموثراس » الطوفان اليها ، فهى جديرة بالملاحظة • فقد حدثت الكارثة وفقا لرواياتهم ، لا بسبب سقوط الأمطار الغزيرة ، بل بسبب ارتفاع غريب مفاجىء لمياه البحر ، نجم عن تحطم الحواجز التى كانت حتى ذلك الحين تفصل البحر الاسود عن البحر الابيض • فى هذا الوقت حطمت كميات المياـــاة الهائلة تلك الحواجز التى كانت مختزنة وراءها ، وشقت طريقا فى الأرض المواجهة لها مكونة بذلك المضيقين اللذين يعرفان اليوم باسم البوسفور والدردنيل • ومنذ ذلك الوقت أخذت مياه البحر الأسود تتدفق فى البحر الأبيض المتوسط • وبينما كان هذا السيل الجارف يقتحم الحيون الجـــديدة التى فتحت فى

السد ، اغرقت المياه جزءا كبيرا من ساحل آسيا كما أغــرقت الاراضى المنبسطة فى جزيرة « ساموثراس » •

وقد أكد علم طبقات الأرض فى العصر الحديث الى حد ما ، صدق هذه الرواية « الساموثراسية » • فقد ذكر « هكسلى » أنه حتى زمن ليس بالبعيد جدا ، كانت آسيا الصغرى مرتبطة بأوروبا عن طـــريق الموضع الذى يقع فى مكانه اليوم خليج البوسفور • وقد كان هذا الموضع حاجزا يبلغ ارتفاعه عدة مئات من الأقدام ، يحتجز أمامه مياه البحــر الأسود • ومعنى هذا أن مساحة كبيرة من « أوروبا الشرقية » و « آسيا الوسطى الغربية » كانت تكون خزانا ضخما على طول مجمع المياه العربى الحالى لنهر « أوبى » الذى يصب فى المحيط المتجمد الشمالى • وقــد كانت أكثر فتحات هذا الخزان انخفاضا • تعلو ، فيما يبدو ، ســطح البحر بحوالى مائتى قدم • وفى هذا الحوض كانت تصب أكبر أنهار أوروبا مثل نهر الدانوب والفولجا ، كما كانت تصب فيه كذلك أنهــار ، آسيا الكبيرة آنذاك مثل « أوكسوس » و « كســارتس » وكل ما كان يتصل بها من روافد• وفضلا عن ذلك فان هذا الحوض كان يستقبل فائض بحيرة « بالكاش » التى كانت آنذاك اوسع مما هى عليه الآن بكثير ، ومن المحتمل أنه كان يستقبل كذلك مياه البحر الداخلى فى منغوليا • وفى هذا الوقت كان مستوى بحر « أرال » يعلو مستواه الحالى بما لايقل عن ستين قدما • وقد كان فى مكان البحر الأسود وبحــر قــزوين وبحــر « أرال » ، تلك البحار المنفصلة بعضها عن بعض ، كان هناك بحر واحد هو بحر « بونتو ــ أرال المتوسط » • ولابد أن هذا البحر الواحد كان يمتد فى الوقت الحاضر أحضان أودية نهر الدانوب المنخفضة ونهر لفولجا الذى عثر فيه فى الوقت الحاضر على القواقع القوقازية ، وبالمثل فى نهر «كاما» ونهر آرال وسائر الأنهار الجارية فى حين كانت هذه الأنهار تصب فائض مياهها شمالا عن طريق حوض « أوبى » الحالى • ويبدو أن هذا الخزان الهائل أو هذا البحر الداخلى الشاسع الذى كان يحجزه ويدعمه خزان طبيعى عال يربط آسيا لصغرى بشـــبه جزيرة البلقان ، كان

يوجد منذ عصر البلايستوسين • كما أنه يعتقد أن تآكل ممر الدردنيل الذى وجدت المياه المحتجزة فى النهاية من خلاله طريقها الى البحـــر المتوسط قد حدث فى نهـاية عصر « البلايستوســـين » أو بعـد ذلك ولكنه من المؤكد أن الانسان لم يسكن أوروبا فى عصر « البلايستوسين » بل يرى البعض أنه سكنها فى عصر « البليوســين » أو حتى فى عصر « الميوسين » • ومن ثم فانه يبدو محتملا أن سكان « اوروبا الشرقية كانوا يحتفظون حقا برواية مأثورة تتصل ببحر « بونتو أرال » الداخلى الشاسع ، وعن جفافه الجزئى الذى نجم عن تحطم الخزان الذى كان يفصله عن البحر المتوسط ، أو ــ بعبارة أخرى ــ تتصل بانشـــقاق بوغازى البوسفور الدردنيل • اذا كان هذا الفــرض صــحيحا ، فان الرواية « الساموثراسية » تكون قد احتـــوت على عناصر كثيرة من الحقائق التاريخية فيما يختص بالاسباب التى ذكرتها لحدوث الكارثة •

ويبدو أن علم الجيولوجيا من ناحية أخرى ، لم يدعم روايـــة الكارثة هذه فى حد ذاتها • ذلك أن الشواهد تتحو الى اثبات أن بوغاز الدردنيل لم ينشق فجأة كما ينفجر سد بسبب ضغط الميــاه أو بسبب هزة أرضية ، بل تكون هذا البوغاز ، على عكس ذلك ، عن طريق عملية التحات البطيئــة التى لابد أنهــا اســتغرقت قرونا بل آلافــا من السنين ، ذلك أن البوغار تحيط به طبقات أرضية لم تتغير يبلغ سمكها أربعين قدما وترجع الى عصر البلايستوسين • وفى خلال هذه الطبقات أخذ البوغاز ينحت طريقه فى هدوء • وبناء على ذلك فان من العســير تماما أن يكون مستوى بحر « بونتو ــ أرال » قد هبط الى مستى البحر البيض المتوسط فجأة وعلى نحو مفاجىء ، محدثا فيضانا هائلا عبر سواحل آسيا واوروبا • بل الاكثر احتمالا أن يكن هذا البحر قد تغــير تدريجيا وفى بطء ، بحيث ان كمية المياه التى تدفقت منه خلال جيل واحد فقط لا يحسها المراقبون العاديين ، بل لا يحسها المراقبون المدققون غـــير المزودين بأجهزة دقيقة • ومن ثم فانه يبدو من الاسلم أن نــدعى أن هذه الحكاية « الساموثراسية » قد رواها أحد الفلاسفة المبكرين على سبيل الظن • وقد استطاع هذا الفيلسوف ان يتكهن بحق بما كان عليه

بوغازا الدردنيل والبوسفور دون أن يكون قادرا على أن يتصور البطء البالغ لعملية النحت الطبيعية ، ذلك بدلا من أن ندعى أن هذه الحكاية احتفظت بذكرى حقيقية عن الطوفان الذى تدفق نتيجة انشقاق بوغاز الدردنيل • قد أكد هذا الرأى فى الواقع « ستراتو » صاحب الفلسفة الطبيعية المرموق الذى خلف « ثيوفراست » فى زعامة مدرسة المشائين عام ٢٨٧ ق • م • وقد دعم « ستراتو » هذا الرأى على أساس نظرى بحت ، عندما رفض أن ينظر الى هذه الحادثة بوصفها رواية شعبية ، واعتمد فى مناقشتها على ملاحظاته للملامح الطبيعية للبحر الأسود (١) • فقد أشار الى كميات الطمى الهائلة التى كانت تقذفها الأنهار الكبيرة فى « أويكسين » ، واستنتج أنه لولا مخرج بوغاز البوسفور لامتلأ البحر بالغرين مع مرور الوقت • وأبعد من هذا فقد افترض أن هذه الأنهار بعينها قد شقت لنفسها طريقا فى الأزمنة السالفة خلال بوغاز البوسفور ، فتسربت مياهها المتجمعة الى « بزوبونتوس » ومنه الى البحر المتوسط عبر بوغاز الدردنيل • وقد تصور « ستراتو » بنفس الطريقة أن البحر المتوسط كان فى سالف الزمن بحرا داخليا ، وأن اتصاله بالمحيط الأطلنطى قد نجم عن تدفق المياه المختزنة شقها لمضيق جبل طارق • ويحق لنا أن ننتهى بناء على ذلك الى أن السبب الذى فسرت به الحكاية « الساموثراسية » حدوث الطوفان الكبير مستمد من تأمل ذكى أكثر من كونه مستمدا من رواية شعبية قديمة •

وهناك أسباب تدعونا لأن نعتقد أن حكاية الطوفان الأغريقية التى ارتبطت بشخصيتى « دويكاليون » و « بيرها » ، لم تكن كذلك صدى لحادثة حقيقية ، بمقدار ما كانت استدلالا ارتكن على ملاحظة حقائق طبيعية بعينها • فقد رأينا فى احدى الروايات الاغريقية أن

---

(١) كان البحر الأسود يعرف فى الزمن القديم باسم Pontus Exinus ، اى البحر الكريم .

جبال « فيسالى » قد انشقت بتأثير طوفان « دويكاليون » كما رأينا فى رواية أخرى أن سفينة « دويكاليون » قد جرفها الفيضان وهو بداخلها حتى رست على جبل « أوثريس » فى « ثيسالى » • وهذه الاشارات تميل الى أن تبرز « ثيسالى » بوصفه المكان الاصـــلى فى الأسطورة • وهذه الاشارات تدعمها بشكل قاطع وجهة النظر التى تبناها القـــدماء فى تفسير تشكيل ملامح البلد الطبيعية • فهيرودوت يحكى رواية مؤداها أن « ثيسالى » كانت فى العصور القديمة بحيرة أو بحرا داخليا تحيط به جبال « أوســـا » و « بيليون » و « أوليمبوس » و « بنووس » و « أوثريس » الشاهقة • ولم يكن بهذه الجبال فتحة تسمح لميـــاه الأنهار المختزنة أن تتسرب الى أى مكان • ثم حدث بعد ذلك ، وفقا لما رواه سكان « ثيسالى » أن شق اله البحر « بوزايدون » الذى يتسبب فى حدوث الزلازل ، مخرجا للبحيرة فى الجبال بأن شق خندق « تيمبى » الضيق الذى يروى عن طريقه نهر « بينيوس » سهل « ثيسالى » منذ ذلك الحين • وبهذا يصرح هيرودوت ، المؤرخ الطيب باعتقاده فى واقع الرواية المحلية • فهو يقول : « أن من يعتقد أن « بوزايدون » يهـــز الأرض ، وأن الاخوار التى تسببها الزلازل من صنع يديه ، فانه يقول عند رؤيته لخندق « بينيوس » أن « بوزايدون » قد صنعه بنفسه ، ذلك أنه لم يساورنى شك فى أن الانفصال الذى حدث فى الجبال انما هو نتيجة زلازل » •

وقد قبل علماء الآثار القديمة الذين جاءوا بعد هيرودوت ، وجهة نظر أبى التاريخ بصورة قاطعة ، وان أرجع أحدهم نشأة الأخـــدود ، ومصاريف البحيرة الى البطل « هرقل » الذى ألف الناس أن يعدوا من بين أعماله النافعة للجنس البشرى خلقه لمصادر المياه على نطاق واسع للغاية • أما الكتاب الاكثر حذرا أو الأبعد فلسفة فى التعبير عن وجهات نظرهم ، فقد أرجعوا نشأة المضيق الى زلزال أرضى بســـيط ، دون أن يعبروا عن أى رأى يشير الى احتمال احداث اله آو بطل لهذا الاضطراب الخطير •

على أنه لاينبغى لنا أن نعجب من أن الرأى الشـــعبى يميل فى تفسير هذه الظاهرة الطبيعية الى نظرية الوساطة الالهية أو البطولية • ذلك لأن الملامح الطبيعية لمر « تيمبى » فى الحقيقة ، كفيلة بأن تثير فى النفس رهبة دينية ممتزجة بالاحساس بوجود قوة أولية مهولة أبرزت بعملياتها الخارقة ، التناقض الكبير بين أعمالها وأعمال الانسان الضئيلة • فالمسافر الذى يهبط فى الصباح من جهة الغرب فى هذا الممر الضـيق ، يرى فوق رأسه ثلوج جبل الاولمب تتلالأ فى بريق ذهبى تحت أشعة الشمس الساطعة • فاذا سار هابطا مع الممر ، تختفى عن عينيه قمم الجبال ، ولا يبصر حوله من كل ناحية سوى حائط جسيم من المنحدرات القوية التى تنطلق الى أعلى فى عظمة رائعة وتتقارب من بعضها البعض فى بعض الأحيان تقاربا شديدا حتى تكاد تلتقى تاركة فقط مكانا للطريق وللنهر فى اسفلها ، وشريطا من زرقه السماء فى أعلاها • وتعد الصخور على جانب جبل « الأولمب » التى يراها المسافر دائما أمام عينه طالمـا انحدر فى الطريق نحو الشاطىء الجنوبى أو الأيمن من النهـر (١) ، تعد بحق أكثر المناظر روعة وتأثيرا فى بلاد الاغريق • وتظل أبعد تأثيرا فى الجو الممطر عندما تتساقط المياه على جوانبها لتصب فى تيار النهـر الهادى المنتظم • وتصل روعة هذا المنظر الى قمتها عند حوالى منتصف الممر حيث تنتصب صخرة ضخمة فى الهواء بجسامتها ، وتتوج قمتهـا المرتفعة فى الجو أطلال القلعة الرومانية • ففى بعض أجراء هذا المضيق تتراجع الصخور تراجعا كافيا بحيث تترك مسطحات من المراعى عنـد سفحها ، حيث الأدغال الدائمة الخضرة ، مثل الغار والرند والزيتون البرى والمشمش البرى والفلفل الكذاب تزينها فروع الكـــرم البرى والعليق ، وتدبجها أزهار الدفلى القرمزية ، وأزهار الياسمين والقصاص الذهبية ، بينما تعطر الجو الرائحة الذكية التى تنبعث من كتل النباتات

---

(١) يعنى الضفة الغربية لهذا النهر .

والازهار العطرية • وحتى فى اكثر الاماكن ضيقا ، تغطى شاطىء النهر أشجار الدلب المنتشرة التى تمتد جذورها وفروعها المتدلية فى النهر ، وتتراكم أوراقها بحيث تكون أشبه بستار يحجب الشمس • أما واجهات المنحدرات الصخرية المتشققة فتكسوها أشـــجار البلوط القصـــيرة والشجيرات • وحيثما وجد مكان خال بين الاشجار ، فان اخضرارها يبرز فى حيوية التبايق بينه وبين الصخور الجيرية البيضاء العادية ببنما يبرز هنا وهناك على حائط الجبل مشهد مكشوف لغابات الســـنديان الضخم والصنوبر الداكن تكسو المنحدرات الحادة • ويزداد المسافر تأثرا بهذه الخضرة الوافرة التى تنتشر ظلالها ، عندما ينتقل الى الوهدة فى حر الصيف القائظ بعد مسيرة شاقة فى سهول « ثيســـالى » المتربة الخانقة ، دون أن يجد شجرة تحميه من أشعة شمس الجنوب الحامية ، أو يحس نسيما يرطب جبينه ، ودون أن يصادف تنـــوعا فى المناظر الطبيعية اللهم الا بعض التلال والوديان التى تخفف من رتابة الطبيعـــة الكئيبة • ولا عجب بعد هذا فى أن ينشغل الانسان المتامل بأصل هـــذه الوهده الرائعة الجميلة ، ولاعجب فى أن يرجع الدين والعلم البدائيان سبب نشأتها الى طوفان أولى مهول ، أو انفجار مروع مفاجىء لقوة بركانية ، بدلا من أن يرجعاها الى السبب الحقيقى وهو تآكل الصخرر الذىيحدث تدريجيا وفى أزمنة طويلة •

ومن ثم يمكننا أن ننتهى بشىء من الثقة ، الى أن الأخـــدود الموجود فى جبال « ثيسالى » الذى قيل ان طوفان « دويكاليون » قد أحدثه ، لم يكن سوى مضيق « تيمبى » •• حقا انه يمكننا أن نذهب الى أبعد من هذا فى غير اسراف ، ونتكهن بأن حكاية الطوفان نشـــأت بدافع الرغبة فى تفسير أصل هذا الأخدود العميق الضـــيق • ذلك أن الناس حينما تصوروا أنه كانت توجد بحيرة كبيرة تختزن فيهـــا المياه وتحيط بها سلسلة جبال « ثيسالى » ، كان من الطبيعى أن يحدو بهم التفكير الى ذلك الطوفان المهول الذى لابد أن يعقب انفجار الخـــزان عنـــدما تدفقت المياه فى شكل سيل جارف بعد أن أنشق لها الطريق

الجديد ، وأغرقت الأراضى المنخفضة وجرت فى اثرها الخراب والدمار • واذا كان هذا التكهن ينطـــوى على شىء من الصـــحة ، فان الحكاية « الثسالية » عن طوفان « دويكاليون » وبالمثل الحكاية « الساموثراسية » عن طوفان « داردانس » ، تقـــومان على أســـاس فرض واحد : فكلتاهما لم تكن سوى مجرد استنتاج مســـتخلص من الحقـــائق الجغرافيةالطبيعية ، ولم تحتو احداهما على أى ذكـــر للحـــوادث الواقعية • أى أنهما باختصار يندرجان تحت ما سماه « سير ادوارد تايلور » بأساطير الملاحظة ، أكثر من اندرجهما تحت صنف المأاثورات التاريخية •

٥ ــ الحكايات الهندية القديمة عن الطوفان الكبير :

ليس هناك ذكر لاسطورة عن الطوفان فى أناشيد الفيدا ، وهى أقدم تراث أدبى هندى ألف فيما يبدو فى أزمنة مختلفة تقع بين سنة ١٥٠٠ ، ١٠٠٠ ق•م• فى الوقت الذى كان فيه الآريون لا يزالـــون مستقرين فى البنجاب ، قبل أن ينتشرون شرقا فى وادى نهر الكنج •• ولكن الأدب السانسكريتى المتأخر احتوى على حكاية شـــهيرة عن الطوفان ، ترد فى صور مختلفة مع احتفاظها بالملامح العامة واختلافها فى بعض التفصيلات • وربما كان كافيا أن نشير الى أقدم رواية معروفة لهذه الحكاية ، وهى تلك التى نصادفها فى « ساتاباثا براهمانا » وهى رسالة مهمة باللغة النثرية عن الطقوس المقدسة • ويعتقد الباحثون ان هذا المؤلف قد كتب قبل ظهور البوذية بزمن غير طويل • ومعنى هذا أنه ليس متأخرا عن القرن السادس قبل الميلاد • ثم احتل الآريون بعـــد ذلك الوادى الأعلى من نهر «الكانج» ، كمـــا احتلوا وادى نهـــــر « الهندوس » ، ولكنهم كانوا فيما يبدو آنذاك قليلى التأثر بحضارة آسيا الغربية وحضارة بلاد الاغريق • ومن المؤكد أن تيار الأفـــكار الاغريقية ، والفن الاغريقى جاءا متأخرين بعد ذلك بقرون مع غـــزو الاسكندرية عام ق٣٢ ق•م• وتروى حكاية الطوفان الكبير كما هى مدونة فى « ساتاباثا براهمانا » كالآتى :

فى الصباح أحضروا الماء « لمانوا » كى يغتسل ، كما تعود الناس أن يحضروا الماء لغسل الأيدى • وبينما كان « مانو » يغتسل ، أمسكت يده بسمكة قالت له : « استمع الى فسوف أنقذك » • فسالها « مانو » من أى شىء سوف تنقذيننى ؟ فأجابته السمكة : « سوف يأتى طوفان يحمل معه كل هذه المخلوقات ، ومن هذا الطوفان سوف أنقذك » • فسألها « مانو » : « ولكن كيف يمكننى أن أنقذك أنت من الطوفان » ؟ فأجابت : « مادمنا نحن على هذا النحو من ضآلة الجسم ، فان الهلاك يلحق بنا ، فالسمكة تبتلع أختها السمكة • ولهذا فعليك أن تحفظنى داخل وعاء ، فاذا كبرت لم يعد الوعاء يتسع لجسمى ، فاحفر حفرة فى الأرض خبئنى بداخلها • فاذا كبرت بعد ذلك فخذنى واطرحنى فى البحر وهناك أكون بعيدة عن عوامل الهلاك • وكبرت السمكة وأصبحت « غاشا » (أى سمكة كبيرة) ، لان هذه السمكة تكبر حتى يفوق حجمها أى نوع آخر من السمك • وعند ذاك قالت السمكة « لمانو » : « أن الطوفان سيحدث فى سنة كذا وكذا ، وعند ذاك تحضر الى راكبا سفينة تعدها لهذا الغرض • فاذا علا الطوفان فعليك أن تدخل الى السفينة ، وعلى أن أنقذك منه » •• وبعد أن أنقذها « مانو » على نحو ماشرحت له ، أخذها وطرحها فى الماء ، ثم حدث الطوفان فى السنة التى حددتها له • وعند ذاك أعد « مانو » السفينة وفقا لنصيحة السمكة • ولما علا الطوفان دخل فى السفينة • وجاءت اليه السمكة سابحة ، فربط حبل السفينة فى قرنها وأبحرت به السفينة على هذا النحو فى اتجاه الجبال الشمالية • ثم قالت له السمكة « هأنذا قد أنقذتك ، فاربط السفينة فى شجرة ولاتدع المياه تجرفها وأنت مستقر فيها على الجبل • وعندما تنحسر المياه ، يمكنك أن تهبط منها على مهل » • فهبط « مانو » من السفينة وهى راسية على الجبل ، ولهذا سمى منحدر الجبل الشمالى « مهبط مانو » • أما سائر المخلوقات فقد أغرقها الطوفان ولم ينج منه سوى « مانو » •

لما كان « مانو » يود أن تكون له ذرية ، فقد عكف على العبادة ،

والزم نفسه بالنقشف • كما كان يقوم فى أثناء ذلك بتقديم ضـــحية « الباكا » : فكان يمزج الماء بالزبد الصافى واللبن الرائب والشيراز وماء الجبن • وفى خلال عام تكونت امرأة من هذا المزيج • ولما تماسكت عجينتها هبت واقفة وقد تجمع الزبد النقى فى أثر قدميها • ثم قابلتها «مترا» و «فارونا» وسألاها : «من أنت ؟» فردت عليهما قائلة ة « اننى ابنة مانو • ففالا لها : « بل قولى انك ابنتنا » فأجابت : « لا ، بل اننى ابنته وهو الذى خلقنى » • فرغبا فى أن يكون لهما نصيب فيها ولكنها لم تعلن موافقتها أو رفضها لذلك وتركتهمـــا ورحلت الى « مانو » فسألها : « من أنت ؟ » فأجابته : « اننى ابنتك » ؟ فسألها : « وكيف تكون ابنتى على هذا النحو من الجمال الرائع » ؟ فأجابت : « لقـد شكلتنى من الماء الذى مزجت به الزبـد النقى واللبن الرائب ومـاء الجبن والشيراز • اننى أنا البركة وعليـك أن تنتفـع بى فى تقـديم الضحية • فان فعلت هذا فستصبح غنيا فى نسلك وحرثك ، فأية بركة تطلبها من الالهة عن طريقى ستمنح لك • فاستخدمها « مانو » بنـاء على ذلك كما تستخدم البركة وسط الضحية • ذلك أن ما يتوسط ما قبل الضحية وما بعدها يكون وسط الضحية • ثم أخذ يصطحبها معه فى عبادته ومراسم تصوفه متضرعا الى الآلهة أن تمنحه الذرية • وقد منحته الالهة منها الذرية وهى ذرية « مانو » وكان كلما طلب بركة من خلالهـا ، منحتها اياه الآلهة » •

٦ ــ حكايات هندية حديثه عن الطفان الكبير :

تحكى قبيلة « بهيل » وهى قبيلة متوحشة تسكن أحراش « الهند الوسطى » ، أنه كان فى سالف الزمن رجل ورع « ذوبى » ، اعتاد أن يغسل ملابسه فى النهر • فحذرته سمكة من قرب حدوث طوفان كبير ، وأخبرته بأنها جاءته لتحذره من هذا الطوفان وتحثه على أن يصـــنع تابوتا كبيرا يهرب فيه من الطوفان ، جزاء له على سلوكه الانسانى فى اطعام السمك على الدوام • فصنع الرجل الورع التابوت ، بناء على

ذلك ، ودخل فيه هو وأخته ومعهما ديك • وبعـــد أن انتهى الطوفان ، أرسل الاله « راما » رسله ليستطلع شئون الناس • وسمع الرســول صياح الديك ، وبذلك اكتشف الصندوق • فأمر باحضاره وسأل الرجل عمن هو وعن كيفية هروبه على هذا النحو • فقص عليــه الرجل الورع قصته • فأدار « راما » وجهه الى الشمال والى الشرق والى الغــرب وأقسم على أن المرأة التى معه هى أخت الرجل بحق • فأجاب بأنهــا بحق اخته • فأدار «راما » وجهــه مرة أخـــرى الى الجنوب ، فاذا بالرجل يناقض نفسه ويقول ان المرأة زوجته • وعند ذاك سأله راما عمن دله على الهروب • ولما علم منه أنها السمكة ، أمر توا بأن يقطــع لسانها ايلاما لها ، وبذلك أصبح هذا النوع من السماك بدون لســان حتى اليوم • وبعد أن نفذ راما حكمه على السمكة لافشائهــا السر ، أمر الرجل بأن يعمر الأرض الخراب • وبنـــاء على ذلك تزوج الرجل أخته وأنجب منها سبعة بنين وسبع بنات • ومنح « راما » الابن الاول حصانا هدية • ولكنه لما لم يستطيع ركوبه ، تركه فى الســهول وذهب ليقطع الخشب من الغابة وبذلك أصـــبح حطابا كما صار نســله « البهيليون » يقطعون الخشب من الغابات حتى اليوم • ويشبه تحذير السمكة لصانع الجميل فى الحكاية البهيلية ، الحادثة المقابلة لها فى الرواية السنسكيرتية عن الطوفان شبها كبيرا ، بحيث يصعب النظر اليها مستقلة عنها • ويحق لنا أن نتساءل عما اذا كان « البهيليون » قد أخذوا هذه الحكاية عن الغزاة الآريين ، أم أن الآريين عرفوها عن السكان الأصليين الذين اختلطوا بهم فى أثناء غزوهم للبلاد • وهناك ما يؤيد وجهة النظر الثانية ، وهى أن حكاية الطوفان لم ترد فى أقدم الآداب السنسكرتية بل وردت فى كتب دونت بعد أن استقر الآريون فى الهند فى بزمن طويل •

ويحكى « الكارميون » ، وهم قبيلة درافيدية صغيرة تسكن مقاطعة « رايبور » والولايات المتجاورة لها فى أقاليم الهند الوسطى ، يحكون الحــكاية التالية عن الطوفان الكبير : فهم يقولون أن الالـــه خلق رجلا وامرأة فى بداية الحياة ، وأنجبا بعد كبرهما ابنا وبنتا • ثم أرسل

الاله الى الارض طوفانا لكى يغرق ابن آوى لانه كان قد أغضبه • فلما علم الزوجان الهرمان بقدوم الطوفان ، وضعا ابنيهما فى جذع شجرة مجوف • ووضعا معهما مئونة تكفيهما حتى انتهاء الفيضان ، ثم اغلقا عليهما الجذع • وفى الحال فاض الماء ودام فيضانه اثنتى عشرة عاما • وغرق الرجل والمرأة وسائر مخلوقات الأرض جميعا ، فى حين ظل جذع الشجرة طافيا على صفحة المياه • وبعد اثنى عشر عاما خلق الالـــه طائرين وأطلقهما لبيصرا ما اذا كان ابن آوى عدو الاله قد غرق • فانطلق الطائران الى كل ركن من أركـان العـالم ، ولكنهمـــا لـم يبصرا سوى كتلة من الخشب تطفو على سطح الماء • فاستقرا فوقها ، وسرعان ما سمعا أصوتا خافتة رقيقة تنبعث من داخلها ، فقـــد كان الطفلان يقول أحدهما للآخر ان المئونة لن تكفيهما سوى ثلاثة أيـام أخرى • وعند ذلك طارا وأخبرا الاله بما سمعاه ، فجعل الطوفان ينحسر فى الحال ، وأخرج الطفلين وسمع منهما قصتهما • فرباهما الاله حتى تزوجا ، وسمى كل ولد لهما باسم السلالة التى تناسلت عنه • ومن هذه الاولاد جميعا تناسل الجنس البشرى الذى يعيش على وجه الأرض • ونلاحظ ان حادثة الطائرين فى هذه الحكاية تذكر بحادثة الغـــراب والحمامه فى حكاية الكتاب المقدس التى ربما وصلت الى « الكاماريين » بتأثير المبشرين •

وتحكى « حوليات أسام » أن الطوفان فاض على العالم فى سالف الازمان ، وأغرق الناس جميعا عدا رجل وامرأة كانا قد هربا الى قمة تل « لينج » وتسلقا شجرة واختفيا بين فروعها • وكانت الشجرة تنمو بجوار بحيرة كبيرة مياهها زرقاء بلون عين الديك • وقضى الرجل والمرأة الليل جاثمين على الشجرة • وفى الصباح فوجئا لدهشتهما بأنهما قـد تحولا الى نمر ونمرة • ولما أبصر الخالق واســـمه « باثيان » ما حل بالأرض من دمار ، أرسل رجلا وامراة من كهف يقـــع على تل ليعمرا الأرض الغرقى بالناس وفزع الزوجان عند خروجهما من الكهف لرؤيتهما النمر والنمرة المهولين ، فخاطبا الخالق قائلين ة « يا أبانا ، لقد أرسلتنا

الى الارض لنعمرها ولكننا نعتقد أننا لى نســـــتطيع أن نحقق مأربك مادامت الارض غريقة تحت المياه ، وما دام المكان الوحيد الذى يمكننا أن نستقر عنده يعيش فيه وحشان مفترسان يتأهبان لافتراســـــنا • فامنحنا القوة لكى يقضى عليهما » • ثم تمكن الزوجان بعد ذلك من قتل الوحشين ، وعاشا سعيدين ، وانجبا البنين والبنات الذين عمروا الأرض الغرقى بنسلهم فيما بعد •

٧ ــ حكايات الطوفان الكبير فى شرق آسيا :

يحكى « الكارينيون » سكان بورما أن الارض أصابها طوفان فى قديم الزمان ، وتمكن أخوان من الهروب منه على رمث فوق الماء • ثم أخذت المياه تعلو حتى وصلت الى السماء • وأبصر الاخ الاصغر شجرة مانجو تتدلى من قبو السماء ، فتسلقها وهو على وعى كامل بما يفعله ، وأكل من ثمارها • ولكن الطوفان انحسر فجأة تاركا الأخ الأصغر معلقا فى الشجرة • والى هنا تنتهى الحكاية فجأة ، وقد تركتنا نحدس كيف تخلص الأخ الأصـــــغر من هذا المأزق الخطـــــير • وبالمثـــل يروى « الشينجبوريون » أو « السينجفو » الذين يسكنن شمال بورما حكاية عن الطوفان الكبير • فهم يقولون : انه عندما أصاب الطوفان الأرض ، استطاع رجل يدعى « بوبر نان ــ تشونج » وأخته التى تدعى « تشانج ــ هكو » أن يهربا من الطوفان فى مركب كبير ، وأن يأخذا معهما تسع ديوك وتسع ابر • وبعد سقوط الامطار وهبوب العواصف ببضعة أيام ، أطلقا من المركب ديكا ، ورميا ابرة • ولكن الديك لم يؤذن ، كما لم يسمع للابرة صوت وهى تصطدم بقاع الماء • وعنـــد ذاك ترك الأخ وأخته المركب وأخذ يتجولان فى الارض حتى وصلا الى كهف يسكنـــه جنيان أو غولان (نات) أحدهما ذكر والآخر أنثى • فتوسلا اليهما أن يمكثا معهما ويستغلا وجودهما فى ازالة الأحراش ، وفلاحـــة الارض ، وقطع الأخشاب ، واحضار المياه • ففعل الأخ وأخته ذلك ، ثم لم تلبث الأخت أن ولدت طفلا • وقد تعودت الجنية أن ترعى الطفل فى أثناء غياب الوالدين • وعندما كان الطفل يبكى كانت تهدده بأنها ستفرم لحمه

عند مكان تتشعب منه تسعة طرق ، اذا لم يكف عن بكاءه • حتى كان يوم ضاقت الجنية فيه بالطفل ذرعا ، فانتزعته فى غضب ، وأسرعت به الى المكان الذى تلتقى عنده الطرق التسعة ، وقطعته اربا ، ونثرت دماءه ، ورمت أشلاءه فى الطرق التسعة وفى البلد التى تحيط بها • ولكنها حملت معها بعض قطع جسده وصنعت منها بهارا هنديا شهيا • ثم وضعت قطعة من الخشب فى سرير الطفل • فلما عادت الأم من عملها وسألت عن طفلها ، قالت لها الجنية : « انه نائم ، وتناولى أنت طعـــامك من الأرز » فاكلت الأم الارز والبهار ثم عادت الى سرير ابنها • ولكنها لم تجد بالسرير سوى قطعة من الخشب • فلما سألت الأم عن ابنها اجابتها الساحرة فى غلظة وقالت لها : « لقد أكلته أنت » • فهربت الام المسكينة من البيت وأخذت تصرخ وتولول عند مفترق الطرق ، وهى تتوسل للروح الكبير أن يرجع لها ابنها أو ينتقم من قاتله • فظهر لهـــا الروح وقال لها : « ليس فى وسعى أن استجمع أشـــلاء ابنك المتناثرة وأعيده اليك كما كان • ولكنك ستصبحين أما لرجال العالم ، بعد أن كنت أما لابن واحد » • ثم برز أثر ذلك الشانيون من طريق ، والصينيون من طريق ثان ، والبورميون من طريق ثالث ، والبنغاليون من طـــريق رابع ، وسائر أجناس الأرض من بقية الطرق التسعة • وادعت الام بنوتها لهؤلاء جميعا لأنهم نشأوا من أشلاء ابنها المتناثرة فى الطـــرق التسعة •

ويحكى « الباهناريون » ، وهم قبيلة فى الهند الصينية ، كيف أن حدأة تشاجرت ذات يوم مع سرطان البحر ونهشت جمجمته فى عنف الى درجة أنها أحدثت فيها فتحة لا تزال ترى حتى اليوم • ولكى ينتقم سرطان البحر من هذا الحادث • جعل البحار والانهـــار تفيض ، حتى وصل الماء الى السماء ، وهلكت الكائنات الحية جميعا عدا أخا وأختـــه استطاعا أن يهربا من الفيضان داخل تابوت كبير بعد أن أخذوا معهما زوجا من كل نوع من أنواع الحيوان ، ثم أحكما أغلاقه عليهما وعاما به على سطح الماء سبعة أيام وسبع ليال • ثم سمع الأخ ديكا يصيح خارج الصندوق • وكانت الأرواح قد أرسلت هذا الديك الى جدينا لكى

يعرفا أن الطوفان قد انحسر حتى يتمكنا من مغادرة التابوت • وعنـد ذاك أطلق « الاخ الطيور ، ومن بعدها الحيوانات الأخرى ، ثم خرجت الأخت وسارت على الأرض • ولم يتمكن الاخ وأخته أن يعيشا على وجه الارض لان مئونتهما كانت قد نفذت عن آخرها • ولكن نملة سـوداء أحضرت لهما حبتين من الأرز فزرعهما الاخ • وفى الصباح التالى كانت السهول تمتلىء بالارز • وبهذا أنقذ الاخ وأخته من الجوع •

وتحكى قبيلة « بنوا ــ جاكون » وهى قبيلة بدائية أصلية تسكن ولاية « جوهور » فى شبه جزيرة الملايو ــ تحكى أن الارض التى نقف عليها ليست جامدة ، بل هى مجرد غطاء من الجلد يغطى لجة الماء • وقد حدث فى قديم الزمن أن شق الاله « بيرمان » هذا الجلد فتسربت المياه وفاضت على الارض ودمرتها • على أن « بيرمان » عاد فخلق رجـلا وامراة ووضعهما فى سفينة مصنوعة من خشب « البولاى » ثم أحكم اغلاقها بحيث لم يكن فيهـا منفذ واحـد • وظل الزوجان فى داخل السفينة وهى تتخبط بهما على سطح الماء • ثم رست السفينة • فخرج منها الزوجان وسارا على الارض الصلبة ، وتصـورا أن العالم كله هو ما امتد أمام أعينهما الى الأفق • وقد كان الكون مظلمـا فى بادىء الأمر ، اذ لم يكن هناك صباح أو مساء ، لان الشمس لم تكن قد خلقت بعد • فلما أشرقت الشمس أبصرا سبع شجيرات من اشجـار الدفلى وسبعة أكوام من الحشائش التى تسمى « السامبو » • ثم قال أحدهما للآخر : « يا له من منفى كئيب ذلك الذى نعيش الآن فيـه بلا أبناء ولا احفاد » • ولكن المرأة حملت بعد حين فى بطنى ساقيها ، وأنجبت من بطن ساقها اليمنى ذكرا ومن بطن ساقها اليسرى انثى • ولما كبر هذان الوليدان تزوجا ، اذ لو كانا ولدا من بطن واحدة لما صح زواجهما • ومن هذين الزوجين تناسلت الأجناس البشرية جميعا على وجه الأرض •

وتلعب أسطورة الطوفان دورا كبـيرا فى أغانى « اللوليـين » الشعبية ، وهم جنس أصلى يحتل أكثر الجبال رسوخا وشموخا على وجه التقريب فى « يونان » ومناطق أخرى فى جنوب غرب الصـين ، حيث

نجحوا فى توطيد استقلالهم ضد الزحف الصينى • وهم أبعد ما يكونون عن الهمجية ، اذ انهم اخترعوا طريقة للكتابه هى أصلها كتابة تصويرية دونوا بها أساطيرهم وأغانيهم وأنسابهم وطقوسهم الدينية ، وتوارثوا هذا التراث المدون جيلا بعد جيل بعد نسخه عدة مرات • ويعتقد شعب « لولو » فى وجود شيوخ يعيشون فى السماء حتى اليوم ، وكانوا من قبل يعيشون فى العالم الارضى حيث عمروا تسعمائة وستين عاما ، بل ربما تسعمائة وتسعين عاما ، وبذلك فاقوا فى تعميرهم « متوشالح » (١) نفسه • وكل أسرة فى هذا الشعب تضم افرادا يجمعهم اسم واحد تدفع ضريبة الولاء لشيخ بعينه • ومن أشهر هذه الشخوص الأسطورية شخص يدعى « تسى ــ جو ــ وريه » الذى يتمتع بكثير من الصفات الالهية ، فهو الذى أصاب الجنس البشرى بالموت عندما فتح الصندوق الخطير الذى يحتوى حبوب الفناء ، وهو الذى تسبب أيضا فى حدوث الطوفان • وقد حدثت كارثة الطوفان على النحو التالى بعد أن أصبح سكان الأرض آثمين ، ارسل « تسى ــ جو ــ دزيه » اليهم رسولا يطلب سكان الارض آثمين : ارسل « تسى ــ جو ــ دزيه » اليهم رسولا يطلب بعض اللحم والدم من انسان فان ، فلم يكترث أحد لمطلبه عدا رجلا واحدا أسمه « دو ــ مو » • فأغلق « تسى ــ جو ــ دزيه » فى غضبه بوابات المطر التى تتدفق اليها المياه • فتسربت المياه الى الارض وأخذت تعلو إلى السماء • أما « دو ــ مو » الذى عمل بنصيحة الاله ، فقد أنقذ هو وأبناؤه الاربعة بأن لجأوا الىتجويف فى كتلة من الخشب من شجرة « البيريس » ، وأخذوا معهم ثعالب البحر والبط البرى وسمك الشلق •وقد تناسل من هؤلاء الأبناء الاربعة فيما بعد الشعوب المتحضرة التى تعرف الكتابه مثل « الصينيين » و « اللولوبين » أما السلالة الامية فتنتسب الى الاشكال الخشبية التى كان قد صنعها « دو ــ مو » بعد أن انتهى الطوفان لكى يعمر بهم الارض الخراب •

---

(١) ظهر هذا الاسم فى الخطوطات العبرية القديمة بوصفه كاهنا عبريا ، وهو اكثر شخصية عمرت فى الكتاب المقدس ، اذ يتراوح عمره بين ٥٢٧ ، ٩٢٩ عاما . وفقا للتاريخ العبرى انه توفى عام الطوفان .
(المترجمة)

ولا تزال الواح الاجداد التى يعبدها « اللولوبون » فى أيام معينة من السنة وفى كل مناسبات حياتهم المهمة ، ما تزال تصنع حتى اليوم من نفس نوع الشجرة التى لجأ جدهم الاكبر « دو ــ مو » الى تجويفها هروبا من الطوفان • وتكان تبدأ كل أسطير « اللولوبين » على وجــه التقريب باشارة الى هذا الجد أو الى الطوفان الكبير • وينبغى لنا أن نذكر فيما يختص بأصل هذا الطوفان أن « اللولويين » عموما يتخذون من اليوم السابع فى الاسبوع يوم راحة لهم ، فيمتنعون عن فلاحة الارض كما لا يسمح للنساء فى بعض الجهات بحياكة الملابس أو غسلها • ويبدو أن هذه العادة ، بالاضافة الى تراثهم عن شيوخهم وعن الطوفــان ، تكشف عن تأثير مسيحى • وربمــا كان « أ • هنرى » على حـــق فى أن يعزو هذا كله الى تعاليم المبشرين النسطوريين ، فقد كانت الكنائس النســطورية تنتشر فى « يونان » فى القــرن الثالث عشر عنــدما كان « ماركوبولو » يقوم برحلته هناك ، كما قيل ان « ألوبين » النسطرى وصل الى الصين فى زمن مبكر حوالى ٦٣٥ ب•م•

ويروى عن « الكامشداليين » رواية عن الطوفان الذى أغــرق العالم كله فى بداية الحياة • وقد نجت البقية الباقية من الناس بأن طفوا على كتل خشبية من سيقان الاشجار ربط بعضها البعض الاخر ، بعــد أن حملوا معهم متاعهم ومئونتهم وكانوا يدلون الاحجار فى الماء بعــد أن يربطوها بأحزمة لتقوم مقام المرساة حتى لا يجرفهم الفيضان الى الماء • فلما انحسر الطوفان خلف وراءه الناس وكتلهم الخشبية على قمم الجبال وقد جفت •

وفى دائرة معارف صينية صادفتنا الفقرة التالية : « اقليم التتار الشرقى » (١) اذا اتجه المســافر من شــاطىء البحــر الشرقى الى « شى ــ لو » فانه لا يصادف أنهارا أو بحيرات فى هذه المنطقـــة على الرغم من أن الجبال تخترقها والوديان • ومع ذلك فاننا نجد فى الرمال فى مناطق بعيدة كل البعد عن البحر ، الاصداف البحرية وهياكل السرطان البحرى • ويحكى « المنغولويون » الذين يسكنون هذا المكان أنه قــد

---

(١) وهو المعروف كذلك باسم منغوليا الخارجية (المترجمة)

بلغهم عن سالف الازمنة أن طوفانا أغرق بلادهم فى عهد سحيق فلما انحسر الطوفان ترك الاماكن التى كانت تغطيها المياه مكسوة بالرمال » .

٨ ــ حكايت عن الطوفان الكبير فى الارخبيل الهنوى :

يحكى « الباتاكيون » سكان سومطرة أن الخالق الذى يسمونه « ديباتا » أرسل طوفانا الى الارض ليهلك كل ما عليهـا من كائنـات حية ، وذلك بعد أن هرمت الارض وصارت دنسة . وقد تمكن آخـر زوجين بشريين فيها أن يهربا الى قمة أكثر الجبال ارتفاعا ، وكانت المياه قد ارتفعت حتى وصلت الى ركبتيهما ، عندما عدل « رب الجميع » عن رأيه فى القضاء على الجنس البشرى عن آخره ، فأخذ حفنة من التراب وعجنها وربط العجينة فى خيط دلاه على صفحة المياه ، فخطا الزوجان على العجينة وبذلك أنقذا . وكان كلما تكاثر نسل هـذين الزوجين ، كبرت العجينة الطينية فى حجمها حتى تكونت الارض التى نعيش عليها اليوم .

ويحكى سكان « انجانو » ، وهى جزيرة فى غرب سومطـــرة ، حكاية عن الطوفان الكبير . فهم يقولون ان موج البحر ارتفع ذات يوم حتى غمر الجزيرة وأغرق كل ما عليها من كائنات حية عدا امرأة واحدة . وقد نجت هذه المرأة اثر حادثة سعيدة وهى أن شعرها أمسك بشجرة شائكة ، بينما كان التيار يجرفها ، وبذلك تمكنت من تسلق الشجرة . فلما انحسر الماء هبطت من أعلى الشجرة . ولكنها رأت لحزنها البالغ أنها قد تركت وحدها فى هذا العالم . ولما بدأت تشعر بالجوع ، أخذت تتجول فى الجزيرة بحثا عن طعام . ولما لم تجد شيئا تأكلـه ، رجعت الى الشاطىء وقد ملأها الغم آملة أن تصطاد سمكة . ولقد أبصرت بالفعل سمكة حاولت أن تمسك بها ، ولكن السمكة تسربت واختبأت فى أحد الاجساد الطافية على الماء ، أو فى أحد الاجساد التى كانت ترتمى على الشاطىء . وحتى لا تضيع المرأة الفرصة منها التقطت حجـــرا وضربت به الجسد ضربة عنيفة . ولكن السمكة انسلت من مخبئها فى الجسد الملقى على الشاطىء وتسربت الى الجثة الطافية على المـاء .

فتبعتها المرأة ، ولم تكد تخطو بضعة خطوت حتى أبصرت لدهشتها رجلا حيا • ولما كانت المرأة تعلم أنها هى البشر الوحيد الذى أنقذ من الطوفان فقد بادرته بالسؤال عما كان يفعله هناك • فأجابها بأن شخصـــا ركل جسده المتوفى ، فكانت النتيجـــة أن عادت الحيـــاة اليه • وعنـــد ذاك قصت عليه المرأة قصتها ، وانتهيا الى أن يحاولا اعادة الحيـــــاة الى الموتى على هذا النحو بضرب أجسادهم بالحجـــــارة • فلما فعلا هذا عادت الارواح الى الاجساد بتأثير الضرب ، وبذلك عمرت الجـــزيرة بالناس مرة أخرى •

« والابانيون » أو « دياكيـــو البحـــر » (١) الذين يســـــكنون « ساراواك » فى « بورنيو » مغرمون برواية حكاية تحكى كيف نجـــا الجنس البشرى من الطوفان الكبير ، وكيف اهتدى أجـــدادهم الى طريقة لاشعال النار • والحكاية تجرى على النحو التالى ة فى ذات مرة خرجت بعض النســـــاء الدياكيات ليجمعن براعم الخيزران للأكل • فلما جمعنها سرن خلال الادغال حتى وصلن الى شكل حسبنه شـــجرة هاوية ، فجلسن فوقها ، وأخذن يقشرن براعم البامبو • ولشدة دهشتهن لاحظن أن الشجرة تقطر دما كلما قطعن البراعم بالســـكين • وفى تلك اللحظة ظهر بعض الرجال الذين أبصروا فى الحال أن ما يجلس عليـــه النسوة ليس شجرة بل ثعبان أصلة هائل فى شبه غيبوبه • فقتلوا الأصلة فى الحال وقطعوها اربا وحملوا لحمها معهم الى بيتهم • وبينمـــا كانوا منشغلين بشـــواء اللحم ، ســـمعوا أصواتا غريبـــة تنبعث من وعاء التحمير ، وأخذ المطر الغزير يهطل ، ولم يكف عن الســـقوط حتى غطت المياه التـــلال ماعدا أعلاها ، كما غرقت الأرض جميعـــا • وقد حدث كل هذا بسبب قتـــل هؤلاء الأشقياء للأصـــلة وشوائهم لحمها •

---

(١) هم مجموعة من الشعوب وكانوا يسكنون بين دولة رومانيـــا الحالية وبامير أى كانوا يسكنون وسط روسيا وبرارى قزوين •
(المترجمة)

وقد أهلك الطوفان جميع الكائنات الحية عدا امرأة واحـــدة وكلبا وفأرا وبعض الحشرات الصغيرة التى تمكنت من الهـــروب الى أعـــلى قمم الجبال • ثم لاحظت هذه المرأة وهى تبحث لنفســـها عن مـــأوى من الأمطـــار الهاطلة ، أن الكلب قد وجد مـــكانا دافئا تحت نبات متسلق كان يتأرجح فى الهـــواء يمنة ويسرة لكى يدفىء نفســـه عن طـــريق احتكاكه بســـاق الشجرة • فأدركت فى الحال كيف يمكن أن تتـــولد النـــار ، فأخذت قطعة من الخشب وحكتها بشـــدة فى النبات المتسلق فتولدت النـــار لأول مـــرة • وبهـــذا اهتدى النـــاس الى طريقـــة اشعال النار عن طريق الزناد بعـــد حـــدوث الطوفان • ولمـــا لـــم يكن للزوجـــة رجل ، فقد اتخـــذت من الزناد زوجـــا لهـــا ، وولدت منه ابنا كان يدعى « شيمبانج ــ امبانج » ولم يكن هذا الابن ، وفقـــــا لما يعنيه اســـمه ، ســـوى نصف رجل ، حيث أنه لم يكن له ســـوى ذراع واحـــدة ، وســـاق واحدة ، وعين واحدة ، ووجنـــة واحـــدة ، ونصف جسم ونصف أنف • وقد اســـتاء رفاقه من الحيوانات لهـــذه العيوب الخلقية • ولكنه استطاع فى النهاية أن يتخلص من هذه العيوب بأن استغل فرصة أن روح الريح كان قد بعثر أرزا كان « سيمبانج ــ امبانج » قد نشره ليجف ، فســـاومه على تعويضـــه عن هذا الضرر ولو بشىء زهيد • ولكن بعد أن قهـــر « سيمبانج ــ امبانج » روح الريح فى عدة مبارزات ، وافق على أن يمنحه الأجـــزاء الناقصة من جســـمه حتى يصبح رجـــلا كاملا ، وذلك بدلا من تعويضه بالنقود أو بأشياء أخرى ثمينة لم يكن « شيمبانج ــ امتانج » يمـــلك منهـــا شيئا بحق • ووافق « شيمبانج ــ امبانج » فى سعادة بالغة على هذا الاقتراح ، ومنذ ذلك الوقت أصبح للانسان أعضـــاء كاملة مثل أعضاء « شيمتانج ــ امبانج » •

وهناك رواية « دياكية » أخرى لهذه الحكاية تحـــكى أن رجـــلا بعينه يدعى « ترو » صنع ، عندما بدأ الطوفان ، ســـفينة من هاون خشبى ضخم كان يستخدم حتى هذا الوقت فى سحق الأرز • ثم ركب

السفينة مع زوجته واصطحب كلبا وخنزيرا ودجاجة وقطـــة وبعض الكائنات الحية الأخرى ودفعها الى الماء • فأخذت السفينة تجـــرى فى جنون مع التيار حتى انتهى الطوفان • وعند ذاك ترك « ترو » السفينة ومعه زوجته وحيواناته • ثم واجهت « ترو » مشـــكلة تعمير الأرض بالناس بعد أن أهلك الطوفان الجنس البشرى كله على وجه التقريب ، فلجأ الى وسيلة تعدد الزوجـــات لكى يحل لنفســـه هذه المشـــكلة ، فصـــنع زوجات من الأحجار والأخشاب ومن ســـائر المواد التى كانت تقع فى يده • وسرعان ما ظفر بعائلة كبيرة تعلمت فلاحـــة الأرض ، وتناسلت عنها القبائل الدياكية المختلفة •

وكذلك يحكى « الترودجانيون » الذى يتحـــدثون اللغة البارية ويسكنون ــ « سيلبيس الوســـطى » ، أن الأرض ابتليت ذات مـــرة بطوفان مهول غطى الجبـــال العالية عدا قمة جبـــل « واومتياباتو » • وهم يشيرون الى القواقع البحرية التى توجـــد على قمم التـــلال التى تعلو سطح البحـــر بألفى قـــدم أو أكثر ، وذلك لـــكى يؤكدوا صـــحة روايتهم • ولم ينج من هذا الطوفان سوى امرأة حبلى وفأرة حبلى ، بأن جلســـا فى مزود خنزير وعامـــا به على ســـطح الماء وهما يجدفان بمغرفة بدلا من المجداف ، حتى انحسر الطـــوفان وأصبحت الأرض صـــالحة للسكنى • وبينما كانت المـــرأة تبحث عن حبـــات من الأرز لتزرعها ، أبصرت حزمة من الأرز تتـــدلى من شجرة اجتثت من جذرها وجرفها التيار حتى استقرت عند المكان الذى كانت تقف عنـــده المرأة • فتسلقت الفأرة الشجرة وأحضرت لها حزمة الأرز ، وبذلك تمكنت من أن تزرع الأرز بمعونة الفأرة • وكانت الفأرة قد أخذت عليها عهـــدا ، قبل أن تسلمها حزمة الأرز ، أن يكون للفئران الحق فى أكل جزء من المحصـــول وهـــذا هو السبب فى أن الفئران تحضر كل عام الى الحقول لتأخذ نصيبها فحسب من الأرز الناضج دون أن تترك الحقـــول جرداء • ثم ولدت المرأة ابنا بعد فترة من الزمن • فلما كبر اتخـــذته زوجـــا

لهـــا حتى تنجب أولادا آخرين • وقد أنجبت منـــه ولدا وبنتا تناســـل عنهما الجنس البشرى كله فيما تعد •

ويحكى ســـكان « روتى » ، وهى جزيرة صغيرة تقـــع فى جنوب غرب « تيمو » أن البحـــر فاض على الأرض فى قديم الزمان ، فأغرق الناس جميعا كما أغرق الحيـــوان وأهلك النبـــات والأعشـــاب ولـــم يترك بقعة على ســـطح الأرض الا غطاها بالماء • وحتى الجبال الشامخة غطاها الطـــوفان ، عدا قمـــة جبـــل « لاكيمولا » الـــذى يقـــع فى « بلبا » ، التى برزت وحـــدها فوق الأمواج • والى هذه القمـــة لاذ رجـــل وزوجته وأولادهمـــا هروبا من الطوفان • وقد ظل الطـــوفان يرتفع بعد ذلك شيئا فشيئا لعـــدة شـــــهور حتى كاد يصـــــل الى هذه القمة ، مما أفزع هذه الأسرة التى توقعت أن يصل المـــاء اليهـــا بعد حين • فأخذت تتوســـل الى البحـــر حتى يعـــود الى وضـــعه الطبيعى ، فرد عليها البحـــر قائلا : « اننى على اســـتعداد لان ألبى رغبتكم اذا قدمتم لى حيوانا أعجز عن عد شعره • فطرح الزوج اليـــه خنزيرا أعقبه بعنزة وكلب ودجاجة ، ولكن دون جدوى ، اذ اســـتطاع البحر أن يعـــد شـــعر كل منها ، ومن ثم فقد اســـتمر فيضـــانه • وفى النهـــاية طرح الرجـــل فيه قطة لم يســـتطع أن يعـــد شـــعرها ، ولهذا فقد انحسر على الأثر •• وبعد هـــذا ظهر عقـــاب البحـــر ونثر بعض التراب الجاف على المـــاء • فهبط الرجـــل وزوجته وأولادهمـــا عليه ، وأخذوا يبحثون عن مســـكن جديد • عند ذلك أمر الآله عقـــاب البحر أن يحضر للرجـــل كل أنواع الحبـــوب مثل الذرة والقمح والأرز والسمسم وبذور البطيخ ، لكى يبذرها فى الأرض ، ويعيش هو وأسرته على محصـــولها • وهذا هو السبب فى أن الناس فى « روتى » يضعون فى نهـــاية الحصاد حزمة من سيقان الأرز فى مكان طلق فى القـــرية ، على سبيل الضحية لجبـــل « لاكيمولا » • كمـــا أن كلا منهم يطهـــو الأرز ويحضره مع ثمار النخيل الهندى وجوز الهنـــد والتبـــغ والموز والخبز المصنوع من الفاكهة ويقدم كل هذا قربانا للجبل • وهناك يجتمع

الناس ويقيمون الولائم ويرقصون كل أنواع الرقص تعبيرا عن ولائهم للجبـــل ، ثم يتوســـلون اليه أن يمنحهم محصـــولا وافرا فى العـــام التـــالى كذلك ، حتى يجـــد الناس ما يشبعهم •

ويحكى البدائيون سكان جزر « أندامـــان » التى تقع فى خليج البنغال ، حكاية عن الطوفان يمكننا أن نشير اليها فى هذا المجـــال ، على الرغم من أن هذه لا تنتمى على وجه التحـــديد الى مجموعة الجـــزر الهندية • فقد حدث ، وفقا لرواية الأهالى ، أن أصبح الناس ، بعـــد مضى فترة من خلقهم عاصين وغير مبالين بأوامر الخالق التى حثهم على اتباعهـــا عند خلقهم • فأرســـل عليهم وهـــو فى ثورة من الغضـــب طوفانا كبيرا أغرق الأرض جميعا عدا قمة جبـــال « ساول » التى يسكن عندها الخالق نفســـه • وهلكت فى الطـــوفان الكائنات الحية جميعـــا عدا رجلين وامرأتين كانوا لحســـن حظهم راكبين زورقا وقت حـــدوث الطـــوفان • فلما انخفضت الميـــاه ، رست الجمـــاعة بقاربهـــا على الشـــاطىء • لكنهم وجدوا أنفســـهم فى موقف لا يحســـدون عليه ، اذ كانت كل الكائنات الحية قد غرقت فى الطوفان • على أن الخـــالق الرحيم واســـمه « بولوجا » قدم لهم المســـاعدة بأن أعاد لهم خـــلق الطيـــور والحيـــوانات • ثم بقيت مشـــكلة اشـــعال النار ، اذ كان الطوفان قد أطفأ شـــعلة كل موقد ، وأصبح كل شىء رطبا غير قـــابل للاشتعال • وهنا ظهر لهم شبح أحـــد أصـــدقائهم الغرقى ، لينقذهم فى اللحظة المناسبة • فلما أبصر ما هم عليه من غم ، طار الى الســـماء فى صـــورة طائر القاوند حيث وجد الخالق جالســـا وبجانبه النار • فأخذ يحرك النار المشتعلة لكى يحملها بمنقـــاره الى أصدقائه الـــذين يعيشون على الأرض بلا نار • ولكنه ، فى اضطرابه وسرعته ، أســـقط شعلة النار على شخص الخالق المهيب نفسه ، الـــذى تهيج لحقـــارة الطائر ولما ألم به من ألم ، وطوح بشعلة النار فى سرعة نحـــو الطائر • ولكن الشعلة أخطأت الهدف وهوت محـــدثة صفيرا من الســـماء الى الأرض ، حيث كان الناس يجلســـون يئنون ويرتجفـــون من البرد • وعلى هذا النحو استعاد الانسان النار بعد حدوث الطوفان • وبعد أن

استدفأ هؤلاء ، ولم يشغل بالهم شيء محدد ، استعادوا ما حـدث لهم من أحداث وبدأوا يتذمرون من قضاء الخـالق على الجنس البشرى • وبلغ بهم التذمر مبلغه حتى استقر رأى الأشخاص الأربعـة على أن يقتلوا الخالق • ولكن الخالق نفسه نصحهم بأن يعدلوا عن محاولتهم الجاحدة ، وقال لهم فى وضوح بالغ : انه أولى بهـم ألا يفكروا فى القيام بهذه المحاولة ، لأنه صلب صـلابة الخشـب ، ولن تؤثر فيـه سـهامهم • ولو أنهم جرؤوا بعد ذلك على أن يمسوه بأصابعهم ، فانه سيلوثهم بدماء كل ابن وبنت تولد لهم • وقد كان لهذا التهـديد أثره فيهم ، فرضخوا لمصيرهم • وتنازل الخالق الذى هدأت ثورة غضـبه بعد ذلك فشرح لهم فى أسـلوب هادىء أن الناس هم الذين جلبـوا الطوفان لأنفسهم بعصيانهم أوامره • واذا هم كرروا هذه الاسـاءة فى المستقبل ، فانه سيقابلها بعقاب ملائم لها • وقد كانت هذه هى المرة الأخيرة التى ظهر فيها الخالق للبشر وخاطبهم وجها لوجـه ، فمنـذ ذلك الوقت لم ير سكان جزر « أندمان » الخالق قط ، ولكنهم واظبوا على طاعته منذ ذلك اليوم فى ورع وخوف •

٩ ــ حكايات استرالية عن الطوفان الكبير :

تحكى قبيلة « كورناى » ، وهى قبيلة استرالية أصلية تسـكن فى « جيبلاند » فى ولاية « فيكتوريا » ، أنه منذ زمن سحيق حدث طوفان أغرق البلاد جميعا ، كمـا أغرق الشـعب الزنجى بأسره عدا رجـلا وامرأتين أو ثلاثا • وقد لاذ هؤلاء بجزيرة موطة تقع بالقرب من ميناء « ألبرت » ، وكانت المياه تحيط بهم من كل مكان • وفى هذا الوقت كان طائر البجع ــ أو « بونجيل بورون » كما يسـميها « الكورفانيون » تسير فى قاربها بالقرب منهم ، عنـدما أبصرت ما كان عليـه هؤلاء من غم ، فأسرعت لتقـدم لهم العون • وقد كانت من بين النسـاء أمرأة جميلة للغاية الى درجة أن أغرم بها الطائر ، فأخذ ينقـل هؤلاء واحدا تلو الآخر فى قاربه الى بلدهم الأصلى ، عـدا المرأة الجميلة التى كانت

كلما خطت الى القـــارب قال لهـــا : « ابقى أنت ، فان دورك لم يأت بعد » ، وهكذا ظلت وحدها فى الجزيرة • ولما خشيت أن يعود اليهـــا الطائر ، فتمكث معه بمفردها ، لم تنتظر رجوعه من رحلته الأخـــيرة وسبحت الى الشـــاطىء وبذلك هربت منـــه • ولكنها قبـــل أن تترك الجزيرة ، ألبست قطعة من الخشب دثارها المصنوع من جلد الحيوان « الأوبوســـوم » ، ووضعتها بجوار النار ، بحيث أصبح هذا الشـــكل يشبهها تماما • وعندما وصـــل الطائر لينقلهـــا الى الشـــاطىء صرخ بهـــا قائلا : « والآن قد أتى دورك » • ولكن قطعة الخشب لم تعـــره جوابا • فتملكه الغضب واندفـــع الى الشـــكل الـــذى حســـبه امرأة ووكله بشدة • وطبيعى أنه لم يؤذ ســـوى رجله • ويالهما من ألم وغم انتابا الطـــائر عندما أدرك أن الخدعة قد تمت عليه • عند ذاك أخذ يلون نفســـه بلون أبيض حتى يتنـــكر به ومضى ليحـــارب زوج تلك المرأة الفاجرة الوقحـــة التى خدعته • وبينمـــا كان يستعد للمعركة ، ولـــم يكن قد لون ســـوى نصف ريشه ، ظهر لـــه طائر بجع آخـــر • ولمـــا لم يستطع هـــذا الطائر الجديد أن يتعرف على هذا المخلوق الغـــريب الذى كان نصفه أبيض ونصفه أســـود ، فقد أخـــذ ينهشه بمنقـــاره حتى قتله ، وهذا هو الســـبب فى أن طائر البجـــع يتـــوزع لونه بين الأبيض والأسود ، فى حين أن لونه قبل الطوفان كان أسود فحسب •

أما السكان استراليا الأصـــليون الذين يســـكنون حول بحـــيرة « تيريس » ، فى ولاية « فيكتوريا » فيروون حكاية الطوفان على النحو التالى : حدث ذات مرة أن شربت ضفدعة مهولة مياه العـــالم جميعها بحيث لم تترك لأحد جرعة من المياه يروى بها ظمأه • وقد شق هـــذا الأمر على الكائنات الحية بخاصة الســـمك الذى أخـــذ يتجول لاهثا فى الأرض الجافة وهـــو يتوق الى قطـــرة مـــاء • وعنـــد ذاك اجتمعت الحيوانات وتدبرت أمرها معا ، واستقرت على أن الطريقة الوحيـــدة التى تدفع الضفدعة الى أن تمج المـــاء ، هى مداعبة خيالها فتضطـــر الى الضحك • ومن ثم فقد اجتمعت صفوف الحيوان أمام الضـــفدعة

وأخذت تتصرف بحماقة وتمزح بطريقة تجعل الشخص العادى يغـرق فى الضحك ، ولكن الضفدعة لم تصطنع حتى الابتسـامة ، بل جلسـت هادئة متجهمة تحملق بعينيها الجاحظتين وخديها المتـورمين ، صـارمة القـاضى • وعند ذاك وقف الثعبـان على ذنبه ، ليحـاول المحـاولة الأخيرة ، وأخـذ يتلـوى ويرقص بطريقة تثير الضحك • وكان هـذا المنظر أكثر مما تحتمله الضفدعة فانفرجت أسـاريرها وضحكت حتى جرت الدموع على خديها ، وتدفقت الميـاه أثر ذلك من فمهـا • على أن الحيوانات نالت نصيبا من المياه أكثر مما كانت تنتظر ، حيث أن المياه التى مجتها الضفدعة كانت من الكثرة بحيث تحولت الى طوفان أغـرق كثيرا من الناس • وقد كان مصير الناس جميعا الى الهـلاك لو لم تكن البجعة قد رحلت فى قاربها والتقطت من كان لا يزال منهم على قيـد الحيـاة •

حكايات عن الطوفان الكبير فى نيوغينيا وميلانيزيا

يحكى أهالى مقاطعة « كابادى » فى « غينيا الجديدة البريطانية »، أن رجـلا بعينه يدعى « لوهـيرو » غضب هو وأخـوه الأصغر من الناس ، ووضعا عظمة انسـان فى مجرى مائى صغير • فتدفقت الميـاه فى سرعة ، وأغرقت الأرض ، فاندفـع الناس الى الجبـال وأخـذوا يصعدونها شيئا فشيئا حتى وصـلوا الى أعلى قمم الجبـال ارتفاعا • وهنـاك استقروا حتى انحسر الطوفان • وعند ذاك هبط بعضهم الـى السهول ، فى حين ظل البعض الآخر يسـكن منحدرات الجبال وابتنوا البيـوت وفلحوا الأرض • ويحكى « الفـالمانيون » سكان « مينـاء برلين » الذى يقـع على السـاحل الشـمالى فى « نيو غينيا » ، أن زوجة رجل طيب رأت ذات يوم سـمكة كبيرة تسـبح فى اتجـاه الشاطىء • فصاحت بزوجها الـذى لم يتمكن من رؤية السـمكة لأول وهلة • فسـخرت منه زوجته وأخفته وراء شـجرة موز حتى يتمكن من أن يرمق السمكة من وراء الأشجار • فلما أبصرها تملكه الخـوف

وارسل الى ابنه وابنته وأطلعهم على السمكة ومنعهم من اصطيادها وأكل لحمها • ولكن أناسا آخرين أخذوا سهما ورمحا وخيطا وأصابوا السمكة وجروها الى الشاطىء • وعلى الرغم من أن الرجل الطيب حذرهم من أكل لحم السمكة ، فانهم لم يكترثوا لتحذيره • فلما رأى الرجل ما هم عليه من عناد ، أسرع وجعل زوجا من كل نوع من أنواع الحيوان يتسلق شجرة ثم تسلق هو وعائلته فى النهاية شجرة جوز الهند • أما الناس الأشرار ، فما كادوا يلتهمون لحم السمكة ، حتى تدفقت المياه من باطن الأرض فى قوة بالغة الى درجة أن أحدا لم يجد الوقت الذى ينقذ فيه نفسه ، ومن ثم فقد غرق الناس والحيوانات جميعا • وما كاد يصل ارتفاع المياه الى مستوى أعلى شجرة حتى انخفضت فى سرعة ، كما كان قد سبق لها أن ارتفعت فى سرعة • وعند ذاك هبط الرجل الطيب مع أسرته من أعلى قمم الأشجار وعمر الأرض وفلحها •

وقد قيل أن سكان نهر « ماسبرانو » الذى يقع فى « غينيا الجديدة » التابعة لهولندة ، يرون حكاية عن الطوفان الذى تسبب عن فيضان هذا النهر الذى ارتفعت مياهه حتى غطت جبل « فانيسا » ولم ينج منه سوى رجل وزوجته ومعهما خنزير وطائر الشبنم وحيوان الكانجرو وحمامة • وقد تناسل عن الزوجين الجنس البشرى ، كما تناسلت عن هذين الحيوانين والطائرين سائر أنواع الطيور والحيوانات • ولا يزال هناك على جبل « فانيسا » بقايا عظام الحيوانات الغرقى •

ويحتفظ « الفيجانيون » برواية عن الطوفان الذى يسمونه « فالافو ــ ليفو » • وبينما يحكى بعضهم أن الطوفان غمر جزءا من الأرض ، فان البعض الآخر يحكى انه غمر الأرض جميعا • وقد حدثت الكارثة على النحو التالى : كان للاله الكبير « ندينجاى » طائر مهول اسمه « توروكاو » • وقد اعتاد هذا الطائر أن يوقظه فى

ميعـــاد محدد كل صباح • وذات يوم صـــوب أحـــد حفيديه ، سواء عن طريق الصدفة أم عمدا ، سهامه الى الطائر فأرداه قتيلا ، ثم دفنه ليخفى معالم جريمته • وفى اليوم التالى لذلك ، نام الاله طويلا ولـــم يستيقظ فى ميعاده المحدد • وغضب الاله كل الغضب لاختفـــاء طائره المحبب اليه ، وأرسل رسوله « أوتو » ليبحث عنه فى كل مكان ، ولكن دون جدوى • وأبلغ الرسول الاله بأنه لم يعثر للطائر على أثر • ولكن عندما عاود الرســـول البحث مرة ثانية ، اكتشفت الجريمة عند عتبـــة باب حفيدى الاله • ولكى يجنب الحفيدان نفسيهما عاقبة غضب الاله الثائر ، هربا الى الجبـــال واحتميا عنـــد قبيلة من النجارين تطوعت أن تبنى حاجزا منيعا تعيش بداخله مع الحفيدين ، لكى يحـــول بينهم جميعا وبين الاله « نديجاى » وأتبـــاعه ، فـــلا يجعلهم يتجاوزون الخليج • وقد كانت القبيلة عند وعدها حقا ، فشـــيدت الحاجز الذى وقف عنـــده الاله وأتباعه يحـــاولون اقتحامه دون جدوى • ولما يئس الاله من غزو القبيلة بوسائل الحرب العادية ، سرح جيوشـــه وفـــكر مليا فى اجراء عمل انتقامى حاســـم • فأمر السحب الدكناء بأن تتجمع وتفجر ما فيها من أمطار غزيرة وتسقطها بغزارة على الأرض الملعونة • وأغرقت الأمطـــار البلاد ومن بعدها التلال ثم الجبال • ومع ذلك فقد ظل المتمردون ينظرون الى أسفل من قلعتهم المنيعة غير مكترثين بارتفاع المياه • ولكن عندما حطمت الأمواج سورهم الخشبى واقتحمت الميـــاه قلعتهم ، صـــاحوا باله من الآلهة أن يقدم لهم العون • فأرشـــــدهم أحـــد الآلهة ، وفق احدى الروايات ، الى أن يصنعوا منصة عائمة من ثمار شجر الليمون الهندى ، أو أنه أرســـل لهم ، وفقا لرواية أخرى ، قاربين لنجاتهم ، أو انه علمهم كيف يبنون مركبـــا يهـــربون فيه من الطوفان • وقد كان هذا الاله الـــذى خف لنجدتهم هو « روكورو » ، وكان قد جاء فى صحبة كبير رجاله « روكولا » • وبعـــد هذا أبحـــر الحفيـــدان فى قاربين كبيرين ، وأخـــذا يلتقطان أجســـاد الغـــرقى • ويحتفظان بها فى مركبيهما حتى انحسر الطوفان • على أن هناك رواية تذكر أن الأحياء قد أنقذوا بأن وضعوا أنفسهم فى أوعية كبيرة طفـــوا

فيها على سطح الماء • ومهما تعددت روايات الأسطورة « الفيجيانية » ، فانها تتفق جميعا فى أن الطوفان أغرق الأرض وأخذ يرتفع حتى غطى أكثر الأماكن ارتفاعا ، وأن من أنقذ من الجنس البشرى هرب فى مركب من نوع ما ترك فى جزيرة « مبينجها » بعد أن انحسر الطوفان • وقد بلغ عدد الأفراد الذين انقذوا ثمانية أفراد • وقد فنيت قبيلتان عن آخرهما فى الطوفان • وقد كانت احدى هاتين القبيلتين تتكون من النساء فقط ، فى حين كان أفراد القبيلة الثانية لهم أذناب كأذناب الكلاب • وحيث ان الذين أنقذوا كانوا قد استقروا بعد الطوفان على جزيرة « مبينجها » ، فان سكان هذه الجزيرة يدعون أنهم أعلى مرتبة من سائرالفيجيانيين كما يدعون أن زعمائهم كانوا يقومون على الدوام بدور بارز فى تاريخ « الفيجيانيين » • وهؤلاء يسمون أنفسهم « رعايا السماء وحدها » • وقد قيل : ان « الفيجيانيين » كانوا فى سالف الزمن يحتفظون على الدوام بقوارب كبيرة استعدادا لحدوث أى طوفان آخر ، ولم يكفوا عن اتباع هذه العادة الا فى الزمن الحاضر ••

ويحكى « الميلانيزيون » سكان جزر الهبريد الجديدة أن بطلهم الأسطورى الكبير « كات » قد اختفى من الوجود مع الطوفان الذى أغرق العالم • وهم يشيرون على وجه التحديد الى المكان الذى أبحر منه فى رحلته الأخيرة ، وهو عبارة عن بحيرة كبيرة تقع فى وسط جزيرة جلوة • وقد كانت هذه البحيرة فى عهد البطل « كات » سهلا فسيحا تكسوه الغابات • وكان « كات » قد قطع أطول شجرة فى الغابة وصنع من جذعها مركبا • واقترب منه أخوته وأخذوا يرقبونه وهو عاكف على بناء المركب والعرق يتصبب منه سواء كان جالسا أو واقفا فى ظلال الغابات الاستوائية الكثيفة • ثم سألوه فى سخرية « كيف يمكنك أن تجر هذ المركب الكبير الى البحر وسط الغابات الكثيفة ؟ » ولكن « كات » لم يكن يرد عليهم سوى بقوله : « انتظروا حتى تروا ما أفعله » • فلما أتم صنع المركب ، وضع فيه زوجته وأخوته ، وكل الكائنات الحية التى تعيش بالجزيرة حتى أصغر النمل حجما ، وصنع

للمركب غطاء أغلقه دونه ودون أسرته والكائنات التى جمعها • وبعـد ذلك أخذت الأمطار تهطل بغزارة ، فامتلأ تجويف الجـزيرة بالمـاء ، وأخذت المياه تتدفق خلال سلسلة التلال فى المكان الذى لا تزال شلالات جاوة تتدفق فيه فى اتجاه البحر ، محدثة هديرا صاخبا وسط ستار من الرذاذ • وهناك انزلق مركب « كات » على المياه المتدفقة عبر حواجز التلال ومنها الى البحر حيث اختفى عن الابصار • ويقول الأهالى : أن البطل « كات » قد أخذ معه من كل شىء أجوده عندما اختفى عن الاعين ومازالوا ينتظرون عودته السعيدة حتى اليوم •

١١ ــ حكايات عن الطوفان فى « بولاونيزيا » و « ميكرونيزيا » :

وتنتشر اساطير الطوفان الكبير الذى اغرق حشدا هائلا من الناس بين أهالى مجموعات الجزر التى يجمعهـــا اســـما « بولونيزيا » و « مكرونيزيا » وتنتشر انتشارا كبيرا فى الباسفيك • وقد قيل لنا : « أن الروايات المختلفة التى تنتشر بين مجموعات السكان المختلفـة تتفق فى عناصرها الأساسية ، وان اختلفت فى عدد من الاتفصـيلات • فتحكى مجموعة من هذه المجموعات أن الاله « تا أورا » (وهو خالق العالم وفقا لاساطيرهم) غضب فى العصور الأولى على الناس لعصيانهم أوامره ، فحول العالم الى بحر غرقت الأرض تحته عدا بعض النتوءات البارزة (أوروس) التى ظلت فوق سطح الماء مكونة مجموعات الجزر الأساسية • وأما ما يحتفظ به سكان ولايات « أيميو » من ذكـــرى هذه الحادثة ، فهو أن رجلا رسا بقاربه بعد أن انحسر الطوفان بالقرب من بلـــده « تياتاييوا » التى تقع فى جزيرتهم ، وشـيد معبـــدا أو (مارای) تكريمـا لآلهـــه •

وتروى أسطورة الطوفان فى تاهيتى ، على النحو التالى : لقـد حدث أن اغرق البحر « تاهيتى » عن آخرها ، بحيث لم يعش فيهـــا رجل أو خنزير أو كلب أو دجاجة • وقد اطاحت الرياح بحدائق الاشجار والاجحار وقلبت باطن الارض ظاهرها • ولم ينج من هـــذا الدمار

سوى رجل وامرأة ، فعندما بدأ الطوفان يزحف الى البلاد ، حملت المرأة أفراخها الصغيرة • وكلبها الصغير وقطتها الصغيرة ، فى حين حمل الزوج معه خنزيره الصغير (وهذه هى كل انواع الحيوانات التى كان يعرفها الأهالى قديما • وحيث أن كلمة « فاثاوا » أى الصغير تستعمل للمفرد والجمع ، فان عدد الحيوانات هنا قد يكون فردا وقد يكون جمعا •) وقـــد اقترح الزوج على زوجتـــه أن يأوى الى جبـــل « أوروفينا » ، وهو جبل عال فى « تاهيتى » ، حيث ان هذا الجبل ، كما قال لهـــا ، شاهق لا تصله مياه البحر • فعارضته الزوجـــة فى ذلك ورأت أنه من الافضل أن يأويا الى جبل « أوبيتوهيتو » حيث يـــكونان فى مأمن من الطوفان ، لان المياه يمكن أن تصل الى جبال « أوروفينا » • فامتثـــل الرجل لرأى زوجته التى كانت على حق فى تصورها ، اذ أن المياه غمرت جبل « أورفينا » بحق ، فى حين وقف جبل « أوبيتو هيتو » شامخا فى عرض المياه ، واصبح ملاذهم • وهناك أخذا يرقبان الفيضان ثمانى ليال حتى بدأ الجزر وبرزت قمم الجبال فوق الأمواج • فلما تراجـــع البحر الى مكانه الأصلى ، ترك الارض يبابا بلا محصول أو اناس ، بل أن السمك كان قد هرب الى الكهوف والجحور التى بالصخور • وقـــد كانت من الامثلة التأهينية المشهورة : « أحفر جحرا للسمكة فى الماء » • فعندما سكنت الريح وأصبح كل شىء هادئا ، وأخذت الأشجار والأحجار تتساقط من عل حيث كانت الريح قد أطاحت بها هناك • ذلك أن الزوابع كانت قد مزقت الأشجار وحملتها الى أعلى فى شكل دوامة • ونظر الاثنان من حولهما ، وقالت المرأة للرجل : «لقد نجينا من البحر ولكن هاهى ذى الحجارة المتساقطة تحمل الينا الموت ، فالى أين نلجأ الآن ؟ وعند ذاك حفر الاثنان حفرة وفرشاها بالحشائش وغطياها بالأحجار ، ثم زحفا الى داخلها ، وقبعا فيها وهما يستمعان الى صوت الصخور الساقطة من السماء • وهى تهدر وتتصادم • ثم أخذ سقوط الاحجار يقل تدريجيا بعد ذلك،سوى بعض الصخور التى كانت تسقط بين الحين والآخر،أعقبها سقوط أحجار متناثرة حتى كفت كلية عن السقوط • وعند ذاك قالت المرأة للرجل: « لا لن أخرج حتى لا ترديني الاحجار قتيلا » • ثم انتظرا يوما وليلة •

وفى الصباح التالى لذلك قال الزوج لزوجته : « لقد سكنت الريح حقا وكفت الأحجار وجذوع الاشجار عن السقوط ، كما أنه لم يعد يسمع للأحجار صوت » فبرحا جحرهما وأبصرا أكوام الأشـــجار والاحجار المتساقطة وكأنها جبل صـــغير • أما الأرض فلم يبق منها سوى التراب والصخور ، كما لم يعد هناك أثر للاشـــجار ان كان البحـــر قد دمرها ثم هبطا الجبل ونظرا من • ونهيا فى دهشة عندما لم يريا أثرا للبيوت أو لاشجار جوز الهند والنخيل أو لثمـــار الخبز أو لنبـــات الخبيزة أو للحشائش ، اذ كان البحر قد أتلفها عن آخرها • وعاش الروح مـــع زوجته وانجبا ابنا وابنة • وانتابهما الحزن اذ لم يجدا طعاما • وعلى الرغم من ذلك فقد ظلت المرأة تنجب أطفالا • ولكن لم تلبث أشجار جوز الهند وثمار الخبيزة أن أينعت وكذلك سائر الأشجار الأخرى• ولم تمض ثلاثة أيام حتى كانت الأرض قد غطيت بكافة أنواع الأطعمة ، ثم امتلأت على مر الايام بالناس الذين تناسلوا عن هذا الاب وتلك الام •

وقد حدث الطوفان فى رواية سكان جزيرة « راياتيا » وهى أخذى جزر « ليوارد » فى مجموعة الجزر التاهيتية ، بعد ان عمـــرت الارض بنسل « تا آتا » بقليل • فقد كان الاله « رواهاتا » يخلد الىالراحة بين شعب المرجان فى أعماق المحيط عنـــدما أقض مضجعة صـــياد كان يجدف فى قاربه فوق المكان الذى كان ينام فيه الاله ، ثم أدلى خطاطيفه وهو غافل أوجاهل بوجود الاله وسط الشعب المرجانية التى تقـــع فى قاع المياه الرائعة الشفافة • فاشتبكت الخطاطيف بشـــعر الاله ، بحيث لم يستطع الصياد أن يخلصها من خصلات شعر الاله المعطرة الا فى صعوبة بالغة ، وأخذ يسحبها فى رفق شيئا فشيئا • وغضب الاله لانه لم يجد راحته فى النوم وصعد الى السطح وهو يرغى ويزبد ، ورفع رأسه فوق سطح الماء وأخذ يعنف الصياد لقلة ورعه، وهدده بأنه سوف يدمر الأرض انتقاما من فعلته • وتملك الصـــياد الفـــزع وخر ســـاجدا أمام الاله واعترف له بجريوته ، وتوسل اليه أن يعفو عنه وان يغير الحكم الذى نطق به أو على الأقل ينقذه هو من هذا الدمار • وحركت توبة الرجل وكثرة

الحاحه مشاعر الاله « رواهاتو » وطلب منه أن يعود الى زوجتـــه وولده ويصطحبهما الى « تواماراما » ، وهى جزيرة صغيرة تقع بين الصخور فى الجانب الشرقى من «را آتيا » ووعده بأن يحميه هناك من الدمار الذى سوف يلحق بالجزر المحيطة به • وأسرع الرجل الى بيته واصطحب زوجته وولده ولجـــأوا الى الجزيرة • ويقول البعض أنه اصطحب معه كذلك صديقا له كان يسكن معه تحت سقف احد ، كما أخذ معه كلبا وخنزيرا وزوجا من الطيور ، بالاضافة الى الحيوانات الاليفة التى كان يعرفها أهل هذه الجزر آنذاك • ووصل الجميع الى المرسى وقد أوشك النهار على الانتهاء • وعندما غربت الشمس أخذت مياه المحيط تعلو حتى اضطر السكان المجاورين لشاطىء المحيط ان يتركوا مساكنهم ويلوذوا بالجبال • وظلت مياه المحيط ترتفع طوال الليل ، وفى الصباح لم يكن يبرز من البحرالشاسع سوى قمم الجبال العـالية التى اختفت فيما بعد ، وقد هلك سكان الجزر جميعا • ثم أخذت المياه تتراجع بعد ذلك • وعند ذاك ترك الصياد ورفاقه المكان الذى كانوا قد لاذوا به ، ورحلوا الى بلادهم ، وعنهم تناسل سكان الجزر الحاليون •

ولا يبلغ ارتفاع الجزر المرجانية التى لجأ اليها أجـداد الجنس البشرى فى كثر اجزائها ارتفاعا أكثر من قدمين فوق ســطح البحر ، بحيث يصعب علينا أننتصور كيف أن الطوفان لم يغرقها ، فى حين أنه غمر الجبال الشاهقة التى ترتفع قممها آلاف الاقدام عن شاطىء هذه الجزر المجاورة • ولكن هذه المشكلة لم تكن تمثل حجر عثرة فى سبيل ثقة الشعب بتراثه ، فهم لا يميـلون الى مناقشـــة هذه الآراء المتشـــككة وانما يشيرون ، بقصد تأكيد حكايتهم ، الى الشعب المرجانية والقواقع وغير ذلك من المواد التى يلفظها البحر ، تلك التى عثر عليها بين الفينـــة والفينة على سطح قمم جبالهم الشاهقة ، ويؤكدون فى اصرار أن هذه الفضلات ، لابد أن يكون البحر قد لفظها عندما أغرق الجزر •

ومن الملاحظ ، كما سنرى فيما بعد ، أن الاساطير التاهيتية عن الطوفان تعزو حدوثه الى فيضان البحر وحده ، ولاتعزوه الى سقوط

الأمطار التى لم يرد ذكرها على الاطلاق فى هذه الأســاطير • ويعلق « وليم اليس » الذى ندين له بتدوينه لهذه الاساطير ، يعلق عــلى ذلك بقوله « وكثيرا ما تحدثت مع الناس ، سواء كانوا من ســـكان الشمال أو من سكان الجنوب ، حول هذا الموضوع ، ولكننى لم أسمع منهم روايةقط عن انفتاحنافذة السماء،أو سقوط المطر فىأى شكلمنالاشكال• وانما يعزى الطوفان فى كل من أسطورة « رواهاتو » و « توامارامارا » فى تاهيتى ، و « كاى كاهينارى » فى « هاواى » الى فيضان البحر • كما أنها جميعا تعزو هذا الفيضان الذى أغرق العــالم وأهلك الجنس البشرى ، الى غضب الاله على الناس » •

وعندما كان « اليس » يعظ فى سكان « هاوى » عام ١٨٢٢ م ، ويتحدث اليهم غن قصة طوفان نوح ، روى له الاهالى حكاية شبيهة بحكاية نوح قد توارثوها أبا عن جد ، « فقالوا له ان آباءهم حكوا لهم أن البحر غمر الارض جميعا ذات يوم ، سوى جـــزء من ذروة جبل « أموناكيا » ، حيث كان شخصان يأويان اليها هروبا من الطوفان الذى أغرق من عــداهم • ولكنهم قالوا انهم لم يســـمعوا من قبل قط عن سفينة أو عن نوح نفسه ، حيث انهم تعودوا ان يطلقوا على الحكاية عنوان « كاى كاهينارى » (أى بحر كاهينارى) » •

ويروى عن « الماوريين » سكان نيوزيلنده أســطورة طويلة عن الطوفان• فهم يقولونانهعندما تكاثرالناسعلى وجهالأرض وتعددالقبائل انتشرت الشرور فى كل مكان ، فقد تنازعت القبائل فيما بينها واشتعلت بينها الحروب ، وأهمل الناس عبادة الاله الكبير « تانى » الذى خلق أول رجل وامرأة ، وأنكروا تعاليمه جهرا • حقا انه كان هناك نبيــان يعظان الناس ويرشدانهم الى العقيدة الصادقة التى تتصل بانفصــال السماء عن الأرض ، ولكن الناس سخروا منهما واتهموهما بأنهما معلمان مزيفان ، اذ أن السماء والارض متصلتان على نحو ما يرون منذ بداية الخلق • وقد كان اسما هذين النبيين هما « بارا وهنوا » ، و « توبو —

نوى آ ــ أوتا » • وقد استمر النبيان فى وعظهما الى أن لعنتهمـــا القبائل قائلة لهما : « انكما تستطيعان أن تلوكا ألفاظ تاريخكما كمـــا تلوكان طعامكما ، وتأكلان رءوس ألفاظ هذا التاريخ » • واستاء النبيان لسماع هذه العبارة الحمقاء « أنكما تأكلان الرءوس » وأخـــذ يهويان بفأسيهما الحجريتين على الاشجار وجرا جذوع الاشجار الى منبعنهر « توهينجا » وربطا بعضهما ببعض عن طريق خيوط النباتات المتسلقة والحبال حتى صنعا منها قاعدة عريضة ، ابتنيا عليها بيتا واخترنا فيـــه الطعام الكثير ، وجذور نبات السرخس والبطاطا كما أخذا معهما فيـــه بعض الكلاب • وبعد ذلك أخذا يتلوان التعـــاويذ ويبتهلان الى الاله الكبير « تانى » حتى يسقط الأمطار بكميات هائلة بحيث تقتنع النـــاس بوجوده وقوته ، وترشدهم الى ضرورة العبادة ان شاءوا أن يعيشوا فى سلام • ثم دخلا بيتهما ذاك وأخذا معهمـــا رجلـــين أحـــدهما يدعى « تيو » والاخر « ريتى » ، وامرأة تـــدعى « واى ــ بونا ــ هاو » بالاضافة الى نساء أخريات • وقام « تيو » بدور الكاهن وأخذ يصلى ويغطق بالتعاويذ حتى يسقط المطر • واستجابة لدعواته ، سقط المطر بكميات غزيرة ، وأخذ يهطل مدة أربعة أو خمسة أيام • ثم تلا الكاهن تعاويذه مرة أخرى ، حتى يكف المطر عن السقوط ، فسكنت الامطار ، ولكن الفيضان استمر فىالزيادة حتى وصل فى اليوم التالى الى بيتهم العائم ، فرفعته المياه فوق سطحها ، وأخذ التيار يجرفه حتى وصـــل به الى نهر « توهينجا » • وحتى هذا الوقت كان الفيضان فى انتشاره كبحر كبير يتأرجح فوقه البيت العائم ذات اليمين وذات الشمال • وبعد أن مرت سبعة أشهر قمرية على هذه الحال قال لهم الكاهن ، « اننـــا لن نهلك وسوف ترسو حتما على الأرض » وبعد أن انقضى الشهر القمرى الثامن قال لهم : « لقـــد انكمش البحر وأخـــذ الطـــوفان ينحسر » • فسأله النبيان : « وكيف عرفت ذلك ؟ « فأجاب : « أن مقياسى المدرج قد دلنى على هذا » • ذلك أن الكاهن كان قد وضع معبده على جانب من سطحالقاعدة العائمة ، وهناك كان يقوم بطقوسه ويـــكرر تعاويـــذه ويراقب مقياسه المدرج • ثم قرأ علامات المقيـــاس وقال لرفاقه :

« لقد هدأت الرياح العاتيه التى هبت فى الشهور الماضية ، كما سكنت الرياح التى هبت هذا الشهر ، ومن ثم فقد ســكن البحر » • وفى خلال الشهر الثامن لم يترنح البيت كما كان يفعل من قبل ، وانما أخذ ينزلق الى جانب ترنحه فى بعض الاحيان • وعند ذاك عرف الكاهن أن البحر قد انخفض ، وأنهم كانوا يبحرون بالقرب من الارض • فقال لرفاقه : « اننا سنرسو على الارض الجافة فى خلال هذا الشهر القمرى، لان مقياسى المدرج اطلعنى على أن البحر ينخفض تدريجيا « فأخذت الرفقة تكرر تعاويذها طوال الوقت وتحيى الطقــوس تكريمــا للاله « تانى » • وفى نهاية الامر رسا البيت العائم على أرض جـــافة فى « هاوايكى » • وقد كانوا يحسبون أنهم سيقابلون بعض الاحياء ، وأن الارض ستبدو لهم كما كانت قبل الطوفان ، ولكن كل شىء كان قد تغير فقد تشققت الارض وتصدعت فى بعض الاماكن ، وانقلبت ظهرا عــلى عقب فى بعض الاماكن الاخرى • أما الكائنات الحية فلم يكن لها أثر على وجه الارض ، وكان هؤلاء الاحياء الذين نجوا هم الذين انقذوا من بين القبائل التى كانت تعيش على وجه الارض • فلما رسا البيت بهؤلاء ، كان أول ما فعلوه أن قاموا بتأدية الشعائر واعادة التعاويذ : وعبــدوا الاله « تانى » والسماء (رانجى) والاله « راهو » ، وسائر الآلهــة الاخرى • وقدموا لكل اله فى اثناء العبادة قــدر ابهامين طــولا من حشيش البحر • وقد كان كل اله يعبد على حدة فى مكان مختلف ، كما كان لكل اله معبد تتلى فيه التعاويذ ، عبارة عن جذر من الحشــائش أو جذر شجيرة أو شجرة أو خصلة من خيوط الكتان ، فقد كانت معابد الآلهة على نحو هذا فى ذلك العصر • واذا سارت مجموعة من أفــراد قبيلة من القبائل بجوار هذه المعابد فى العصر الحاضر ، فان الطعام الذى بداخل معدتهم يتضخم ويقتلهم ، ولا يسمح لاحد أن يذهب الى هــذه الامكنة المقدسة سوى الكاهن • أما اذا زارها عامة الناس ثم ظهــوا الطعام بعد ذلك فى قراهم ، فان الشخص الذى يتناول هذا الطعام يموت، ذلك أن اللعنة تحل بالطعام من جراء ارتكاب الناس الاثم فى تدنيسهم

قدسية هذه المعابد ، ويكون عقاب آكلى الطعام بسبب اثمهم هو الموت وبعد أن قام الناس الذين نجوا بكل الشعائر اللازمة لازالة الدنس الذى أثقلوا به ، أشعلوا النار عن طريق الاحتكاك باحدى الاماكن المقدسة ، ثم أشعل الكاهن قطعة من الحشائش ، ووضع كل حزمة مشتعلة عند كل معبد بجوار قطعة النبات المخصصة للاله • وبعد ذلك قدم الكهنة للآلهة أعشاب البحر شكرا لها على انقاذهم من الطوفان وعلى حفظ حياتهم فى البيت الذى طافوا فيه ••

وكما دونت حكاية الطوفان فى « بولونيزيا » ، فقد دونت كذلك فى « ميكرونيزيا » • فيحكى « البيلوريون الايسلنديون » ، أن رجلا صعد ذات يوم الى السماء ، حيث تنظـر الآلهة بعيـــونها البراقة ــ وهى النجوم ــ كل ليلة الى الارض ، وسرق أحد هذه النجوم وحمله معـــه الى الارض • ومن هذه العين البراقة صنع « البيلوويون الايسلنديون » نقودهم منذ ذلك الحين • ولكن الآلهة غضبت لهذه السرقة ، ونزلت الى الارض لتسترد ممتلكاتها المسروقة وتعاقب السارق • ولكى تفعل هـذا تنكرت فى شكل عامة الناس ، وأخذت تتنقل من بيت الى بيت تسأل الناس طعاما ومأوى ولكن الناس كانوا افظاظا فى سلوكهم معها وطردوها دون أن يقدموا اليها عشـــاء أو كسرة خبز • ولكن أمرأة عجـــوزا أحسنت استقبالها ، وقدمت لها أطيب ما عندها من طعام وشراب • وعند خروج الالهة من كوخ المرأة العجوز ، نصحتها أن تصنع لوحا من خشب المامبو بحيث يكون معدا عند اكتمال القمر التالى وتنام عليه فى الليلة بعينها التى يكتمل فيها القمر • فصنعت المرأة العجوز ما نصحت به • فلما كانت ليلة اكتمال القمر ، هبت عاصفة وهطلت الامطار ، وأخذت مياه البحر ترتفع تدريجيا حتى أغرقت الجزر ، وطوقت الجبال ، وهدمت مساكن الناس الذين لم يعرفوا كيف ينقذون أنفسهم ، فهلكوا عن آخرهم • أما المرأة العجوز الطيبة فقد راحت فى سبات عميق على لوح الخشب وطفت على سطح الماء وجرفها التيار حتى تشابكت خصلات شعرهـــا بفروع شجرة كانت تقع على قمة جبل « أرميليميو » • وهناك استقرت

حتى انحسر الطوفان وانخفضت المياه تدريجيا حتى وصلت الى سفح الجبل • وعند ذاك هبطت الالهة من السماء لتبحث عن المرأة العجـــوز الطيبة التى تعهدت بحمايتها ، ولكنها وجدتها ميتة • فاستدعت الالهـــة امرأة من بين شعبهم النسائى الذى يسكن السماء ، فتوغلت هذه المرأة فى جسد العجوز المتوفاة وأحيتها • ثم أنجبت الالهة بعد ذلك خمسة أطفال عن طريق هذه المرأة العجوز التى بعثت الى الحياة ، وبعدها عادت الالهة الى السماء وكذلك المرأة الالهة التى تطوعت وأعادت الحياة الى المرأة العجوز بعد أن توفيت • وقد عمر الاولاد الخمسة الذين ولدوا من آباء الهيين وام انسانية جزر « بيلو » ، ومنهم تناسل سكان هذه الجـــزر الحاليين •

١٢ ــ حكاية عن الطوفان الكبير فى امريكا الجنوبية :

كان هنود البرازيل ، وقت أن اكتشفوا فى المكان الذى تقع فيـــه اليوم مدينة « ريو ــ دى ــ جانيرو » يروون أسطورة عن طوفان أغرق العالم ولم ينج منه سوى أخوين مع زوجتيهما • وقد اغرق هذا الطرفان وفقا لاحدى روايات هذه الأسطورة جميع بقاع العالم وأهلك الناس جميعا فيما عدا اجداد هؤلاء الهنود الذين تسلقوا شجرة عالية • ووفقا لرواية أخرى ، نجا هؤلاء من الطوفان فى قارب •

أما الحكاية التى رواها « أندريه تيفيـــه » الفرنسى ، الذى زار البرازيل فى منتصف القرن السادس عشر ، نقلا عن الهنود الذين كانوا يسكنون بالقرب من « كيب فريو » فتجـــرى على النحو التالى : كان لطبيب عظيم اسمه « سوماى » ولدان ، أحدهما اسمه « تاميتدوناري » والاخر اسمه « أريكونت » • أما « تاميندوناري » ، فكان يقوم بفلاحة الارض ، وكان أبا وزوجا صالحا ، وله زوجة وأولاد • وأما الابن الثانى فلم يكن يهتم بشىء من هذه الامور ، بل كان منصرفا الى الحرب • وقد كان الشىء الذى يجلب السرور الى نفسه ، هو اخضاع القوم المجاورين له لسطوته ، بل اخضاع أخيه الشقيق • وذات يوم ، أحضر هذا المحارب

الشرس لاخيه المسالم ذراعا مبتورة لاحد قتلاه فى معركة من المعارك ، وقال له فى الوقت نفسه فى كبرياء : « اغرب عن وجهى أيها الجبان ، اننى سآخذ منك زوجك وأولادك ، حيث انك غير قادر عن الدفاع عنهم» • فنظر اليه أخوه الطيب آسفا لعنجهيته ورد عليه فى سخرية لاذعه وقال له : « اذا كنت على هذا النحو من الشجاعة ، فلم لم تحضر معك بقية رمم أعدائك » ؟ • وعند ذاك رمى «أريكونت » الذراع المبتورة على عتبة باب أخيه ، وهو ساخط على تعنيفه اياه • وفى هذه اللحظة انتقلت القرية التى يسكنها الأخوان الى السماء ، ولم يبق على الارض ســـوى الاخوين • فلما أبصر « تاميندوناری » ما حدث ، دق الارض برجله فى عنف بدافع الدهشة أو الغضب ، فتدفق نبع من المياه ، وأخذت الميــاه تعلو حتى غطت قمم التلال وكادت تصل الى سحب السماء • ثم استمرت فى تدفقها حتى غطت الارض جميعا • فلما رأى الاخوان أن الخطر قد أحدق بهما ، أسرعا وصعدا الى أعلى قمم الجبال ارتفاعا ، ثم أخــذا يتسلقان الاشجار هروبا من الماء مع زوجتيهما • أما « تاميندوناری » فقد تسلق شجرة تسمى شجرة « بيندونا » وهى تلك التى رأى الرحالة الفرنسى منها نوعين ، أحدهما ثماره أكبر وأوراقه أعرض من النوع الاخر• ولم يأخذ « تاميندوناری » معه سوى زوجة من زوجاته فى أثناء هروبه من الطوفان • أما الاخ الثانى « أريكونت » ، فقد تسلق هو وزوجتــه شجرة أخرى تسمى شجرة « جينيبير » • وهناك على قمة هذه الشجرة قدم « أريكونت » بعض الثمار لزوجته وقال لها : « اكسرى هذه الثمار وارمى بها فى الماء » • فلما فعلت أدركوا من صوت رشـــاش الماء أن المياه لا تزال عالية ، وأنه لم يحن الوقت بعد لكى يهبطوا الى الوادى • ويعتقد الهنود أن الناس جميعا غرقوا فى هذا الطوفان فيما عدا الاخوين وزوجتيهما • ومنهما تناسل شعبان مختلفان هما شعب « توناسيرى » وكنيته « توبنامبو » وشعب « تونايتزهوبانا » وكنيتــه « تومينى » • وكلا الشعبين فى حرب على الدوام مع بعضهما البعض • ويميل شعب « توبينامبو » الى أن يعلى من قدره فوق أقرانه وجيرانه فيقول : « اننا

من نسل « تاميندوناري » أما انتم فمن نسل « أريكوتت » • وهم يعنون بذلك أن « تاميدوناري » كان أفضل من أخيه « أريكونت » •

وقد روى الاب اليسوعى « سيمون دى فاسكونسلوس » رواية أخرى لهذه الاسطورة تختلف بعض الشيء عن الرواية السالفة • ففى رواية الاب اليسوعى نجت أسرة واحدة من الطوفان • كما أنه ليس بها ذكر لأخ شرير • وتحكى هذه الرواية أنه كان فى سالف الزمن طبيب ماهر أو عراف يدعى « تاماندوار » ، أفشى اليه الاله بسر قدوم طوفان كبير يغرق الارض ، ثم يظل يعلو حتى يغطى الاشجار وقمم الجبال فيما عدا قمة واحدة توجد عليها شجرة نخيل تطرح ثمارا كثمار جوز الهند • وقد نصح الاله الطبيب بأن يلوذ بهذه الشجرة مع اسرته فى فى ساعة الشدة • ولم يتوان « تاماندوار » لحظة ولجأ الى المكان المذكور مع أسرته • وما كاد يستقر هناك حتى بدأت الامطار تهطل حتى أغرقت الارض ، ومن بعدها وصلت الى قمم الجبال • وعند ذاك تسلق الرجل وأسرته شجرة النخيل وظلوا هناك طوال مدة الطوفان يعيشون على ثمارها • فلما انحسر الطوفان هبطوا الى الارض وأنجبوا أولادا وأحفادا عمروا الارض التى كان الطوفان قد تركها خرابا •

وبالمثل تروى قبيلة « كاينجانج » أو « كورودو » التى تقطن فى اقليم « ريو جرانوى دى سول » ، الذى يقع فى أقصى جنوب البرازيل حكاية عن الطوفان الكبير الذى أغرق الارض التى كان يسكنها اجدادهم من قبل • ولم يبرز فوق سطح الماء سوى قمة سلسلة الجبال الساحلية التى تسمى « سيرا دو مار » وقد سبح أفراد القبائل الهندية الثلاث وهى قبيلة « كاينجانج » وقبيلة « كايوروكرى » وقبيلة « كامى » ، فى اتجاه هذه الجبال ، وهم يحملون شعلات من النار بين أسنانهم • وسرعان ما شعر أفراد قبيلتى « كاينجانج » ، و « كامى » بالتعب ، فغاصوا تحت الأمواج وغرقوا وفارقتهم أرواحهم لتسكن الجبال • أما أفراد قبيلة « كايوروكرى » وبعض أفراد قبيلة « كوروتون » فقد شقوا طريقهم بين الامواج الى الجبال ، وهناك اتخذوا

لأنفسهم مأوى ، بعضهم فى الجبال وبعضهم بين فروع الأشجار • ثم مرت بعد ذلك عدة أيام دون أن تنخفض المياه ، كما لم يجد هذا الحشد فى أثنائها ما يأكله • وبينما كان الجميع يتمنى الموت ، سمعوا غناء طيور « ساراكورا » ، وهى نوع من الطيور المائية ، وقد جاءتهم بسلال مملوءة بالتراب • ثم رمت الطيور بهذه الاتربة ، فهبطت الى قاع الماء بطبيعة الحال • وعند ذاك صاح الناس على الطيور أن تسرع ، كما نادت الطيور بدورها البط ، وأخذ الجميع يعمل معا لتهيئة مكان يعيش فيه كل الناس غير أولئك الذين كانوا استقروا على الاشجار ، وقد تحول هؤلاء فيما بعد الى قردة • وعندما انحسر الطوفان هبطت قبيلة « كاينجانج » واستقرت عند سفح الجبل • أما أرواح الغرقى من قبيلتى « كايوروكرى » و « كامى » ، فقد تسربت من أحشاء الجبل الذى كانت سجينة فيه • فلما خرجت الى الخارج أشعلت النيران ، وصنع أحد افراد قبيلة « كايوروكرى » من رمادها أشكالا للنمور ، وحيوانات التابير وآكلى النمل والنحل وغير ذلك من صنوف الحيوان ، ثم بث فيها الحياة وأرشدها الى الطعام الذى تأكله • ثم جاء أحد أفراد قبيلة « كامى » وقلده وصنع أشكالا لسبع الجبل والحيات السامية والذنابير لكى تتصارع مع الحيوانات التى صنعها أحد أفراد القبيلة الاولى ، على نحو ما تتصارع معها اليوم •

وبالمثل يروى عن قبيلة « كارايا » وهى قبيلة هندية برازيلية تسكن وادى نهر « أرجواى » الذى يكون مع نهر « توكانتينز » ، أهم الانهار الشرقية التى تصب فى الفروع الجنوبية لنهر « الامازون » ، حكاية عن الطوفان الكبير • ويقال : ان هذه القبيلة تختلف عن جيرانها فى الاخلاق والعادات ، كما تختلف عنها فى خصائصها الفيزيائية ، بل ان لغتها ليست لها علاقة — فيما يبدو — باللغات الاخرى المعروفة التى يتحدث بها الهنود البرازيليون • وتجرى حكاية قبيلة كاديا عن الطوفان على النحو التالى • خرج « التيكاراياويون » ذات يوم ليصطادوا الخنازير المتوحشة ، فاختبأت الخنازير فى مغاراتها وعند ذاك حاولوا ان يخرجوها من مخبأها ، فكانوا كلما أخرجوا خنزيرا

قتلوه فى الحال • وفى اثناء اخراجهم للخنازير ، اعترضهم غزال وحيوان التابير ، وغزال أبيض • فلما توغلوا داخل الكهف اعترضتهم قدم انسان وأفزعهم هذا المنظر ، وراحوا يبحثون عن ساحر قدير له علم بصنوف حيوانات الغابة • وجاء هذا الساحر واجتهد فى اخراج صاحب القدم من التراب • وكان اسم هذا الرجل « أناتيرا » وكان نحيـــلا وان كان ذا بطن ضخم•

أخذ « أناتيو » يغنى ويقول : « أنا أناتيوا ، أحضروا لى دخانا كى ادخن » ولكن القبيلة لم تفهم لغته واسرع أفرادها الى الغابـــة وأحضروا له أنواع الزهور والثمار ولكنه رفضها جميعـــا وأشار الى رجل كان يدخن • فعرفوا مطلبه فى الحال وأحضروا له الدخان • فتناوله منهم وأخذ يدخن حتى سقط مغشيا عليه • فحملوه فى قاربهم ورجعوا به الى قريتهم • وهناك أفاق من غفوته وأخذ يرقص ويغنى • ولـــكن مسلكه ولغته الغريبة ألخافت قبيلة « كارايا » ، فحملت امتعتها ورحلت من القرية ، مما أغضب « أناتيوا » ودفعـــه لان يحول نفســـه الى « بيرانها » ، وأن يلحق بهم على هذا النحو حاملا معه ثمار القـــرع المجوفة بعد أن ملأها بالماء • ثم صاح بأفـــراد القبيلة أن يتوقفوا ، ولكنهم لم يكترثوا لندائه • وعند ذاك هشم ثمرة من ثمار القرع التى كانت معه وفى الحال تدفق الماء وأخذ يعلو فى الوقت الذى كانت فيـــه القبيلة تواصل هروبها • فهشم « أناتيوا » ثمار القرع واحدة تلـــو الاخرى • وكان كلما هشم ثمرة ، ازداد ارتفاع الماء حتى أغرق الارض جميعا ، ولم يعد بارزا منها فوق سطح الماء ســـوى قمم الجبال التى تقع عند نهر « تابيرابى » • فلاذت القبيلة بقمتين من قمم هذه السلسلة الجبلية • وعند ذاك صاح « أناتيوا » على كل أنواع السمك أن يجرف هؤلاء الناس الى الماء • فحاول سمك « الباهو » و « البنتادو » ، و «الياكو » أن يفعل هذا دون أن ينجح فى اغراقهم • وفى النهاية حاولت ســـمكة « بيكودو » (وهى ســـمكة ذات منقـــار طويل كالخـــرطوم) أن تتسلق الجبل من الخلف ، وقذفت بأفراد القبيلة فوق قمة الجبال الى

الماء • ومازال هناك مستنقع كبير يشـــير الى المكان الذى سقط أفـــراد قبيلة « كارايا » فيه • ولم يبق فوق قمة الجبل سوى بعض الافراد الذين لم يهبطوا منه الا بعد أن انتهى الطوفان • وقد علق الكاتب الذى دون هذه الحكاية عليها بقوله « على الرغم من أن الفيضـــانات التى تحدث بانتظام ، مثل فيضانات نهر أراجواى ، لا ينشأ عنها فى العموم حكايات عن الطوفان ، كما أشار أندريه الى هذا بحق ، الا أن الظروف المحلية لوادى نهر أراجواى مناسبة لان ينشأ عنها مثل هذه الحكاية • فالمسافر الذى يجد نفسه فجأة ، بعد رحلة طويلة بين شواطىء النهـــر المنخفضة الممتدة الى غير نهاية ، أمام تلك الجبال الصلبة ذات الشكل المخروطى التى تقع عند نهر « تابيرى » ، والتى تعلو أمامه فجـــأة بين السهول ، يستطيع أن يفهم فى يسر الظـــــروف التى دفعت قبيلـــــة « كارایاس » ، التى عانت كثيرا من الفيضانات ، لان تحكى مثل هذه الحكاية • وربما كانت هذه الجبال بحق بمثابة ملجأ لسكان الاحيـــــاء المجاورة » • ثم يضيف الكاتب الى ذلك قوله : « وكما هو الحال فى معظم أساطير الفيضان فى أمريكا الجنوبية ، فان هذا الفيضان الغريب الذى تحكى عنه هذه الاسطورة ، لم يحدث نتيجة سقوط الامطار ، بل حدث نتيجة تحطيم أوعية كانت ممتلئة بالمياه •

وبالمثل يحكى « الباماريون » و « الابيديريون » و « الكتاوشيون » الذين يسكنون عند نهر « بوروس » أنه قد حدث فى زمن من الازمنـــة أن سمع الناس صوت قعقعة ينبعث من فوق الارض ومن تحتها ، ثم استحال لون الشمس والقمر الى لون أحمر وازرق واصفر ، واختلطت الوحوش فى غير فزع بالناس • وبعد مضى شهر ، سمع الناس هديرا ، كما أبصروا الظلمة تصعد من الارض الى السماء تحت المياه ، وفقد بعض الناس كمامات بعضهم ، دون أن يعرف الناس سببا لهذا ، اذ كان كل شىء فى حالة اضطراب مفزعة • ثم ظلت المياه ترتفع حتى لم يعد بارزا من الارض سوى فروع الاشجار الشاهقة • وعند ذلك أخـــــذ الناس يبحثون عن مأوى لهم ، وهلكوا من البرد والجوع وهم جاثمون بين فروع الاشجار ، ذلك أن الظلام كان يعم الكـــون طوال الوقت ، كما

كانت الامطار تسقط بصفة مستمرة • ولم ينج من هذا الطوفان سوى رجل يدعى « أوآسو » مع زوجته • فلما هبط هذان من أعالى الاشجار بعد أن انتهى الطوفان ، لم يجدا أثرا لجسد انسان ، اللهم الا كومة من العظام البيضاء • وبعد ذلك انجب هذان عددا كبيرا من الابناء • ثم قال أحدهما للاخر : « هيا نبتنى بيوتنا فوق الماء ، فاذا علا الماء طفت بيوتنا على سطحه ونحن بداخلها واصبحت متماســـكة • ومع ذلك فان « الباماريون » مازالوا يبنون مساكنهم فوق الماء حتى اليوم •

ويرى « المورانطيون » وهم فرع من « الجيباريين » الذين يسكنون فى « أكوادور » ، حكاية خاصة بهم عن الطوفان ، يقولون فيها ان موراطيا هنديا خرج ليصطاد فى مجرى نهر « باستازا » الضحل • فابتلع تمساح صغير الطعم من سنارته ، فقتل الصياد التمساح أثر ذلك • فغضبت أم التمساح أو بالاحرى أم التماسيح ، وأخذت تضرب الماء بذيلها حتى فاضت المياه وأغرقت ضواحى النهر ، وغرق الناس جميعا عـــدا رجل واحد استطاع أن يتسلق نخلة ومكث هناك بضعة أيام كان الظلام يخيم فيها على الكون كله • وكان الرجل يقذف بين الحين والاخر بثمرة من ثمار النخلة فى الماء ، ولكنه كان يسمع لها على الدوام صوت ارتطام قوى • وفى اليوم الاخير رمى ثمرة على الارض فأحدثت صوتا مصمتا ، فادرك لحينه أن الماء قد انحسر • فهبط من الشجرة وابتنى بيتا وأخذ يفلح له حقلا • وقد كان الرجل بدون زوجته ، لكنه سرعان ما صنع لنفسه واحدة بأن قطع جزءا من جسمه وغرسه فى الارض ، فأخصبت التربة هذا الجزء ونمت منه امرأة تزوجها فيما بعد •

ويحكى « الاروكانيون » سكان شيلى حكاية عن الطوفان الذى لم ينج منه سوى بضعة أشخاص • وكان هؤلاء الاحياء المحظوظون قد لجأوا الى قمة جبل شاهق يسمى جبل «ثجثج» ومعناه الجبل المرعد أو المتلالىء وقد كان لهذا الجبل ثلاثة نتوءات ، كما كان له خاصية الطفو على الماء • « ومن ثم كان من الممكن الاستدلال » ، كما يقول مؤرخ أســـبانى ، « على أن هذا الطوفان قد حدث نتيجة بعض الانفجارات البركانية التى

صحبتها هزأت أرضية شديدة • فهو طوفان يختلف فيما يبدو عن طوفان نوح • وأينما تحدث هذه الهزات الأرضية العنيفة ، فان الناس يهربون، طلبا للأمان ، الى هذه الجبال التى يحسبونها طافية ، ومن الطبيعى أنها تتصف حقا بخاصية الطفو على الماء ، ووفقا لتصورهم • وسبب هذا أن الناس يخافون بعد حدوث هزة أرضية ، أن البحر يفيض مرة أخـــرى ويغرق العالم • وفى مثل هذه الحالات يأخذ كل فرد معـــــه مقداراً من الزاد ، وأطباقا خشبية يضعها فوق رأسه لكى تحميه من حرارة الشمس ذلك لان المياه عندما ترفع جبال « ثجثج » نتيجة ارتفاع المياه ، فمـــن الطبيعى أن الجبال تقترب عندئذ من الشـــــمس • فـــاذا قيل لهم ان الأطباق المصنوعة من الطين أكثر ملاءمة لهذا الغرض من تلك المصـــنوعة من الخشب التى قد تحترق بتأثير حرارة الشمس ، فان جوابهم المألوف عن هذا بأن أجدادهم قد فعلوا هذا من قبل •

ويحكى « الأكاويون » سكان « جيانا البريطانية » حكـــاية عن الطـــوفان الكبير غنية بتفصـــــيلاتها • فهم يقولون : أن الروح الكبير « ماكونيما » خلق فى بداية الحياة الطيور والوحوش ، ثم عين ابنـــه « سيجو » حاكما عليها • وفضلا على هذا فقد أنبت فى الأرض شجرة ضخمة رائعة تحمل على كل فرع من فروعها ثمارا مختلفة ، بينما كان ينبت حـــول جذعهـــــا الموز والطلح والكاســـــافا والذرة والقمح فى وفرة ، كما انتشر نبات اليام حول جذورها • وباختصار ، فقد ازدهرت فوق تلك الشجرة العجيبة أو حولها أو أسفلها كل النباتات التى تنمـــو على سطح الأرض • ولكى يعم خير الشجرة العالم أجمع ، قرر « سيجو » أن يقطع تلك الشجرة وأن يغرس بذورها وشظاياها فى كل مكان • وقد فعل هذا بمساعدة كل الوحوش والطيور باستثناء القـــــرد ذى اللون البنى ، الذى رفض بسبب كسله وولعه بايذاء الناس ، أن يساهم فى هذا العمل الكبير • ولهذا فقد أرسل « سيجو » هذا القرد ليحضر الماء من النبع فى سلة مخرمة لكى يصرفه عن التفكير فى أى عمل شرير ، اذأنه قدر أن هذا العمل يستغرق حيويته لبعض الوقت ، تلك الحيوية التى

يستنفذها خلاف هذا فى الاعمال الشريرة • وفى أثناء هذا انشـــغل « سيجو » بقطع الشجرة ، واكتشف أن بطن الشجرة كان مجوفا وممتلئا بالماء الذى يسبح فيه كل أنواع السمك • وعند ذلك رأى « ســـيجو » الطيب أن يمد أنهار وبحيرات العالم أجمع بكميات وافـــرة من هذه الأسماك ، حتى يتوالد فى كل مياه كل نوع من أنواع هذا السمك • ولكن هذا العمل الطيب لم يتم كما كان متوقعا ، لان المياه المخـزونة فى بطن الشجرة بدأت تتدفق لانها كانت متصلة بخزان كبير فى جوف الأرض • ولكى يحول « سيجو » دون تدفق المياه ، سد الجزء الباقى من الشجرة بعد قطعها ، بسلة محكمة النسج ، فتوقفت المياه حقـا عن التدفق • ولكن لسوء الحظ جاء القرد خلسة الى مكان الشجرة ، بعد أن تعب من العمل الذى كلف به ، وأثارت هذه السلة المقلوبة فضوله ، وتصور انها يمكن ان تخفى طعاما طيبا ، فرفعها فى حذر واختلس النظر بداخلها ، واذا بالماء يتدفق فىقوة مكتسحا القرد أمامه وأغرق الارض جميعها • وعند ذلك جمع « سيجو » صنوف الحيوان التى لم يغرقها الطـوفان ، وقادها الى أعلى مكان فى البلد حيث تنبت بعض أشجار جوز الهنـــد الطويلة ، ثم ترك الطيور والحيوانات القادرة على التسلق تصـــعد أكثر هذه الاشجار ارتفاعا • أما تلك الحيوانات التى لم تكن تتمكن من تسلق الاشجار وليست من الانواع المائية أو البرمائية ، فقد حبسها فى كهف ذى مدخل ضيق غطاه بالشمع بعد أن سلم الحيوانات شوكة طويلة تثقب بها الشمع لكى تتأكد من انحسار الطوفان • وبعد أن اتخذ « سيجو » هذه الاحتياطات لضمان سلامة هذه الحيوانات الضعيفة ، تسلق مع الحيوانات الأخرى شجرة النخيل ، واحتجب بين فروعهـا ، وأخذ يقاسى معها آلام البرد والجوع بسبب الظلام الدامس وهبوب العاصفة التى أعقبت تدفق الفيضان • أما سائر الحيوانات فقد تحملت متاعبها فى رباطة جأش • أما القرد الأحمر ، فقد أخذ يصرخ من الألم صرخات مفزعة حتى انتفخت رقبته ولا تزال له حتى اليوم طبلة ناتئة العظام فى رقبته • وفى هذه الاثناء ، كان « سيجو » يقذف بين الحين والآخر بثمار شجرة النخيل فى الماء ليختبر من صوت ارتطامها به عمق

المياه•فكلما انخفضت المياه، كانت تزداد المسافة الزمنية بين سقوط الثمرة وارتطامها بالماء • وفى النهاية سمع صوتا مصمتا بدلا من صوت الارتطام وأخذ يستعد مع من معه من الحيوانات والطيور للهبوط من أعلى الشجرة• على أن الطائر النافخ كان فى عجلة من أمره فى أثناء هبـــوطه ، بحيث اقتحم عش نمل • فهجم النمل الجائع عليه وأخذ ينهش رجليه وعراهما من اللحم • وهذا هو السبب فى أن الطـــائر النافخ ما زالت له رجلان عاريتان من اللحم حتى اليوم • واتعظت الكائنات الأخرى بفعله هذا الطائر ، فهبطت فى حذر وخوف • وبعد ذلك أخذ ســـيجو قطعتين من الخشب ، وحك احديهما بالأخرى لكى يولد النار • وما كادت تتطـــاير الشرارة الأولى ، وكان « ســـيجو » قد ولى وجهه عنها صـــدفة ، حتى أخطأها الديك الرومى وابتلعها وطار • فأحرقت الشرارة رقبته • وهذا هو السبب فى أن الديك الرومى له غبب أحمر حتى يومنا هـــذا • وكان التمساح يقف فى هذا الوقت الى جانب الديك الرومى دون أن يتسبب فى ايذاء أحد • ولكن لما كان سلوكه فى هذا الوقت لسبب ما غير عادى ، فقد اتهمته الحيوانات الأخرى بسرقة الشرارة وابتلاعها • ولكى يسترد « سيجو » الشرارة من بين فكيه فتح فمه ومزق لسانه • وهذا هو السبب فى أن التماسيح الأمريكية لم يعد لها ألسنة منذ ذلك اليوم •

ويعتقد « الأراوكيون » سكان « جيانا البريطانية » أن الحيـــاة أصيبت بالدمار مرتين منذ خلقها ، مرة بسبب النار ومرة بسبب الفيضان وكلا الدمارين أحدثهما « أيومون كرنوى » ساكن السماوات العليا » ، بسبب فساد الجنس البشرى • على أنه أنذر الناس قبل حدوث الدمار الأول ، فأخذ القوم الذين استمعوا لتحذيره ، يســـتعدون للهروب من النار الكبيرة ، بأن أخذوا يحفرون تحت جبل رملى • وابتنوا لانفسهم مسكنا تحت الارض ذا سقف خشبى ويقوم على أعمدة خشبية • ثم غطوا سقف المسكن بالتراب وطبقة سميكة من الرمل • وبعد ذلك لجأوا اليه بعد أن أبعدوا عنه كل المواد القابلة للاشتعال • وهناك مكثوا فى هدوء حتى خمدت ألسنة النيران التى اكتسحت أمامها كل شىء عـــلى

سطح الأرض • أما الدمار الثانى الذى حل بالأرض ، فقـد تسبب عن الطوفان • وقد كان زعيم حكيم ورع يدعى « ماريريوانا » يعلم به قبل وقوعه ، من ثم فقد نجا مع أسرته فى مركب كبير • ولما كان يخشى أن يجرف التيار مركبه بعيدا عن الشاطىء وبعيدا عنمسكن آبائه ، فقـد صنع حبلا طويلا من الألياف وربط به مركبه فى جذع شـجرة ، فلما انحسرت المياه ، لم يجد نفسه بعيدا عن مكان الأصلى •

ويحكى « الماكوسيون » الذى يسكنون « جيانا البريطانية » أن الروح الطيب « ماكونيما » الذى يعنى اسمه « الذى يعمل بالليل » ، خلق فى بداية الحياة السماء والأرض • وبعد أن ملأ الأرض بالاشجار والنباتات ، هبط من مسكنه فى السماء وتسلق شجرة وأخذ يكشط لحاء الشجرة بفأس حجرية كبيرة ، فتساقط اللحاء فى النهر عند جذر الشجرة وتحول فى الحال الى صنوفمن الحيوان • وبعد أن فرغ من خلق الحيوان شرع فى خلق الرجل • وراح الرجل الذى خلقه فى سبات عميق ، فلما استيقظ وجد امرأة تقف الى جواره • على ان الروح الشرير سيطر على الارض بعد ذلك • لهذا فقد أرسل «ماكونيما» الروح الطيب طوفانا الى الارض لم ينج منه سوى رجل واحد هرب فى مركب • ثم بعث هذا الرجل فأرا فيما بعد ليعرف ما اذا كان الطوفان قد انحسر عن الارض ، فرجع الفأر اليه بحفنة من القمح • فلما تراجعت المياه الى منسوبهـا الطبيعى ، عمر هذا الرجل الارض على نحو ما فعـل « دويكاليـو » و « بيرها » ، بأن كان يرمى الأحجار من وراء ظهره فتتحول الى شخوص • وتتضمن هذه الحكاية وجوها من الشبه يثير الشك بينها وبين حكاية الكتاب المقدس • وتتمثل وجوه الشبه هذه فى خلق المرأة على هذا النحو الغريب ، وفى ذكر الروح الشرير ، وحادثة ارسال الفأر لاستكشاف عمق الطوفان • وربما كان مرد هذا التشابه الى تأثير المبشرين المسحيين ، أو الى تأثير أوربى بصفة عامة • على أن الطريقة التى خلق بها الذين نجوا من الطوفان الجنس البشرى بعد أن انتهى الطوفان ، تشـبه الحادثة المماثلة لها فى القصة الاغريقية عن « دويكاليون » و « بيرها » ، مما

يصعب النظر الى الحكايتين بوصفهما مستقلتين احداهما عن الاخرى ..

ويروى «هنود أورينوكو » كذلك أساطير عن الطوفان الكبير • وقد دون « هومبولت » ملاحظاته حول هذا الموضوع فقال : ولا يمكنى أن أترك هذه السلسلة الأولى من جبال « انكماردا » دون أن أذكر واقعة لم يكن يعرفها الاب « جيلى » وكثيرا ما كانت تحكى لى فى أثناء اقامتى مع الجماعات الارسالية فى « أورينكو » • فقد احتفظ سكان هذه البلاد الأصليين بعقيدة تتلخص فى أن أمواج البحر ارتطمت بصخور جبال « انكماردا » فى أثناء فترة الطوفان الكبير الذى هرب منه آباؤهم فى قوارب بحثا عن النجاة • ولا تعيش هذه العقيدة منفصلة بين شعب « التاماناكويين » وحدهم ، انما تكون جزءا من تراث تاريخى اكتشفت مقتطفات متفرقة منه بين « الماييويين » سكان الشلالات الكبيرة ، وبين الهنود الذين يسكنون عند شلالات « رير اريفانو » التى تصب فى نهر « كاورا » ، وبين كل القبائل على وجه التقريب التى تسكن أعالى « أورينوكو » • فاذا سئل « التاماناكوييون » عن الوسيلة التى هرب بها الجنس البشر من هذا الطوفان الكبير أو من « عصر الماء » كما يسميه المكسيكيون ، فانهم يجيبون بأنه لم ينج من هذا الطوفان سوى رجل واحد وامرأة واحدة لاذا بجبل شاهق يسمى جبل « تاماناكو » ويقع عند شواطىء نهر « أزيفيرو » • وبينما كان هذا الرجل وهذه المرأة يرميان بثمار شجرة نخيل « ماورينيا » من وراء ظهورهما ، أبصرا رجالا ونساء يخرجون من بذور الثمار ، وهؤلاء هم الذين عمروا الأرض بعد الطوفان ، وكانا قد ملأهما الاسى للخراب الذى حل بالعالم • أما بذر الثمار التى رماها الرجل فقد تحولت الى ذكور وأما بذور الثمار التى رمتها المرأة فقد تحولت الى اناث •

ويحكى « الكناريون » وهم قبيلة تسكن فى اكوادور ، أن طوفانا كبيرا حدث فى عهد مملكة « كرينو » القديمة ، ونجا منه أخوان بأن هربا الى جبال شاهقة للغاية تسمى جبال « هواكا ــ اينان » • وكانت

كلما ارتفعت المياه ، ارتفعت معها الجبال ، وبذلك لم يصل الماء قط الى الأخوين • فلما انخفضت المياه وكانت مئونتهما قد نفذت ، هبطا من أعلى الجبل وأخذا يبحثان عن طعام لهما بـــين التلال والوديان • ثم ابتنيا بيتا صغيرا عاشـــا فيه وكانا يحتـــالان على الحياة بتناول طعام شحيح من الاعشاب وجذور النباتات ، ومن ثم فقد قاســـيا كثيرا من آلام الجوع والتعب • وذات يوم رجعا الى بيتهما بعد بحث مضنى عن الطعام فوجدا به طعاما ، كما وجدا به « الشيشة » ، دون أن يعلما شيئا عمن أعد لهم ذلك أو أحضره لهم • وتكرر حدوث هذا عشرة أيام متتالية أخذا يفكران من بعدها فى وسيلة للتعرف على هذا الشخص الذى يقوم بهذا العمل الطيب فى تلك الأيام القاســية • فاختفى الاخ الاكبر فى مكان ما ، واذ به يبصر ببغاوين قادمين يرتديان زى الكناريين• فلما دخلا البيت أخذا يعدان الطعام الذى أحضراه معهما • ولما أبصر الاخ الاكبر ما هما عليه من جمال ، وأن لهما وجهى امرأتين ، خرجا من مخبئهما • فلما وقع بصر الطائرين عليهما ، غضبا وطارا دون أن يتركا لهما شيئا يأكلانه • فلما عاد الاخ الاصغر من بحثه عن الطعام ، ولم يجد الطعام معدا كما كان يحدث فى الأيام السابقة ، سأل أخاه الاكبر عن سبب هذا التغير فقص عليه ما حدث ، فجلسا معا مكتئبين • وفى اليوم التالى قرر الاخ الاصغر أن يختفى بالمثل ويرقب قدوم الطائرين • وبعد ثلاثة أيام عاد الطائران وأخذا يعدان الطعام • فتريث الاخوان حتى فرغ الببغاوين من اعداد الطعام ، وأغلقا الباب عليهما • فغضب الطائران أشد الغضب لوقوعهما فى الشرك ، وتمكن الطائر الكبـــير من الهروب ، بينما وقع الطائر الصغير فى الفخ • فتزوج الاخوان هذا الطائر وأنجبا منه ستا من البنين والبنات تناسلت عنهم قبيلة « كانارى » • ولهذا فان الهنود يعدون تل « هواكا ــ ايان » الذى سكنه الاخوان بعد أن تزوجا الطائر ، مكانا مقدسا ، كما أنهم يقدسون الببغاء الأمريكى ويقدرون ريشه تقديرا عاليا ويستخدمونه فى احتفالاتهم •

ويحكى هنود « هواروشيرى » وهو اقليم فى « بيرو » يقـــع فى

« الاندس » فى الشرق من « ليما » ، أن العـــالم فى سالف الزمان كاد أن يفنى عن آخره ، فقد حدث أن هنديا ترك بقرته ترعى فى مكـان غنى بالمرعى ، لكن البقرة رفضت أن تأكل وأخذت تئن فى حزن على نحو ما تفعل الابقار • وعند ذاك قال لها صاحبها : « ايتها الحمقاء • لماذا تئنين وترفضين الطعام ؟ ألم أتركك ترعين فى مكان يطيب فيـــه المرعى ؟ » فأجابته البقرة قائلة : « وماذا تعرف أنت أيها الاحمق عن هذا الامر ؟ اننى لا أحزن بدون سبب يستدعى الحزن ، ففى خلال خمســـة أيام سيفيض البحر ويغرق الارض جميعا ويخـرب كل ما عليهـا • وتعجب الرجل من سماعه الحيوان يتكلم على هذا النحو ، وسألها ما اذا كانت هناك وسيلة تنقذهما من الطوفان • عند ذاك طلبت منه البقرة أن يأخذ معه مئونة تكفيه خمسة أيام وأن يتبعها الى قمة جبل « فيلسا ــ كوتو » الذى يقع بين بيعة « سان داميان » بيعة « سان جيرونيمو » • فحمل الرجل مئونته على ظهره وتبع البقرة • وعندما وصل الى قمة الجبـل المعنى ، وجد أنواعا متعددة من الطيور والحيوانات مجتمعـة هناك • وما كاد يصل الى هذا المأوى حتى أخذت مياه البحر ترتفـــع وتفيض حتى أغرقت الوديان وغطت قمم التلال جميعا عدا قمة جبل « فيلسا ــ كوتو » ، بل ان الامواج كانت تتلاطم بالقرب من هذه القمـــة ، الى درجة أن الحيوانات تزاحمت فى مساحة ضيقة ، ولم يجد بعضها مكانا لارجله • وانغمس طرف ذيل الثعلب فى الماء ، فأسود لونه • وهـذا هو السبب فى أن أطراف ذيول الثعالب سوداء حتى اليوم • وفى اليوم الخامس من الفيضان أخذت المياه تتراجع ، وعاد البحر الى حالته الاولى بعد أن أغرق الناس جميعا عدا الهندى الذى تناسلت منه جميع الامم التى تعيش على وجه الارض •

وكذلك روى عن « الانكاسيين » الذين كانوا يسكنون فى « بيرو »

رواية عن الطوفان •فقد حكى هؤلاء أن المياه فاضت وغمرت أعلى الجبال المستقرة على وجه الارض ، فهلك الناس جميعا وكل كائن على وجـــه الارض • ولم ينج من هذا الطوفان سوى رجل وامرأة طفـــوا داخل صندوق على سطح المياه • وبعد أن انحسر الطوفان ، جرفت الرياح الصندوق والرجل والمرأة بداخله ، وقذفت به عند « تاهواناكو » التى تبعد عن « كوزكو » بما يقرب من سبعين فرسخا •

وقد حكى المؤرخ الاسبانى « هيريرا » أســاطيرا من « بيرو » عن الطوفان الكبير ، فقال : « لقد ذكر الهنود القدماء أنهم حفظوا هذه الاساطير عن أجدادهم ، فقد حدث طوفان كبير قبل أن يظهر أى فرد من « الانكاويين » فى « بيرو » • وبعد سنوات وعندما كانت البلاد مزدحمة بالسكان ، حطم حواجزه وغمر الارض بالمياه وأهلك الناس جميعا • ويضيف « الجرانكيون » ســـكان وادى « اكســـوكسا » وأهالى « تشيكويتو » الذين يسكنون اقليم « كالاو » ، الى ذلك ، أن بعض الناس لجأوا الى جحر وكهوف فى أكثر الجبال ارتفاعا ، وهؤلاء هم الذين عمروا الارض بعد أن أهلكها الطوفان • ويؤكد قوم آخـــرون من سكان الجبال ، ان الناس جميعا هلكوا فى هذا لطوفان عدا ستة أفراد طافوا على عوامات • ومن هؤلاء تناسل سكان هذا البلد • ويمكننا أن نصدق أنه قد حدث فى هذا البلد فيضان على نحو ما ، لان كل ســكان الاقاليم المتعددة يتفقون حول هذا الخبر » •

وتحكى قبيلة « تشريجوانو » الهندية التى كانت تتمتع ذات يوم بنفوذ قوى فى جنوب شرق « بليفيا » ، الحكاية التالية عن الطوفان الكبير• حدث أن كائنا مهولا شريرا بعينه كان يدعى « أجوارا تونبا » ، أعلن الحرب على الاله الحقيقى « تونبايتى » خالق « التشريجوانيين » • ولا يعرف سبب اعلان هذا الكائن الحرب على الاله ، وان كان يعتقد أن هذا يرجع الى مجرد ضغينة أو الى مجرد اختلاف فيما بينهما • ولكى يضايق هذا الكائن الاله الحقيقى « تونبايتى » ، فقد أشعل النار فى

كل المروج فى بداية الخريف أو فى منتصـــــفه ، بحيث هلكت النباتات والاشجار وهلكت معها الحيوانات التى كان يعتمد عليها الهنـــود فى معيشتهم ، كما أخذوا يتراجعون أمام ألسنة النيران الى شـــــواطىء الأنهار • ولما كانت الارض لا تزال مغلفة بدخان النيران ، فقد بذلوا قصارى جهدهم فى اصطياد السمك من الانهار لكى يتغذوا به • وتحير « أجوارا ــ تونبا » عندما رأى أن بنى الانسان أوشكوا على الهروب من مخالبه ، وعمد الى حيلة أخرى يحقق بها دسيسته اللعينة ضد الجنس البشرى ، فجعل الامطار تهطل من السماء ، على أمل أن يغرق كل أفراد قبيلة « تشيريجوانو » وكاد « أجورا ــ تونبا » أن ينجح فى مهمته • لولا أن سعى التشيريجوانيون لحسن حظهم ، فى احباط محاولته • فقد أخذوا يبحثون ، بناء على اشارة تلقوها من الاله الحقيقى «تونبايتى» ، عن ورقة عريضة من نبات « الماتى » ووضعوا فوقها طفلين من أم واحدة أحدهما ذكر والاخر أنثى وجعلوا القارب الصغير يطفوا بنزلائه فوق صفحة الماء • واستمرت الامطار تهطل فى غزارة ، فعلا الفيضان حتى غمر الارض الى مسافات بعيدة ، وأغرق « الشيريجوانيين » عن آخرهم عدا ورقة نبات الماتى التى كان يطفو فوقها الطفلان • على أن المطـــــر كف عن السقوط بعد ذلك ، وانخفض الفيضـــان • تاركا وراءه كتلا من الطين • وعند ذاك ترك الطفلان قاربهما الصغير ، لانهما لو كانا قد ظلا يطفوان فوقه ، لكانا قد هلكا من البرد والجـــوع • ومن الطبيعى أن الطوفان لم يغرق السمك وسائر الحيوانات المائية ، بل انهـــا ظلت تسبح فوق الماء ، وأصبحت ملائمة لان تكون طعاما شهيا للطفلين • ولكن كيف كان يتسنى للطفلين أن يطهيا السمك الذى اصطاداه ؟ هذه كانت مشكلتيهما ، لان كل النيران كانت قد خمدت بسبب الطوفان • على أن الضفدع البرى جاء لنجدتهما فى اللحظة الحاسمة • وقد كان هذا الحيوان الحكيم قد اتخذ حيطته قبل أن يغرق الطوفان الارض ، ولجأ الى جحر بعد أن أخذ فى فمه بعض قطع الفحم المتقـــدة ، وظل ينفخ فيهـــا طوال الوقت حتى تظل مشتعلة • فلما رأى أن سطح الارض قد جف مرة اخرى ، قفزمن جحره والفحم المتقد فى فمه ، وجـــاء مباشرة الى

الطفلين وقدم لهما هديةالنار • ومن ثم تمكن الطفلان من شـــواء السمك واستدفأ جسماهما المرتعشان من البرد وكبر الطفـــــلان على مر الزمن وأنجبا أطفالا تناسلت منها قبيلة « تشيرينجوانو » بأسرها ••

ويحكى أهالى « تيراديل نيجو » التى تقع فى أقصى جنوب أمريكا الجنوبية حكاية غريبة وغامضة عن الطـــوفان الكبير •فهم يقولون : ان الشمس غطست فى الماء ففاضت المياه بشدة حتى أغرقت الأرض جميعا عدا جبلا واحدا شاهقا للغاية • والى هذا الجبل لجـــأ قلة من الناس استطاعت أن تنجو من الطوفان •

١٣ ــ حكايات عن طوفان كبير فى امريكا الوسطى والمكسيك :

وقد عرف الهنود الذين سكنوا بالقرب من « باناما » حكاية طوفان نوح على نحو ما ، وقالوا ان رجلا واحد هرب من هذا الطوفان فى مركب مع زوجته وأولاده • قد تناسل الجنس البشرى كله من هذه الاسرة وعمر الارض » كما اعتقد هنود « نيكاراجوا » أنه بعد أن تمت عملية خلق الكون ، ابتلى العالم بطوفان أصابه بالدمار ، فاضطرت الآلهة أن تخلق الانسان والحيوان مرة أخرى •

ويقول المؤرخ الايطالى « كلافيجيرو » ، « ان المكسيكيين ، شأنهم شأن الامم المتحضرة الاخرى ، لهم تراثهم الروائى الواضح عن خلق العالم ، وعن الطوفان الذى أغرق العالم ، وعن اختلاط الالسنة وتفرق الناس ، وان يكن هذا التراث ينحو منحى خرافى • وقـــد صـــور المكسيكيون كل هذه الحوادث بحق فى فنهم التصويرى • فقد رووا أن الطوفان أغرق الجنس البشرى كله ، لم ينج منه سوى رجل واحد كان يدعى « كوكس كوكس » ، (ويطلق عليه البعض اسم « تيوسيباكتيلى ») وامرأة واحدة توعى « اكسوشيكوتزال » • وقد نجا هذان من الطوفان بعد أن لجآ الى مركب صغير ذى ثلاثة صوار • وبعد أن استقر هذان على قمة جبل يسمى جبل « كولهواكان » أنجبا أولادا ، ولكنهم كانوا جميعا مصابين بالصمم • وظلوا على هذا النحو حتى جـــاءهم طائر

من شجرة عالية ، وحمل اليهم لغات كانت مختلفـــة كل الاختلاف الى درجـــة أنه لم يكن بعضـــهم يفهم البعض الآخر • وقـــد ادعى « التلاسكالانيون » أن الناس الذين نجوا من الطوفان مسخوا فى شكل قردة ولكنهم أخذوا يستعيدون بعد ذلك لغتهم ومداركهم تدريجيا •

وقد رويت كذلك عن أهالى « ميشوواكان » وهو اقليم فى المكسيك حكاية عن الطوفان ذكر فيها أن رجلا كان يدعى « تيزبى » لجـأ الى سفينة كبيرة مع زوجته وأولاده عندما بدأ الطوفان يفيض على البلاد ، وأخذ معه عددا من الحيوانات وكمية من الحبوب تكفى لترويد الحياة بالخير بعد انتهاء الطوفان • وبعد أن انحسر الماء ، أطلق الرجل نسرا فى الفضاء • فلما صادف النسر رمما أثارت شهيته ، لم يعد الى السفينة مرة أخرى • فأطلق الرجل طيورا أخرى ، ولكنها لم تعد كذلك • وفى النهاية أطلق طائرا رنانا ، فعاد وفى منقاره فرع أخضر • ومن الواضح تماما أن اطلاق الطيور خارج السفينة بعد انتهاء الطوفان ، يعد أثرا لحكاية نوح وارساله الغراب والحمامة ، تلك الحكاية التى ربما سمعها الاهـــالى عن المبشرين الأجانب •

وكذلك يروى الهنود « الهويشوليون » الذين يســـكنون المنطقة الجبلية الواقعة بالقرب من « سانت كاترينا » فى غرب المكسيك أسطورة عن الطوفان • فهم يقولون ان هنديا من قبيلتهم كان يقطع الاشجار ليعد حقلا للزراعة ، ولكنه كان يصاب بكدر فى اليوم التالى عندما يجـــد أن الاشجار التى قطعها بالامس قد نمت مرة أخرى على النحو الذى كانت عليه • فاستشاط الرجل غضبا ، كما أنه مل هذا العمـــل الذى لم يكن يؤدى الى نتيجة • ولكنه قرر فى اليوم الخامس أن يعاود المحاولة ، وأن يستكشف حقيقة هذا الامر • وفى الحال برزت له امرأة عجـــوز من وسط الغابة تحمل فى يدها عصا • ولم تكن هذه المرأة سوى « الام الكبرى ناكاوى » ، وهى الهة الارض التى تنبت كل نبات أخضر من باطن الارض المظلم • على أن هذا الرجل لم يكن يعرفها • وأخذت المـــرأة العجوز تشير بعصاها ذات اليمين وذات الشمال ، والى أعلى والى أسفل

وفى الحال نهضت الاشجار الهاوية وانتصبت كما كانت • وعند ذاك أدرك الرجل السبب فى نمو الاشجار مرة أخرى ، رغم كل محاولاته فى ازالتها وتطهير الارض منها • وعند ذاك قال الرجل لتلك المـــرأة فى غضب : « أأنت اذن الذى تضيعين جهودى هباء طوال الوقت ؟ » فأجابته المرأة قائلة « نعم أنا الذى أفعل هذا ، لاننى أود أن أتحــدث اليك » • ثم أخبرته أنه يقوم بعمل لا جدوى وراءه ، لان هناك فيضانا كبيرا سوف يغمر الارض فى خلال خمسة أيام على الاكثر • وسوف تصحب الطوفان رياح حادة حدة الفلفل الحار وتسبب لك السعال • فاصنع لك تابوتا من خشب شجرة التين فى قدر قامتك واجعل له غطاء محكما • ثم خذ معك خمس حبات من الذرة من كل لون ، ومثلها من البقول ، وخذ معك كذلك شعلة من النار ، وخمسة فروع من الغضا لتغذيتها ، وخذ أيضا كلبة سوداء » • وفعل الرجل ما نصحته به المرأة ، وفى خلال خمسة أيام كان قد أعدالصندوقووضعفيه الاشياء التى ذكرتهـــا له المرأة ، ثم دخل الصندوق بصحبة الكلبة السوداء • وعنــد ذاك غطت المرأة الصــندوق وسدت شقوقه بالغراء ، وطلبت منه أن يشير الى الشقوق التى يراها من الداخل حتى تسدها بالغراء كذلك قبل أن يطفو الصندوق فوق الماء • وبعد أن أحكمت المرأة طلاء الصندوق بحيث لم يعد ينفذ فيه الماء والهواء صعدت الى سطحه وجلست فوقه بعد أن وضعت ببغاء على كتفها • وظل الصندوق يطفو فوق سطح الماء على هذا النحو طيلة أعوام خمسة • ففى العام الاول طفا جهة الجنوب ، وفى العام الثانى طفا جهة الشمال ، وفى الثالث طفا جهة الغرب وفى الرابع طفا جهة الشرق • فلما كان العام الخامس استقر الصندوق فوق الماء بعد أن غمــر الطــوفان الارض جميعا • وفى العام التالى لذلك انحسر الطوفان ، ورسا الصندوق على جبل بجوار « سانتا كاترينا » حيث لايزال يمكن رؤيته حتى اليوم • وعند ذلك رفع الرجل غطاء الصندوق فوجد أن الارض مازال يغرقها الطوفان • على أن الببغاوات بدأت تعمل فى همة فى نقر الجبال بمناقيرها حتى حفرت فيها أودية تدفقت اليها المياه التى تشعبت الى خمسة بحور • فلما جفت الارض ، أخذت الاشجار والحشائش تنمو مرة أخرى ، أما المرأة فقد

تحولت الى ريح واختفت • ثم استأنف الرجل عمله الذى كان قد اعترضه الطوفان وأخذ يقتلع الاشجار لكى يعد حقلا للزراعة ، وهناك عاش مع الكلبة فى كهف واحد ، فكان يخرج كل صباح الى العمل ويعود الى كهفه فى المساء • أما الكلبة فلم تكن تغادر الكهف طول الوقت • وعندما كان يعود الرجل الى بيته كان يجد الكعك معدا له ، فدفعه الشغف لان يعرف صانع هذا الكعك • وبعد مضى خمسة أيام ، اختبأ وراء بعض الشجيرات بجوار الكهف وأخذ يراقب ما يحدث • فرأى أن الكلبة خلعت جلدهـا وعلقته ، وركعت وهى فى هيئة امراة وأخذت تطحن الحب لتصنع منه الكعك • فاقترب الرجل خلفها خلسة وانتزع الرداء ورماه فى النار • فصرخت المرأة وأخذت تعـول كالكلاب وهى تقول : الان « لقد حرقت ردائى » • ولكن الرجل أخذ بعض الدقيق المزوج بالماء الذى كانت المرأة قد أعدته للكعك ، وغسل لها رأسها فيه • وتزوجها الرجل وأنجب منها أولادا كثيرين تزوجوا بعد ذلك • وبذلك عمرت الارض بالناس الذين سكنوا الكهوف •

ويحكى « الهنود الكوراويون » ، وهم قبيلة تدين بالمسيحية اسما وتتاخم حدودها حدود « الهويشوليون » فى الغرب ، حكاية شـبيهة بالحكاية السالفة ، اذ وردت فيها حادثة قاطع الاخشاب الذى حذرته امرأة من حدوث الطوفان ، والذى تزوج كلبة تحولت الى امرأة بعد أن انحسر الطوفان • ووجه الاختلاف بين الروايتين هو أن الرجل فى الرواية الثانية طلب منه أن يأخذ معه فى السفينة طائر النقار ، وطائر زمار الرمل وببغاء الى جانب الكلبة • وعندما بدأ الطوفان ، استقل الرجل سفينته عند منتصف الليل • فلما انحسر الطوفان ، مكث الرجل فى السفينة خمسة أيام أخرى ، وأرسلزمار الرمل ليرى ما اذا كان من الممكن السير عـلى الارض • فطار الطائر وعاد وهو يصرخ « أى — وى — وى » • ففهم الرجل من عبارة الطائر أن الارض لا تزال مبتلة فانتظر خمسـة أيام أخرى ، ثم أرسل طائر النقار ليرى ما اذا كانت الاشـجار قد جفت وتماسكت• فطار الطائر ووقفعلى شجرة ، ودفع منقاره فى خشبها وأخذ

يهز رأسه يمنة ويسرة ، لكن الخشب كان مبتلا بالمـــاء بحيث انه لم يستطع أن ينتزع منقاره من الخشب • وأخيرا شد منقاره فى عنف الى درجة أنه فقد توازنه وسقط على الارض • ثم عاد الى السفينة وهو يصيح « تشو بى ــ تشو بى » • ففهم الرجل من عبارته أن الارض لا تزال مبتلة• فانتظر خمسة أيام أخرى أطلق من بعدها زمار الرمل المرقط ، وكانت الارض قد جفت هذه المرة بحيث لم تغص أرجل الطائر فى الطين• فعاد وأخبر الرجلبأن كل شىء اصـــبح على ما يرام • فترك الرجل السفينة وخطا بحذر خارجها حتى أطمـــأن الى أن الارض أصبحت مستوية وجافة •

وتحكى رواية أخرى تروى عن « الهنود الكورايين » وتقـــع فى مقتطفات ، عن هرب الذين نجوا من الطوفان فى قارب •فلما انحسر الطوفان اطلق الاله النسر ليرى ما اذا كانت الارض قد جفت • ولكن النسر لم يعد الى القارب لانه انشغل بافتراس أجساد الغرقى • فغضب الاله من فعلة النسر ، وأحل به اللعنة ، فجعل لونه أسود بعد أن كان أبيض ، ولم يترك له سوى علامة سوداء فى طرفى جناحيه حتى يتعرف الناس منها على اللون الذى كان عليه قبل حدوث الطوفان • ثم أرسل الاله بعـــد ذلك حمامة مطوقة لكى تستكشف أحوال الارض • فعادت الحمامة وأخبرته بأن الارض قد جفت وان كانت الانهار لا تزال تفيض • عند ذاك أمر الاله صنوف الحيوان أن تبتلع المياه • فجاءت الطيور والحيوانات جميعا لتشرب من المياه ، عدا الحمامة الباكية (بالومـــا الورونا) التى تخلفت عنها • ولهذا فان هذه الحمامة لاتزال تخرج كل يوم عند المساء لتشرب ، لانها تخجل من أن يبصرها أحد وهى تشرب فى وضح النهار ، أما طوال اليوم فهى تنوح وتبكى • ويبدو أن موضوع الطيور فى هذه الاساطير الكورايية ، وبصفة خاصة ذلك الذى يحكى عن دور النسر والغراب فى هذه الحادثة ، يكشف بوضوح عن تأثير التعاليم التبشيرية •

١٤ ــ حكايات عن الطوفان الكبير فى أمريكا الشمالية :

ويحكى « الباباجو » الذين يسكنون فى جنوب غرب « أريزونا » أن

« الروح الكبير » خلق الارض وسائر الكائنات الحيـــة قبل ان يخلق الانسان • ثم هبط الى الارض وأخذ يحفر فى الارض فعثر على بعض الاوانى الفخارية ، فحملها معه الى السماء وجعل يقذفهـا من عل فى الجحـر الذى قـد حفـره • فجـاءه البطل « مونتيزوما » على الفور كما جاءت القبائل الهندية تباعا لمعـاونته • وأخـيرا جـاء « الاباتشيون » يسرعون الخطى وهم فى هيئتهم على نحو ما خلقوا • فى هذه الايام الاولى لخلق الكون كان الناس يعيشون فى سعادة وسلام وقد كانت الشمس أقرب الى الارض مما هى عليه الان • ولذلك فقد كانت فصول السنة متساوية ، كما كان الناس فى غير حاجة الى الملابس وقد كان الناس والحيوانات يحب بعضهم بعضا ، اذ جمعت بينهم لغة واحدة فى رباط من الاخوة • ثم حدثت بعد ذلك كارثة مفـزعة وضعت حدا لهذه الايام السعيدة ، فقد حل بالارض طوفان أغرق كل كائن حى فيما عدا البطل « مونتيزوما » وصديقه الذئب اللذين تمكنا من الهرب • ذلك أن الذئب كان قد تنبأ بحدوث الطوفان قبل وقـوعه ، وأخبـر « مونتيزوما » بذلك فصنع الاخير مركبا ووضعه معدا للطوارىء على قمة جبل « سانتاروزا » ، ، وكذلك صنع الذئب قاربا له ، بأن أخذ يقضم قصبة من الخيزران عند شاطىء النهر ودخل فيها بعد أن طلاها بالمطاط • فلما أخذت الميـاه ترتفع اسـتقل كل منهما مركبه وبذلك أنقـذا • فلما انتهى الطوفان تقابلا على الارض الجافة • ولما كان الرجل شغوفا لان يعرف حجم الارض التى جفت ، فقد أرسل الذئب ليستعلم له عن هذا الامر • وبعد فترة عاد وأخبره بأنه لم يجد أثرا للماء جهة الشمال على الرغم من أنه أخذ يتجول حتى أعياه التعب ، فى حين أنه رأى البحر جهة الشرق والغرب والجنوب • وفى هذه الاثناء كان الروح الكبير قد عمر الارض بمساعدة « مونتيزوما » بالانسان والحيوان •

وتحكى قبيلة « بيما » ، وهى قبيلة مجاورة « للباباجويين » وترتبط بهم بصلة قرابة ، أن شخصا بعينه يدعى « تشيووتماهكى » ومعنـاه « نبى الارض » ، خلق الارض والانسان • وكان لهذا الخالق ولد يدعى « سيزويكها » كان يعيش فى وادى « جيلا » ، بعد أن اصبحت الارض تغص بالناس • وكان يسكن فى هذا الوادى نفسه وفى ذلك الوقت بعينه نبى عظيم نسى اسمه فيما بعد • وذات ليلة بينما كان هذا النبى نائما ، سمع صوتا خارج بابه أيقظه من نومه • فلما فتح الباب لم يجد أمامـه سوى نسر كبير خاطبه قائلا : « هيا استيقظ وانظر حولك ، فلقد حـل الطوفان بالارض » • ولكن النبى ضحك مستهزئا به ، ولف رداءه حوله ونام مرة اخرى • ومرة أخرى جاءه النسر وحذره ، ولكنه لم يعبأ به • وأعاد الطائر المتعب عليه تحذيره للمرة الثالثـة ، وأخبره أن وادى « جيلا » سوف يغرقه الطوفان ، ولكن هذا التحذير كله لم يجد عند الرجل آذانا صاغية • وفى هذه الليلة نفسها بدأ الطوفان يغرق الارض • وفى اليوم التالى لم يكن هناك وجود لاى كائن حى عدا رجلا واحدا ، ان كان يعد رجلا بحق ، لانه كان «سيزويكها» ابن الخالق الذى أنقذ نفسه بأن طفا على كرة من المطاط أو الراتنج • فلما انخفض الطوفان رسا بقاربه بالقرب من منبع نهر الملح حيث أقام فى كهف على الجبل • ولايزال هذا الكهف موجودا حتى اليوم ، وكذلك العـدد التى كان « سيزويكها » يستخدمها فى حياته • وعلى الرغم من أن النسر الكبير حذر «سيزويكها» قبل وقوع الطوفان حتى ينجو بحياته ، الا أنه غضب من النسر كل الغضب لسبب أو لاخر • ومن ثم فقد تسلق الجبل بحبل بعد أن انتهى الطوفان ، حتى وصل الى مكان النسر وقتله فى وكره • ثم أبصر فى هذا الكور ومن حوله عددا هائلا من أجساد بشرية متراكمة عفنة ، كان النسر قد حملها الى وكره وانهال عليها يفترسها • فأعاد «سيزويكها» الحياة الى هذه الاجساد وعمر بها الارض •

أما « الهنود الأكاجشيميون » الذين يسكنون بالقرب من « سانت جوان كايسترانو » فى كاليفورنيا « فلم يكونوا يجهلون كلية حكايـة

الطرفان الذى أصاب العـــالم • على أننى لم أســـتطع أن أتبين على الاطلاق كيف وصلتهم هذه الحكاية بعينها ومن أى مصدر سمعوها • والى هذه الحكاية تشير بعض أغانيهم • وهم يروون أن البحر فاض فى زمن بالغ فى القدم وأغرق السهول وملأ الوديان حتى غطى الجبال • ومن ثم فقد هلك الجنس البشرى كله وصنوف الحيوان ، ولم ينج من هؤلاء جميعا سوى عدد قليل من النـــاس والحيـــوان لجـــأوا الى جبل شاهق لم تصل اليه الميـــــاه ••

وكذلك يحكى « الهنود اللويزينيون » الذين يسكنون « كاليفورنيا الجنوبية » حكاية عن طوفان غطى الجبال العالية وأغرق معظم الناس ، ولم ينج منه سوى قليل من الناس كانوا قد لجأوا الى أكمة تقع بالقرب أما الهنود فيسمونه الآن « كاتوتا » • وقد غرق هذا المكان « مورا » ، أما الهنود فيسمونة الآن « كاتوتا » • وقد غرق هذا المكان بأكمله تحت سطح الماء فيما عدا هذه الأكمة التى أقام فيها الهنـــــود حتى انحسر الطوفان • ويمكنك أن ترى حتى هذا اليوم على قمة التل الصغير أكواما من أصداف البحر والقش والرماد والأحجار بعضها بجانب بعض ، وهى تشير الى المكان الذى كان يطهو فيه الهنود طعامهم • أمـــا الأصداف فهى أصداف السمك الصدفى الذى كانوا يأكلونه ، وأما الرماد والأحجار فقد تخلفت عن مواقدهم : ويضيف الكاتب الذى حكى هذه الرواية فيقول : « وتحتوى التلال القريبة من « ديل مار » ، وأماكن أخرى تقع بمحاذاة الساحل على أكوام كثيرة هائلة من أصداف البحر من النوع الذى مازال موجودا على الشاطىء • وما زال « اللويزونيون » يغنون أغنية الطوفان التى يرد فيها ذكر أكمة « كاتوتا » •

وقد حكت امرأة هندية من قبيلة « سميث ريفر » التى تســكن فى « كاليفورنيا » ، الرواية التالية عن الطوفان : لقد هطلت مياه غزيرة فى زمن من الأزمنة ، وظلت تهطل حتى غمرت الوديان • ولجأ الهنود الى النجاد المرتفعة • ولكن المياه ظلت ترتفع حتى أغرقت هؤلاء الهنود جميعا عدا

رجلا وامرأة تسلقا الى أعلى قمة وبذلك نجيا من الغرق • وقـــد عاش هذان على السمك بعد طهيه تحت ابطيهما ، اذ لم يتمكنا من اشعال النار لأن كل شيء كان مبتلا للغاية • وبعد ذلك أخذت المياه فى الانخفاض بعد أن أغرقت كل من عليها عدا هذا الرجل وتلك المرأة اللذين تناسل عنهما كل الهنود الذين يعيشون اليوم على وجه الأرض • وقد تحولت أزواج الهنود الذين غرقوا فى الطـــوفان الى غزلان ودببة وثعابين وحشرات وأيائل وغير ذلك من صنوف الحيوان التى عمرت بها الأرض كما عمرت بالانسان •

وقد كانت حكاية الطوفان تروى ، وفقا لقول « دى براتز » مؤرخ « لويزايانا » الفرنسى المتقدم ، بـــين قبيلة « نانشيز » ، وهى قبيلة هندية كانت تسكن عند أعالى نهر المسيسبى • فيخبرنا هذا المؤرخ بأنه سأل حارس المعبد الذى يحتفظ فيه فى ورع دينى ، بالنار المقدســـة مشتعلة على الدوام ، عن موضوع الطوفان ، فأخبره بأن الكلمة القديمة علمت الهنود الحمر جميعا أن كل الناس على وجه التقريب غرقوا فى الطوفان ، سوى عدد قليل منهم لجأوا الى جبل شاهق للغاية • وفيما عدا هذا فهو لايعرف شيئا عن هذا الموضوع سوى أن الذين أنقـــذوا عمروا الأرض من بعد » • ويضيف « دى براتز » الى هذا قائـــــلا « وحيث اننى قد استمعت لهذا القول نفسه من شعوب أخرى ، فقد دفعنى هذا لأن أتأكد من أن كل الأهالى كانوا ينظرون الى هذه الحادثة النظرة نفسها وأنهم لم يحتفظوا بأيـــة ذكرى لطوفان نوح • ولـــم أتعجب لهذا الأمر كثيرا ، حيث ان الاغريق أنفسهم ، رغم علمهـــــم الواسع ، لم تكن معلوماتهم حول هذا الموضوع أفضـــل من معلومات هذه الشعوب • بل اننا نحن لم نكن لنعرف أكثر منهم ، لو لم نقرأ عن هـــذا الموضوع فى الكتابات المقدسة » • ثم يحكى المؤرخ الفرنسى الرواية اللويزيانية فى مكان آخر بطريقة أكثر اكتمالا فيقول : لقد ذكر الأهالى أن مطرا غزيرا هطل من السماء لمدة طويلة حتى غمر الأرض

عدا جبلا شاهقا لجـأ اليه بعض النـاس هروبا من الطوفان • ولمـا كانت النار قد خمدت جميعها من على وجه الأرض ، فان طائرا أحمر اللون يسمى « كويى ــ أوبى » (وهو الطائر الذى يسمى فى «لويزيانا» بالطائر المغرد) أحضر النار من السماء • وقد أدركت من حديث هؤلاء الناس ، أنهم كادوا ينسون كلية الرواية التاريخية عن الطوفان » •

ويروى الهنود « الماندانيون » رواية عن الطوفان الذى هلـك فيه الجنس البشرى كله عدا رجـلا واحدا هرب فى قارب عنـد جبـل يقع فى الغرب • ومن ثم فان هؤلاء يقومون كل عـام بتأدية طقوس معينة فى ذكرى انتهاء الطوفان التى يسمونها « مى ــ نى ــ رو ــ كا ــ ها ــ شا » أى انخفاض المياه أو استقرارها • وتؤدى هذه الطقوس عندما تمتد أوراق الصفصاف امتدادا كاملا على طول شواطىء النهر • وسبب هذا ، وفقا لروايتهم ، أن الغصن الذى أحضره الطائر كان غصنا من شجر الصفصاف • وأما الطائر الذى أحضر هذا الغصن ، فهـو اليمامة أو الحمامة النائحة • وكثيرا ما يقف هذا الحمام عند جوانب أكواخهم المغطاة بالتراب ، دون أن يتعرض لـه أحد من الهنود لايذائه أو قتله • بل انهم قد مرنوا كلابهم على عدم ازعاجه • وقد كان سكان قرية « مادان » يحرصون على الاحتفاظ بهيكل خشبى يمثل القارب الذى نجا فيه الرجل الوحيد من الطوفان • ويقول الرسام « كاتالين » ان فى وسط القرية ميدانا يبلغ قطره مائة وخمسين قدما ، يحتفظ بـه على الدوام خاليا نظيفا بوصفه مكانا شعبيا تقام فيه الأعياد والاحتفالات الى غير ذلك • وحول هذا الميدان تلتف أكواخهم ذات الشكل المخروطى ويلتصق بعضها بجانب بعض متجهة أبوابها جهة هذا المكان الشعبى وفى وسط هذا الميدان الذى مهد فأصـبح كالرصيف الصلب ، حاجـز (اشبه بالبرميـل المرتكز على حافته) من الالواح الخشبية ، تحيط به أطواق يبلغ ارتفاعها ما يقرب من ثمانية أو تسعة أقدام ، ويحافـظ عليها الأهالى فى ورع دينى ، ويقومون على صيانتها من عام لآخر حتى تظل نظيفة خالية من الخدوش والعلامات • وهم يطلقون عليها اسـم

« القارب الكبير » • ومما لاشك فيه أن هذه الأطواق تعد تجسيدا رمزيا لجزء من تاريخهم الشعبى عن حادثة الطوفان التى يبدو تماما من هذا الهيكل ومن الملامح الأخرى العديدة لهذا الاحتفال الكبير ، أن الأهالى قد عرفوها بشكل أو بآخر ويحاولون تخليدها عن طريق تذكير الناس بها بطريقة حية • ويعد هذا الموضع الخرافى ، نظرا لموقعه المتوسط فى القرية ، مكان تجمع الأهالى جميعا • ففيه يقومون بتقديم وأجبات التقديس فى المناسبات والأعياد المختلفة والممارسات الدينية طوال السنة » •

وفى الاحتفال السنوى الذى حضره « كاتالين » فى ذكرى حادثة الطوفان ، شخص الرجل الوحيد الذى نجا من الطوفان واسمه « نو ــ موهك ــ موك ــ آناه » فى هيئة مهرج يرتدى جلد ذئب أبيض يتدلى على كتفية ، بينما يغطى رأسه بغطاء زاه لجلدى غرابين ، ويحمل فى يده اليمنى غليونا طويلا • ويدخل هذا المهرج القرية من جهة المروج ويقترب من مكان العلاج أو كما يعرف بالمكان السرى • وهو يملك وسائل فتح هذا المكان الذى يحكم اغلاقه طوال السنة ، ولا يفتح الا من أجل تأدية الطقوس الدينية • ثم يتجول هذا المهرج طوال اليوم فى القرية ، ويقف أمام كل كوخ ويصيح حتى يفتح له صاحب الكوخ ويسأله عمن هو ، وعن سبب مجيئه • وعند ذاك يجيبه برواية حكاية الكارثة المحزنة التى أغرق فيها الفيضان الأرض ويقول : « انه الشخص الوحيد الذى نجا من هذه الكارثة التى انتابت العالم وأنه رسا بسفينته الكبيرة على جبل شاهق يقع جهة الغرب • ومن ثم فهو فى حاجة لأن يقدم له صاحب كل كوخ آلة حادة هدية لتقدم ضحية للماء ، لأنهم ان لم يفعلوا هذا فسوف تصاب الأرض بطوفان آخر لن ينجو منه أحد كما نجا صاحب السفينة الكبيرة التى صنعت ذات يوم بمثل هذه الآلات الحادة» • وبعد أن يزور هذا المهرج كل كوخ فى القرية طوال اليوم ، ويتسلم من صاحب كل كوخ سكينا أو فأسا أو أية آلة حادة أخرى ، يضع هذه الاشياء فى مكان العلاج حيث تترك هناك حتى عصر اليوم الأخير من الاحتفال • وفى نهاية الطقوس ترمى هذه الآلات فى أعماق النهر من

شاطىء يرتفع ثلاثين قدما فى حضرة أهل القرية جميعا • « وهذه الآلات تقدم بدون شك ضحية لروح الماء ، ومن ثم فهى لا تسترد مرة أخرى »• ومن بين طقوس الاحتفالات التى يقوم بها « الماندانيون » فى عيد الربيع، رقصة الثيران ، ويرقصها رجال متنكرون فى هيئة الجاموس ، والهدف من هذه الطقوس أن تمدهم الطبيعة بنتاج وافر من الجاموس فى العـــام التالى • وفضلا على هذا فان الشباب يعرض نفسه اختيارا لأنواع من العذاب المبرح حتى يرضى عنهم « الروح الكبير » • على أنه لا يتضح فى كتابات الكتاب الذين اعتمدنا عليهم ، الى أى حـــد تتصل هـــذه الطقوس الغريبة الغامضة بحادثة الطوفان •

وقد كان يسمى هذا الاحتفال عند الماندانيين باسم « أو ــ كى ــ با » • وكان « احتفالا دينيا يقام كل عام • ولم يكن هذا الاحتفـــال بالنسبة لهذا الشعب الجاهل الذى يؤمن بالخرافات مجـــرد متعة فى حياتهم ، بل كان جزءا من كيانهم بحق ، ذلك أن تراثهم المروى ، وهو بالنسبة لهم تاريخهم الوحيد ، قد أورثهم الاعتقاد فى أن شعائر هـــذا الاحتفال تزيد من ثروتهم فى الجاموس الذى يعتمدون عليه فى معيشتهم، وان اهمال هذا الاحتفال السنوى بما يتضمنة من تقديم الضحية للماء ، قـــد يتسبب فى حدوث الكارثة مرة أخرى ، تلك الكارثة التى حلت بهم ذات مرة ، كما أخبرهم تراثهم المروى ، وأهلـــكت الجنس البشرى بأسره ، عدا رجلا واحدا استطاع أن يرسو بمركبه على جبـــل شاهق يقع جهة الغرب • على أنه ليس من الغريب أن تسمع هذه الروايـــة من قبيلة « ماندان » ، اذ ليست هناك قبيلة من القبائل المختلفة التى زرتها فى أمريكا الشمالية أو الجنوبية أو الوسطى والتى يبلغ عددهـــا مائة وعشرين قبيلة ــ لم ترو لى حكايات واضحة أو غامضة عن مثل هذه الكارثة التى نجا منها شخص أو ثلاثة أشخاص أو ثمانية، بأن لجأوا الى الجبال العالية • وبعض هذه القبائل التى تسكن عند سفح الجبال الصخرية وفى سهول « فنزويلا » و « بامبا ديل ساكرامنتو » فى أمريكا الجنوبية ، يحج كل عام الى هذه القمم الوهمية التى لجـــأ اليها من

أنقذ من الطوفان فى سفينة أو ما أشبه ذلك وهناك يصلون الى « الروح الكبير » ويقدمون له التضحيات وفقا للتعاليم الملغزة لرجالهم العارفين بأسرار الدين ، حتى يؤكدوا حصانتهم ضد مثـــل هذه الكارثة •

وقد قيل : ان « الهنود الشيروكيين » يروون حكاية عن الطوفـــان، مؤداها أن الأرض ظلت غارقة تحت الطوفان حتى هلك الجنس البشرى بأسره عدا اسرة واحدة • وقد كان كلب قد أخبر سيدة بهذه الكارثة قبل حدوثها ، فقد حدث أن هذا الكلب الحصيف كان يذهب يوما بعـــد يوم الىشواطىء النهر ، حيث يقف ويحملق فى الماء وينبح نباحا مثيرا للشفقة• فلما نهره سيده وأمره أن يعود الى البيت فتح الكلب فاه وحذر سيده من الخطر المحدق به وقال له : « يجب عليك أن تبنى مركبا وتختزن فيه كل ما يمكن أن تدخره ، لان مياها غزيرة سوف تهطل حتى تغرق الأرض»• ثم ختم الكلب نبوءته بأن أخبر سيده بأن نجاته تتوقف على رمى سيده لـــه هو نفسه ــ أى الكلب ــ فى الماء • ثم رجاه أن ينظر الى خلف رقبته لكى يرى علامة صدق قوله • فنظر الرجل خلف رقبة الكلب فرأى حقا أنها مسلوخة جرداء وقد برز منها اللحم والعظم • وعند ذاك صدق الرجل كلبه ، وعمل بنصيحة هذا الحيوان المخلص وبذلك نجا هو واسرته التى تناسلت عنها شعوب الأرض التى تعيش عليها اليوم •

وتنتشر حكايات الطوفان الكبير انتشارا واسعا بين الهنود الذين ينتمون الى أصـــل « الجونكوين » الكبـــير • كما أن هـــذه الحكايات تتشابه مع بعضها البعض فى بعض التفاصيل • فقبيلة « ديلاوارى » وهى قبيلة تنتمى الى أصل « الجو نكوين » وكانت تسكن حول خليج « ديلاوارى » ، روت حكاية عن الطوفان الذى أغرق الأرض جميعا ، ولم ينج منه سوى بعض أفراد قلائل امتطوا ظهر سلحفاة بلغت من الكبر عتيا الى درجة أن ظهرها العظمى أصبح رخـــوا مثل شاطىء الجدول • وبينما كانوا يطفون فى يأس على ظهر السلحفاة ، طـــار طائر مائى أمامهم ، فرجوه أن يغطس فى الماء ، ويحضر لهم الأرض الغرقى من أعماق المياة • فغطس الطائر ولكنه لم يهتد الى قاع الماء • فطار

بعد ذلك بعيدا ثم عاد وأحضر معه بعض التراب فى منقاره • فسارت السلحفاة فى اثره حتى وصلت الى قطعة من الأرض الجافة • فنزل الناس من على ظهرها وسكنوا هـذه الأرض وعمروها المياه •

وكذلك حكى « المونتانايون » وهم مجموعة من القبائل الهندية التى كانت تسكن فى كندا ، وهم ينتمون بالمثل الى أصل « الجو نكوين » الكبير ، حكت لمبشر يسوعى عاش بينهم فى زمن مبكر ، أن كائنا قويا ، أطلقوا عليه اسم « ميسو » ، أعاد الحياة الى العالم ، بعد أن كان الطوفان قد قضى عليها • فقد خرج « مسو » ذات يوم للصـيد ومعه ذئاب بدلا من كلاب الصيد • فغاصت الذئاب فى بحيرة واختفت • وأخذ « مسو »يبحث عنها فى كل مكان ، حتى أخبره طائر بأنه قـد رأى الذئاب الضالة فى عرض البحيرة • فغاص « مسو » فى الماء لينقذها • ولكن البحيرة فاضت حتى غمرت المياه الأرض وأغرقت العالم • فدهش « مسو » لما حدث وأرسل غرابا ليبحث عن كتلة من الطين ليعيد عن طريقها خلق الأرض ، ولكن الغراب لم يجد أثرا للطين • فأرسل بعد ذلك كلب البحر ليقوم بنفس المهمة ، فغاص فى الماء ولم يحضر معه شيئا • وفى النهاية أرسل « مسو » فأر المسـك فأحضر معه كتـلة من الطين اسـتخدمها فى اعادة خلق الأرض التى نعيش عليهـا اليـوم • ثم صوب سهاما الى سيقان الاشجار ، فتحولت السهام الى التوالى الى أغصان • ثم انتقم بعد ذلك ممن أغرق ذئابه فى البحيرة ، وتزوج فأر المسك وأنجب أولادا تناسلوا فيما بعد وعمروا الأرض •

وفى هذه الحكاية لا نجد ذكرا لانسان • ويمكننا أن نفترض بناء على الدور الذى لعبته الحيوانات فيهـا ، أن الطوفان حدث فى عصور مبكرة لم تكن الحياة قد دبت فيها بعد على وجه الأرض • على أن هناك مبشرا كاثوليكيا آخر أخبرنا بعـد ذلك بقرنين من الزمان أن « المونتانيين » الذين يسكنون ولاية « خليج هدسون » يروون حكاية عن الطوفـان الكبير الذى أغرق العالم ، ولم ينج من هذا الطوفان سوى أربعـة أشخاص ومعهم بعض الحيوانات والطيور ، وقد لجأوا جميعا الى جزيرة عائمة •

وهناك مبشر كاثوليكى آخر روى الأسطورة المونتانية فى شكل أكثر اكتمالا على النحو التالى : عندما غضب الاله من الشياطين ، أمر رجلا ببناء قارب كبير • وما أن فعل الرجل هذا واستقل بقاربه ، حتى أخذت المياه تفيض من كل جانب والقارب يطفو فوقها ، حتى لم تعد العين تبصر أى أثر للأرض • ولما تعب الرجل من رؤية مساحات المياه الهائلة من حوله ، ومن كلب البحر فى الماء ، غطس وأحضر معه كتلة من الطين • فأخذ الرجل قطعة الطين فى يده ونفخ فيها ، وفى الحـــال أخذت قطعة الطين تتضخم • فوضعها على سطح الماء وحال دون سقوطها فيه • وأخذت قطعة الأرض هذه تكبر تدريجيا حتى أصبحت جزيرة • ثم شاء الرجل أن يعرف ما اذا كانت الجزيرة من الكبر بحيث تتسع لاقامته عليها • فأرسل أيلا طاف حولها فى وقت قصير ، ثم عاد اليه فعلم الرجـــل أن الجزيرة ليست متسعة بما فيه الكفاية • ومن ثم أخذ ينفخ على سطحها حتى تكونت فيها الجبال والبحيرات والأنهار • وعند ذاك ترك مركبه وعاش عليها • ويحكى هذا المبشر نفسه أسطورة عن الطوفان تنتشر بين قبيلة « كرى » وهى قبيلة أخرى تنتمى الى أصل « الجونكوين » الذى يقطن فى كندا • ولكن هذه الحكاية « الكريييه » تكشف عن تأثيرات مسيحية • اذ يروى فيها أن الرجل أطلق من سفينته غرابا فى بادىء الأمر ، ثم أطلق حمامة برية بعد ذلك • أما الغراب فقد تغير لونـــــه فأصبح أسود بعد أن كان أبيض بسبب عدم اتباعه أوامر الرجل • وأما الحمامة فقد عادت والطين عالق بمخالبها ، فعرف الرجل من ذلك أن الأرض جفت وبذلك رسا على الأرض •

ويبـــدو أن « هـ•ا• ماكينزى » • هو الذى دون أسطورة جماعـــة « الجو نكوين » عن الطوفان كاملة لأول مرة • وقد أمضى « ماكينزى » جزءا كبيرا من حياته المبكرة بين الهنود « السالتوويين أو التشيياويين »• وهم يكونون فرعا كبيرا قويا من أصل « الجونكوين » • وقـــد حكى « ماكينزى » هذه الرواية الى النقيب البحرى « و•هـ• هوبر » • الذى

كان يقيم فى فورت نورمان » بالقرب من « بحيرة بير » فى حوالى منتصف القرن التاسع عشر • وتجرى هذه الحكاية على النحو التالى •

كان بعض الهنود يعيش فى زمن من الأزمنة ، ومن بينهم طبيب كبير يدعى « ويس ــ كاى ــ تشاش » وكان يعيش معهم ذئب وابنان له فى مودة واخاء • وكان « ويس ــ كاى ــ تشاش » ينظر الى الذئب بوصفه أخا له ، كما كان ينظر الى أولاد هذا الذئب بوصفهم أبنــاء أخيه ، ذلك لأنه كان ينظر الى الحيوانات جميعا بوصفها أقرباء له • ثم حدث أن أخذ الجميع يعانون من الجوع فى فصل الشتاء • ومن ثم فقد عزم الذئب على أن ينفصل عن الجماعة مع ولديه حتى يبحث عن طعام • فشاء « ويش كاى تشاش » أن يرافقه ، ورحل الجميع معا • وفى أثناء السير صادفا آثار أقدام أيل ، فوقف الذئب العجوز والطبيب « ويس » (كما سنسميه اختصارا) عند هذا الاثر وأخذا يدخنان ، بينما سار الذئبان الصغيران يقتفيان أثر أقدام الأيل • ولم يعد الذئبان الصغيران بعــد مضى وقت ، فسار الذئب الأب مع « ويس » ليبحثا عنهما • وسرعان ما أبصرا أثر دماء على الثلج • فعلما من ذلك أن الأيل قد قتل • ثــم تقابلا بعد ذلك مع الذئبين الصغيرين ، ولكنهما لم يجدا أثرا للأيل ، لأن الذئبين الصغيرين كانا قد افترساه • ثم توسل الذئبان الى « ويس » لكى يشعل نارا • فلما فعل ذلك ظهر جسد الأيل وكان مقطعا الى أربعــة أقسام • وكان الذئبان قد قطعا الغنيمة الى هذه الأقسام الأربعة ، بعد أن احتفظ أحدهما لنفسه باللسان ، والآخر بشفة الأيل العليا ، وهمــا الجزءان الرئيسيان الشهيان فى هذا الحيوان • ولما اعترض « ويس » على هذه القسمة « قدم الذئبان هذين الجزءين له • وبعد أن أكل كــل نصيبه تطوع أحد الذئبين أن يصنع لهم حساء دسما من عظام الحيوان المهشمة • على أنهم سرعان ما أحسوا بالجوع بعد أن هضم هــذا الطعام • فاتفقوا على أن يفترقوا مرة أخرى • فرحل الذئب الكبير فى هذه المرة مع أحد أبنائه ، ورحل « ويس » مع الابن الآخر •

ثم تترك الحكاية الحديث عن الذئب الكبير ، وتحكى عن مصير

« ويس » وابن أخيه الذئب • فقد حدث أن قتـل الذئب الصغير بعض الغزلان وابتلعها ثم تقيأها كما هى عند وصوله ، وأخبر عمه أنه لم يستطع أن يصطاد من الوحوش أكثر من ذلك • فجلس « ويس » طوال الليل يصنع الدواء أو يستخدم التعاويذ • وفى الصباح توسل الى ابن أخيه أن يخرج للصيد ، ولكنه حذره أن يحرص على أن يضع عصا عبر أى وادٍ أو مكان أجوف قبل أن يعبر هو نفسه ، والا فسوف تلحق به بعض الشرور • فرحل الذئب • وفيما كان يجرى وراء غزال ، نسى أن يتبع تعليمات عمه • فلما حاول أن يقفز عبر مكان أجوف سقط فى نهر ومات على الفور وابتلعته حيوانات الماء • ولم يذكر القاص شيئا عن طبيعة هذا الحيوان ، ولكنه اكتفى بذكر أن الذئب الصغير قد قتل وابتلعته هـذه الكائنات • وبعد أن انتظر « ويس » عودة الذئب الصغير فترة طويلة ، خرج ليبحث عنه ، فلما وصل الى المكان الذى قفز عنده الذئب ، أدرك توا أن الذئب قـد أهمل نصيحته ، ولهذا فقد سقط فى الماء • ثم أبصر «ويس» طائر القاوند يجلس بأعلى شجرة ويحملق بشدة فى الماء • فلما سأله عن هذا الشىء الذى ينظر اليه بهذا الاهتمام ، أجاب الطائر بأنه ينظر الى جلد ابن أخي « ويس » الذى يستخدم الآن مساحة للأرجل عند بيت الحيوانات المائية التى ابتلعته • اذ لم تكتف هذه الحيوانات القاسية بقتل هذا الذئب وابتـلاعه ، بل أضافت الاساءة الى جريمتها فاستخدمت جلد الذئب على هذا النحو الوضيع • فأسدى « ويس » الشكر للطائر على المعلومات التى قدمها له ، وذلك بأن طلب منه أن ينزل اليه ، وأخذ يمشـط لـه رأسه ويصنع له طوقا من الريش حول رقبته • ولكنه قبل أن يفرغ من عمله ، طار الطائر • وهذا هو السبب فى أن طائر القاوند لا يحيط رقبته سوى جزء من الشعر خلف الرأس • على أن طائر القاوند أسدى الى « ويس » نصيحة قبل رحيله ، وقال لـه : ان هذه الحيوانات المائية كثيرا ما تخرج من الماء وتستلقى على الشاطىء، فان شاء أن ينتقم منهـا ، فعليه أن يحول نفسه الى كتلة من الخشب ويستلقى بجانبها ، وأن يكون حريصا كل الحرص على أن يكون جسمه متصلبا للغاية ، حتى لا تشده الضفادع والثعابين التى لا بـد أن

ترسلها الحيوانات المائية لكى تزحزحه من مكانه • وبعد أن استمع « ويس » لهذه الارشادات عاد الى خيمته وأخذ يعاود تعاويذه • كما أنه أعد كل ما يلزمه لهذه المغامرة ، من بينها قارب كبير يسع كل الحيوانات التى تستطيع العوم •

وقبل أن تشرق الشمس ، كان « ويس » قد أعد عدته واستقل مركبه مع الحيوانات المذكورة آنفا • ثم أخذ يجدف فى هدوء حتى وصل الى مقربة من الحيوانات المائية • وعند ذاك أرسى مركبه عند نتوء فى البحر ، ونزل من المركب وحول نفسه الى كتلة من الخشب وأخذ ينتظر ، وهو على هذا النحو المصطنع ظهور الحيوانات المائية • وسرعان ما ظهر حيوان أسود أخذ يزحف حتى استلقى على الرمل • ثم أعقبه حيوان رمادى اللون فعل ما فعله الحيوان الأسود • وأخيرا أطل الحيوان الأبيض الذى كان قد قتل الذئب الصغير ، برأسه من الماء • ولما أبصر كتلة الخشب تسرب الشك الى نفسه وصاح بأخويه وقال لهما : انه لم يبصر كتلة الخشب هذه من قبل • ولكنهما ردا عليه فى غير اكتراث بأن هذه الكتلة الخشبية لابد أنها كانت موجودة فى هذا المكان على الدوام • ولكن الحيوان الأبيض الحذر الذى كان الشك ما زال يساوره ، أرسل الضفادع والثعابين لكى تزحزح كتلة الخشب • ولكن « ويس » قاوم بشدة حتى يحتفظ بانتصابه ، ونجح فى ذلك • عند ذاك خمد شك الحيوان الأبيض ، واستلقى على الرمل ونام • أما « ريس » فقد انتظر بعض الرقت ، ثم عاد الى شكله الأصلى ، وأخذ رمحه وزحف فى بطء الى الحيوان الأبيض • وقد كان طائر القاوند قد نصح « ويس » أن يصوب رمحه نحو ظل الحيوان والا فشلت محاولته • ولكن « ويس » نسى هذه النصيحة ، وصوب سهمه نحو جسم الحيوان مباشرة ، فأخطأ الهدف واندفع الحيوان أثر ذلك الى الماء • وكانت لدى « ويس » فرصة أخرى لكى يضربه ، وفى هذه المرة صوب سهمه نحو ظله فأصاب الحيوان نفسه بجرح بالغ • ومع ذلك فقد حاول الهروب الى الماء وتبعه أخواه • وفى الحال بدأ الماء يفور ويرتفع فى الوقت الذى استقل فيه « ويس » مركبه وسار به فى أقصى سرعة • وأخذت المياه ترتفع حتى غطت الأرض والأشجار والتلال • أما

مركب «ويس » فقد أخذ يطفو على سطح الماء • ولما كان « ويس » قد جمع فى مركبه كل الحيوانات التى لا تستطيع العوم ، فقد أخذ يجمع هذه المرة الحيوانات التى كانت تسبح من حوله وهى تصارع هذا التيار المائى الجارف •

وقد فات « ويس » وهو منشغل فى تلاوة تعاويذه لمواجهة الاخطار المحدقة به ، أن يفكر فى طريقة عاجلة يسترجع بها الأرض بعد أن أغرقها الطوفان • ولم يكن لديه أى قدر من التراب ، ولا حتى ذرة منه تصلح أن تكون نواة لأرض جديدة تتكون من بقايا الارض الغرقى تحت المياه • فلما تذكر هذا الموضوع ، شرع فى الحصول على كمية من الطين فربط خيطا فى رجل طائر ، « آكل السمك » وطلب منه أن يحاول أن يسبر غور الماء وأن يثابر على ذلك ، ولو أدى هذا الى هلاكه • ثم قال :«لاتفكر فى أمر غرقك ، لأنك اذا غرقت ، ففى وسعى أن أعيد اليك الحياة فى يسر »• فشجع هذا القول الطائر واندفع فى الماء كما يندفع الحجر ، وجرى معه الخيط الذى كان «ويس» ممسكا بطرفه • فلما كف الخيط عن الجريان شد «ويس» الخيط من الماء ، واذا بالطير قد مات وهو مربوط فى نهايته فأعاد «ويس» الحياة اليه فى بطء • وعيد ذاه أخبره الطائر أنه لم يهتد الى قاع الماء • وبعد ذلك أرسل «ويس» كلب البحر ليقوم بهذه المهمة نفسها ، ولكنه لم يكن أسعد حظا من الطائر الأول • وفى المرة الثالثة أرسل حيوان السمور الذى أخبر «ويس» بعد أن مات وبعث للحياة مرة أخرى ، أنه قد غاص حتى وصل الى قمم الأشجار ، ولكنه لم يتمكن من الغوص أبعد من ذلك •وفى نهاية الأمر أرسل «ويس» فأرا ربطه فى حجر ، فغطس الفأر والحجر وارتخى الخيط عن آخره • وعند ذاك شد «ويس» الخيط وكان الفار ميتا فى طرفه ، ولكنه كان يحمل قطعة من الطين بين أظافره• وكان هذا هو كل ما كان يسعى اليه «ويس» ، فأعاد الحياة بعد ذلك الى الفأر ونشر قطعة الطين حتى تجف ثم أخذ ينفخ فيها حتى تمددت الى حد كبير، وهو يتصور أن حجم الأرض على هذا النحو كاف لأن يحيا عليها هو ومن معه من صنوف الحيوان • ثم أرسل الذئب ليستكشف له حجم الأرض • ولكن الذئب عاد على وجه السرعة وأخبره أن مساحة الأرض

صغيرة • فأخذ «ويس» ينفخ فيها فترة طويلة ، ثم أرسل غرابا ليعرف له قدر مساحتها • فلما لم يعد الغراب مرة أخرى ، تأكد «ويس» أن الأرض أصبحت من الاتساع بحيث تكفى الحياة عليها • وعند ذاك نزل اليها «ويس» ومن معه من صنوف الحيوان ••

وقد دونت لهذه الحكاية رواية أكثر اختصارا من الرواية السالفة ، وتختلف عنهـا بعض الاختلاف • وهـذه الرواية الأخيرة كان يرويهـا « الأوجيبويون » الذين يسكنون فى جنوب شرق « أونتاريو » (١) • وتجرى هذه الرواية على النحو التالى : كان « نينيبوجو » يعيش مع أخيه فى الغابات ، وكان يخرج كل يوم للقنص ، بينما يبقى أخوه فى البيت• وذات يوم عاد « نينيبوجو » من القنص فى المساء ولم يجد أخاه فخرج للبحث عنه ، ولكنه لم يعثر له على أثر • ثم خرج فى صباح اليوم التالى ليواصل البحث عن أخيه • وبينما كان يسير بجوار شاطىء بحيرة لم يبصر سوى طائر القاوند وهو جالس على فرع شجرة يتدلى فى الماء • وكان الطائر يحملق باهتمام فى الماء أسفل الشجرة • فسأله « نينيبوجو » قائلا : علام تحملق فى الماء ؟ ولكن القاوند تظاهر بأنه لم يسمعه • فقال له « نينيبوجو » ، « ان أنت أخبرتنى فسأجعل منظرك جميلا ، اذ أننى سأقوم بتلوين ريشك » • فوافق القاوند على ذلك ، وقال له بعد أن لون له ريشه : « اننى أنظر الى شقيق « نينيبوجو » الذى قتلته أرواح المياه وفرشت جلده عند عتبة البـــاب » • فسأله « نينيبوجو » بعد ذلك : « وفى أى مكان على الشاطىء تستلقى هذه الأرواح لتدفىء نفسها بأشعة الشمس ؟ » فأجاب القاوند : « انها تستلقى على الدوام هناك عند أحد الخلجان حيث الرمل جاف كل الجفاف » •

وعند ذاك ترك « نينيبوجو » طائر القاوند وقرر أن يذهب الى الشاطىء الرملى الذى أرشده اليه الطائر ، وهناك يتحين الفرصة كى يقتل

---

(١) مدينة فى ولاية كاليفورنيا وتبعـــد عن لوس انجلوس بجـــوالى خمسة وثلاثين ميـــلا . (المترجمة)

أرواح المياه • وأخذ بدىء الأمر يفكر فى الشكل الذى يتنكر فيه حتى لا تتعرف عليه هذه الارواح ، وقال لنفسه : « سأحول نفسى الى كتلة خشب قديمة عفنة » • وبالفعل حول «نينيبوجو» ، نفسه الى هذا الشكل مستعينا بعامود طويل كان يحمله معه على الدوام • فلما خرجت الأسود من الماء لتستدفىء فى الشمس ، أبصر أحدها كتلة الخشب وقال لأحد رفاقه : « لم يسبق لى أن أبصرت هذه الكتلة الخشبية فى هذا المكان ، ولا يمكن أن تكون هى «نينيبوجو» • فرد عليه الأسد الثانى قائلا : «لا ، بل اننى رأيتها من قبل » • عند ذاك قدم أسد ثالث لينظر الى كتلة الخشب ويتأكد منها • فكسر قطعة منها ووجدها عفنة • فاطمأنت الأسود وخلدت الى الراحة • فلما رأى «نينيبوجو» أن الأسود راحت فى سبات عميق ، هوى على رؤوسها بعصاه • وبينما كان يضربها كانت المياه ترتفع • فولى هاربا ولكن الأمواج اقتفت أثره • وبينما كان يجرى والأمواج تلاحقـــه ، تقابل مع طائر النقار الذى أرشده الى جبل تنبت عند قمته شجرة صنوبر عالية • فتسلق «نينيبوجو» الشجرة ، وأخذ يصنع لنفسه لوحا من الخشب • وما كاد يفرغ من صنعة حتى كانت المياه قد وصلت الى رقبته • فوضع على لوح الخشب زوجا من كل صنف من صنوف الحيوان وطفا الجميع على سطح الماء •

وبعد أن سار «نينيبوجو» بقاربه بعض الوقت فوق سطح الماء ، قال لنفسه : « لا أعتقد أن الماء سوف ينحصر على الاطلاق ، ولذلك كان من الأفضل أن أقوم بخلق أرض جديدة » • فأرسل كلب البحر ليغوص فى الماء حتى القاع ويحضر له قطعة من الطين • ولكن كلب البحر رجع خاوى الوفاض • فأرسل بعد ذلك حيوان السمور ليقوم بنفس المهمة ولكنه لم يأت له بشىء كذلك • وفى المرة الثالثة أرسل فأر المسك ليحضر له من قاع الماء قطعة من الطين • فلما رجع وجده قابضا يده باحكام • فلما فتحها وجد فيها ذرات من الرمل • كما وجد ذرات أخرى فى فمه • فجمع الذرات بعضها الى بعض وجففها ونفخها فى البحيرة ببوقه الذى كان يستخدمه فى نداء الحيوان • فكبرت حبات الرمل فى البحيرة وكونت جزيرة • وعند ذاك أرسل « نينيبوجو » غرابا ليكتشف مساحة الجزيرة

ولكن الغراب طار ولم يعد اليه • فأرسل بعد ذلك الصقر الذى يسرع فى طيرانه أكثر من أى طائر آخر • وبعد فترة عاد الصقر • فلما سأله « نينيبوجو » عما اذا كان قد رأى الغراب ، أجاب بأنه قد رآه يأكل جيفة عند شاطىء البحيرة • فأجاب « نينيبوجو » : « من الآن فصاعدا لن يجد الغراب ما يأكله سوى ما يسرقه » • ثم انتظر « نينيبوجو » بعض الوقت وأرسل « الكاريبو » ليكتشف له حجم الجزيرة • فجاءه وقال له : انها ليست متسعة بما فيه الكفاية • وعند ذلك نفخ « نينيبوجو » مزيدا من الرمل فى البحيرة واكتفى بعد ذلك بهذا القدر من مساحة الأرض •

وتحكى قبيلة ذوى الأقدام السود « بلاك فوت » وهى قبيلة « جونكونية » أخرى ، كايت تنتشر فى المنحدرات الشرقية لجبال روكى ، وفى البرارى التى تقع عند سفحها ، تحكى حكاية شبيهة بالحكاية السابقة عن الطوفان الأول الكبير • فهم يقولون : « ان الأرض كانت تغمرها المياه فى بداية الحياة ، وكان « الرجل الشيخ » يطفو مع الحيوانات على ظهر لوح من الخشب • وذات يوم طلب « الرجل الشيخ » من السنور « أن يغوص فى الماء ويحاول أن يحضر معه قدرا من الطين • فغاص « السنور » ومكث فيه وقتا طويلا دون أن يصل الى قاع الماء • ثم قام كلب البحر ومن بعده عجل البحر بهذه المحاولة نفسها ، ولكنهما لم يتمكنا من الوصول الى قاع الماء كذلك • وأخيرا غطس فأر المسك ومكث وقتا طويلا الى درجة أن الرجل الشيخ ظن أنه قد غرق • ولكنه عاد فى النهاية وقد أوشك على الموت • فلما انتشله من الماء ووضعه فوق الرمث ، وجد فى أحد فكيه قطعة من الطين • ومن هذه القطعة خلق « الرجل الشيخ » الأرض ، ثم خلق الناس بعد ذلك » •

ويبدو أن مثل هذه الحكايات تنتشر انتشارا كبيرا بين القبائل الهندية التى تسكن فى شمال غرب كندا • ولا تقتصر رواية هذه الحكايات على القبائل التى تنتمى الى الأصل « الجونكوينى » ، وانما تنتشر كذلك بين جيرانهم الشماليين وهم « التينيهيون » أو « الدينيون »

الذين ينتمون الى أسرة « أثا باسكان » الكبـــيرة ، وهى أكثر الأسر اللغوية الهندية انتشارا فى أمريكا الشمالية ، فهى تنتشر من ســاحل « أكيتيك » الى المكسيك ، كما تنتشر من الباســفيك الى « خليــج هدسون » ، ومن « ريو كلورادو » الى منبع نهر « ريو جراندى » • فقبيلة « كرى » وهى قبيلة جونكوينيه ، تحكى أنه فى بداية الحياة ، كان يعيش ساحر عجوز اسمه « ويساكيتشاك » وكان يصنع المعجزات بتعاويذه • على أن كائنا مهولا من كائنــات البحر كان يبغض هــذا الساحر وعزم على أن يقتله • فبينما كان الساحر يسبح فى عرض البحر على ظهر لوح من الخشب ، ضرب هذا الكائن البحــر بذيله حتى ارتفعت الأمواج وفاضت المياه وأغرقت الأرض • فأسرع الساحر وصنع لوحا عريضا من الخشب جمع عليه أزواجا من كل صنف من صنوف الحيوان والطيور ، وبذلك أنقذ نفسه ومن معه من الكائنات الحية من الفناء • واستمر الكائن المهول يضرب الماء بذيله حتى غمرت المياه الأرض ، بل أكثر الجبال ارتفاعا ، بحيث لم يعد يرى البصر شبرا واحــدا من الأرض الجافة • وعند ذلك أرسل « ويساكيتشاك » البطة الغطاسة لكى تغوص فى الماء ، ولكنها لم تستطع أن تصل الى قاع الماء وغرقت • فأرسل « ويساكيتشاك » اثر ذلك فأر المسك الذى مكث طويلا تحت الماء ، ثم طلع بعد ذلك وقد لطخت رقبته بالطين • فأخذ « ويساكيتشاك » الطين وشكله على هيئة قرص صغير وضعه فوق الماء فطفا فوقهــا • وكان هذا القرص الطينى يشبه أعشاش فئران المسك التى تبنيها فوق الثلج • ثم نفخ « يساكيتشاك » فى هذا القرص حتى تمدد وأصبح تلا صغيراً • فواصل عملية النفخ ، وكان كلما نفخ فيه تمدد أكثر وأكثر ثم احترق الطين بتأثير الشمس وأصبح كتلة صلبة • وعند ذاك وضع « ويساكيتشاك » فوقه الحيوانات لتعيش عليه • وفى النهاية ترك لوحه الخشبى ، ووقف على هذا القرص وسكنه • وقد أصبح هذا القــرص فيما بعد الأرض التى نعيش عليها •

وشبيهه بهذه الحكاية حكاية أخرى يرويها الهنود « الدوجريبين » ؛

و « السلافيون » ، وهم يكونون قبيلتين من القبـــائل « التينيهية » • ولا تختلف هذه الرواية عن سالفتها سوى فى أن اسم الرجل الذى أنقذ من الطوفان فى هذه الرواية الأخيرة هو « تشابيوى » • وتذكر هذه الحكاية أنه بينما كان هذا الرجل يطفو فوق الماء على لوحه الخشبى ومعه زوج من كل نوع من أنواع الحيوانات التى أنقذها ، جعل كل الحيوانا تالبرمائية بما فى ذلك السنور وكلب البحر تغوص فى المـــاء لتحضر له قطعة من الطين ، ولكنها لم تتمكن جميعا من احكارها عدا فأر المسك الذى كان آخر من غاص وعاد وعلى مخلبه قطعة صغيرة من الطين • فنفخ « تشابيوى » فى هذه القطعة حتى تمددت وأصبحت الأرض التى نراها الآن • عند ذلك أنزل « تشـــابيوى » الحيوانات عليها ، وعاش هو معها كما كان يعيش قبل أن يحدث الطوفان • ثم انه دعم الأرض بدعامة قوية حتى جعلها صلبة متينة •

ويحكى الهنود « الهاريسكيثيون » ، وهم يكونون قبيلة « تينيهية » أخرى ، أن رجلا بعينه يدعى « كونيان » ومعناه الرجل الحكيم ، قرر ذات مرة أن يصنع لوحا خشبيا عريضا • فلما سألته أخته ، وهى فى الوقت نفسه زوجته ، عن السبب الذى من أجله يصنع هذا اللوح قال لها : « اذا انتاب الأرض طوفان ، كما أتنبأ بذلك ، فاننا سنطفو على هذا اللوح » • ثم كشف عن خطته لغـــيره من أهل الأرض ، ولكنهم استهزءوا به وقالوا له : « اذا حدث طوفان سنأوى الى الأشجار » • ومع هذا فان الشيخ الحكيم صنع اللوح الخشبى العـــريض بأن ربط الدعائم الخشبية بعضها إلى بعض بأحبال مصنوعة من ألياف الشجر • وفجأة زحف طوفان الى الأرض ، كما لم يحدث قط من قبـــل ، وكأن المياه كانت تتدفق من كل جانب • وأخذ الناس يتسلقون الأشجار ، ولكن المياه كانت فى أثرهم ، حتى أغرقتهم عن آخرهم • أما الشـــيخ الحكيم فقد طفا فوق لوحه الخشبى القوى المحكم الصنع • وبينمـــا كان يسير فى عرض الماء ، أخذ يفكر فى المستقبل ، فجمع من كل صنف من صنوف الحيوان آكل العشب ، ومن الطيور ، بل من الوحـــوش

المفترسة ، وصاح بها قائلا : « هيا اتخذى مكانك على اللوح الخشبى ، فلن يترك الطوفان شـــبرا من الأرض دون أن يغمـــره » • واختفت الأرض حقا تحت المياه ، وظلت هكذا زمنا طويلا دون أن يفكر أحد فى البحث عنها • وكان أول من غاص الى قاع الماء ليبحث عن الأرض هو فأر المسك •ولكنه لم يتمكن من الوصول الى قاع الماء • ولما طفا على السطح ، كان قد أوشك على الغرق ، وقال للشيخ الحكيم : اننى لم أجد أثرا للأرض • ثم عاد فغاص مرة أخرى • ولما رجع قال : لقد شممت رائحة الأرض ولكننى لم أهتد اليها » • ثم جاء دور السنور ، فغاص وغاب فترة ثم ظهر أخيرا وهو يسبح على ظهره فاقد الوعى والأنفاس ، واكنه كان يحمل فى منقاره قطعة من الطين سلمها للشيخ الحكيم الذى وضعها بدوره على سطح الماء ونفخ فيها وقال : « لن أكون الا حيثما كانت الأرض » • وفى الوقت نفسه ملأ يده بالطين ونفخ فيه ، ولشدة سعادته أخذ يتمدد • فوضع على قطعة الطين طائرا وأخذ ينفخ فيها فأخذت تتسع رقعة الأرض تدريجيا • ثم وضع عليها ثعلبا دار حول رقعة الأرض فى يوم واحد • ثم عاد الثعلب وطاف حولها وهى تزداد اتساعا حتى أكمل ست دورات ، وفى الدورة السابعة عادت الأرض الى شكلها الطبيعى قبل الطوفـــان • عند ذاك أنزل الشـــيخ الحكيم الحيوانات عليها ، كما فعل هذا هو وزوجته وابنه من بعد وقال لهما : « ان الأرض سوف تعمر بأولادنا » • وهذا ما حدث بحق • ثم بقيت هناك مشكلة أخرى كان على الشيخ الحكيم أن يجد حلا لها • وهـــذه المشكلة هى كيفية ابطال الطوفان الذى كان مازال مستمرا • فلما رأى طائر « الواقة » ما كان عليه الرجل الحكيم من حيرة ، جاء لانقاذه • فابتلع الماء كله ثم استلقى على الشاطىء على دعامة من الخشب وقد تضخمت حوصلته تضخما مفزعا • وقد كان هذا أكثر مما كان يتوقعه الشيخ الحكيم ، فبعد أن كان الماء كثيرا كل الكثرة ، أصبح قليلا كل القلة • فتحدث الشيخ الحكيم ، وهو فى هذه الحيرة ، مع طائر الشرشق وقال له : « ان طائر الواقة يستلقى فى الشمس وحوصيلته منتفخة بالماء كل الانتفاخ ، فاذهب اليه واثقبها » • عند ذلك ذهب طائر الشرشق

الى الواقة التى لم تكن تتوقع قدومه ، وقال لنفسه فى نغمة ، ملؤها الشفقة : « لا شك أن جدتى تعانى من ألم فى معدتها » • ثم تحسس بيده فى رقة الجزء المتورم فى جسم الواقة ، كما لو كان يريد أن يسكن الألم • ولكنه وخز هذا الجز الملتهب فى غير عمد بمخالبه وخزة شديدة ، وفى الحال سمع صوت قرقرة تدفق على اثرها الماء من معدة الطائر وهو يرغى ويزبد • ثم انساب الماء مكونا البحيرات والأنهار ، وبهذا أصبحت الأرض قابلة للسلكنى مرة أخرى •

ويؤكد بعض الهنود التينيهيين أن الطوفـــان تسبب عن سقوط كميات هائلة من الثلوج فى شهر سبتمبر • ولم يتنبأ بهـــذه الكارثة سوى رجل واحد كهل وحذر رفاقه ، ولكنهم لم يأبهوا لقوله وقالوا : « سوف نهرع الى الجبال اذا انتابنا الطوفان » • ولكنهم غرقوا جميعا فيما بعد • أما الرجل الشيخ فقد ابتنى مركبا أبحر بـــه وأنقذ معه كل الحيوانات التى صادفها حية • ولما تعب من الحياة فى المركـــب على هـــذا النحو ، أرســـل السلور وكلب البحر وفأر المسك والبطة ، كى يغوصوا فى الماء ، وييحثوا عن الأرض الغرقى •على أن البطـــة هى التى صعدت الى سطح الماء وفى مخالبها قطعة صغيرة من الطين • فبسط الشيخ هذه القطعة على سطح الماء ونفخ فيها • وبعد ستة أيام رســـت الحيوانات على سطحها • فلما كبرت الأرض وأصبحت فى حجم الجزيرة ، خطا هو بنفسه عليها • ويحكى بعض التينيهيين أن الرجـــل الشـــيخ أرســـل أول الأمـــر غرابا انهمك فى افتراس الأجساد الطافية على سطح الماء ، ولم يعد الى الرجل الشـــيخ مرة أخرى • فأرســـل من بعده اليمامة التى طارت حول الأرض مرتين ثم عادت • وفى المرة الثالثة عادت فى المساء وقد أنهكها التعب وفى فمها فرع من الشجر ذو براعـــم • وقـــد يبدو لنـــا تأثير التعاليـــم المسيحية فى هـــذه الروايـــة الأخيرة •

وقد كانت قبيلة « سارسى » ، وهى قبيلة هندية أخرى تنتمى الى أصل «تينه» الكبير ، تكون أمة قوية فى سالف الزمن ، ثم انقرضت ولم

يعد عددها اليوم يتجاوز بضعة مئات من الأفراد • وهـى تنتشر فى مساحة غير صغيرة من أرض البرارى ، بالأضافة الى انتشـارها فى « بلاكفيت » فى « ألبيرتا » التى تقع على وجه التقريب جنوب « سكك حديد الباسفيك الكندى » • وتتفق رواية هذه القبيلة عن الطوفان فى ملامحها الأساسية مع روايتى قبيلتى « أوجيبواى » و « كرى » وسائر القبائل الكندية الأخرى • وتحكى هذه القبائل أنه عندما أغرق الطوفان الأرض ، لم ينج منه سوى رجل وامرأة طفيا على لوح من الخشب بعـد أن وضعا عليه صندوقا من الحيوانات والطيور • ثـم أرسـل الرجل بعد ذلك السنور لكى يغوص الى قاع الماء • فغاص السنور وعـاد ومعه قطعة من الطين عجنها الرجل فى يده لكى يصنع منهـا أرضـا جديدة • وقـد كانت هذه الأرض صغيرة فى بادىء الامر ، الى درجـة أنه كان فى وسع العصفور أن يطوف بها • ولكنهـا أخذت تكبر تدريجيا بعد ذلك • ويضيف راوى هذه الحكاية الى هذا قائلا : « كان أول من عاش على وجه هذه الأرض هو أبونا الشيخ ، ثم ظهر علينا بعـد ذلك رجال ونساء وحيوانات وطيور • ثم خلق أبونا الشـيخ الأنهار الجبال والأشجار وكل الاشياء التى نراها أمامنا الآن » • وبعـد أن فرغ الراوى من روايته لفت الرجل الأبيض الذى دون هذه الحـكاية نظر قبيلة « سارسى » ، أن رواية قبيلة « أوجيبواى » شديدة الشـبه بروايتهم ، فيما عدا أن الحيوان الذى أحضر قطعـة الطين فى هذه الرواية الاخيرة ليس هو السنور وانما فأر المسك • وقد أثارت هذه الملاحظةصيحة الموافقةمنخمسة أو ستة أفراد منالقبيلة كانوا يجلسون القرفصاء داخل خيمتهم • فصاح هؤلاء فى صوت واحد : « نعم ، نعم ، لقد كذب الرجل ، فلقد كان الحيوان هو فأر المسك • لقد كان حقا هو فأر المسك » •

ويلعب غراب بعينه أو كما يسمى « بيل » دورا كبيرا فى ديانة قبيلة « التيلنجيت » أو « التيلنكيت » وأساطيرها ، وهى قبيلة هندية ذات شأن فى «ألاسكا » • ولا يعـد هذا الغراب جدا لأسرة الأغربـة فحسب ، وانما كان خالق الجنس البشرى ، ومنبت النبـات وواضـع

الشمس والقمر والنجوم فى أماكنها • وقد كان لهذا الغراب خال شقى قتـــل اخوته العشر بأن أغرقهم أو أنه سطحهم على لوح خشبى وجـــز رؤوسهم بسكين • وقد كان دافعه لارتكاب هذا العمل الشرير هو الغيرة • ذلك لأنه كان متزوجا بامرأة شابة كان يحبها كل الحب • وكان يعلم ، وفقا لقانون قبيلة « تيلنجيت » ، أن أولاد أخته يرثون زوجته بعـــد موته • فلما شب « بيل » عن الطوق وأصبح رجلا ، حاول خاله أن يقتله كماقتل اخوته من قبل ، ولكنه لـــم ينجح فى هذا ، لان بيل لم يكن طفلا عاديا • فقد حملت فيه أمه عن طريق ابتلاعها حصاة عثرت عليها عند جزر البحر • ثم ابتلعت حصاة أخرى أصبح « بيل » بعدها لا يؤثر فيه الطعن • فلما حاول خاله أن يقتله ، لم تؤثر فيه السكين • ولكن الخال لم ييأس ، وحاول أن يعرضه لأخطار أخرى • فنطق فى سورة غضبه : « ليكن هناك طوفان » • فتدفقت المياه بحق حتى غمرت الجبال • عند ذاك استخدام بيل جناحيه وريشه اللذين كان يستخدمهما كيفما شـــاء ، فنشرهما حتى وصل الى عنان السماء ، وهناك ظل معلقا فى السماء من منقاره مدة عشرة أيام ، بينما ظلت المياه تعلو حتى غطت جناحيه • فلما انخفضت المياه طار كالسهم الى البحر ، حيث سقط فى هدوء على جرف تنبت فيه الأعشاب • وهناك أنقذه من الخطر كلب البحر ، وأوصله الى الشاطىء فى أمان • هذا ما تذكره رواية قبيلة « تيلنجيت » • أما ما حدث للناس فى أثناء الفيضان ، فلا تذكر عن هذا شيئا •

وهناك أسطورة أخرى لقبيلة « تيلينجيت » تروى بطريقة أخرى كيف أن الغربان تسببت فى حدوث الطوفان الكبير • فلقد وضع هـــذا الغراب امرأة تحت الأرض لكى تراقب مد البحر وجزره • وذات يوم شاء الغراب أن يعرف كل شىء يجرى تحت البحر فطلب من المرأة أن ترفع المحيط حتى يمكنه أن يسير تحت المحيط دون أن تبتل قدماه ، ولكنه نصحها فى حذر أن ترفعه ببطء حتى يكون لدى الناس متسع من الوقت ، اذا ما حل بهم الطوفان ، أن يحملوا فى مراكبهم المؤن اللازمة لهم ، وأن يصعدوا الى ظهرها • وبعد ذلك أخذت مياه المحيط ترتفع تدريجيا ، حاملة

الناس فى مراكبهم على سطحها • وبينما كانوا يرتفعون تدريجيا فوق سطح الماء ، كانوا يبصرون الدببة وسائر الوحوش تتجول على قمم الجبال التى لم يكن الطوفان قد أغرقهم بعد • وأخذ يسبح الكثير من الدببة من حول المراكب حتى تقفز اليها لأنهـا كانت ترغب فى الحياة على البر • ولكن الناس الذين كانوا من بعد النظر بحيث اصطحبوا معهم كلابهم ، سعدوا بتصرفهم هذا ، لأن الكلاب حالت دون صعود الدببة الى ظهر المراكب • وقد رسا بعض الناس على قمم الجال وشيدوا من حولهم سورا ليحجز عنهم المياه ، وذلك بعد أن ربطوا مراكبهم داخل السور • على أن الناس لم يكونوا قد تمكنوا من أن يأخذوا معهم كمية وافرة من خشب الوقود لان مراكبهم لم تتسع لذلك • ولقد مر الناس بوقت عصيب خطير فوق قمم الجبال ، اذ كانوا يبصرون الأشجار وهى تقتلع من جذورها وتنجرف مع التيار ، كما كانوا يبصرون شيطان البحر وسائر المخلوقات الغريبة وهى تطفو على صفحة الماء • وعندما انحسرت المياه ، أقتفى الناس أثر الجزر وهو يتراجع عن جوانب الجبال • ولما لم يجدوا أثرا للأشجار ، وكان وقودهم قد نفذ فى الوقت نفسه ، فقد هلكوا من البرد • وعندما عاد الغراب من تحت الماء ، أبصر السمك جافا مطروحا على الجبال وفى الشقوق ، فقال له : « قف حيث أنت وتحول الى حجر» • فتحول السمك الجاف الى حجر • فلما أبصر الناس وهم هابطون من فوق قمم الجبال ، صاح بهم فى نفس اللهجة قائلا : « لتحولوا الى أحجار حيثما كنتم » ، فتحول الناس فى الحال الى أحجار كذلك • ثم عـاد وخلقهم مرة أخرى من أوراق الشجر • ولما عرف الناس فيما بعد أنهم قد خلقوا من أوراق الشجر ، أدركوا أن الغراب لا بد أنه كان قد حول من نجا من الطوفان من الجنس البشرى الى أحجار • وهذا هو السبب فى أن كثيرا من الناس حتى يومنا هذا يموتون فى فصل الخريف مع تساقط الأوراق • ويقول الأهالى انهم يموتون كما تذبل الاوراق وتتساقط •

وهناك حكاية أخرى تحكى عن الطوفان الذى أنتاب العالم ، تروى عن قبيلة « تيلينجيت » أو « كولوش » كما تعود الروس أن يسموها •

وقد نجا الناس فى هذه الحكاية فى فلك عائم كبير رسا بعد أن انخفضت المياه ــ على صخرة ، ثم انشطر الى شطرين • وهذا هو السبب من وجهة نظرهم ، فى اختلاف لغات الناس ، ذلك أن قبيلة « تيلينجيت » التى ركبت الفلك ، تمثل نصف سكان العالم ، فى حين أن من بقى من الناس على سطح الأرض يمثلون النصف الآخر • وربما كانت هذه الأسطورة الأخيرة تعتمد على أصل مسيحى ، حيث انها تمثل نوعا من الخلط بين حكاية نوح وحكاية برج بابل •

ويحكى الهنود « الهايدا » الذين يسكنون جزر « كوين شارلوت » أنه « قد حدث فى سالف الزمان طوفان مهول غرق فيه الناس والحيوانات جميعا ، ولم ينج منه سوى غرا بواحد • على أن هذا الغراب لم يكن طائرا عاديا تماما ، وانما كان يمتلك الى حد كبير ــ شأنه شأن كل الحيوانات فى الحكايات الهندية القديمة ــ خصالا انسانية • فقد كان فى وسعه ، على سبيل المثال ، أن يرتدى رداءه الريشى وأن يخلعه ، كما يرتدى الانسان ملابسه ويخلعها • بل انه ولد وفقا لرواية من روايات هذه الحكاية ، من امرأة لم يكن لها زوج ، وأن هذه المرأة صنعت له الأقواس والسهام التى كان يقتل بها الطيور عندما كبر ، وكانت تخيط له جلود هذه الطيور رداء أو غطاء • وكانت تتألف هذه الطيور التى كان يقتلها الغراب بسهامه ، من الطائر الثلجى الصغير ذى العنق والرأس الأسودين ، ومن الطائر الثلجى الكبير ذى اللون الأسود والأحمر ، ومن طائر النقار المكسيكى وقد كان اسم هذا الغراب هو « نى ــ كيل ــ ستلاس » • وبعد أن انحسر الطوفان ، نظر « نى ــ كيل ــ ستلاس » من حوله ، ولكنه لم يجد زوجة أو رفيقا ، ومن ثم أصبح يشعر بالوحدة • فأخذ حيوانا من الحيوانات الرخوة (Cardium Nuttalli) من شاطىء البحر وتزوجه وأخذ يفقس على الدوام وهو ما زال يفكر جديا فى أن يكون له رفيق • ثم سمع فى النهاية صراخا خافتا للغاية شبيها بصراخ الطفل الوليد • وأخذ الصوت يعلو شيئا فشيئا ، وفى النهاية بزغت طفلة أخذت تكبر تدريجيا فيما بعد ، ثم تزوجها الغراب • ومن هذا التزاوج تناسل الهنود الذين عمروا الأرض من بعد » •

ويحكى هنود طومسون الذين يسكنون « كولومبيا البريطانية » ، أنه قد حدث طوفان ذات مرة ، وغمر بلادهم جميعا فيما عدا قمم بعض الجبال العالية • ويظن هؤلاء الهنود ، وان كانوا غير واثقين من ظنهم هذا ، أن هذا الطوفان تسبب عن ثلاثة أخوة يدعون « كواكلكال » • وقد كان هؤلاء يتجولون فى البلاد ليقدموا معجزاتهم ويحولوا الاشياء الى أشكال أخرى ، حتى تحولوا هم فى النهاية الى أحجار • ومهما كان من أمر هؤلاء الأخوة ، فان الطوفان أغرق الناس جميعا عدا ذئبا وثلاثة رجال • أما الذئب فقد أنقذ لأنه حول نفسه الى قطعة من الخشب طفت فوق الماء ، وأما الرجال الثلاثة فقد نجوا لأنهم استقلوا مركبا جرفه التيار حتى رسا بهم عند جبال « نزوكسكى » ، وهناك تحولوا ومركبهم فيما بعد الى أحجار • ويمكنك أن تراهم هناك على هذا النحو فى هيئة أحجار حتى اليوم • وأما الذئب فقد ظل مطروحا على الشاطىء بعد أن انحسر الطوفان ، وهو على هيئة قطعة الخشب التى استطاع أن يحول نفسه اليها بمهارة فى وقت الشدة • ثم عاد واسترد شكله الأصلى وأخذ ينظر فيما حوله فرأى أنه فى بلد نهر طومسون • وعند ذاك اتخذ من الأشجار زوجات له • ومن هذا الزواج تناسل الهنود الذين يعيشون اليوم • ولم يكن هناك ، قبل أن يحدث الطوفان ، بحيرات أو أنهـار بين الجبال ، ومن ثم لم يكن هناك سمك • أما بعد الطوفان فقد امتلأت الكهوف بالمياه وأخذت تتدفق منها المجارى المائية الى البحر • وهذا هو السبب فى أننا نجد الآن بحيرات فى الجبال ، وسمكا فى هذه البحيرات • ويبدو أن حكاية « طومسون ريفر » قد اخترعت لتفسر سبب وجـود البحيرات فى الجبال • وقد عزا الفيلسوف البدائى وجودها الى الطوفان الكبير الذى خلف وراءه مياها فى تجاويف الجبال تماما كما يترك جزر البحر وراءه احواضا من المياه فى تجاويف الصخور التى تقع على شاطىء البحر •

ويبدو أن أساطير الطوفان الكبير كانت منتشرة بين القبائل الهندية التى كانت تسكن فى « ولاية واشنطون » • فقد حكت قبيلة « توانا »

التى كانت تسكن « بوجيت ساوند » أن الناس أصبحوا آثمين فى عصر من العصور • وعقابا لهم على اثمهم انتاب الأرض طوفان أغرق الارض جميعها عدا جبلا واحدا • فهرب الناس فى قواربهم الى أعلى جبل فى بلدهم ، أى الى قمة سلسلة جبال « أولمبيك » • فلما غمرت المياه هذه الجبال ،ربط الناس قواربهم بحبال متينة فى أعلى شجرة • ولكن المياه أخذت فى الارتفاع حتى غمرت الأشجار • فتحطمت بعض المراكب وجرفها التيار جهة الغرب حيث تعيش اليوم سلالات الذين أنقذوا ذات يوم من الطوفان • وهم قبيلة تتحدث لغة شبيهة بلغة قبيلة « توانا »• وهذا هو السبب ، كما يدعى الأهالى ، فى أن أفراد هذه القبيلة قلائل • وهم يطلقون على هذا الجبل اسما ، معناه « المربط » ، لأنهم ربطوا قواربهم عنده آنذاك • وبالمثل يحكى الأهالى عن حمامة أطلقت لتستكشف أحوال الغرقى •

وقد وجد المبشرون الاول فى أثناء اقامتهم بين القبائل الهندية « سبوكانا » و « نيزبيرسى » و « كايوزى » ، هؤلاء الذين ألفوا أن يستوطنوا ، مع قبيلة « ياكيما » شرق ولاية واشنطون — وجدوا أن هؤلاء الهنود يروون حكايات خاصة بهم عن الطوفان الكبير ، الذى نجا منه رجل وزوجته على لوح من الخشب • وكل قبيلة من هذه القبائل الثلاث ، بالاضافة الى قبائل « فلات هيد » ، تحكى عن جبل خاص بها هو جبل « أرارات » الذى لجأ اليه من أنقذ من الطوفان •

وبالمثل روى هنود ولاية واشنطون الذين ألفوا أن يسكنوا عند المجرى الأدنى لنهر كولومبيا ، وكانوا يتحدثون لهجة « التشينوك الكاثلامية » — رووا حكاية عن الطوفان الكبير • وهذه الحكاية تتشابه بصفة خاصة مع الأسطورة « الأجونجوينية » • فهم يقولون : ان طائر « الثرثار الأزرق » نصح فتاة بعينها أن تتزوج النمر الأرقط الذى كان يصطاد الأيائل ، وكان رئيس بلده فى الوقت نفسه • فرحلت

الفتاة الى مدينة النمر الأزرق ، وهناك تزوجت خطأ السنور بدلا من النمر الأزرق • وذات يوم عندما رجع زوجها السنور من الصيد ، ذهبت لتستقبله ، فطلب منها أن تنتشل السمك الذى اصطاده • ولكنها رأت أن ما معه ليس سمكا ، وانما فروع شجر الصفصاف فحسب • فولت عنه مشمئزة مما رأته ، وتزوجت فى النهـاية النمر الأرقط الذى كان ينبغى عليها أن تتزوجه بادىء الأمر • فلما وجد السنور أنه فقد زوجة شبابه ، جلس وبكى مدة خمس أيام حتى فاضت دموعه عـلى الأرض وأغرقتها جميعا ، بما عليها من بيـوت • أما الحيوانات فقـد استقلت قواربها هروبا من الغرق • ولما أوشك الطوفان على أن يصل الى السماء ، تدبرت الحيوانات أمرها فى احضار قطعة من الطين من أعماق المياه • فقالت لطائر الثرثار الأزرق : « الآن اغطس فى المياه أيها الثرثار الأزرق ، وأحضر قطعـة من الطين » • فغطس الثرثار الأزرق ولكنه لم يغص الى قاع الماء ، لأن ذيله ظل ملتصقا بسطح الماء • ثم حاولت الحيوانات من بعده أن تغوص الى قاع الماء ، فغاص النمس أولا ومن بعده كلب البحر ، ثم عادا دون أن يتمكنا من الوصول الى قاع المياه • ثم جاء دور فأر المسك فقال للحيوانات : « اربطوا القوارب بعضها بجانب بعض • فربطت الحيوانات المراكب بعضها ببعض ، ووضعت ألوحا من الخشب عبر القـوارب • عند ذاك خلع رداءه ، وغنى أغنيته خمس مرات ، ثم غطس فى الماء دون أن يطيل الوداع واختفى عن الأبصار • وهناك مكث مدة طويلة • وفى نهاية الأمر ظهر زهر السوسن على صفحة المياه • ولما حل الصيف ، هبطت المياه وهبطت معها القوارب حتى رست على أرض جافة • وعند ذاك قفزت الحيوانات من القوارب • وبينمـا كانت تفعل هـذا ، خبطت أذيالها بحافة المركز ، فانقطعت أذيالها • وهذا هـو السبب فى أن الدب الرمادى والدب الأسود لهما ذيل قصير حتى اليوم • أما النمس وكلب البحر وفأر المسك والنمر الأرقط ، فقد رجعوا الى القوارب واستردوا أطراف ذيلهم ولصقوها فى مكانها • وهذا هو السبب فى أن هذه الحيوانات لا تزال لديهـا ذيول ذات طول لائق حتى اليـوم ،

على الرغم من أنها كانت قد قطعت عند حدوث الطوفان • هذا ولم تذكر الحكاية سوى الشيء اليسير عما حدث للجنس البشرى وكيف هرب من الطوفان • ولكن الحكاية تنتمى ، كما هو واضح ، الى نمط الحكايات البدائية التى لا تميز تميزا واضحا بين الانسان والحيوان • فالمخلوقات الدنيئة تفكر وتتكلم وتتصرف تصرف الانسان وفقا للتصور البدائى ، بل انها تعيش على قدم المساواة معه • وهذه الطبيعة المشتركة تشير اليها الحكاية « الكائلاميتية » بوضوح بزواج الفتاة بالسنور أولا ، ثم بالنمر الأرقط ثانيا • كما يتضح هذا كذلك فى الوصف العرضى للسنور على أنه رجل منتفخ الحويصلة • ومن ثم ، فربما تصور القاص أن وصفه لنجاة الحيوانات من الطوفان يعد اشارة كافية لنجاة الجنس البشرى كذلك •

ولا تقتصر أساطير الطوفان الكبير على القبائل الهندية فى أمريكا الشمالية ، وانما يحكيها كذلك الاسكيمو وأقرباؤهم سكان جرينلاند • فقد ذكر القائد « جاكوبسين » نقلا عن سكان « أورويجناراك » فى « ألاسكا » ، أن الاسكيمو يروون حكاية عن طوفان مهول أغرق الأرض فى سرعة مذهلة اثر هزة أرضية مفاجئة ، بحيث لم يتمكن من النجاة منه سوى أفراد قلائل استطاعوا أن يهربوا فى قواربهم المصنوعة من الجلد ويلجأوا الى قمم أكثر الجبال ارتفاعا • وكذلك يحكى الاسكيمو الذين يسكنون « تورتون ساوند » فى « ألاسكا » أن الطوفان أغرق الأرض جميعا فى بداية الحياة الأولى سوى جبل شاهق كان يتوسط الأرض • وحتى هذا الجبل غمرته المياه عدا قمته التى لجأ اليها بعض الحيوانات • كما حاول قلة من الناس الهروب من هذا الطوفان ، بأن طافوا على الماء فى قواربهم وعاشوا على السمك الذى كانوا يصطادونه • فلما انخفضت المياه بعد ذلك ، برزت الجبال من وسط المياه ، ورسا الناس بقواربهم فوقها • ثم أخذوا يتتبعون الطوفان المتراجع تدريجيا حتى وصلوا الى الشاطىء • وكذلك استقرت على هذا الشاطىء الحيوانات التى كانت قد لاذت بالجبال وعمرت الأرض بنتاجها ••

ويحكى الاسكيمو « التشيجليتين » الذين يسكنون ساحل محيط « أركتيك » بين « بوينت بارو » فى الغـرب الى « كيب باثروست » فى الشرق ، أن طوفانا كبيرا تدفق على سطح الأرض ، ودفعته الرياح فغمر مساكن الناس • فربط الاسكيمو عددا من القوارب بعضها الى بعض ، فكانت أشبه بلوح خشبى كبير طافوا عليه فوق سطح المـاء وهم يتزاحمون طلبا للدفء فى خيمة نصبوها • ولكنهم كانوا يرتعشون من لفحات الهواء الباردة وهم يرقبون الأشجار والرياح تقتلعها من جذورها • وفى نهاية الأمر رمى ساحر يدعى « أن ــ أودجيـون » ومعناه « ابن البومة الصغيرة » ، بسهم فى البحر وهو يقـول « كفى أيتها الرياح ، لتهدئى الآن » • ثم رمى بعد ذلك قرطه ، وكان هذا كافيا لأن يجعل الطوفان ينحسر •

أما الاسكيمو الذين يسكنون وسط بلاد الاسكيمو ، فيحـكون أن مياه المحيط ارتفعت فجأة منذ زمن طويل واستمرت فى الارتفاع حتى أغرقت الأرض جميعا • بل انها أغرقت قمم الجبال ، وهى تجرف الثلوج فوقها • وعندما انحسر الطوفان ، ترك الثلوج وراءه ، التى لا تزال تغطى قمم الجبال حتى اليوم • وقد تخلف فوق قمم الجبال كثير من الأسماك الصدفية ومن الأسماك العادية وعجول البحر والحيتان وقد جفت هذه الحيوانات المائية فيما بعد ، ولا تزال قشورها وعظامها بادية للعيان حتى اليوم • وقد غرق كثير ن الاسكيمو ، ولكن الكثير منهم هرب من الطوفان فى قواربهم •

أما فيما يختص بسكان جرينلاد ، فيحكى لنا مؤرخهم « كرانتز » أن « الشعوب الوثنية كلها على وجه التقريب تعرف شيئا عن طوفان نوح ، وأن المبشرين الأول سـمعوا عن « الجـرينلاديين » روايات بسيطة طريفة تتصل بهذا الموضوع • وتتلخص هذه الروايات فى أن الطوفان أغرق الأرض ومن عليها فى سـالف الزمـان ، ولم ينج من الناس سوى رجل واحد ، كما تحول بعضهم الى أرواح نارية • وضرب

هذا الرجل بعصاه الأرض بقـــوة ، فبرزت من باطنها امرأة تزوجها الرجل ، وعمرا الأرض بنسلهما • ومما يؤكد من وجهة نظرهم ، أن الطوفان قد أغرق الأرض جميعا ، أنه قد عثر على عظام الحيتان فوق الجبال العالية » • وقد أيد هذه الأسطورة الرحالة «س • فـ • هول» بما رواه عن « الانويتيين » أو « الاسكيمو » الذين عاش بينهم • فقد أخبرنا هذا الرحالة أن « هؤلاء الاسكيمو يروون حكاية عن الطوفان الذى يعزونه الى مد غير عادى للبحر • وبينما كنت أتحدث فى مناسبة من المناسبات مع امرأة تدعى « توكوليتو » حول قومها ، قالت لى : « ان « الانويتيين » كلهم يعتقـــدون أن الأرض جميعا قد غمـــرها الطوفان ذات يوم • فلما سألتها عن سبب اعتقادهم فى هذا الحادث ردت على قائلة : «ألم تر أحجارا صغيرة على الجبال تشبه الحيوانات الرخوية وغيرها من الحيوانات التى تسكن البحار ؟ » •

١٥ ــ حكايات افريقية عن الطوفان الكبير

انه لمن الغريب حقا أننا لا نكاد نعثر على حكايات الطوفان الذى أغرق العالم فىافريقيا ، بينما تنتشر هذه الحكيات انتشارا واسعا فى كثير من جهات العالم • حقا ان الشك يمكن أن يساورنا فيمـــا اذا كانت هناك رواية واحدة أصلية عن الطوفان الكبير دونت فى هذه القارة الشاسعة • بل انه ن الصعب أن نجد آثارا لمثل هذه الرواية ، فلم يكتشف أثر لهذه الحكاية فى الأدب المصرى القديم • وقد قيل لنا أن سكان « غينيا الشمالية » يروون « حكاية عن الطوفـــان الذى أغرق الأرض جميعا • ولكن هذه الحكاية ممتزجة بالخرافات والمعجزات ، بحيث يصعب علينا أن نقرنها بحكاية الكتاب المقدس » •

وحيث ان المبشر الذى روى هذه الحكاية لم يذكر تفاصيل عنها ، فاننا لا نستطيع أن نحكم بما اذا كانت هذه الحكاية قد نشأت أصلا عن سكان « غينيا الشمالية » أم أنها نقلت عن الأوربيين • على أن هناك مبشرا آخر صادف اشارات لحكاية الطوفان الكبير بين حكايات

أهالى نهر الكونغو الأعلى • فهم يقولون : ان الشمس والقمر تقابلا ذات يوم ، فلطخت الشمس جـزءا من وجه القمـر بالطين ، وبذلك حجبت بعض ضوئه • وهذا هو السبب فى أن جزءا من القمـر يكون مظلما فى كثير من الأحيان • وقد حدث الفيضان عندما تقابل الشمس والقمر • وحمل الناس القدامى الجذور التى يصنعون منهـا حساءهم (لوكو) على ظهورهم وتحولوا الى قردة • فالجنس البشرى الذى يعيش الآن على وجه الأرض يعد خلقا جديدا •

وهناك رواية أخرى تقول : ان الرجال قد تحولوا بعد حدوث الطوفان الى قرود كما تحولت النساء الى سحالى ، وأن ذيل القرد هو بندقية الرجل • وقد نفهم من هذه الرواية أن هذا التحول قد حدث ، وفقا لتصور هؤلاء الأهالى ، فى زمن متأخر للغاية • وليس لدى أهالى الكنغو حكايات تحكى عن سبب دخول البندقية الى بلادهم • كما أنهم لا يمتلكون أخبـارا تحـكى عن الزمن الذى استخدموا فى صـيدهم وحروبهم الرماح والدروع والأقواس والسهام والسكاكين • ويقال ان قبيلة « بابيدى » وهى قبيـلة « باسوتوية (١) » تسـكن جنوب أفريقيا ، تروى أسطورة عن طوفان أغرق الجنس البشرى كله على وجه التقريب • وقد قام المبشر المحنك الدكتـور « روبرت موفات » باستفسارات مثمرة حول أساطير الطوفان لدى أهالى أفريقيا الجنوبية وقد تبين أن أحد الأهالى الذى صرح بأنه قد سمع حكاية الطوفان من أجداده ، قد سمعها فى الحقيقة من مبشر يدعى « شـيميلين » • ويضيف الدكتور « موفات » الى هذا ، « أن مثل هذه الحكايات كان يسمعها الأهالى أصلا من المبشرين أو من بعض الرحـالة المتدينين • وهذه الحكايات اختلطت مع مرور الوقت اختلاطا كبيرا ، واكتسـبت أفكارا وثنية ، بحيث أصبحت تشبه الى حد كبيرا للحكاية الأهلية •

---

(١) نسبة الى باسوتو احدى ولايات جنوب افريقيا • (المترجمة)

ويعلق الدكتور « لفنجستون » حـــول هذا الموضوع بعـــد أن دون أسطورة حول نشأة بحيرة « ديلولو » فى « أنجولا » التى أغرقت قرية بأكملها بما فيها من سكان وطيور وكلاب ، يعلق قائلا : « وربما كانت هذه الحكاية أثرا باهتا لحكاية الطوفان • والجدير بالذكر أنها الأثر الوحيد الذى سمعته فى هذا البلد » • وقد أخبرنى صديقى المجرب « جون روسكو » المبجل ، الذى قضى ما يقـــرب من عشرين عاما فى علاقات وديةمعسكان أفريقيا الوسطى وبصفة خاصة مع أهالى محمية أوغندا ، أخبرنى أنه لم يستمع الى حكاية عن الطوفان ترويها القبائل التى تعرف عليها •

على أن الكتاب الألمان اكتشفوا حكايات عن الطوفان الكبير بين سكان « أفريقيا الشرقية » ، ولكن هذه الحكايات ليست سوى روايات لحكاية الكتاب المقدس التى تسربت الى هؤلاء البدائيين بتأثير المسيحيين أو من المحتمل بتأثير المسلمين • وقد دون ضابط ألمانى احدى هـــذه الروايات عن قبيلة « ماساى » ، وهى تجرى على النحو التالى :

كان « تومباينوت » رجلا مستقيما ، ولهذا فقد أحبه الله • وقد تزوج هذا الرجل امرأة تدعى « نابياندى » ولدت له ثلاثة أبناء هم « أوشـــومو » و « بارتيمارو » و « بارمـــاو » • ولما توفى أخـــو « تومباينوت » تزو ج، وفقا لعادة قبيلة « ماساى » أرملة أخيه التى كانت تدعى « ناهابا ــ لوجوينجا » • ويشير اسمها الى رأسها الطويل الدقيق وهو علامة من علامات الحسن عند هذه القبيلة • وولدت هذه المرأة من زوجها الثانى ثلاثة أبناء كذلك • ولكنها تركت بيت زوجهـــا نتيجة خلاف نشأ بينها وبين زوجها ، بعد أن رفضت أن تعطيه جرعة من اللبن فى المســـاء • ثم ابتنت لنفسها بيتا أحاطته بسور من النباتات الشائكة كى تحميها من الوحوش • فى هذه الأيام كانت الأرض تضيق بالناس الذين لم يكونوا أخيـــارا وانما كانوا على العـــكس أشرارا لا يطيعون أوامر الله • ولكن مهما كانت درجة شرورهم ، فقد أحجموا

عن ارتكاب جرائم القتل • وفى ذات يوم مشئوم ، ضرب رجل يدعى « ناميبيجا » رجلا آخر يدعى « سواجى » على رأسه • كان هذا أكثر مما يحتمله الاله ، ومن ثم فقد قرر أن يهلك الجنس البشرى بأسره عدا « تومباينوت » الذى أشفق عليه الاله وأمره أن يبنى فلكا من الخشب ، وأن يلجأ اليه هو وزوجتاه وأولاده الستة ، وأن يأخذ معه عددا من الحيوانات من كل صنف • فلما استقل الجميع الفلك واختزن فيه « تومباينو ت» مئونة كبيرة ، أسقط الاله المطر بغزارة ولمدة طويلة حتى نجم عنه طوفان كبير أغرق الناس والحيوانات جميعا فيما عدا هؤلاء الذين أووا الى الفلك العائم • وأخذ « تومباينوت » ينتظر بشغف نهاية سقوط المطر ، لأن مئونته كانت قد أوشكت أن تفرغ • وفى النهاية كف المطر عن السقوط • وشاء « تومباينوت » فى شغف أن يعرف حال الفيضان ، فأطلق حمامة من الفلك عادت اليه منهكة آخر النهار • فأدرك « تومباينوت » من ذلك أن الطوفان لابد أنه مازال مرتفعا لأن الحمامة لم تجد مكانا تستريح عنده • فأطلق النسر بعد ذلك ببضعة أيام • ولكنه قبل أن يطلقه ، أخذ حيطته بأن ربط رمحا فى ذيله حتى اذا استقر النسر فى مكان ليأكل ، فان الرمح يجرجر وراءه • فاذا أعاقه معوق فى أثناء جره ، فانه يلتصق بهذا الشىء ، وينفصل عن ذيل النسر • وقد أثبت ما حدث صحة ما توقعه « تومبايوت » ، ذلك أن الطير عاد فى المساء بدون الرمح والريش الذى كان مرتبطا به • فحدس أن الطائر قد انقض على جيفة ، وان الطوفان لابد قد انحسر • فلما تراجعت المياه عن الأرض ، رسا الفلك على أرض البرارى ونزل منه ركابه • فلما خطا « تومباينوت » خارج الفلك ، أبصر ما لا يقل عن أربعة من أقواس قزح يتجه كل منها فى جهة من الجهات الأربع • فنظر اليها « تومباينوت » على أنها علامة على زوال غضب الاله •

وهناك رواية أخرى لحكاية الطوفان دونها مبشر ألمانى كان يسكن المنطقة نفسها • وقد حصل المبشر على هذه الرواية فى محطة تبشير

« مكولوى » التى تقع عند « سايسى » أو « نهر مومبا » على بعد عشرين ميلا من مصب النهر فى بحيرة « روكوا » • وقد اعترف الراوى للمبشر أنه قد سمع هذه الحكاية من جده ، وأكد له فى اصرار أنها رواية قديمة أصلية نشأت بينهم ولم ترد اليهم من الخارج • وقد أكد هذا القول رجل آخر من الأهالى اشتهر بحبه للصدق ولم يختلف هذا الراوى فى روايته عن رواية الراوى الأول سوى أن نوحا الافريقى أرسل حمامتين بدلا من حمامة واحدة • وهذه الرواية تجرى على النحو التالى :

فى زمن بالغ فى القدم فاضت الأنهار • فقال الاله للرجلين : ادخلا السفينة وخذا معكما كل نوع من أنواع الحبوب ، وكل صنف من صنوف الحيوان ، الذكر منه والأنثى • ففعل الرجلان ما أؤتمرا به • ثم فاضت المياه حتى أغرقت الجبال ، وطافت السفينة فوقها • أما الناس والحيوانات فكانوا قد هلكوا عن آخرهم • فلما تراجعت المياه ، قال أحد الرجلين لرفيقه : دعنا نرى — فربما لم تجف الأرض بعد » • فأطلقا حمامة رجعت للفلك بعد حين • فانتظرا بعض الوقت ثم أطلقا صقرا لم يعد ثانية الى الفلك ، لأن الأرض كانت قد جفت • عند ذاك خرج الرجلان من المركب ونزلا الى الأرض وأنزلا حيواناتهما وحبوبها •

ربما كان العرض السابق لحكايات الطوفان كافيا لأن يثبت أن هذا النمط من الحكايات سواء سميناه نمطا أسطوريا أم خرافيا ، كان منتشرا فى جميع أنحاء العالم • وربما كان من الأفضل قبل أن نتساءل عن علاقة الحكايات بعضها ببعض ، وعن السبب أو الأسباب التى دعت الى روايتها ، أن نشير مرة أخرى باختصار الى الأماكن التى عاشت فيها هذه الحكايات • فاذا بدأنا بآسيا ، فاننا نذكر أننا قد صادفنا

نماذج من هذه الحكايات فى بابل فلسطين وسوريا وفيريجيا (١) وفى الهند القديمة والحديثة ، وفى بورما، والهند الصينية • وفى شبه جزيرة الملايو وكامشكا ، أى أنها باختصار ، تنتشر فى جنوب آسـيا • وتختفى بوضوح فى آسيا الشرقية والمتوسطة والشمالية • والجدير بالذكر أن شعبى آسيا الشرقية اللذين بلغا من الحضارة شأوا بعيدا ، ونعنى بهما الصينيين واليابانيين ، لم تحتفظا ضمن آدابهما القديمة الهائلة فى حدود ما يتسع اليه علمى ، بحكاية أهلية عن الطوفـان الكبير من النوع الذى نحن الآن بصـدده ، ذلك الذى يحكى عن طوفان أغرق العالم ، كما أغرق الجزء الأكبر من الجنس البشرى •

وفى أوربا تندر حكايات الطوفان الأهلية عنها فى آسيا ، ولكنها رويت عند الأغريق القدماء ، كما رويت فى « ويلز » و « ليتوانيا »، وعند غجر ترانسلفانيا ، و « الفوجوليين » سكان روسيا الشرقية • أما الحكاية الأيسلندية التى تحـكى عن الطوفان الذى تسـبب عن انسكاب دم العفريت ، فلا تدخل ضمن هذه الحكايات •

وفى افريقيا بما فى ذلك مصر تختفى الأساطير الأهلية عن الطوفان الكبير بشكل ملحوظ ، اذ لم تدون فى هذه القارة حقا حكاية أهليـة واحدة من هذا النوع •

وفى جزر الأرخبيل الهندى وجدنا حكايات عن الطوفان الكبير فى جزر سومطرة ، وفى « بورنيو » و « سيليبس » ، كما وجـدناها فى الجزر الأصـغر منها وهى جزيرة « نيـاس » و « انجـانو » و « سيرام » ، و « روتى » ، و « فلوريس » • كمـا روت هذه الحكايات القبائل الأهلية فى جزر الفيلبين وفرموزا ، وكذلك الأندمانيون الذين يعيشون منعزلين فى جزر خليج البنغال •

---

(١) احدى مدن آسيا الصغرى فى الزمن القديم وكان سكانها يرتبطون بالأرمينيين من الناحية الأثنولوجية . (المترجمة)

كما صادفتنا بعض حكايات الطوفان الكبير فى الجزر الكبيرة مثل جزر « غينيا الجديدة » وفى قارة استراليا ، كما وجدنا أساطير هذا النمط تعيش فى أطراف الجزر الأقل حجما مثل جزر « ميلانيزيا » التى تلتف فى شبه قوس حول جزر « غينيا الجديدة » و « استراليا » فى الشـــمال والشرق •

فاذا أوغلنا فى المحيط الهــادى شرقا فاننا نجــد أن حكايات الطوفان تنتشر انتشــارا كبيرا بين البولونيزيين الذين يعيشــون منتشرين فى أصغر جزر هذا المحيط من جزر هاواى شمالا الى نيوزيلنده جنوبا • كما دونت أسطورة عن الطوفان عند « الميكرونيزيين » الذين يسكنون « جزر بيلو » •

وتنتشر روايات الطوفان انتشارا كبيرا فى جنوب أمريكا ووسطها وشمالها ، من « تيراديل فويجو » جنوبا الى الاسكا شــمالا ، ومن الشرق الى الغرب فى كلتا القارتين • ولا تنتشر هــذه الحكايات بين الاسكيمو الذين يعيشون من غرب ألاسكا الى شرق جرينلاند •

فاذا كان هذا هو الانتشار الجغرافى لحكايات الطوفان بوجه عام ، فانه يحق لنا أن نتساءل بعد ذلك عن علاقة هذه الحكايات بعضها ببعض فهل هناك علاقة أصلية فيما بينها ، أم أن هذه الحكايات متميزة ومستقلة بعضها عن بعض ؟ وبتعبير آخر ، هل ترجع تلك الحكايات جميعا الى أصل واحد ، أم انها نشأت مستقلة فى بقاع كثيرة من العالم ؟ لقد كان الباحثون يميلون سالفا متأثرين بحكاية الكتاب المقدس ، الى أن يقرنوا أساطير الطوفان الكبير ، أينما وجدت ، بحكاية طوفان نوح المعروفة • كما افترضوا أننا نجد بين هذه الأساطير روايات مشوهة ومشكوك فيها لهذه الكارثة المهولة التى تعد أكثر رواياتها ثقة ، تلك التى يتضمنها سفر التكوين • على أن وجهة النظر هذه لم تعد تؤيدها الأدلة • وحتى اذا سلمنا بوجوه التشويه العديدة ، وشتى التغيرات التى تتعرض لها الرواية الشفاهية بالضرورة فى أثناء انتقالها من جيل

الى جيل ومن مكان لآخر عبر الأزمنة اللامتناهية ، فما زلنا نواجه صعوبة لأن نتعرف فى هذا الحشد الهائل من حكايات الطوفان الكبير التى غالبا ما تتسم بالغرابة والطابع الطفولى ، على النماذج الانسانية لأصل دينى واحد • وقد تضاعفت هذه الصعوبة منذ أن أثبت البحث الحديث أن حكاية سفر التكوين ليست هى الحكاية الأصلية على الاطلاق ، وانما هى نسخة قديمة نسبيا لرواية بابلية أكثر قدما منها أو بالأحرى سومبرية • على أنه ليس هناك مسيحى مدافع عن دينه ، يميل لأن ينظر الى الحكاية البابلية بلونها الوثنى ، بوصفها وحيا أوليا من الله للانسان • واذا كانت نظرية الوحى الالهى لا تنطبق على الأصل ، فهى بالأحرى لا تنطبق على صورة هذا الأصل •

فاذا تغاضينا عن نظرية الكشف أو الوحى الالهى التى تتعارض مع تلك الحقائق المعروفة ، فما زال أمامنا أن نتساءل عما اذا كانت الأسطورة السومبرية أو البابلية التى تعد بكل تأكيد ، أقدم روايات الطوفان ، هى الأصل الذى استمدت منه سائر الروايات • ومثل هذا السؤال من الصعب أن توجد له اجابة ايجابية ، حيث انه يفتقر الى دليل ، وحيث ان النتيجة التى تنتهى اليها ترتكز على احتمالات عدة تختلف باختلاف وجهات النظر اليها • ومن الممكن بدون شك أن نحلل الحكايات جميعا الى عناصرها ، وأن نصنف هذه العناصر ، وأن نحصى عدد العناصر التى تعد قاسما مشتركا بين الروايات المختلفة ومن ثم يمكننا ، بناء على عدد هذه العناصر التى تحتوى عليها رواية من الروايات ، أن تنتهى اما الى احتمال تفرعها عن حكاية أخرى أو كونها هى نفسها رواية أصلية • وهذا فى الحقيقة ما قام به أحد الذين سبقونى فى هذا المجال من البحث ، ولكننى لا أرى هناك داعيا لأن أعيد ذكر النتائج التى توصل اليها • وفى وسع القراء الذين يميلون الى الاتجاه الرياضى أو الاحصائى اما أن يرجعوا الى أعمال هذا الكاتب نفسه (١) ، أو أن يستخلصوا هذه النتائج من المادة التى

---

(١) M. Winternitz : Die Flutsagen, p—. 312-333.
(نقلا عن النسخة الأصلية ــ المجلد الأول ص ٣٣٥) •

قدمت لهم فى الصفحات السابقة • أما الآن فسأكتفى بتقديم نتائجى العامة ، تاركا للقارىء مهمة التأكد من صحتها أو تصحيحها أو معارضتها معتمدا على الشـــواهد التى زودته بها • ومن ثم فاننا اذا صرفنـــا النظر عن الحكاية العبرية التى تعد بدون شك مستقاة من الروايـــة البابلية ، واذا صرفنا النظر عن النماذج الحديثة التى تكشف بوضوح عن تأثير واضح للمبشرين المتأخرين أو عن تأثير مسيحى بصفة عامة ، فاننى لا أعتقد فى أننا نملك أدلة قاطعة تعيننا على ارجاع أية رواية من روايات الطوفان الى الحكاية البابلية بوصفها أصلا لها جميعا • حقا ان بعض الباحثين الذين يتمتعون بسمعة طيبة فى البحث ، قد انتهوا الى أن كلا من الأسطورة الاغريقية أو الهندية القديمة مستمدة من الأسطورة البالية • وربما كان هؤلاء الباحثون على حق فى هذا ، ولكن التشابه بين الروايات الثلاث ، من وجهة نظرى ، ليس كاف لأن يبرر لنا أن ندعى التعرف على الأصل • حقا ان الاغريق كانوا فى العصور المتأخرة ، يعرفون كلا من حكاية الطوفان العبرية والبابلية ، ولكن حكايات الاغريق أنفسهم عن الطوفان أقدم بكثير من عصر انتصارات الاسكندر الأكبر التى كشفت للباحثين لأول مرة عن كنوز الشرق • ولا تكشف هذه الروايات الاغريقية فى أقدم أشكالها أى تأثر بأصـــول أسيوية • ففى أسطورة « ديوكاليون » ، على سبيل المثال ، التى تعد أقرب الروايـــات للحكاية البابلية ، لم ينـــج من الطوفان ســـوى « دويكاليون » وزوجته • وبعد أن انحسر الطوفان اكتشفا حاجتهما الى خلق الجنس البشرى بطريقة معجزة من الحجر • وليس هنـــاك ذكر بعد ذلك الى اعادة خلق الحيـــوانات التى كانت قد هلكت فى الطوفان بطبيعة الحال • وفى هذا تختلف الرواية الاغريقية عن كل من الرواية البابلية والعبرية كل لاختلاف ، هاتين الروايتين اللتين اهتم فيهما الانسان بتكاثر الجنس البشرى والحيوانى معا عنـــدما ينتهى الطوفان وذلك بأن احتفظ فى الفلك بعدد من الركاب من كل من الجنس البشرى والحيـــوانى •

وبالمثل فان مقارنة الرواية الهندية القديمة بالرواية البابلية ،

تبرز تناقضا خطيرا فيما بينهما • فالسمكة العجيبة التى تبرز بوضوح فى كل الروايات الهندية القديمـــة ليس لها ما يناظرها فى الروايـــة البابلية ، وان كان بعض الباحثين قد جادل فى حذق ، أن الاله الذى تجسد فى شكل سمكة حذرت مانو من قدوم الطوفـــان فى الأسطورة الهندية ، ليس سوى صورة مطابقة للاله « ايا » الذى حذر أوتنابشتيم كذلك ن الطوفان فى الأسطورة البابلية • وحجـــة هؤلاء الباحثين فى نظريتهم ، هى أن الاله « ايا » هو اله الماء ، وكان يصور أحيانا فى شكل انسانى ، وأحيانا أخرى فى شكل سمكة ، واذا كان من الممـــكن اثبات هذا التشابه بين الأسطورتين ، فانه يمكننا آنذاك أن نربط بين الأسطورتين ربطا وثيقا • ومن جهة أخرى ، فان أقدم شكل للحكاية الهندية وهو الموجود فى « ستاباثا براهمانا » ، يحكى أن « مانو » هو الانسان الوحيد الذى نجا من الطوفان • وكان عليه أن يعيد خلق المرأة بطريقة معجزة بعد هذه الكارثة ، من الأشياء التى قدمها ضحية وهى اللبن الرائب وشرش اللبن والجبن ، وذلك لكى يتمكن بعد الزواج منها ، من العمل على استمرار النوع البشرى • ولم تصور الحكاية الهندية « مانو » وقد أخذ معه مجموعة من الحيوانات والنباتات الا فى الروايات المتأخرة من هذه الحكاية • بل ان هذه الروايات لم تذكر شيئا عن انقاذ « مانو » لزوجته وأولاده ، على الرغم من أنها تصوره عـــلى ظهر السفينة بصحبة مجموعة من اخوانه الحكماء الذين أنقذهم من كارثة الطوفان • وهذا الحذف لا يكشف عن فجوة فى العاطفة العائلية فحسب ، وانما يكشف كذلك عن نقص فى حكمة الفيلسوف ، فضـــلا على أنه يبرز التناقض البالغ بين البطل الهندى والبطل البابلى ببعد نظره العلمى ، ذلك البطل الذى كان أقل عزاء له فى تلك المحنة المحزنة ، أنه كان محاطا بأسرته وسط المياه المصطخبة ، ومن ثم كان يعلم أنه بمجرد أن ينخفض الطوفان ، سيكون قادرا ، بمساعدة أسرته ، أن يعين على استمرار الجنس البشرى عن طـــريق العمليات العادية للطبيعة • اليس من الغـــريب أن نكتشـــف من خـــلال هذا الاختـــلاف البين بين

الحكايتين ، التناقض بين الحكمة الدنيوية للعقل السامى والزهد الحالم للعقلية الهنـــدية ؟ •

وخلاصة القول ان الشواهد التى تثبت أن كلا من أسطورتى الطوفان الهندية والاغريقية مستمدتان من الحكاية البابلية ، ليست كافية • فاذا تذكرنا ان البابليين فيما نعلم لم ينجحوا على الاطلاق فى نقل حكايتهم عن الطوفان الى المصريين القـدماء الذين كانوا عـلى اتصال مباشر بهم طيلة قرون طويلة ، فليس هناك ما يدعو الى العجب أنهم قد فشلوا فى نقلها الى من كانوا أكثر بعدا منهم من المصريين ، وهم الهنود والاغريق الذين كانوا حتى زمن الاسكندر الأكبر متصلين بهم على نطاق ضيق • ثم انتقلت الحكاية البابلية بحق فى جميع أنحاء العالم فىعصور متأخرة • وكان لها صدى فى الحكايات التى كانت تحكى تحت أشجار النخيل فى جزائر المرجـان ، وفى أكواخ الهنـود ووسط ثلوج القطب الشـمالى وصقيعه • ويبدو أن هـذه الحـكايات انتقلت بدون وساطة مسيحية أو اسلامية فيمـا وراء حـدود بلادهـا الأصلية والمناطق السامية المجاورة •

واذا بحثنا عن أدلة فيما قدمناه من روايات أخرى متعددة عن الطوفان ، تثبت أن هذه الروايات قد استمدت من أصل معروف ، ثم انتشرت بعد ذلك ، فاننا لن نعجز فى الحصول على دليل واضح على هذا متمثلا فى الحكايات الالجونكوينية فى شمال أمريكا • فحـكايات الطوفان المختلفة التى دونت بين القبائل الكثيرة التى تنتمى لهـذا الأصل الذى كان ينتشر على نطاق واسع ، تتشابه فيما بينها تشابها كبيرا الى درجة أننا نعدها مجرد روايات متنـوعة لحكاية واحـدة بعينها • وما زال السؤال مطروحا عما اذا كانت حادثة الحيوانات المختلفة التى غطست فى الماء لتحضر قطعة من الطين ، قد نبعت أصـلا بين أهالى هذه المنطقة ، أم أنها ترتكز على ذكرى حادثة الطيور فى حكاية نوح التى وصلت الى الهنود عن طريق الرجل الأبيض •

وقد رأينا أكثر من ذلك ، أن هناك تشابها عاما يمكن اقتفاء أثره وفقا لرأى « هومبولت » بين روايات الطوفان التى انتشرت بين هنود « أورينوكو » ، كما أن هناك كذلك تشابها بين الأساطير البولونيزية وفقا لرأى « وليام اليس » • ومن المحتمل أن الحكايات انتشرت بين هؤلاء الهنود وكذلك بين البولونيين من مركزين محليين ، أى أنهـا ، بتعبير آخر ، تعد روايات مختلفة لأصل واحد •

على أننا اذا كنـا قد استمحنا لأنفسـنا أن نعـد الروايات السـالفة منتشرة من مراكـز محلية ، فانه من المحتمـل كذلك أنه لا تزال هناك أساطير عن الطوفان نشأت مستقلة •

أصل حكايات الطوفان الكبير :

مازال علينا أن نتسـاءل : ما الشكل الذى كانت عليـه الحكاية الأصلية التى تفرعت عنها روايات الطوفان ؟• وكيف ألف الناس أن يصدقوا أن الأرض جميعا أو بالأحرى الجزء المأهول منها بالسكان قد غمرته مياه فيضان عتى فى وقت أو آخر ، وأغرق معهـا الجنس البشرى كله على وجه التقريب ؟ والاجابة القديمة عن هذا السؤال ، هى أن الكارثة قد حدثت بالفعل ، وأن سـفر التكوين احتفظ لها بسـجل تاريخى كامل • كما احتفظ العدد الهائل من أسـاطير الطوفان التى انتشرت انتشارا كبيرا بين الأجناس البشرية بذكرى هـذه الكارثة المهولة • فصورتها فى كثير أو قليل تصويرا مهوشا مختلطا غير دقيق • ومما يؤيد وجهة النظـر هذه ، تلك الأصـداف والمخلفات الحيـوانية والنباتية المتحجرة التى افترض الناس أنه قد عثر عليهـا مبعثرة فى الأماكن المرتفعة والصحارى وعلى قمم الجبال ، بعد أن تراجعت مياه طوفان نوح عن تلك الأماكن •

وقد اتخذ « تير توليان » من قواقع البحر التى عثر عليها فوق قمم الجبال شاهدا على أن المياه قد أغرقت الأرض ذات مرة ، ولكنه

لم يربط هذا بحادثة الطوفان التى وردت فى سفر التكوين • وبينما كانت تتم عمليات الحفر عام ١٥١٧م لاعادة بناء مدينة فيرونا ، بدت للعيان مجموعة من المتحجرات الغريبة • وقد أدى هذا الكشـــف الى تأملات عديدة أهمها ، بطبيعة الحال ، حادثة نوح وفلكه • ولكن هذه التأملات لم تترك دون أن تتعرض للمعارضة ، ذلك أن عالم الطبيعة الفيلسوف الايطالى « فراكاستورو » ، كان من الشجاعة بحيث أشـــار الى الصعوبات التى يتعرض لها هذا الافتراض الشائع • فقد لاحظ « أن هذا الطوفان كان عابرا للغاية ، اذ كان يتكون أساسا من مياه الأنهار • واذا كانت المياه قد خلفت وراءها الأصداف على مسافات بعيدة ، فلابد أنها قد خلفتها على السطح ، ولم تدفنها فى أعماق بعيدة داخل الجبال • وقد كان من الممكن أن ينهى الجدل حول هذا الموضوع هذا العرض الواضح لهذا الشاهد ، لو لم تتدخل العواطف الانسانية فى هذا الموضوع » • وفى نهاية القرن السابع عشر ، غزا حشد من علماء اللاهوت المجال الجيولوجى فتجمعوا من ايطاليـــا وفرنسا وألمانيـــا وانجلترا وجعلوا الظلام يخيم على الرأى فى هذا الموضـــوع ، حتى تركوه أكثر ابهـــاما • ومن ثم فان كل من كان يرفض أن يقتنع بأن مخلفات البحر العضوية دليل على طوفان نوح الذى ورد فى الشريعة الموسوية ، كان معرضا لتهمة الكفر بالكتابات المقدسة • ونادرا ماعبر العلماء منذ عهد « فراكاسنورو » ، عن آراء تصل الى حد النظريات الســـليمة •

وبذلك انقضى ما يقرب من مائة علم فى الجـــدل الذى تلخص فى أن ما عثر عليه من مخلفات عضوية متحجرة لم يكن سوى عمل من أعمال الطبيعة • كما انقضت فترة أخرى تقرب من قرن ونصف قرن فى تأكيد نظرية أن المخلفات الحيوانية والنباتية المتحجرة التى عثر عليها مدفونة فى طبقات الأرض الصلبة ، هى تلك التى خلفها طوفـــان نوح • ولم يتدخل بعد ذلك أى منطق نظرى فى أى فرع من فروع العلم بطريقة أكثر جدية من هذا ، وبمـــلاحظة أكثر دقة ، وبتصنيف

تنظيمى للحقائق • ويحق لنا فى العصر الحديث أن نعزو تقدمنا السريع أساسا الى تحديدنا الدقيق لنظام تتابع الكتل المعـدنية عن طـريق محتواها العضوى المتفرع وتطابق أشكالها المنتظم • ولكن الباحثين القدماء فى الرواسب الطوفانية كانوا مدفوعين بوسائلهم الى الخلط بين مجموعات الطبقات الأرضية ، كما كانوا يعزون كل ظواهرها الى سبب واحد ، ويرجعونها الى فترة زمنية قصيرة واحدة ، ولا يرجعونها الى مجموعة أسباب حدثت خلال فترة طويلة من تعاقب العصور • لقد كانوا ينظرون الى الظاهرة فى حد ذاتها فحسب ، وكما يحلو لهم أن ينظرون اليها ، مشوهين الحقائق فى بعض الأحيان ، ومستخلصـين النتائج الخاطئة من المعلومات الصحيحة فىأحيان أخرى •• وباختصار فان مجمل التقدم الجيولوجى منذ بداية القرن السابع عشر حتى نهاية القرن الثامن عشر ، كان صراعا قويا دائما بين الأفكار الجـديدة من ناحية ومعتقدات الأجيال الملاحقـة التى يكرسـها الايمان التـأويلى الذى فرض فيه الاستناد على نصوص مقدسة •

ولم يكن الخطأ الذى ارتكبه « سير تشارلزليل » قد نسى حقا ، ففى أقل من قرن مضى ، عين « وليام بوكلاند » مدرسا للجيولوجيـا فى جامعة أكسفورد ، وكان لا يزال يؤكد لمستمعيه فى حفل توليه « أن الحقيقة الكبرى للطوفان الـذى انتاب العالم منـذ زمن ليس بعيدا للغاية ، قد دعمت بأسس حاسمة لا نزال فيها ، بحيث أننا لو لم نكن قد قرأنا عن هذا الطوفان فى الكتاب المقدس أو فى أى مصدر آخـر ، فان علم الجيولوجيا نفسه كان سيفترض حـدوث مثل هذه الكارثة ليفسر ظاهرة الحدث الفيضانى » •

كما كتب فى عصرنا عالم جيولوجى آخر مرموق يقـول (١) :

---

(١) (Sir) John William Dawson, The Story of the Earth and Men, 6th Ed. (London 1880), p. 290.
(نقلا عن الطبعة الأصلية ج ٢ ص ٣٤٠ حاشية ٣) • (المترجمة)

« لقد كنت أعتقد لزمن طويل ان حكاية الطوفان التى تقع فى الاصحاح السابع والثامن من سفر التكوين لا يمكن أن تفهم الا اننا افترضنا أنها سجل لشاهد عيان دونه فيما بعد مؤلف سفر التكوين • فتحديد وقت ارتفاع المياه وسقوطها ، وسبر غور المياه من أعلى قمم التلال عندما بلغ الفيضان أقصاه ، وغير ذلك من التفاصيل ، فضلا عن الايقاع الكلى للحكاية ، كل هذا يبدو انه يتطلب هذا الفرض ، فضلا على أنه يزيح كل الصعوبات فى سبيل فهم الحكاية ، تلك الصعوبات التى كثيرا ما كان يحس بها القارىء • ولكن اذا كانت حكاية الطوفان فى سفر التكوين تعد سجلا لشاهد عيان ، فكيف يمكننا أن نفسر المتناقضات الواضحة التى تحتوى عليها الحكاية فيما يختص بمدة الطوفان وعدد الحيوانات التى سمح لها نوح بدخول السفينة ؟ ان مثل هذه النظرية ، فضلا على أنها لم تحل المشكلات التى أثارتها الحكاية ، فانها على العكس جعلتها متعذرة كلية على الفهم ، اللهم الا اذا تبنينا بالمثل افتراضات غير عادلة ومسيئة لصدق المؤلف أو لوقاره •

ولن نسهب كذلك فى عرض تفسير آخر لحكايات الطوفان تمتع بشعبية كبيرة فى السنوات الأخيرة فى ألمانيا • فحكاية الطوفان ، وفقا لهذا التفسير ، ليست لها علاقة بمياه أو بفلك ، وانما هى أسطورة تتصل بالشمس أو القمر أو النجوم ، أو بها جميعا • على أن هؤلاء العلماء الذين توصلوا لهذا الكشف الغريب ، لم يتفقوا فيما بينهم بحال من الأحوال حول تفاصيل نظريتهم الفلكية ، فى الوقت الذى اتفقوا فيه على رفض التفسيرات الدنيوية الشائعة • فبعضهم رأى أن الفلك يمثل الشمس ، والبعض الآخر رأى أنه يمثل القمر ، وأن المقار الذى طلى به الفلكتعبير تجسيدى لخسوف القمر ، كما تمثل طوابق الفلك الثلاث مراحل مدار القمر • وقد حاول آخر المدعين لهذه النظرية أن يوفق بين كل المتناقضات فى وحدة واحدة ، بأن جعل الناس يركبون القمر بينما تركوا الحيوانات تفعل ما يحلو لها بين النجوم • حقا انه لما يشرف هؤلاء كثيرا أن نناقش مثل هذه السخافات جديا بطريقة

علمية • وانما حرصت على أن أشير اليها لما أحدثته من بهجة خففت من ملل المناقشة الطويلة الجادة •

على أننا اذا أهملنا هـذه التصـورات الخالية ، وهذا هـو ما تستحقه بحق ، فما زال أمامنا أن نوجه السؤال عن أصل حكايات الطوفان • فهل هذه الحكايات تعبر عن حقيقة صـادقة أو عن كذب ملفق ؟ وهل هذا الطوفان الذى تصفه الحكايات باصرار ، قد حدث حقا أو لم يحدث ؟ اننا يمكننا أن نقـول بشىء من الثقة ان هـذه الحكايات فى حدود وصفها للطوفانات التى أغرقت العالم جميعا حتى المرتفعات الشاهقة ، كما أغرقت الناس والحيوانات جميعـا على وجه التقـريب ، حـكايات كاذبة • ذلك أنه اذا أمكننـا أن نثق فى أكثر الشواهد ثقة لعلم الجيولوجيا الحديث ، فان مثل هذه الكارثة لم تحدث قط طوال عصور سكنى الانسان على وجهالأرض • أما ما يفترضه بعض الفلاسـفة من أن محيطـا كونيا غمـر الأرض جميعـا قبل أن يعيش الانسان على وجه الأرض ، فهذه مسألة أخرى تماما • فقد تصـور « ليبنتز » ، على سبيل المثال ، أن الأرض « كانت فى الأصل كتـلة مضيئة مشتعلة ثم أخذت تتعرض لعمليات التبريد منذ ذلك الوقت • فلما بردت القشرة الخارجية بما فيه الكفاية ، بحيث سمحت للبخار بأن يتكثف على سطحها ، تسـاقطت الأبخرة المكثفة مكونـة المحيط الكونى الذى غطى أعلى الجبال ارتفاعا وأحدق بالأرض جميعا » • ومثل هـذه النظـرية التى تقول بتـكون محيط أولـى من الأبخـرة المتكثفة بينما كانت المواد المنصهرة فى كوكبنا الأرضى تفقد حرارتها تدريجيا ، هذه النظرية تتبع بالضرورة فرض « نيبيولار » الشـهير الذ ىنادى به « كانت » لأول مرة مفسرا به أصل الأجرام الكونية ، ثم وسعه « لابلاس » فيما بعد • كما كان لامارك كذلك « متأثرا بعمق الاعتقاد الذى كان سائدا بين الطبيعيين القدامى وفحـواه أن المحيط الأولى أحدق بالكوكب الأرضى بعد أن سكنتها الكائنات الحية بزمن طويل » • على أنه اذا كانت مثل هذه التأملات قد راودت الانسـان البدائى ، فانها تختلف بوضوح عن حكايات الطوفان الذى قضى على

الناس جميعا على وجه التقريب ، لأن مثل هذه الحكايات افترضت وجود الجنس البشرى على وجه الأرض قبل حدوث الطوفان ، ومن ثم فهى لا ترجع الى عصر سبق عصر البلايستوسين •

ولكن على الرغم من أن حكايات الطوفان الكبير ذات طابع خرافى صرف ، فمن الممكن ، بل انه من المحتمل حقا ، أن كثيرا منها يخفى بذرة من الحقيقة تحت غلافها الأسطورى• أى أن هذه الحكايات من الممكن أنها تحتوى على ذكرى حوادث الطوفان الذى غمر أحياء بعينها بحق • ثم صور الطوفان المحلى بشىء من المبالغة فى أثناء انتقال الروايات ، فأصبح كارثة حلت بالعالم • وسجل التاريخ غنى بأمثلة عن الفيضانات الكبيرة التى جلبت معها الدمار هنا وهناك • وقد كان الامر يكون غريبا حقا، اذا لم تكن ذكرى بعض هذه الحوادث قد عاشت طويلا بين سلالات الأجيال التى عاصرت هذه الحوادث • واذا شئنا أن نسوق أمثلة لمثل هذه الفيضانات المدمرة ، فاننا لن نبعد بعيدا ونشير الى البلد المجاور لهولندا ، الذى كثيرا ما تعرض للفيضانات فى القرن الثالث عشر ، فكثيرا ما هددت الفيضانات الأراضى المنخفضة التى تقع على طول «فلى» حتى غمرتها الأمواج فى نهاية الامر • وبالمثل طغى المحيط الألمانى على بحيرة « فليفو » ــ الداخلية • وقد بدأ بحر « زويدرزى » وجوده بأن غمر آلافا من القرى الفريزيانية ، وأغرقها بمن فيها من السكان ، ثم فصل بين الاهالى عن طريق أخدود حفره وسط بلادهم • وبذلك طمس هذا الطوفان الكبير معالم هذه البلاد الجغرافية والسياسية معــــا • وهكذا انعزل الهولنديون عن أقربائهم فى الشرق عن طريق هذا البحر الخطير الشبيه بذلك البحر الذى عزلهم عن اخوانهم الأنجلوسكسو نيين فى انجلترا • ثم حدث أن هبت عاصفة من الشمال فى بدايــة القرن السادس عشر ، فدفعت مياه المحيط الى شاطىء زيلندة المنخفض فى سرعة هائلة بحيث لم تتمكن الميــاه أن تتدفق فى مضيق دوفر • وقــد تحطمت حواجز « بيفلاندة الجنوبية » وغمرت مياه البحر البــلاد ، وأغرقت مئات القرى ، وانفصل جزء من البلد عن الضواحى ودفن تحت

الأمواج ، وبذلك أصبحت « بيفلاندة الجنوبية » جزيرة ، ومنذئذ أصبح الشريط المائى الذى فصلها عن سائر القارة يعرف « بالارض الغرقى » •

ولم يتسبب الطوفان الذى أغرق بقاعا من هولندا فى هذه الظروف وغيرها عن سقوط الأمطار الغزيرة ، وانما تسبب عن ارتفاع ميـــاه البحر • وعلى نحو هذا نرى أن الطوفان فى غير قليـــل من حكايات الطوفان لا يعزى الى سقوط الأمطار ، وانما يعزى الى ارتفاع ميـــاه المحيط • فارتفاع مياه البحر هو سبب الفيضان الذى حكى عنه أهالى جزر « نياس » و «انجانو» و «روتى» و «فرموزا» و (تاهيتى ، و «هاواى»و «راكانجا» وجزر «بيلو»،وفيما روته القبائل الهندية التى تقطن الشاطىء الغربى من أمريكا من « تيراديل فويجو » فى الجنوب الى « ألاسكا » فى الشمال ، وما رواه « الاسكيمو » الذين يسكنون شواطىء المحيط المتجمد •• ومن الواضح كل الوضوح أن مثل هـــذه الحكايات تنتشر على نطاق واسع عند شواطىء جزر المحيط الهـــادى وفى داخل هذه الجزر ، ذلك لأن المحيط الهادى يتعرض من وقت لآخر للهيـــاج الناجم من الزلازل العنيفة ، ذلك الهياج الذى كثيرا ما تسبب فى اغراق الشواطىء والجزر التى حكت عنها حكايات الطوفان الكبير الذى نجم عن ارتفاع مياه البحر • أفلا يحق لنا بعد هذا ، بل أفلا يتحتم علينا، أن نفسر نشأة بعض هذه الحكايات على الأقل بحـــدوث مثل هـــــده الفيضانات ؟ أليست كل الاحتمالات تؤيد العلاقة السببية لا العرضية بين هذه الحكايات والفيضانات التى حكت عنها ؟ •

ومن الطبيعىأن أول رد فعلعند الأهالى الذينيسكنون الشواطىء التى تتعرض للزلازل وما يتبع هذا من ارتفاع ميـــاه البحر ، أن يلجأ هؤلاء الأهالى، عندما يشعرون بالهزات الأرضية، الى المرتفعات العالية طلبا للحماية من مياه الفيضـــان • ولقد رأينا أن الهنود الأراوكانيين ، سكان « شيلى » الذين يروون حكاية عن الطوفـــــان الكبير ، والذين يخشون من تكرار هذا الدمار ، يأوون الى الجبال عندما يشعرون بهزات

أرضية عنيفة • كما تعود « الفيجيانيون » الذين رووا بالمثل حكاية عن الطوفان المهول ، أن يعدوا قواربهم لاحتمال حدوث طوفان آخر شبيه بما حكوا عنه • فاذا أخذنا فى الاعتبار كل هذه الحقائق ، فربما قبلنا تفسير العالم الاثنولوجى الامريكى المشهور « هوراشيو هالى » ، الذى فسر به الرواية الفيجيانية عن الطوفان ، بوصفه تفسيرا معقولا ومحتملا • فقد كتب تعليقا على ما ورد من أن « الفيجيانيين » كانوا فيما مضى يعدون قواربهم لاحتمال حدوث طوفان آخر فقال :

« ان هذا التقرير — الذى سمعناه من اناس آخرين بنفس التعبير — ربما دفعنا الى أن نتساءل عما اذا كان قد حدث فى تاريخ هذه الجزر حوادث حقيقية كانت دافعا على نشأة هذه الحكايات ، وعلى عادة الاحتفاظ بالقوارب معدة لحدوث أية كارثة • ففى السابع من نوفمبر عام ١٨٣٧ تغير مجرى المحيط من الشرق الى الغرب بتأثير الأمواج العاتية التى سببتها حدوث الزلازل فى شيلى ، وشعر بها سكان جزر « بونين » • كما ارتفعت المياه عند جزر « ساندوتش » عند شاطىء « هاواى » الشرقى ، وفقا لما ذكره « جارفيس » فى تاريخه (صفحة ٢١) وبلغ ارتفاعها عشرين قدما فوق سطح البحر ، فغمرت الأراضى المنخفضة كما غمرت عدة قرى ، وأهلكت كثيرا من الكائنات الحية • وقد تكرر حدوث مثل هذا الفيضان فى هذه الجزر فى ظروف أخرى • فاذا افترضنا ، وهو أمر ليس بعيد الاحتمال ، أنه فى غضون ثلاثة آلاف أو أربعة آلافسنة ، ان أمواجا بلغ ارتفاعها أضعاف ما ذكره «جارفيس» قد تجاوزت المحيط الى جزر « فيتيان » (فيجيان) ، فمن المؤكد أن مثل هذه الأمواج قد أغرقت السهول الخصبة التى تقع على الجانب الشرقى من « فيتيليفو » التى تعد أكثر الجزر ازدحاما بالسكان • ولا يساورنا شك فى أن يغرق عدد كبير من السكان فى هذه الظروف ، وأن يهرب البعض فى قواربه ، ويلجأ الى جزيرة « مبينجا » الجبلية التى تقع بالقرب من هذهالمنطقة •

ومثل هذا التفسير يمكن أن ينطبق بوضوح على سائر اساطير

الطوفان التى دونت فى جزر البلسفيك ، حيث ان هذه الجزر جميعا قد تعرضت على هذا النحو فيما يبدو ، الى غزو الأمواج العالية التى تتبع الهزات الأرضية • وقد يبدو أنه من الاسلم على الأقل ، فى حـــدود معلوماتنا الراهنة ، أن نقبل بصفة مؤقتة ، وجهة نظر العالم الاثنولوجى الأمريكى المرموق ، بدلا من أن نقبل نظرية عالم اثنولوجى ألمانى بارز نزع الى تفسير كل الحكايات البولوينزية بوصفهـــا أساطير تجسد حركة الأجرام السماوية هى الشمس والقمر والنجوم •

واذا كانت بعض حكايات الطوفان التى نشأت بدافع فيضان البحار تعتمد على هذا النحو ، على أساس تاريخى ، فليس هناك ما يمنع من أن حكايات الطوفان الذى تسبب عن سقوط الامطار الغزيرة ، ترتكز بالمثل على هذا الواقع الطبيعى • فها نحن هؤلاء الذين يسكنون البقاع المنبسطة من بريطانيا ، قد تعودنا حدوث فيضانات محلية تسببها الأمطار الغزيرة• فقد حدث ، على سبيل المثال ، منذ بضع سنين أن غمرت الميـــاه التى تجمعت من سقوط مطر غزير مفاجىء كان أشبه بالوابل ،أجزاء كبيرة من « نورفولك » بما فى ذلك « نورويتش » • وبهذا السبب نفسه غرقت الأجزاء المنخفضة من « باريس » منذ بضعة ســنوات مضت ، مخلفة الرعب والفزع لا بين ســكان باريس وحدهم ، بل بين عشـــاق المدينة الجميلة فى جميع أنحاء العالم • ولعله من اليسير أن ندرك بعد هذا ، كيف يمكن أن تكبر ذكرى كارثة من هذه الكوارث بين شعب جاهل أمى لا يتجاوز تفكيره حدود رؤياه ، فتصبح فى خلال أجيال أسطورةتحكى عن طوفان عالمى لم يهرب منه سوى أفراد مفضلين بطريق أو بآخر • بل ان المسافر أو المقيم الأوربى الذى استمع من جماعة من البـــدائيين الى حكاية عن طوفان محلى صرف غرق فيه كثير من الناس ، يمكن أن يبالغ فيها الى حد كبير ، ويفسرها فضوء حكاية طوفان نوح التى ألف هـــو نفسه أن يسمعها منذ صغره •

وعلى هذا النحو رأى بعض الباحثين أن يفسروا كلا من الحكاية

البابلية والعبرية عن الطوفان الكبير من خلال ظاهرة الفيضانات التى يتعرض لها وادى نهر الفرات ودجلة فى كل عام بسبب سقوط الأمطار الغزيرة وذوبان الثلوج على جبال أرمينيا • فقد قيل ان أساس الحكاية البابلية هى ظاهرة سقوط الأمطار وموسم العواصف فى كل عام ، تلك الأمطار والعواصف اللتان كانتا تدومان عدة شهور تغرق فى أثنائها أحياء كاملة فى وادى نهر الفرات وقد كانت الأمطار والعواصف تسيبان دمارا مروعا يستمر حتى ينتظم مجرى نهر دجلة والفرات مرة أخرى وتحل البركة محل اللعنة ، عندما يحل الخصب الذى اشتهرت به بلاد بابل • وتذكرنا حكاية الطوفان العبرية بموسم بعينه حل فيه دمار ترك تأثيرا عميقا فى النفوس• وتؤكد مقارنة الحكاية العبرية بأختها البابلية التى عثر عليها دونة على ألواح الطين فى مكتبة آشور بانيبال ، وجهة نظر نشأة الحكاية محليا •

وبناء على هذا الفرض ، فان الطوفان الكبير قد تسبب عن سقوط أمطار غزيرة غير عادية وعن دوبان الثوج • ولم يكن هذا سوى صورة غير مألوفة لظاهرة عادية • وقد ترك هذا الدمار الذى حل بالوادى أثرا لا يمحى فى ذاكرة الأحياء وذاكرة الأجيال من بعدهم•وقد يقال انه مما يؤيد وجهة النظر هذه ، أن كلا من الحكاية البابلية وأقدم صيغة للحكاية العبرية ، تؤكد أن السبب الوحيد الذى يعزى لليه حدث الطوفان هو سقوط الأمطار الغزيرة •

ويمكن الاستشهاد كذلك ، تأييدا لهذه النظرية ، بما تتعرض اليه البلاد حتى اليوم من فيضانات خطيرة بسبب العوامل الطبيعية • فعندما وصل «لوفتوس» أول عالم آثار عمل فى حفريات مدينة «وركا» القديمة فى الخامس من مليو عام ١٨٤٩ م وجد أن السكان فى أقصى حالات الفزع وتوقع الخطر ، ففى أعقاب ذوبان الثلج السريع على جبال الأكراد ، وتدفق المياه من نهر الفرات عبر قناة « السجلاوية» ارتفعت مياه دجلة فى ربيع هذا العام الى مستوى لم تصل اليه من قبل ، اذ بلغ ارتفاعها

العادى الذى كان يرتفع اليه النهر فى السنوات السالفة • بل انه ارتفع عن أقصى منسوب وصل اليه عام ١٨٣١ م ، عندما حطم النهر الجسور ، وأغرق مالا يقل عن ألف مسكن فى ليلة واحدة ، فى وقت كان الوباء ينشر أكبر خراب مروع بين السكان • وقبل وصول البعثة الانجليزية ببضعة أيام ، دعا الباشا التركى ، حاكم بغداد ، الشعب كله دعوة رجـــل واحد ليقوم علىحماية البلاد من الخطر الداهم بتشييد جسور حولالأسوار• فغرس الناس فى الأرض جدائل من البوص لكى تمسك التربة مســكا محكما ، وبذلك حيل بين الماء وبين تدفقه داخل البلاد ، وان كانت المياه قد تسربت الى الأرض الطينية الرخوة وارتفعت فى المطامير الى عدة أقدام • أما خارج المدينة فقد ارتفعت المياه الى قدمين فوق الشاطىء ولم يحل دون تدفق المياه داخل البلد سوى البيوت التى كانت تقف على الشاطىء ومعظمها كان واهيا ، بالغ القدم • لقد كان وقتا حرجا للغاية ظل الناس فيه ساهرين ليلا ونهرا يرقبون الحواجز •ولو كان الخزان أو احدى الحواجز قد فشلت فى حجز المياه ، لغرقت بغداد عن آخرها • ولكن التحصينات صمدت لحسن الحظ حتى انحسرت المياه تدريجيا • أما أطراف المدينة فقد غمرها الماء بحيث تعذر الوصول وراء الحواجز الا عن طريق القوارب التى استخدمت وسائل انتقال فى الأماكن التى غمرتها المياه • وهكذا ظلت المدينة لبعض الوقت كالجزيرة وسط بحر داخلى • وقد استمر الحال على هذا النحو مــدة شهر قبل أن يتمكن الناس من السير وراء الحواجز • وعند مقدم الصيف تسببت الأبخرةالمتصاعدة من المياه المتراكمة فى انتشـــار الملاريا على نطاق واسع بحيث مات من الناس الذين كان يبلغ عدهم سبعين ألفا ، مالا يقل عن اثنى عشر ألف نسمة بسبب الحمى •

فاذا كانت الفيضانات التى تتسبب عن ذوبان الثلوج فوق جبال ارمينيا من الممكن أن تهدد البـــلاد الواقعة فى وادى النهر حتى العصر الحديث ، فليس بعيدا أن نفترض أنها كانت تفعل هذا أيضا فى العصور

القزيمة ، ومن ثم فان الحكاية البـــابلية التى حكت عن دمار مدينـــة « شورييك » بسبب الطوفان ترتكز على أصل واقعى . حقا انه يبدو أن المدينة قد دمرت بسبب النار لا الفيضان ، ولكن هـــذا يتفق تماما مع افتراضنا أن الفيضان كان قد دمر المدينة فى عصر أكثر قدما ، ثم أعيد بناؤها بعد هـــذا .

وفى العموم ، فانه يبدو أن هناك سببا معقولا يدعونا لأن نفكر أن بعض حكايات الطوفان ، ومن المحتمل الكثير منها ، ليست سوى أخبار سبالغ فيها عن الفيضانات التى حدثت بالفعل ، أما بسبب الامطار الغزيرة أو بسبب الأمواج الثائرة التى تعقب الهزات الارضية أو لأى سبب آخر . ومن ثم فان مثل هذه الحكايات تعد مزيجا من الحقيقة والأســـطورة . فهى حقيقية بقدر ما تحتفظ بذكرى الفيضانات التى حدثت حقا ، وهى أسطورية بقدر ما تصف الفيضانات العالمية التى لم تحدث قط . على أننا صـــادفنا فى أثنـــاء عرضنا لحكايات الطوفان ، حكايات ذات نزعة أسطورية صرفة ، لأنها تتحدث عن طوفان لم يحدث قط . ومثال ذلك الحكايات « الساموثراسيانية » و « الشيساليانية » التى ربط الاغريق بينها وبين اسمى « داردانوس » و « دويكاليون » . ومن المحتمل أن الحكاية « الساموثراسيانية » ليست سوى استدلال خاطىء مستخلص من المعالم الجغرافية الطبيعية للبحر الأسود وحدوده ، ونعنى البوسفور والدردنيل . وبالمثل فان الحكاية « الفيساليانية » ليست سوى استدلال خاطىء مستخلص من الحقائق الجغرافية الطبيعية لحوض تسيساليان الذى تحيط به سلسلة من الجبال ، ويحده أخدود « تيمبى » . ومثل هذه الحكايات ليست حقيقية وانما هى أسطورية صرفة ، فهى تصف كوارث لم تحدث على الاطلاق . ولهذا فهى تعد نماذج من هذا النوع من الحكايات الأسطورية التى أطلق عليها « سير ادوارد تايلور » ، الحكايات التليلية حيث انها تعتمد على ملاحظة الظواهر الطبيعية ، وتخطىء فى تفسيرها .

وهناك مجموعة أخرى من حكايات الطوفان التى تتدرج تحت صنف

الاساطير التليلية ،وهى تلك الحكايات التى تعتمد على ملاحظة المخلفات الحيوانية والنباتية التى عثر عليها فوق الجبال وفى الاماكن النائية من البحر • ومثال هذا النوع كما رأينا ، ما روى عن سكان منغوليا وسكان « وسيليس » الذين يتحدثون اللغة البارية ، والتاهيتيين والاسكيمو ، وسكان جرينلاند • فحيث أن هذه الحكايات تعتمد عى فرض خاطىء مؤداه أن مياه البحر لابد أنها ارتفعت حتى غمرت المرتفعات التى عثر فوقها على المخلفات الحيوانية والنباتية ، فهى تعـد حكايات استلالال خاطئة ، أى أنها تندرج تحت صنف الأساطير التليلية • ولـو أنهم افترضوا هبوط هذه المرتفعات سالفا تحت سطح البحر ، لكان ذلك استلالالا حقيقيا ، أو حدسا علميا ••

ومن ثم فانه اذا كان هناك سبب معقول يجعلنا نعتقد أن كثيرا من حكايات الطوفان التى انتشرت فى لنحاء العالم ترتكز على ذكرى كوارث حدثت بالفعل ، فانه ليس هناك أدلة مؤكدة تجعلنا نعتقد أن أيا من هذه الروايات أقدم من ثلاثة آلاف سنة على الاكثر • وحيثما وجدنا روليات تصف التغيرات الكبيرة التى طرأت على شكل الكرة الأرضية ، وهى تغيرات حدثت فى زمن ما فى العصور الجيولوجية القديمة ، فان تلك الروايات لا ترتكز على سجل شاهد عيان معاصر لتلك التغيرات ، وانما ترتكز على تأملات مفكرين عاشوا فى عصور متأخرة عن عصور هذه التغيرات بزمن طويل • فالانسان ، بالقياس الى الملامح الطبيعية الهائلة لكوكبنا الأرضى ليس سوى ابن الأمس ، كما أن ذاكرته ليست سوى حلم ليـــلة ••

الفصل الخامس

برج بابـــل :

من بين المشكلات التى وقفت عقبة دون أية محاولة للبحث عن فجر تاريخ الجنس البشرى ، مسألة أصل اللغة وهى فى الوقت نفسه من أكثر المسائل اثارة وأكثرها صعوبة • على أن الكتاب الذين ضمنوا الفصول الاولى من سفر التكوين آراءهم الساذجة عن الأصول البشرية لم يذكروا شيئا عن الوسيلة التى يمكن أن يكونوا قد تصوروا أن الانسان قد حصل بهـــا على أهم القدرات التى تميزه عن الحيوان وهى القدرة على الكلام البين • بل انهم على العكس ، قد افترضوا فيما يبدو ، أن الانسان قد منح تلك القدرة التى لا تقدر بثمن ، منذ الأزل • نعم ، بل تصوروا أن هذه القدرة كانت قاسما مشتركا بين الانسان والحيوان ، اذا كان لنا أن نستدل على ذلك من خلال حديث الانسان مع الحيوان فى جنة عدن • ومهما يكن الامر ، فان اختلاف اللغات التى تحدثت بها الاجناس الانسانية المختلفة ، قد جذبت بطبيعة الحـــال أنظار العبريين القدماء وفسروهـــا من خـــلال الحكاية التالية •

كان الجنس البشرى بأسره ، يتحدث لغة واحدة فى بداية الحياة• ثم انتقل هؤلاء الناس بوصفهم بدوا ، على هيئة قافلة واحدة كبيرة من بابل ،وهناك حطوا رحالهم • وابتنوا مساكنهم من الطوب بعد أن الصقوا بعضه بالبعض الآخر بملاط من الطين ، حيث انه كان يتعذر عليهم الحصول على الأحجار فى التربة الرخوة للمسطحات المستنقعية الشاسعة • على أنهم لم يكتفوا ببناء مدينة ، بل رأوا أن يشيدوا برجا عاليا يصل الى عنان السماء من نفس المواد التى بنوا بها مساكنهم • والسبب الذى دفعهم الى بناء هذا البرج ، هو أن يكون البرج علامـــة

لهم من ناحية،وحتى لايتفرق الناس على سطح الأرض من ناحية أخرى. ذلك أنه اذا تجول أحدهم خارج المدينـــة وضـــل طريقه فى السهول المترامية ، فانه ينظر الى الوراء غربا ، فيرى من بعيد هذا البرج وهو يقف مظلما وقد انعكست عليـــه أضـــواء سمـــاء المساء البراقة. أو أنه ينظر شرقا فيبصر قمة البرج وقد انعكست عليه بقايا أشعة شمس الغـــروب . وعند ذاك يســـلك طريقـــه مسترشـــدا بهـــذا المعـــلم حتى يصل الى بيته. وقد كانت هذه الخطة سليمة ، لولا أنهم لم يكونوا قد وضعوا فى حسابهم قوة الرب وغضبه عليهم . فبينما كانوا يشيدون البرج بقواهم وسواعدهم الفتية ، هبط الرب من السماء ليبصر المدينة والبرج الذى كان الناس يعملون به فى سرعة فائقة . فساءه هذا المنظر وقال لهم : « ها هم أولاء شعب واحد له لسان واحد ، وهذا مـــا شرعوا فى عمله ، ولن يمنعهم شىء من تحقيق غرضهم » ويبدو أن الرب كان يخشى أنه عندما يكتمل بناء البرج ويصل الى عنان الســمـــاء يتسلقه الناس ويقضون مضجعه ، وهو الأمر الذى لـــم يفكر فيـــه الناس . ولذلك فقد عزم الرب على أن يقضى على هذه الخطـــة فى مهدها . وقال لنفسه أو لمجمعه السماوى « لنهبط الى الارض ونبلبل لغتهم حتى لا يفهم بعضهم بعضا » . وعند ذاك هبط الرب وبلبـــل لغتهم وفرقهم على وجه الأرض . ومن ثم فقد كف الناس عن بناء المدينة والبرج . وقد أطلق على هذا المكان اسم بابل ومعناه البلبلة ، لأن الرب قد بلبل فيه لغات الناس جميعا .

وقد زخرفت رواية عبرية متاخرة هذه الحكاية البسيطة بتفاصيل تصويرية غنية . من هذه التفاصيل نعلم أن فكرة تشييد بـــرج بابل لم يكن يقصد بها سوى التمرد على الاله، وان لم يتفق المتمردون على هدف واحد . فبعضهم كان يرغب فى ارتقاء السماء واعلان الحرب على شخص الاله ، واحلال أصنامهم محله . والبعض الآخر قصر هدفه على فكرة أكثر تواضعا ، هى الحاق الضرر بالقبو السماوى ، وذلـــك بضربه بالرماح والسهام . وقد ظل الناس يشيدون البرج عدة سنين

حتى شمخ عاليا ، وأصبح على البناء أن يقضى عاما كاملا فى سبيل الوصول الى أعلى البناء وهو يحمل وعاء الملاط فوق ظهره • فاذا هوى البناء ساقطا وكسرت رقبته ، لم يبال أحد بذلك ، انما ينفجر الجميع فى البكاء على الطوب الذى لم يستخدم فى استكمال بناء البرج ، اذ يتحتم عليهم أن ينتظروا عاما آخر حتى يتمكنوا من اضافة قوالب أخرى الى البناء • وقد كانوا يعملون فى حماسة بالغة الى درجة أن المرأة لم تكن تكف عن اعداد الطوب ساعة ولادة طفلها • فاذا ولدت الطفل ربطته حول بطنها بملاءة واستأنفت عملها فى تشكيل قوالب الطوب وكأن شيئا لم يحدث • وهكذا استمر العمل ليل نهار دون توان • وهناك من أعلى البرج صوبوا سهامهم نحو السماء ، فكانت سهامهم ترتد الى الذين يقفون أسفل البرج وهى ملوثة الدماء • وعند ذاك صاحوا قائلين • « لقد قتلنا كل من فى السماء » • وهنا نفذ صبر الرب وتوجه الى الملائكة السبعين الذين يحيطون بعرشه ، وأمرهم أن يهبطوا الى الأرض ويبلبلوا ألسنة الناس • وفعلت الملائكة ما أمروا به ، ونجم عن ذلك سوء تفاهم دائم ومؤلم بين الناس ، فاذا طلب رجل ، على سبيل لمثال ، الملاط من رجل آخر ، قدم اليه هذا قالبا من الطوب بدلا من الملاط ، فيغضب الأول ويقذف بقالب الطوب فى وجهه فيقتله • وهكذا مات كثير من الخلق على هذا النحو • ومن لم يمت عاقبه الرب جزاء جريمة التمرد التى دبرت ضده • أما عن البرج الذى لم يكن قد اكتمل بناؤه بعد ، فقد هوى جزء منه ، كما التهمت النار جزءا آخر ولم يظل واقفا منه سوى ثلثه • هذا ولم يفقد هذا المكان خاصيته العجيبة قط ، فكل من مر به نسى كل ما كان يعرفه •

ان مشهد هذه الاسطورة قد صور فى أرض بابل ، ذلك أن كلمة بابل هى الصيغة العبرية الوحيدة لاسم هذه المدينة • أما كون الكلمة هى الصيغة الشائعة المستخلصة من العقل « بلل » (بلبل بالآرامية) بمعنى بلبل ، فهذا خطأ • أما المعنى الحقيقى للكلمة ، كما يتضح من الصيغة التى دون بها الاسم فى المخطوطات فهو فيما يبدو « بوابة

الرب » (باب ــ ايل أو باب ــ ايلو) • وربما كان الشارحون على حــق فى ارجاع دافع الحكاية الأصلى الى التأثير العميق لهذه المدينة الكبيرة على عقول البدو الساميين السذج • فهؤلاء الذين كانوا قــد اعتــادوا الوحــدة وسكون الصحراء ، قد أذهلهم ضجيج الشــوارع والأسواق ، وبهرتهم الألوان المتغيرة فى الزحام المصطخب ، كمــا دهشوا لضجيج الأصوات التى تنطلق من السنة غريبة ، وذعروا لرؤية المبانى الشاهقة وبصفة خاصة تلك المعابد ذات الارتفاع الشاهق وهى تعلو طابقا فوق الآخر حتى كانت تبدو قممها البراقة المبنية من الطوب المصقول وكأنها تمس صفحة السماء الزرقاء • وليس بعيدا بعــد هذا أن يتصور ساكنو الخيــام أن هــؤلاء الذين تسلقوا هذا البرج الهائل عن طريق انحداراته الملتفة حتى كانوا يبدون فى النهاية كالذرة المتحركة على قمة البرج ، أنهم كانوا قد اقتربوا من الآلهــه بحق •

ولا تزال الآثار الترابية لمعبدين هائلين من هذه المعابد ترى حتى اليوم فى بابل • ومن المحتمل أن أسطورة برج بابل تتصل باحدى هذه المعابد أو بالآخر • ولا يزال أحد هذين المعبدين يبرز بين حطــام بابل نفسها ويحمل اسم بابل • أما المعبد الآخر فيقع حطامه عند النهر قرب « بورسيبا » على بعد ثمانية أو تسعة أميال جهة الجنوب الغربى ويعرف باسم « بيرز نمرود » • وقد كان الاسم القديم لهذا المعبد الذى كان يقع فى مدينة بابل ، هو « أى ــ ساجيل » (١)،وكان مخصصا لعبادة الاله « مردوك » • أما الاسم القديم للمعبد الذل كان يقع قــرب « بورسيبا » فهو « اى ــ زيدا » وكان مخصصا لعبادة الاله « نبو »• ولم يتفق الباحثون حول أى من المعبدين كان فى الأصل هو برج بابل ، فالحكاية المحلية واليهودية تربط بين البرج الأسطورى وحطام«بئر نمرود» الذى يقع عند « بورسيبا » • ونحن نعلم من مخطوط عثر عليه فى هذا المكان ، أن الملك البابلى القديم الذى بدأ فى بناء بــرج

---

(١) كلمة اى فى اسمى المعبدين سومارية ومعناها بيت .

المعبـــد عند « بورسيبا » ، تركه ناقصا بدون قمة • وربما كان منظر هذا الصرح الهائل فى شكله غير المكتمل هـــو الدافع وراء نشأة اسطورة برج بابل ••

وعلى كل ، فقد كان فى بابل الكثير من أبراج المعابد ، وربما كانت الأسطورة ترتبط بأحد هذه الأبراج • فحطام مثل هذه المعابد ، على سبيل المثال ، لا يزال قائما فى « أورو » أو « أور الكلدانيين » التى هاجر منها ابراهيم ، فيما يقال ، الى أرض كنعـــان • ويعرف هذا المكان الآن باسم « المقير » أو « المجير » وهو يقع على الشاطىء الأيمن لنهر الفرات على بعد خمسة وثلاثين ميلا جنوب شرق بابل • ولا تزال مجموعة من الروابى المنخفضة ذات الشكل البيضاوى تشير الى مكان المدينة القديمة • وأرض هذه المدينة التى تلتف حول الروابى مسطحة للغاية بحيث ان مياه فيضان نهر الفرات كثيرا ما تغمرها فى الفترة ما بين شهر مارس الى شهر يونيه أو يوليه • وعند ذاك تبرز هـــذه الروابى كالجزيرة وسط مستنقع كبير ، ولا يمكن الوصول اليهـــا الا بواســطة القوارب • وتمتد أشجار النخيل على طول شـــاطىء النهر دون انقطاع حتى تختفى فى الخليج الفارسى • وبالقرب من الطرف الشمالى لهذا المكان ، تشمخ أطلال برج المعبد الى ما يقرب من سبعين قدما • ويتكون هذا الصرح من طابقين فى شكل متواز قائم الزوايا يتجه جانباه الكبيران جهة الشمال الشرقى والجنـــوب الغربى ويبلغ طول كل منهما حوالى مائتى قدم • أما الجانبان الأصغران فيبلغ طول كل منهما مائة وثلاثين قدما • وتتجه احدى زوايا الصرح جهة الشمال تقريبا ، كما هو الحال فى جميع الابنية المماثلة له • ويرتكز الطابق الأسفل الذى يبلغ ارتفاعه سبعة وعشرين قدما على دعائم قوية • أما الطابق العلوى الذى يبتعد عن طرف الطابق الأسفل بحوالى ثلاثين الى سبعين قدما ، فيبلغ ارتفاعه أربعين قدما وتتوجه أنقاض من الطوب يبلغ ارتفاعها خمسة أقدام على وجه التقريب • أما مرتقى هـــذا الصرح فقد كان من جهة الشمال الشرقى • ويشـــير نفق محفور فى

الرابية الى أن الصرح كله كان مبنيا من الداخل من الطوب المجفف فى الشمس ، تحيط به طبقة سميكة بعضها من الطوب المحروق ذى لـون أحمر فاتح ، وتفصل بين بعضه وبعض عيدان القاب • ويبلغ سمك هذا كله عشرة أقدام حيث انه مغلف بحائط مرصع بالطوب المحروق فى الأقران • وقد عثر على سطوانات محفور عليها كتابات فى الزوايا الأربع من هذا المبنى ، وكل اسطوانة كانت موضوعة فى كوة هى عبارة عـن قالب منزوع من الطوب • وقد أثبتت الحفريات التى تمت بعد ذلك أن الكتابات التذكارية على هذه الاسطوانات ، فيما يبدو ، كان البناءون أو الذين يقومون بترميم المعابد البابلية والقصور يضعونها فى أركان الصروح الأربعة •

وقد علمنا من احدى هذه الكتابات أن المدينة اسمها « أور » ، وأن المعبد قد خصص لعبادة الاله « سين » اله القمر البابلى (١) • كما علمنا أن لملك أور ـــ أوك أو «أورينجور» ، كما ينبغى ان ينطق اسمه الذى شيد برج المعبد ، قد تركه غير كامل ، وان هذا الصرح قد أكمله ابنه الملك « دونجى » من بعده • ويختلف تاريخ حكم الملك « أور ـــ أوك » أو « أورينجور » ، فهو يتحدد بعام ٢٧٠٠ ق•م• أو بعام ٢٣٠٠ ق•م• وفى كلتا الحالتين فان بناء المعبد قد سبق التاريخ الذى يحدد عادة لميلاد ابراهيم ، ربما بمئات من السنين • فاذا كان ابراهيم قد هاجر حقا من « أور » الى « كنعان » ، كما تذكر ذلك الرواية العبرية، فان هذا البناء بعينة الذى ما تزال آثاره المقدسة قائمة بهـذا المكان حتى اليوم ، والذى كان مسيطرا بارتفاعه الشامخ على طبيعة البلاد المسطحة التى يخترقها نهر الفرات متجها الى البحر ـــ كان يألفه ابراهيم منذ نعومة أظفاره ، وربما كان آخر ما وقـــع عليه بصره فى بلـده ، عندما رحل ليبحث عن أرض الميعاد ، فودعه وهـو ينظر وراءه الى وطنه ، والصرح يختفى على البعد وراء غابات النخيل •

---

(١) هو الاله الذى تحمل اسمه شبه جزيرة سيناء فى الأراضى المصرية •

ولم يذكر كاتبو سفر التكوين شيئا عن طبيعة اللغة المألوفة التى كان يتحدث بها الجنس البشرى كله قبل أن تتبلبل السنته ، تلك اللغة التى يفترض أن أبوينا الأولين قد تحدثا بها مع بعضهما بعضا ، ومع الحية ، ومع الرب فى جنة عدن • وقد افترض جدلا فى العصور المتأخرة أن اللغة العبرية كانت هى الأولى للجنس البشرى • ويبدو أن آباء الكينسة لم يعارضوا هذا الرأى • وفى العصر الحديث عندما كان عـلم اللغة ما يزال فى مهده نشيطا وان كان ناقصا ، بذلت الجهود لارجاع كل أشكال اللغات الانسانية الى اللغة العبرية على اعتبار أنها أصل هذه اللغات • ولم يختلف الباحثون المسيحيون فى تبنى هـذا الفرض الساذج ، عن علماء الأديان الاخرى ، الذين رأوا أن لغة كتبهم المقدسة لم تكن لغة آبائهم الأولين فحسب ، وانما كانت لغة الالهة أنفسهم • وقد كان أول من وخز هذا الرأى بطريقة مؤثرة هو «ليبنتز » ، الذى لاحظ « أنه كما أن هناك من الأسباب مايدعو لافتراض أن اللغة العبرية هى اللغة الاولى للجنس البشرى ، فان هناك من الأسباب كذلك مـا يدفعنا الى تبنى وجهة نظر « جوروبيوس » الذى نشر مؤلفـا فى « آنتويرب » عام ١٥٨٠ يثبت فيه أن اللغة الهولندية هى اللغة التى كان يتحدث بها آدم فى الجنة » وهناك كاتب آخـر ادعى أن اللغة التى كان يتحدثبهاآدم فى الجنة هى اللغة الباسكية (١)•وتحدى آخرون الكتاب المقدس صراحة وادعو أن اللغات المختلفـة كانت موجودة فى جنة عدن نفسها ، فآدم وحواء كانا يتحدثان اللغة الفارسية ، كما كانت الحية تتحدث اللغة العربية وأما جبرائيل الملك المفضل فقـد تحدث مع أبوينا الأولين باللغة التركية • وهناك باحث شاذ آخـر ، يرى جديا أن الرب قد تحدث الى آدم باللغة السويدية ، وان آدم أجاب خالقه باللغة الدانمركية وان الحية تحدثت مع حواء باللغة الفرنسية كل هذه النظريات منشؤها التعصب الوطنى والتنافر بين علمـاء اللغات •

---

(١) الباسكيون هم شعب مجهول الأصل يقطن مناطق البرانس الغربية .

وتحكى قبائل افريقية عديدة حكايات تتشابه مع أسطورة برج بابل فى وجوه محدده • فبعض أهالى زمبيزى الذين يسكنون فيما يبدو بجوار سلالات فيكتوريا ، يحكون حكاية تتصل بحكاية بناء برج بابل لكنها تنتهى بأن البنائين الجرآء انفلقت رءوسهم عندما سقطت بهم السقالات » وهذه الحكاية التى رواها دكتور « لفنجستون » بايجاز ، دونها مبشر سويسرى فى شكل أكثر اكتمالا • فقبيلة « أ ــ لوبى » التى تسكن عند أعالى نهر الزمبيزى، تحكى أن آلههم ، نيان بى « الذى يعد اله الشمس عندهم ، تعود فى سالف الزمن أن يسكن فى الأرض ، ثم صعد الى السماء بعد ذلك متسلقا خيوط العنكبوت • وهناك تحدث الى الناس من عليائه وقال لهم آمرا : « اعبدونى » • فتحدث الناس الى بعضهم بعضا وقالوا : « دعونا نقتل الاله نيانبى » • فذعر الاله لتهديدهم ولاذ هاربا الى مسكنه السماوى الذى كان قد هبط منه من قبل • وعند ذاك قال الناس : « لنتصب الآن أعمدة نصل عن طريقها الى السماء » فنصبوا أعمدة ربطوها بأعمدة أخرى تعلوها ثم أخذوا يتسلقونها • فما أن وصلوا الى ارتفاع كبير حتى سقطت بهم الأعمدة ، وهووا صرعى الى الارض ، وكانت هذه هى نهايتهم • وتحكى قبيلة « بامبالا » التى تسكن فىالكنغو ، أن « الوانجونجيين » رغبوا ذات مرة أن يروا القمر على حقيقته • فدكوا عمودا فى الأرض تسلقه رجل يحمل عمودا آخر فى يده ثبته فى نهاية العمود الأول ، ثم صعد رجل آخر يحمل عمودا ثالثا ثبته فى العمود الثانى ، وهكذا حتى وصل البرج الى ارتفاع كبير للغاية بحق ، اذ أن كل فرد من أفراد الشعب تسلق ومعه عمود ربطه بالعمود الأخير • ثم هوى هذا الصرح فجأة ، فهوى الأهالى صرعى وراحوا ضحية حب استطلاعهم الطائش • ومنذ ذلك الوقت لم يحاول أحد أن يتعرف على القمر • ويحكى أهالى « مكولوى » الذين يسكنون فى شرق أفريقيا حكاية شبيهة بالحكاية السالفة • فقد قال الناس ذات يوم لبعضهم بعضا ، وذلك وفقا لرواية هؤلاء الاهالى :

« دعونا نبنى بناء عاليا حتى نصل الى القمر » • وعنـــد ذاك غرسوا شجرة ضخمة فى الأرض ، ووضعوا فوقها شجرة ثانية وثالثة وهكذا حتى هوت بهم الاشجار وقتل بعض الاهالى • فقال بعضهم الاخر: « لا تيأسوا من هذه المحاولة » • فرصوا الاشجار بعضها فوق بعض حتى هوت بهم وقتلوا هم كذلك • وعند ذاك كف الناس عن محاولة الصعود الى القمر • ويحكى الأشانطيون أن الاله القديم كان يعيش بين الناس ، ولكن امرأة عجوزا الحقت به الاهانة ، فصعد غاضبا الى مسكنه فىالسماء • فحزن الناس لفراقه وقروا أن يبحثوا عنـــه • فأخـــذوا يجمعون أرجل الخنازير ورصوا بعضها فوق بعض • فلمـــا علا برجهم وكاد أن يصل الى السماء ، اكتشفوا فى فزع أن ما لديهم من أرجل الخنازير لا يكفىلاتمام البرج • فماذا يفعلون؟ عند ذاك هب رجل حكيم وهم فى هذا المأزق ،وقال لهم : « ان المســـألة فى غاية البساطة • خذوا الرجل السفلى وضعوها فوق العليا ، واستمروا فى هذا الفعل حتى نصل الى الاله » • فلما بدءوا ينفذون اقتراحـــه ، وانتزعوا الرجل السفلى ،هوى البرجكما يمكن أن نتوقع•على أنبعض الأهالى يعزون سقوط البرج الى النمل الأبيض الذى أخذ يقرض الارجل من أسفل • وعلى كان فان الاتصال بالسماء لم يتم ولم يتمكنـــوا قط من الصعود الى الاله •

ويحكى فى المكسيك عن بناء هرم « كولولا » ، أضخم عمل للسكان الأصليين فى أمريكا بأسرها ، حكاية شبيهة بحكاية الكتاب المقدس عن برج بابل • ويقع هذا العمل الضخم الذى مازال المسافر فى العصر الحديث يقف أمامه متأملا اياه فى اعجـــاب ، بالقرب من المدينة الحديثة الأنيقة « بوبيلا » ، فى الطريق من « فيراكروز » الى العاصمة •هذا الهرميشبه فى شكله الاهرام المصرية ، ولكنه يضارعها فى أبعاده • ويبلغ ارتفاع سطحة المنحدر حوالى مائتى قدم ، أما قاعدته فيبلغ طولهـــا ضعف قاعدة هرم خوفو • ويتخذ هذا الهرم شكل الـــ « تويكاليس » المكسيكى ، أى أنه هرم اقطع • وتتجه جوانبه الاربع نحو الجهـــات

الأصلية ، كما أنه يتكون من أربعة مصاطب • على ان خطوطه الأصلية انمحت بمرور الزمن وبتأثير الجو ، بينما أصبحت الشجيرات الكثيفة والأشجار تغطى سطحه ، بحيث يبدو وكأنه تل طبيعى أكثر منه رابية صنعتها يـــد الانسان • وهذا الهرم مشيد من الطوب الأحمر الملصوق بالملاط الذى عشقت فيه قطع الأحجار الصغيرة وأجزاء من السكاكين والأسلحة المصنوعة من الزجاج البركانى الاسود • وبين قوالب الطين وضعت طبقات من الصلصال • وتطل قمة هذا الهرم المسطحة التى تبلغ مساحتها حوالى الفدان على منظر رائع ، هـــو منظر الوادى الخصب المترامى الأطراف الذى تحيط به الجبال البركانية الضخمة التى تغطى منحدراتها المنخفضة الغابات الكثيفة • أما قمتها الرخامية فهى عارية ومجدبة ، وتغطى أعلى أجزائها الثلوج على مدار السنة •

وقد دون المؤرخ الأسبانى «دوران» الأسطورة التى تتعلق بهذا الصرح الضخم فكتب عام ١٥٧٩ يقول : « فى بداية خلق الحياة ، كانت الأرض مظلمة عابسة قبل أن تخلق الشمس والقمر ، كما كانت خلوا من كل المخلوقات ومسطحة ليس بها جبال أو تلال أو أشجار وتحيط بهـــا المياه من كل جانب • فلما خلقت الشمس وبزغت من الشرق ، ظهر بعض الناس على سطح الأرض فى هيئة شياطين غلاظ وأصبحوا أصحاب الأرض • ثم دفعهم الفضول لأن يبصروا الشمس وهى تشرق وتغرب • فاتفقوا فيما بينهم أن يذهبوا للبحث عنها • فقسموا أنفسهم الى مجموعتين ، المجموعة الأولى اتجهت الى الشرق والأخرى الى الغرب وظلوا سائرين حتى وقفوا عند شاطىء البحر • وعند ذاك قرروا أن يعودوا من حيث أتوا • فوصلوا الى المكان الذى يسمى « ازتاكشولين أنيمينيان» •ولما احتاروا فى طريقةتوصلهم الى الشمس التىاستمتعوا بدفئها وجمالها ، قرروا أن يشيدوا برجا عاليا تصل قمته الى السماء • وبينما كانوا يبحثون عن مواد للبناء عثروا على طين وقار ســـــميك استعانوا بهما على العمل فى تشييد البرج • فلما ارتفعوا به عاليا حتى كاد أن يصل الى عنان السماء ، غضب منهم الاله وقال لساكنى الجنة:

هل رأيتم كيف شيد سكان الأرض هذا البرج الشامخ وأصابهم الزهـو فشاءوا أن يتسلقوه اذ بهرتهم الشمس بضوئها وجمالهـا ؟ دعونا الآن نفرقهم فى الأرض ، اذ لايصح أن يختلط بنا البشر بأجسامهم الدنيوية » • وفى لمح البصر كان سكان السماء منتشرين فى جهـات الأرض الأربع ، وحطموا الصرح الذى شيده الناس بضربة كالصاعقة • عند ذاك فزع هؤلاء المعالقة وملأهم الرعب وتفرقوا فى كل جهـات الأرض •

ولايتمثل تأثير حكاية الكتاب المقدس على هذه الحكاية فى تفـرق مشيدى البرج فى انحاء العالم فحسب ، وانما يتمثل كذلك فى بنـاء البرج من الطين والقار • اذ بينما نجد أن برج بابل قد شيد ، كمـا قيل ،من هاتين المادتين ،نجد أن المكسيكيينلم يستخدموا قط مادةالقار فى مثل هذا الغرض ، هذا فضلا عنأن القار لا وجود له فىأى مكانقريب من « كولولا » •« على أنه يبدو أن حكاية بلبلة الألسنة قد انتشرت فى المكسيك بعد غزو الأوربيين لها بزمن قصير ، اذ أنه من المحتمل أنها قد ذاعت بتأثير المبشرين • ولايبدو أن الحكاية العبريـة لها صـلة بأسطورة برج « كولولا » • ولكنه من المحتمل على الأقل أن هنـاك حكاية شبيهة بحكاية الكتاب المقدس مدونة فى قائمة « جيميلى » للمهاجرين المكسيكيين ، تلك القائمة التى نسخت فى « هومبولت » • وتحكى هذه الحكاية أن طائرا كان يقف على شجرة أرسل عددا من اللغات الى حشد من الناس كانوا يقفون أسفل منه » • وربما كان « تايلور » على حـق فى اتهام أسطورة « كولولا » بأنهـا « ليست أصيلة ، أو أنهـا على الأقل جزء من تلفيق متأخر » •

وربما انطبق مثل هذا الحكم على حكاية تروى عن قبيلة «كارن» فى « بورما » ، وهى قبيلة أبدت ميلا غريبا لاستعارة الحكاية المسيحية بعد أن كانت تخلع عليها طابعا محليا شفافا • وتجرى حكاية بـرج

بابل كما ترى عن «الجايكهوويين » ، وهم فرع من هذه القبيلة ، على النحـو التـــالى :

« يرجع « الجايكهوويون » سلسلة نســبهم الى آدم • وعندما بنى برج بابل كان قد تناسل منهم ثلاثون جيلا ، وفى هذا الوقت انفصلوا عن « الكاريين الحمر » • وفى عصر « بان ــ ان ــ مان » ، استقر رأى هؤلاء على أن يشيدوا هيكلا متعدد الأدوار يصل الى عنان السماء • أمـــا المكان الذى شيد فيه هذا الهيكل فهو ، فيما يرون ، كان يقع فى مكان ما فى بلاد « الكاريين الحور » • وقد كان الكاريون ، كمـــا يذكرون ، على صلة بهذا المكان حتى زمن حادث هذا البرج • ولمـــا أتموا بناء نصف هذا الهيكل ، هبط الاله من السماء وبلبل السنةالناس، بحيث لم يعـــد بعضهم يفهم البعض الاخر • ومن ثم تفرق الناس ، واتجه « ثان ــ ماو رأى » جد قبيلة « جايكو » جهة الغرب ومعـــه ثمانية من الزعمـــاء ، واستقر فى وادى « سيتانج » •

وقد عادت حـــكاية برج بابل وبلبلة الألسن الى الظهور بين قبيلة « ميكير » احدى قبائل « التبت البورمانية » المتعددة التى سكنت فى أسام •فهم يقولون أن نسل « رام » كان قويا فى الزمن القديم • ولما لم يقتنع هؤلاء بسيادتهم على الأرض ، فكروا فى غزو السماء • ومن ثم فقد بدءوا فى تشييد برج يوصلهم الى السماء • وأخذ البرج يعلو تدريجيـــا حتى خشـــيت الآلهة والشياطين أن يسيطر هؤلاء المردة على السماء كما سيطروا من قبل على الأرض الأربعة • فبلبلت الآلهة ألسنتهم وشتتهم فى أركان الأرض الأربعة • ومن ثم فقد تعددت لغات الجنس البشرى • ومرة أخرى نجد الحكاية القديمة بعينها تنتشر فى شـــكل خفى بعض الشىء بين « الأيســلنديين » و « الأ ميراليين » فهم يقولون : ان تعداد أسرة أو قبيلة « لوهى » كان يبلغ مائة وثلاثين نسمة ، وكان زعيمهم يسمى « مويكيو » • ثم قال هذا الزعيم لقومه « دعونا نشـــيد بيتا يطـــاول السماء » • فبدأوا فى تشـــيد هـــذا البيت • وما كادوا يقتربون من السماء حتى أتاهم رجل من « كالى »

يدعى « بواوى » منعهم من الاستمرار فى بناء البيت وقال « لويكيو» : « من الذى أمرك أن تشيد بيتا عاليا على هـذا النحو ؟ » • فأجـاب مويكيو انني زعيم اللوهيين • ولقد قلت لقومى : « دعونا نشيد بيتا يطاول السـماء » • ولو كنت طوع ارادتى ، لشـيدت بيوتنـا جميعا عالية تطاول السماء • أما الآن ، فقد نفذت رغبة قومى ، وأصبحت البيوت منخفضة » • وبعد أن انتهى من كلامه نثر الماء على قومه ، فتلبلت السنتهم ، ولم يعد الواحد منهم يفهم الآخر ، وتفرقوا فى بقاع الأرض ، وبذلك أصبح لكل بلد لغته • وقد لايساورنا أدنى شك فى أن هذه الحكاية ليست سوى صدى لتعاليم المبشرين المسيحيين •

على أن هناك غير قليل من الشعوب حاولت أن تفسر اختلاف اللغات عن طريق حكايات لا تمت لحكاية برج بابل بسبب أو بأية حكاية أخرى تشبهها فى تكوينها المعمارى • فقد حكى الاغريق أن النـاس عاشوا أحقابا طويلة فى سلام • ولم يكونوا آنذاك يعيشون فى مدن أو يحكم بينهم قانون سوى حكم الاله زيوس ، ولا يتحدثون سوى لغة واحدة • ولكن الاله «هرمس» ، جعل لغة الناس مختلفة فقسم الجنس البشرى الى شعوب • فلما دب النزاع بين الناس فى بادىء الأمر ، استاء « زيوس » لخلافاتهم ، فاعتزل العرش وتركه للبطل اليونانى « قورونيوس » ، أول ملك حكم من بين النـاس • وتحكى قبيلـة « واسانيا » التى تسكن افريقيا الشرقية البريطانية ، أن القبائل كلها لم تكن تتحدث فى الزمن القديم سوى لغة واحدة • ثم حدثت مجاعة قاسية أصابت الناس بالجنون ، فتفرقوا فى كل بقاع الأرض وهـم يثرثرون بألفاظ غريبة ، فنشأت اثر ذلك اللغات المتعددة • وتفسر قبيلة « كاششاناجاس » ، وهى قبيلة تسكن التلال فى أسام ، اختلاف اللغات على نحو آخر • فقد كان الناس جميعا ، وفقا لروايتهم ، جنسا واحدا قدر لهم بعد ذلك أن ينقسـموا الى أمم متعددة • وقد كان للملك الذى كان يحكم بين الناس ابنة تدعى « ستيولى » ، وكانت تتميز بسرعة معجزة فى السير • وكانت«ستيولى»تحب التجول فى الأحراش طوال النهار بعيدا

عن البيت ، الأمر الذى كان يسبب قلقا لأبويها ، اذ كانا يخشيان أن تفترسها الوحوش • وذات يوم فكر أبوها فى حيلة لييقيها فى البيت ، فأرسل فى طلب سلة مملوءة ببذر الكتان ، ثم نثر الحب على الأرض ، وأمر ابنته أن تجمع البذور بذرة بذرة وتضعها فى السلة وتعدها فى الوقت نفسه • ثم تراجع عنهـــا وهو يحسب أن هذا العمل سيشغلها اليوم كله ولكن الفتاة فرغت من العمل عند الغروب • وعدت الحبوب ووضعتها فى السلة ، ثم أسرعت على التو الى الأحراش فلما عاد والداها وتفقداها ، لم يعثرا لها على اثر • فأخذا يبحثان عنها أياما عديدة حتى اعترض طريقهما تنين مهول كان يأكل فى نهم فى ظل الأشجار • فاجتمع النـــاس حول التنين وطعنوه برماحهم وسيوفهم • وما أن فعلوا هذا حتى تغيرت أشكالهم ووجدوا أنفسهم يتحدثون لغـــات مختلفة • ثم انفصلت كل جماعة تتحدث لغة واحدة عن الجماعات الأخرى ، وأصبحت هـــذه الجماعات المختلفة اجدادا للأمم المختلفة التى تعيش الآن على وجه الأرض • على أن الحكاية لم تذكر شيئا بعد هذا عن الأميرة ومصيرها وعما اذا كانت قد عادت لوالديها الحزينين أم أن التنين قد ابتلعها •

ويفسر « الكوكيون » فى « مانييور » وهم عنصر آخر يسكن تلال « أسام » ، اختلاف اللغات فى قبائلهم من خلال الرواية التالية : كان ثلاثة أحفاد لزعيم بعينه يلعبون معا ذات مرة داخل البيت ، عندما طلب منهم جدهم أن يصطادرا له فأرا • وبينما كانوا منصرفين الى اصطياد الفار أصيبوا بلعثمة فى ألسنتهم ، وأصبح كل منهم يتحدث لغـــة لا يفهمها الآخر ، ولذا فقد هرب منهم الفـــأر • أما أكبر هؤلاء الأخوة فقد تحدث اللغة « اللاميانجية » ، وأما الأوســـط فقد تحدث اللغـــة « التادوية » • وأما الثالث فقد قيل أنه تحدث اللغة « الوفيبية » ولكن البعض يعتقد أنه قد تحدث بلسان « انكونترباى » التى تسكن فى جنوب استراليا أصل اللغـــات الى امرأة عجوز حادة المزاج ، توفيت منـــذ زمن بعيد • وقد كان اسم هـــذه المرأة « وروري » ، وكانت تسكن جهة الشرق ، وتسير فى العادة وهى تحمل عصا فى يدها تفرق بـــه النار التى ينام الناس من حولها • فلما ماتت ابتهج الناس لتخلصهم منها ، الى درجة أنهم أرسلوا الرسل فى كل مكان لتعلن نبأ وفاتها •

ومن ثم فقد اجتمع الرجال والنساء لا لتأبينها ، ولكن ليبتهجوا بموتها ويقيمون وليمة كانيبالية • كان « الرامينجيراريون » هم أول من سقطوا على الجسد وأخذوا يلتهمون لحمه • وما كادوا يفعلون هذا ، حتى أخذا يتحدثون لغة واضحة • أما القبائل الأخرى التى كانت تسكن جهة الشرق ، فقد وصلت متأخرا ، ومن ثم فقد أخذت تلتهم الأمعاء ، ولهذا فقدأخذت تتحدث بلغة تختلف بعض الشىء عن لغة القبيلة الأولى وما لبثت أن وصلت القبائل التى تسكن جهة الشمال فى نهاية الأمر ، فأتت على سائر الأمعاء وما تبقى من الجسد ، فتحدثت بلغة تختلف عن لغة « الرامينجيراريين » • أكثر من اختلاف لغة القبائل الثانية منها •

ويحكى الهنـــود الماندين فى كاليفورنيا أن الناس جميعـــا كانوا يتحدثون لغـــة واحـــدة حتى زمن معـــين • وبينما كان الناس يشعلون النار ، وكان كل شىء معدا لليوم التالى ، أخـــذ كل منهم فى الليل يتحدث بلغة لا يفهمها الآخر ، وان كان كل زوجين كانا يتحدثان بلغة واحدة • وفى تلك الليلة ظهر الاله الذى يسمونه « الأرض الأول » لرجـــل بعينه اسمه « كوكسى » ، وأخبره بما حدث ، وأرشده الى ما ينبغى عمله فى اليوم التالى عنـــدما يبدأ الناس يتحدثون لغـــات مختلفة• ومن ثم فقد جمع « كوكسى » الناس جميعا وتحدث اليهم ، اذ كان يعرف اللغات جميعا ، فعلمهم أسماء الحيوانات المختلفة ، وغيرها من أسماء الأشياء باللغات المتعددة كما علمهم كيف يطهون طعامهم ويقتنصون حيواناتهم ، وشرع له القوانين ، وحدد لهم أوقات الرقص والاحتفالات• ثم سمى كل قبيلة باسمها ووزعم فى جهات الأرض المختلفة بعد أن حدد مكانا لسكنى كل منها • قد سبق أن رأينا أن « التيلينجيين » فى «ألاسكا» يفسرون اختلاف الالسنة من خـــلال حكاية الطوفان التى ربما أخذوها عن المبشرين المسيحيين أو من التجار • وقد حكى « الكويتشيون » فى « جواتيمالا » عن زمن ما فى بداية الحياة ، كان الناس فيه يعيشون معا ويتحدثون لغة واحدة ، ولا يعرفون آنذاك عبادة الحجر أو الخشب، ولا يذكرون سوى كلمة الخالق « قلب السماء والأرض » •وبمرور الزمن

تكاثرت القبائل وتركوا موطنهم الأصلى ووصلوا الى مكان يسمى « تولان » • وهناك فى المكان ، وفقا لرواية « الكويتشيين » تغيرت لغة القبائل ، ونشأت اللغات المختلفة • وعند ذاك لم يعد الناس يفهم بعضهم وتفرقوا فى بقاع الأرض بحثا عن مساكن جديدة لهم •

هذه الحكايات الأخيرة التى تنحو الى تفسير اختلاف الالسنة لا تمت بحكايات برج بابه بسبب • ومن ثم فاننا يمكننا أن نعدها باستثناء الحكاية التيلنجية ، حكايات مستقلة حاول العقل الانسانى عن طريقها أن يتصارع مع المشكلات المعقدة ، مهما يكن مقدار النجاح الذى أحرزه فى سبيل حلها •

فهـــــــــرس

الموضـــــــوع	الصفحة
مقدمة بقـــلم المترجمة	٣
مقدمة الطبعة المختصرة	٢٣
الباب الأول	
عصر الحياة الأولى	٧٧
الفصل الأول	
خلق الانســـــان	٧٩
الفصل الثانى	
ســـــــقوط آدم	١٠٥
الفصل الثالث	
علامـــــة قابيـــــل	١٣٧
الفصل الرابع	
الطـــوفان الكبير	١٥٩
الفصل الخامس	
برج بابل	٢١٧

رقم الايداع ١٦٥٢ لسنة ١٩٨٢

مطابع سجل العرب